رسائل جامعية (٤٢)

عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها في ضوء القرآن الكريم

دراسة موضوعية

تأليف

د. عبد المنعم بن حواس بن محمد الحواس

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها

في ضوء القرآن الكريم

دراسة موضوعية

جَميع الحُقوق محفُوظة

الطّبعة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢٥هـ لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر

دار ابن الجوزي

للنّشر والتّوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام ـ شارع ابن خلدون ـ ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٨٩ ـ ٨٤٦٧٥٩٣،
ص ب: ٢٩٨٢ ـ الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ ـ الرياض ـ ت: ٤٢٦٦٣٣٩ ـ الإحساء ـ الهفوف
ـ شارع الجامعة ـ ت: ٥٨٨٣١٢٢ ـ جدة ـ ت: ٦٥١٦٥٤٩ ـ ٦٨١٣٧٠٦ ـ بيروت ـ هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
ـ فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ ـ القاهرة ـ ج.م.ع ـ محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ ـ تلفاكس: ٠٢٢٥٦١٤٧٣
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان رحمة للعالمين، وجعله مناراً للمهتدين، ونوراً للمستضيئين، وشفاءً للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، وعافية للأبدان من عللها وأسقامها، وأودعه من فنون الحِكَم والأحكام والعلوم والمواعظ والآداب ما فيه هداية البشرية وسعادتها في الدارين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى بنوره من الضلالة، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به قلوباً غُلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صُمًّا، صلَّى الله عليه وعلى آله الأصفياء الأطهار، وعلى صحابته النجباء الكرام، وعلى التابعين المقتفين الآثار، ومن سار على هديه واتَّبع سنته إلى يوم المعاد، أما بعد:

فإن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، وإن أحق ما يتعلمه المتعلمون، وأشرف ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون؛ مدارسة كتاب الله، والكشف عن علومه وحقائقه، وتجلية محاسنه، والاسترشاد بهداياته وبصائره، فهو منبع كل علم وحكمة، ومربع كل هدي ورحمة، وهو أجلّ ما استنار به السالكون، وأقوى ما تمسك به المتمسكون، من سلك سبيله فقد سار على طريق قويم، ومن اتَّبعه فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

فكتاب الله الكريم أشرف ما صرفت إليه الهمم، وأعظم ما نطق به

لسان وجال فيه فكر ومدَّ به قلم، فقد أنزله الله على نبيه محمد ﷺ بأحسن بيان وأجمل عبارة وأبلغ دلالة وهداية، غير أن الغاية العظمى من إنزاله هي تدبره والعمل بمقتضى أحكامه وشريعته، والاعتبار بقصصه وأخباره، والاستنارة بتوجيهاته وهداياته ومقاصده، والتفكر في آياته ومعانيه، فهو كتاب هذه الأمة المباركة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهو السبيل إلى عزها ونصرها وسموها، وقد أودعه الله ـ تعالى ـ من المعاني والتوجيهات والهدايات ما تتحقق به سعادة البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كان سلف هذه الأمة المباركة يستلهمون هدايات هذا الكتاب العظيم وتوجيهاته، ويستنبطون منه الأحكام والتشريعات، ويتدبرون معانيه، ويعتبرون بأحداثه وقصصه، ويتخلقون بأخلاقه، ويطبقونه في واقع حياتهم علماً وعملاً، وقد ظل المسلمون الأوائل على هذا المنهج القويم، يفهمون القرآن على حقائقه وصفائه، ويعملون به على بيّنة من هديه وضيائه، فحصل لهم من العزة والكرامة والسيادة ما سموا به على سائر الأمم، وتحقق لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

ويجدر بالأجيال المعاصرة من هذه الأمة أن يقتدوا بذاك الرعيل الأول في الاهتداء بكتاب الله ـ تعالى ـ واستلهام هداياته وتدبر معانيه والاحتكام إليه، والتخلق بأخلاقه والاعتناء بعلومه ومعارفه، واكتشاف كنوزه ودُرره، والسير على هديه في سائر الأحوال. وحين يكون هذا المنهج هو السبيل الذي يسلكونه في التعامل مع كتاب الله تعالى، فإنهم قد أخذوا بأعظم شريعة، وأكمل نظام، وأصدق مرشد للأمة في تخبطها وضعفها وهوانها الذي تعيشه في عصرها الحاضر.

ولما كنت أحد طلاب الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه وكنت بصدد اختيار موضوع رسالة الماجستير فقد جال فكري واطلاعي على موضوعات القرآن الكريم التي امتلأت بها سوره وآياته المباركة، حتى استقر

الرأي على أحد تلك الموضوعات القرآنية؛ التي كشف القرآن الكريم حقيقتها وصفاتها وأبعادها، ومدى أهميتها في حياة الإنسان، وكيفية التعامل معها وعظيم خطر نسيانها والغفلة عنها على البشرية في عاجلها وآجلها، ألا وهي العداوة القديمة للإنسان، عداوة الشيطان الرجيم.

ولا يخفى ما تحمله هذه العداوة الشيطانية القديمة من الأخطار والمصائب والشرور على الإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهي ليست كغيرها من العداوات الأخرى، وإنما هي عداوة قديمة بقدم الإنسان في الوجود ومبدأ الخلق، وهي عداوة معلنة من عدو خفي مستتر لا يراه الإنسان، ولا يدرك طبيعة عداوته له، وشدة مواجهته وشراسة حربه معه، مع أنها عداوة دائمة ما دام الإنسان في هذه الحياة، ومستمرة باستمراره وجود عدو الله الشيطان في الدنيا، فهي عداوة لا يرجى زوالها ولا يؤمل انقطاعها، بصدق وعد الله ﷻ لإبليس في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٩ ـ ٨١]، وبحصول عدو الله الشيطان على هذا الوعد الإلهي الكريم بالإمهال إلى يوم القيامة، فقد جمع كيده وحشد جنده وأعد عدته وسخَّر عمره وحياته لغواية الإنسان وإضلاله وصرفه عن منهج الله القويم وزيغه عن صراط الله المستقيم، وهو يستخدم في تلك الحرب الطويلة كل الوسائل والأساليب الماكرة والخفية، ويجتهد كل الاجتهاد كي يوقع الإنسان في فخ كيده وطاعته، ويقوده بحبائله الماكرة إلى مهاوي الردى وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن عدو الله الشيطان يسعى بشتى وسائله وأساليبه إلى خذلان الإنسان وخيبته وخسرانه من خلال تزيين الباطل بجميع ألوانه وأشكاله، والحيلولة بينه وبين هدي الله الذي شرعه لعباده، وهذا ما أعلنه عدو الله إبليس منذ إشهار عداوته للإنسان: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

وأما في الآخرة فإن حرمان الإنسان من الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، والخلود في النار، هو الهدف الأكبر للشيطان، وهو المقصد الأساس الذي يسعى عدو الله إلى تحقيقه في حربه ضد عدوه الإنسان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٤].

ومن رحمة الله ـ جل وعلا ـ بالناس أن حذرهم من هذا العدو القديم، وبيَّن لهم شدة كيده ومكره بهم، وكشف لهم خططه ووسائله التي يحاربهم من خلالها، وأساليبه التي يكيد بها ضدهم، وأخبرهم عن أهداف هذا العدو القديم فيهم، وعرَّفهم حقيقة الصراع بينهم وبين عدوهم الشيطان الرجيم، الذي يتربص بهم الشر والفساد في جميع نواحي حياتهم.

وإذا كان المسلم مأموراً أن يعرف حقيقة عدوه البشري، وطبيعة صراعه معه، ومواطن ضعفه وهزيمته، والاطلاع على أهدافه ومخططاته، وما هي أسلحته، وما مدى تأثيرها، ومن هم جنوده وأعوانه إلى غير ذلك من الأمور التي تتطلبها الحروب البشرية، فكيف إذا كان الصراع مع العدو الحقيقي للإنسانية؟ وزعيم الكفر والشر والفساد على مدى تاريخ البشرية؟ لا سيما أنه عدو يحارب الإنسان من حيث لا يراه، ويدخل عليه من حيث لا يمكن له أن يطّلع عليه، فهو مع شدة عداوته وكيده للإنسان اتصف بالخفية والمراوغة والاستتار، وهو عدو لا يجمعه اللقاء مع عدوه الإنسان في ميدان المعركة، ولكنه يمكن أن يهاجم عدوه في عُقر داره بل ويشاركه في أكله وشربه ونكاحه ومسكنه، بل إن الله ﷻ مكّنه من النفوذ إلى بدن عدوه الإنسان وجريه منه مجرى الدم ابتلاءً وامتحاناً منه ـ جل وعلا ـ لعباده ليمحص المؤمنين الصادقين ويمحق الكافرين.

ولما لهذا الموضوع من أهمية بالغة في حياة الإنسان العاجلة والآجلة فقد تقدمت به إلى قسم القرآن وعلومه ليكون موضوعاً لرسالة الماجستير، وإزاء هذا سميت هذا البحث:

(عداوة الشيطان للإنسان وعلاجها في ضوء القرآن الكريم):

وإضافة إلى ما تقدم من أهمية هذا الموضوع، فقد رغّبني لاختياره عدة أمور هي:

١ - عناية القرآن الكريم واهتمامه بهذا الموضوع؛ وذلك من خلال كشف تلك العداوة الشيطانية، وبيان تاريخها، وشدة خطرها على الإنسان، والتحذير من اتباع الشيطان وموالاته، والدعوة إلى التصدي له ومعاداته، والإرشاد إلى الوسائل والأساليب التي يُحارب بها عدو الله الشيطان ويُدرأ بها كيده وشره، وذلك في كثير من آيات القرآن الكريم.

٢ - استفاضة السنة الشريفة بالنصوص التي تحذر من الوقوع في حبائل الشيطان، وتكشف وسائله وخططه وغايته من الإنسان، وتوجِّه الإنسان إلى الأسلحة والوسائل الفعالة في صراعه مع عدوه الشيطان.

٣ - شدة الخطر الذي تنطوي عليه تلك العداوة على الإنسان لارتباطها بماضي الإنسان وحاضره ومستقبله في الدنيا والآخرة.

٤ - أن الإنسان لا يمكن له أن ينتصر على هذا العدو الخفي إلا بعد أن يدرك خطر هذه العداوة، ويعرف طبيعة الصراع مع هذا العدو، ويكشف أساليبه وخططه التي يكيده بها، ومن ثم معرفة الأسباب والوسائل التي تدفع كيد الشيطان وتجعل طريق النصر والظفر نقياً من العثرات، وهذا ما تضمنته هذه الدراسة القرآنية لتلك العداوة الشيطانية.

٥ - أن التصدي لتلك العداوة الشيطانية ومقاومتها بالأسلحة الربانية هو في حقيقته نوع من أنواع الجهاد؛ ألا وهو جهاد الشيطان.

٦ - إثراء هذا الموضوع في بحث علمي متخصص من خلال آيات القرآن الكريم وتوجيهات السنة الشريفة.

وأما المنهج الذي سرت عليه في بحث هذا الموضوع فهو في الأمور الآتية:

١ ـ اعتمدت في دراسة موضوعات الرسالة ومباحثها على آيات القرآن الكريم، وانطلقت في بيان العداوة الشيطانية ومكائدها للإنسان من خلال التوجيهات القرآنية الكريمة.

٢ ـ اعتنيت بذكر الأدلة من الكتاب والسنّة الشريفة وأقوال العلماء على المسألة التي أسوقها، مع تمحيصها، وبيان القول الراجح مقروناً بأدلته وأسباب ترجيحه.

٣ ـ حرصت في بيان معاني الآيات وتفسيرها على اتباع منهج التفسير بالمأثور، فأبحث عن الأحاديث التي تبين معنى الآية، فإن لم أجد أعتمد أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة التفسير، وأذكر في أحيانٍ كثيرة أقوال المفسرين المعاصرين لا سيما عند بيان هدايات القرآن ومقاصد الآيات وتوجيهاتها في جانب السلوك والأخلاق.

٤ ـ اعتمدت في نقل أقوال المفسرين من الصحابة ومن بعدهم على أمهات كتب التفسير وأصولها المعتمدة عند أهل العلم.

٥ ـ ذكرت في كل مسألة الأقوال التي رويت فيها مع عزوها إلى قائليها، وأدلة كل قول، ثم أعقّب ببيان القول الراجح، معتمداً فيما أرجحه على ما أيده الدليل الصحيح.

٦ ـ تحاشيت ـ بقدر الإمكان ـ ما شحنت به كثير من القضايا والمسائل من الروايات الإسرائيلية وغيرها من الروايات الضعيفة والموضوعة، ولم أعوّل عليها في تقرير مسائل هذا البحث، واعتمدت في تقرير المسائل وترجيحها على الأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسّنة.

٧ ـ خرَّجت الأحاديث الواردة في البحث، فما كان في الصحيحين أو أحدها فأكتفي به، وما كان في غيرها ولم يخرِّجاه اعتنيت بتخريجه من مظان الكتب التي أخرجته من السنن والمسانيد والمعاجم وغيرها.

٨ ـ حرصت عند تخريج كل حديث ـ إذا كان في غير الصحيحين أو أحدهما ـ أن أبيِّن درجته من الصحة، معتمداً في ذلك على ما ذكره أئمة الحديث في الحكم عليه، فأذكر ما قيل في الحكم معزواً إلى قائله والمصدر الذي نقلته منه.

٩ ـ ترجمت للأعلام غير المشهورين بترجمة موجزة توضح مكانة العالِم العلمية وشخصيته، وختمت كل ترجمة بذكر سنة الوفاة.

١٠ ـ اعتنيت بشرح الأسماء والألفاظ الغريبة التي يرد ذكرها في الرسالة، معتمداً في شرحها على معاجم اللغة الأصلية، وشروح غريب القرآن والحديث.

١١ ـ عزوت الآثار والأقوال إلى مصادرها التي نقلتها منها، وحرصت أن لا أذكر رأياً أو قولاً، نصاً أو معنًى، إلا ومعزواً إلى مصدره.

١٢ ـ جعلت الأحاديث وألفاظها بين قوسين هلال هكذا ()، وجعلت ما عداها من الآثار والأقوال بين قوسي تنصيص هكذا «»، وكتبت أرقام الأحاديث في الهامش بين قوسين معكوفين هكذا [].

وأما الخطة التي سرت عليها في بحث هذا الموضوع فهي تتكون من تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة، وتفصيلها في الأمور الآتية:

١ ـ **التمهيد**: ويتناول المباحث الآتية:

أ ـ التعريف بالإنسان.

ب ـ الشيطان وإطلاقاته في كتاب الله.

جـ ـ التعريف بالعداوة.

٢ ـ **الباب الأول**: خلق الشيطان وخلق الإنسان، وفيه فصول:

الفصل الأول: أصل الشيطان وأصل الإنسان وشبهة إبليس في ذلك وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أصل الشيطان، ويتناول الشيطان بين الجن والملائكة.

المبحث الثاني: أصل الإنسان.

المبحث الثالث: شبهة إبليس.

الفصل الثاني: الفرق بين معصية إبليس وآدم عليه السلام.

الفصل الثالث: الحكمة من خلق الشيطان.

٣ ـ **الباب الثاني**: عداوة الشيطان ومكائده، وفيه فصول:

الفصل الأول: أسباب عداوة الشيطان، وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستكبار وعدم السجود.

المبحث الثاني: تكريم بني آدم.

المبحث الثالث: كفره ومعصيته.

المبحث الرابع: طرده من رحمة الله.

الفصل الثاني: أساليب مكائد الشيطان، وفيه مباحث:

المبحث الأول: أمره بالفحشاء والمنكر.

المبحث الثاني: تزيين الباطل.

المبحث الثالث: إنساؤه ذكر الله.

المبحث الرابع: وعده ووعيده.

الفصل الثالث: أهدافه الدنيوية والأخروية، وفيه مبحثان.

المبحث الأول: الأهداف الدنيوية.

المبحث الثاني: الهدف الأخروي.

٤ ـ **الباب الثالث**: الوقاية والعلاج من الوقوع في حبائل الشيطان، وفيه فصول:

الفصل الأول: الوقاية من مكائد الشيطان، وفيه مباحث:

المبحث الأول: مداومة ذكر الله والتعوذ من الشيطان.

المبحث الثاني: اتّباع الكتاب والسنّة.

المبحث الثالث: الإخلاص.

المبحث الرابع: لزوم جماعة المسلمين.

المبحث الخامس: عدم موالاة الشيطان.

الفصل الثاني: العلاج المباشر، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاج من السحر.

المبحث الثاني: العلاج من المسّ.

الفصل الثالث: الإسراع بالتوبة.

٥ ـ **الخاتمة**: وذكرت فيها أهم النتائج التي انتهى إليها البحث.

وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذا البحث، وأن يكتب له القبول، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله نوراً وزاداً لي يوم القيامة، إنه سميع مجيب.

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. عبد المنعم بن حواس الحواس

١/١٢/١٤٢٤هـ

التمهيد

ويتناول المباحث الآتية:

أ ـ التعريف بالإنسان.

ب ـ الشيطان وإطلاقاته في كتاب الله.

جـ ـ التعريف بالعداوة.

أ ـ التعريف بالإنسان

للناس في اشتقاق «الإنسان» ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو مذهب قوم من أهل اللغة، حيث ذهبوا إلى أن الإنسان سُمّي إنساناً لأنه عُهد إليه فنسي، واحتجُّوا بتصغير العرب للفظ «إنسان» بقولهم: «أُنَيْسيان» بزيادة ياء، فحُذفت الياء، فصار مُكبّره «إنسيان» على «إفْعِلان» من النسيان، ثم حذفت الياء من مُكبّره تخفيفاً لكثرته في كلام الناس، فيقال: «إنسان»، فإذا صغّر رجعت الياء لقلَّة تصغيره في استعمال العرب(١).

وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إنما سمّي الإنسان إنساناً لأنه عُهد إليه فنسي»(٢).

القول الثاني: ذهب قوم إلى أن الإنسان مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، فسمّي إنساناً لأنه يؤنس، بمعنى يُرى بالعين، وهؤلاء يجعلونه على «فِعْلان» والبصريون يقولون: زيدت الياء في تصغيره كما زيدت في تصغير ليلة، فيقال: لُيَيْلة، وفي تصغير رجل: رويجل(٣).

القول الثالث: أن الإنسان سُمي إنساناً لأنه خلق خِلْقَة لا قِوَام له إلا بأُنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع من حيث لا قوام

---

(١) انظر: لسان العرب ٦/ ١٠ ـ ١١، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٢.

(٢) تفسير عبد الرزاق بن همام ٢/ ١٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٢١، ٢/ ١٤٠، والمستدرك للحاكم وصححه ٢/ ٤١٢.

(٣) انظر: لسان العرب ٦/ ١٠ ـ ١١، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٢.

لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه[1].

وعندما نعرض هذه الأقوال على القرآن الكريم الذي بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة والبيان، فإن القول الثاني هو الذي يوافق ما جاء في آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ..﴾ الآية [النساء: ٦]، أي أحسستموه ورأيتموه، وقوله جل ثناؤه: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، أي رآها منه، ويؤيد هذا المعنى أن الله تعالى جعل الإنسان مقابلاً لخلق آخر لا يُرى ولا يُشاهد، وهم الجن، وشرّف الجميع بالأوامر والنواهي وجعل المراد من خلقهم عبادته تعالى، فكما أن الجنَّ سمُّوا جِنًّا من الاجتنان وهو الاستتار، فإن الإنس سمّوا إنساً من الإيناس وهو الرؤية والإحساس لأنه بالعينِ يُرى ويشاهد، يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «فالإنسان سُمّي إنساناً لأنه يؤنس أي بالعين يُرى، ... ثم قال: وأما قول بعضهم: إنه من النسيان فليس بشيء، وأين النسيان الذي مادته (ن س ي) إلى (الناس) الذي مادته (ن و س)... ثم قال: وأما إنسان فهو فعلان من (أ ن س) والألف والنون في آخره زائدتان، لا يجوز غير هذا البتَّة»[2].

ولقد تعددت الأقوال في التعريف بالإنسان وتحديد مفهومه، فذكر أبو الحسن الأشعري[3] تسعة عشر قولاً في التعريف به[4]، وعرّفه

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة: «أنس» ص٢٤.
(٢) التفسير القيم لابن القيم ص٦١٦ ـ ٦١٧.
(٣) هو: علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري اليماني البصري، أبو الحسن، إمام المتكلمين، كان قوي الفهم، غاية في الذكاء، وتبحر في العلم، وله تصانيف جمّة، وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلثمائة من الهجرة.
انظر: تاريخ بغداد ١١/ ٣٤٦، الأنساب ١/ ١٦٦، وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٤.
(٤) انظر: مقالات الإسلاميين ٢/ ٢٥ ـ ٢٨.

الجرجاني[1]: بأنه حيوان ناطق[2]، غير أن هذا التعريف غير مؤدٍ للمعنى الشامل لمفهوم الإنسان، حيث إن النطق ليست الصفة الوحيدة التي تميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فالله ـ جل وعلا ـ أخبر أنه ميَّز الإنسان بعلم البيان، يقول تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: ٣، ٤]، فلفظ الإنسان من الألفاظ التي فيها ارتقاء هذا المخلوق إلى مرتبة يعلو بها على غيره من المخلوقات، فهو الذي اختصه الله بالعقل والعلم والبيان، وإذا لم يستخدم الإنسان هذه الخصائص في معرفة الحق والوقوف عنده، فإنه ينحدر إلى مستوى البهائم بل أدنى من ذلك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢﴾ [الأنفال: ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات[3] التي تخبر أن الإنسان ليس بشيء إن لم يكن نطقه مؤدياً لأن يكون أهلاً لأمانة التكليف، وسمعه مدركاً واعياً، وبصره مميزاً متبصراً، كما قال الحق ـ تعالى ـ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ [القيامة: ١٤]، فوهبه الله العقل والبيان وجعل نفسه موكلة إليه وهو موكل إليها، فعليه أن يقودها إلى سبيل الحق والهداية والرشاد.

كما أن الله ـ تعالى ـ اختصَّ هذا الإنسان بحسن القوام وأبدعه وأكمله عن سائر المخلوقات الأرضية، قال ـ تعالى ـ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ

---

(١) هو: علي بن محمد بن علي الجرجاني، الحسيني، الحنفي، أبو الحسن، ويعرف بالسيد الشريف عالم وفيلسوف، من كبار العلماء بالعربية، ولد بجرجان، وقيل في تاكو قرب استراباد سنة ٧٠٤هـ، وتوفي بشيراز سنة ٨١٦هـ.

انظر: بغية الوعاة ٢/١٩٦، الأعلام ٥/٧، هدية العارفين ١/٧٢٨.

(٢) التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني ص٣٨.

(٣) مثل آية (١٧١) من سورة البقرة، وآية (٣٩) من سورة الأنعام، وآية (٧٦) من سورة النحل، وآية (٩٧) من سورة الإسراء.

تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، والإنسان بمجموع روحه وبدنه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الإنسان عبارة عن البدن والروح معاً، بل هو بالروح أخص منه بالبدن، وإنما البدن مطيَّة للروح»[١]، ويقول ابن القيم: «الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً، وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة»[٢]، لذا فإني أعرّف الإنسان بأنه: ذلك الشخص الظاهر المرئي، وهو بمجموع جسده وروحه، وما فيه من أخلاط وحواس وألوان وأطعمة، ويمتاز بحسن القوام والنطق والبيان.

ولقد اعتنى القرآن الكريم بالإنسان وذكر خلقه وأحواله وسلوكه ومعاده... إلخ، حيث جاء لفظ «الإنسان» في القرآن الكريم في خمس وستين موضعاً، ولكل موضع منها معنًى مراد، ومما يدل على اهتمام القرآن الكريم وعنايته الفائقة بهذا المخلوق، أنه ذكر مرتين في أول سورة نزلت على النبي ﷺ وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، كما أنه جاءت سورة كاملة باسم «الإنسان» في القرآن الكريم.

والمتأمل في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الإنسان، يجد أنها تهدف إلى ترسيخ جانب مهم في حياة الإنسان والتأكيد عليه، وهو الاعتبار والاتعاظ، من خلال سياق ذكر أطوار خلق الإنسان وتكوينه في بطن أمه واكتمال نموه، ومن ثَمَّ خروجه إلى الدنيا، فيستدل بها على قدرة الله ـ تعالى ـ على إعادة الإنسان مرة أخرى بعد موته، فكما بدأه ـ جل شأنه ـ من عدم فإعادته من بدء أهون وأيسر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ[٣] عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٢٢، وانظر مسألة الروح واتصالها بالبدن في المرجع نفسه ٣/ ٣١.

(٢) الروح، لابن القيم ص٢٤١.

(٣) ليس على الله تعالى شيء هيّن وصعب، بل كل شيء عنده هيّن، ولذا قال الشافعي رحمه الله: =

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال ـ سبحانه ـ في رده على مجادلة الإنسان في إمكان الإعادة بعد الموت: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]، إلى غير ذلك من الآيات(١).

والله ـ تبارك وتعالى ـ جعل الإنسان أساس النشاط في الأرض، فسخر له كل ما في السماوات والأرض، يقول ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ...﴾ الآية [لقمان: ٢٠]، يقول ابن القيم: «فاعلم أن الله ﷻ اختصَّ نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرّمه وفضله وشرّفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقُربه وإكرامه بما لم يعط غيره، وسخّر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم أهل قربة استخدمهم له، جعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي»(٢).

وإذا كان الله ﷻ قد سخَّر لهذا الإنسان كل ما في سماواته وأرضه، فإنه ـ تعالى ـ حَثَّ الإنسان على أن تكون له علاقة بهذا الكون الفسيح،

= «معناه هو أهون عليه في العبرة عندكم، ليس أن شيئاً يعظم على الله ﷻ»، الأسماء والصفات للبيهقي ص٦٤٧.

(١) مثل آية (٤) من سورة النحل، وآية (٦٧) من سورة مريم، وآية (١٢) من سورة المؤمنون، وآية (٧) من سورة السجدة، وآية (١) من سورة الإنسان، وآية (١٧) من سورة عبس.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم ١/ ٢١٠.

وأن تكون تلك العلاقة مستمرة ومؤثرة في نفسه وسلوكه، كي تنتج تلك العلاقة معرفة وخبرة تكون لها ثمراتها في اكتشاف خيرات الكون وكنوزه وأسراره العجيبة والتي تنعكس آثارها على حياته الدنيوية والأخروية، كما أخبر ـ تعالى ـ عن أولي الألباب بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ الآية [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

ولما أنعم الله على هذا الإنسان بالتمييز بين الخير والشر، وهيأه لحمل مسؤولية التكليف وحرية الإرادة وعاقبة العمل، وجعله خليفة في الأرض، فقد حُمّل الإنسان أمانة عظيمة عجزت عن حملها السماوات والأرض والجبال مع ما وهبها الله ـ تعالى ـ من القوة والضخامة، وفي هذا يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ(١) عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقليل من جنس الإنسان من يفي هذه الأمانة حقها، ويقوم بواجبها، حيث إن الناس بين شاكر وكافر كما قال الحق ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٢، ٣]، فالإنسان لا يُعذر في التقصير عن أداء هذه الأمانة والقيام بحقها، ولو اعتذر

(١) قال جمهور المفسرين: الأمانة في الآية هي الطاعة والفرائض وجميع وظائف الدين، واختلف في تفاصيل بعضها: فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: غسل الجنابة أمانة، وقال مجاهد رحمه الله: الفرائض وحدود الدين، وقيل: هي أمانات الناس والوفاء بالعهود، ولا ريب أن الأمانة تعم هذه المعاني كلها، انظر: تفسير البغوي ٦/ ٣٨٠، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

عن هذا التقصير، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]، يقول سيد قطب: «فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ويهتدي بنفسه ويصل بنفسه، هذا كان ليحتمل عاقبة اختياره وليكون جزاؤه من عمله»(١).

إن ما امتاز به الإنسان عن غيره من المخلوقات فيما يستطيع التصرف فيه بفعل الخير أو الشر، فذلك أمانة من الله ـ تعالى ـ وضعها تحت يد هذا الإنسان وحثّه على أدائها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

ولقد أخبر النبي ﷺ أن من الأمانة أن لا يطلب الرجل ولايةً لا يستطيع أداء حقها، فعن أبي ذرّ(٢) رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)(٣)، وهناك ارتباط وثيق بين الإيمان والأمانة، ورفع الأمانة من القلب إنما هو نتيجة لضعف الإيمان في ذلك القلب أو فقده تماماً، فعن حذيفة بن اليمان(٤) رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما، وأنا

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٨٥.

(٢) اختلفت في اسمه اختلافاً كثيراً، فقيل: جندب بن جنادة وصححه ابن عبد البر، وقيل: برير بن عبد الله كان من كبار الصحابة، قديم الإسلام، يقال كان خامس من أسلم، توفي بالربدة سنة ٣١هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٤/ ١٦٥، صفة الصفوة ١/ ٥٨٤، الاستيعاب ٤/ ١٦٥٢.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، حديث [١٨٢٥] باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

(٤) هو: حذيفة بن اليمان بن حسيل بن جابر العبسي القطيعي أبو عبد الله، كان من كبار =

أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر[1] قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنَّة، ثم حدَّثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة، فقال: (ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت[2]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل[3] كجمر دحرجته على رجلك فنفط[4]، فتراه منتبراً[5]، وليس فيه شيء)، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصى فدحرجه على رجله، ثم قال: (فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)[6]، قال في فتح الباري: «قال صاحب التحرير: الأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة المذكورة في الآية، وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت في القلب قام بأداء ما أُمر به واجتُنب ما نُهي عنه»[7].

فحديث حذيفة رضي الله عنه يشير إلى انحطاط أخلاقيات بعض النفوس، حيث تصبح الأمانة شكلاً واسماً لا يتجاوز اللسان والسطور، وليس له من السلوك تطبيق وواقع عملي، فمن كان كذلك فليس له من حقيقة الأمانة - التي هي أحد الفروع الخُلُقية لحب الحق وإيثاره على النفس - شيء يسمو

= الصحابة، وصاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، شهد حذيفة أُحُداً والخندق وما بعدها، ولّاه عمر رضي الله عنه على المدائن، توفي سنة ٣٦هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٣/ ٩٥، الطبقات الكبرى ٧/ ٢٣٠، صفة الصفوة ١/ ٦١٠.

(١) أي أصل قلوب الرجال، انظر: النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٥٠.
(٢) الوكت: الأثر في الشيء، كالنقطة من غير لونه، مفرده وكتة.
(٣) المجل: أثر العمل في الكف إذا غلظ، انظر: لسان العرب مادة «مجل».
(٤) أي قرح من العمل، أو هو ما يصيبها بين الجلد واللحم من الماء. لسان العرب مادة (نفط).
(٥) قال النووي في معنى «منتبراً»: «أصل هذه اللفظة الارتفاع، ومنه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه»، صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٦٩.
(٦) أخرجه البخاري في الرقائق، حديث [٦٤٩٧] باب رفع الأمانة، ومسلم في الإيمان، حديث [٢٣٠] باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب.. إلخ.
(٧) فتح الباري ١٣/ ٤٣.

به على غيره من المخلوقات، فوجود الأمانة دليل على وجود الإيمان كما قال ﷺ: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[1]، ولمّا كان رسول الله ﷺ أكمل الناس خُلقاً، وأتقاهم لله ﷻ، صار أعظمهم أداءً للأمانة، وأحقَّهم بتحمّلها، فحينما شكك أحد اليهود في أمانته ﷺ، ردّ عليه النبي ﷺ بقوله: (كذب، قد علم أني من أتقاهم لله وأداهم للأمانة)[2].

ومدلول الأمانة في شريعة الإسلام أعمّ من أن يقتصر على وديعة الأموال، والتي يظن كثير من الناس أن الأمانة تدور في إطارها دون غيرها، بل إن الأمانة تشمل ألواناً كثيرة؛ فهي تشمل السمع والبصر والجوارح، وكذلك في الولاية وفي الأعراض وفي أموال الإنسان وفي الأجسام والأرواح، وفي العلوم والمعارف، وفي الأسرار التي يستأمن عليها الإنسان، وفي الشهادات والقضاء، وفي الرسالات التي يكلّف بتبليغها للآخرين، وفي الكتابة، وفي حفظ العهود والمواثيق، وفي كل مجال من المجالات التي بين العبد وربه، وبينه وبين الآخرين، ولا شك أن من يُؤْثِرُ الحق والوصول إليه، يجد في نفسه دافعاً لأداء هذه الأمانة في أي مجال كانت، فالله ـ جل شأنه ـ أثنى على الذين يرعون عهودهم وأماناتهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨]، وبالمقابل فقد ذم سبحانه الذين لا يؤدون الأمانات ويخونون أصحابها ونهى عن ذلك فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ٣/ ١٣٥، ١٤٥، ٢١٠، ٢٥١، والبغوي في شرح السنة ١/ ٧٥، وقال: «هذا حديث حسن»، وقال الشيخ ناصر الدين الألباني: «هو حديث جيد، أحد إسناديه حسن وله شواهد»، مشكاة المصابيح، هامش ١/ ١٧.

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع من حديث عائشة رضي الله عنها، حديث [١٢١٣] باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل، وقال أبو عيسى: «حديث عائشة حديث حسن غريب صحيح»، والنسائي في البيوع، حديث [٤٦٢٨] باب البيع إلى الأجل المعلوم، والإمام أحمد في الزهد ص٢٣، والحاكم في المستدرك بلفظ (قد علموا) وصحَّحه ٢/ ٢٨.

تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]، وأخبر ـ تعالى ـ أن بسبب الخيانة وعدم أداء الأمانة، قذف الله بامرأتين من نساء الأنبياء في النار، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا[1] فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، فخيانة عباد الله هي خيانة لله تعالى، إذ من حق الله على عبده أن لا يخون أحداً من خلقه.

ويعتبر فقدان الأمانة من علامات الساعة التي تظهر في آخر الزمان فتفشو الخيانة وتنعدم الأمانة، فعن أبي هريرة[2] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة)، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: (إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)[3]، فرتّب رسول الله ﷺ تقويض الحياة الدنيا على ضياع الأمانة وأن ضياعها علامة على قرب الساعة، كما أن ضياعها الحقيقي هو أن يتخذ الناس المناصب التي يُستأمنون عليها من الآخرين، فيتخذونها سبيلاً للحصول على شهواتهم والوصول إلى ملذاتهم وأهوائهم، فالأمة التي لا أمانة لها هي التي تعمل على إهمال الأكْفاء الصالحين وإبعادهم، وتقديم من ليس أهلاً للمناصب وتوليتهم، وهذه من علامات الساعة التي وقعت.

ومن فضل الله تعالى على هذا الإنسان ورحمته به، أن فطره على معرفة ربه ـ تعالى ـ، فجعله قابلاً للتوحيد ودين الإسلام، لأنه هو الذي

---

(١) المراد بالخيانة في الآية هي خيانة الدين فلم يوافقهما على الإيمان، وليس المراد بها الفاحشة، انظر: تفسير الطبري ٢٨/ ١٧٠، وتفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٤.

(٢) اختلف في اسم أبي هريرة ﷺ اختلافاً كثيراً، أصحها وأرجحها، كما قال النووي والذهبي، أنه عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني، صحابي جليل، وسيد الحفاظ الأثبات، وأكثر من روى عن النبي ﷺ من أصحابه، أسلم عام خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ، ثم لزمه وواظب عليه رغبةً في العلم، توفي سنة سبع وخمسين من الهجرة. انظر: صفة الصفوة ١/ ٦٨٥، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٨٧، الإصابة ٧/ ١٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في الرقائق، حديث [٦٤٩٦] باب رفع الأمانة.

يتفق مع العقل والنظر الصحيح اللذَيْن أودعهما الله في النفس الإنسانية، ومن خلالهما يدرك الإنسان الأمور ويفاضل بينها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء؟)[1].

يقول ابن الأثير[2]: «ومعنى الحديث: أن المولود يولد على نوع من الجبلّة، وهي فطرة الله تعالى، وكونه متهيئاً لقبول الحق طبعاً وطوعاً، لو خلّته شياطين الإنس والجن وما يختار، لم يخترْ غيرها، فضرب لذلك الجمعاء والجدعاء مثلاً، يعني أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق، سويّة الأطراف، سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة»[3]، فالله ـ جل وعلا ـ هو الذي ركّب الإنسان وهو الذي شرع له هذا الدين، فهو ـ تعالى ـ أعلم ما يوافق ميول عبيده ويناسب فطرتهم، ففطرة النفس الإنسانية ودين الإسلام بينهما رباط المعرفة والألفة والانسجام في طبيعة كل منهما واتجاهه.

ولقد قطع عدو الله إبليس على نفسه عهداً أن يحول بين الإنسان وبين فطرته، يقول تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وعن عياض بن حمار المجاشعي[4] رضي الله عنه أن

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، حديث [١٣٨٥] باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم في القدر حديث [٢٦٥٨] باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. إلخ.

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، الشيباني، أبو السعادات، المعروف بابن الأثير، كان عالماً فاضلاً، قد جمع بين علم العربية والقرآن والحديث، وصنف في كل ذلك تصانيف عديدة، حتى عرض له مرض كف يديه ورجليه فمنعه من الكتابة، وأقام في داره يغشاه الأكابر والعلماء، توفي بالموصل سنة ٦٠٦هـ، انظر: معجم الأدباء ٥/٤٩، وفيات الأعيان ٤/١٤١، بغية الوعاة ٢/٢٤٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٢٤٧.

(٤) هو عياض بن حمار المجاشعي التميمي، وفد على النبي ﷺ قبل أن يسلم ومعه نجيبة يهديها إلى رسول الله ﷺ، فقال: أسلمت؟ قال: لا، قال: إن الله نهانا أن نقبل زَبْد =

رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممّا علمني يومي هذا؛ كل مالٍ نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[(1)] عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...) الحديث[(2)].

فالله ﷻ فطر جنس الإنسان عموماً على معرفة خالقه ورازقه، ولذا جاء لفظ «الناس» مطلقاً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ الآية [الروم: ٣٠] ليشمل كل فئات الناس وأجناسهم وألوانهم، مؤمنيهم ومشركيهم، قال ابن قدامة المقدسي[(3)]: «اعلم أن القلب بأصل فطرته قابل للهدى، وبما وضع فيه من الشهوة والهوى، مائل عن ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم، إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيتمكن، ويستوطن، ويكون اجتياز الثاني اختلاساً، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤]»[(4)]، فمع إشراك المشركين بربهم فإنهم معترفون بربهم وخالقهم اعترافاً فطرياً، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ...﴾ الآية [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ...﴾

= المشركين، فأسلم، فقبلها رسول الله ﷺ، وكان صديقاً لرسول الله ﷺ قديماً، وروى عنه عدة أحاديث.

انظر: التاريخ الكبير ٧/ ١٩، الطبقات الكبرى ٧/ ٢٥، الاستيعاب ٣/ ١٢٣٢.

(١) اجتالتهم: أي اسْتخَفَّتهم فجالوا معهم في الضّلال، النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣١٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث [٢٨٦٥] باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٣) هو أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الصالحي الحنبلي، كان فقيهاً فاضلاً، وخطيب الجبل، ومدرس أكثر المدارس، وولي القضاء، وله مشاركة جيدة في العلوم، توفي سنة ٦٨٨هـ، انظر: مقدمة مختصر منهاج القاصدين ص٥.

(٤) مختصر منهاج القاصدين ص١٤٨.

الآية [المؤمنون: ٨٦، ٨٧] فلذلك كان إقرارهم بالله تعالى من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به تعالى من جهة ألوهيته.

وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد فطر الجمادات وسائر الحيوانات على تسبيحه وتحميده، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ . . .﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ . . .﴾ الآية [النور: ٤١]، إذا كان كذلك، فإن الإنسان الذي كرَّمه الله وشرفه على سائر هذه المخلوقات، أولى أن يفطر على توحيد ربه ومعرفته ـ تعالى ـ، يقول محمد بن محمد المنبجي[(١)]: «والمقصود: إذا كانت هذه الجمادات قد فُطِرَت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها، فلأن يفطر هو على معرفته بربه بطريق الأولى والأحرى، لما رُكِّب فيه من العقل والتمييز والفطنة، لا سيما وقد نطق الكتاب والسنّة بأنه فطره على الإسلام، والإسلام كلمة التوحيد»[(٢)].

وإذا قلنا إن الإنسان مفطور على معرفة ربه ـ تعالى ـ، فإن تلك الفطرة لا يقصد بها أن يخرج الإنسان إلى الدنيا يعرف هذا الدين ويريد اتِّباعه، فليس هذا المراد، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا . . .﴾ الآية [النحل: ٧٨]، ولكن المراد أن الإنسان مفطور على قبول هذا الدين بما هيأ الله فطرته لقبول دينه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين الإسلام بالفعل، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو تُرِك من غير مُغيِّر لما كان إلا مُسلماً»[(٣)].

---

(١) هو محمد بن محمد الصالحي المنبجي الحنبلي، محدث، فقيه، سمع الحديث، وأفتى، ودرس، وله آثار عديدة، توفي سنة ٧٨٥هـ، انظر: الأعلام ٧/٤١، معجم المؤلفين ١١/ ٢٩٥.

(٢) الرسائل المنيرية، الرسالة التاسعة ص١٩٧.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٢٤٧.

ولقد ذهب جمهور السلف إلى أن المراد بالفطرة في الآية وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، هي الإسلام، ومنهم أبو هريرة وابن شهاب[(١)]، وقال مجاهد[(٢)] في قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: «المعنى لا تبديل لدين الله»، وذكر عن الحسن والضحاك[(٣)] وقتادة[(٤)] وعكرمة[(٥)] والنخعي[(٦)] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] قالوا:

---

(١) هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري المدني، أبو بكر، أحد الأعلام ومن أئمة الإسلام، رأى عشرة من الصحابة رضي الله عنهم وأخذ العلم عن سعيد بن المسيب، وهو أول من دوّن العلم وكتبه، قال عمر بن عبد العزيز: «عليكم بابن شهاب هذا فإنكم لا تلقون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه»، توفي ١٢٣هـ.
انظر: صفة الصفوة ٢/١٣٦، الثقات ٥/٣٤٩، سير أعلام النبلاء ٥/٣٢٦.

(٢) هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى عبد الله بن السائب، كان إماماً، عالماً، مفسراً، مقرئاً، أخذ عن ابن عباس رضي الله عنهما القرآن والتفسير والفقه، وروى عنه وعن أبي هريرة وعائشة وغيرهم، توفي سنة ١٠٢هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٧/٤١١، العبر ١/٩٤، البداية والنهاية ٩/٢٣٢.

(٣) هو: الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم، تابعي جليل، كان إماماً في التفسير، لقي سعيد بن جبير بالري وأخذ عنه التفسير، توفي سنة ١٠٥هـ.
انظر: الكنى والأسماء ٢/٦٨٧، ميزان الاعتدال ٢/٣٢٥، طبقات المفسرين للداوودي ١/٢٢٢.

(٤) هو: قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة السدوسي، أبو الخطاب، كان تابعياً وعالماً حافظاً ثقة ثبتاً، وكان من علماء الناس بالقرآن والفقه، وُلِدَ ضَريراً، فلما ترعرع شرع في تحصيل العلم، وجالس سعيد بن المسيب والحسن، توفي سنة ١١٧هـ.
انظر: الأنساب ٣/٢٣٥، صفة الصفوة ٣/٢٥٩، وفيات الأعيان ٤/٨٥.

(٥) هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما تابعي، أصله من البربر من أهل المغرب، ووهبه حصين بن الحر العنبري لابن عباس، فاجتهد ابن عباس في تعليمه القرآن والسنن وسمّاه بأسماء العرب، فصار من أعلم الناس بالتفسير والمغازي في زمانه، توفي ١٠٧هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٣٣٩، الطبقات الكبرى ٥/٢١٩، حلية الأولياء ٣/٣٢٦.

(٦) هو: إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود النخعي اليماني ثم الكوفي، أبو عمران، أحد الأعلام، والأئمة المشاهير، رأى عائشة وهو صغير ودخل عليها، ولم يثبت له منها سماع، وكان مفتي أهل الكوفة هو والشعبي، توفي سنة ٩٦هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٦/٢٧٩، سير أعلام النبلاء ٤/٥٢٠، وفيات الأعيان ١/٢٥.

فطرة الدين، دين الله الإسلام، وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما[١]، قال ابن حجر[٢] رحمه الله: «وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة، الإسلام، قال ابن عبد البر[٣]: وهو المعروف عند عامة السلف، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام... وقد قال أحمد[٤]: من مات أبواه وهما كافران حُكم بإسلامه... وحكى محمد بن نصر أن آخر قولي الإمام أحمد أن المراد بالفطرة الإسلام»[٥]، ويقول ابن تيمية: «الصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة»[٦]، وقال ابن القيم رحمه الله: «سبب

---

(١) انظر: هذه الأقوال في تفسير البغوي ٦/ ٢٧٠، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) هو: أحمد بن علي بن محمد بن علي العسقلاني المصري الشافعي، الإمام العلامة الحافظ، أبو الفضل، رحل في طلب العلم، وصنف التصانيف المفيدة، وأشهرها: «فتح الباري في شرح البخاري»، وكان ذا حفظ ومعرفة تامة، وذهن وقّاد، وذكاء مفرط، وسعة علم في فنون شتى، توفي سنة ٨٥٢هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ١٢٨، الأعلام ١/ ١٧٨، معجم المؤلفين ٢/ ٢٠.

(٣) هو: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النَّمريُّ الأندلسي القرطبي المالكي، أبو عمر، إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، طلب الفقه في قرطبة، ودأب في تحصيل العلم، وبرع حتى فاق من تقدمه من رجال الأندلس، وكان مع ذلك له بسطة كبيرة في علم النسب، والأخبار، وله مصنفات جمة مفيدة، توفي سنة ٤٦٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٧/ ٦٦، سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨.

(٤) هو: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلي الشيباني المروزي البغدادي، أبو عبد الله شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، وإمام المحدثين، المناضل عن السنة، والصابر في المحنة، رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، فكتب عن علماء ذلك العصر، وكان رحمه الله على جانب كبير من الدين والعقل والفضل والورع والزهد والجود، توفي يوم الجمعة سنة ٢٤١هـ.
انظر: تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، الطبقات الكبرى ٧/ ٢٥٣، وفيات الأعيان ١/ ٦٣.

(٥) فتح الباري ٣/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٢٤٥.

اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث ـ يعني حديث أبي هريرة ـ أن القدرية كانوا يَحْتَجُّون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله، بل مما ابتدأ الناس إحداثه، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الإسلام، ولا حاجة لذلك، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الإسلام»(١)، فالذي أخبر به النبي ﷺ من فطرة الإنسان على الإسلام، هو الذي تقوم الأدلة النقلية والعقلية على صحته(٢).

ولقد عنيت الشريعة الإسلامية بتقوية الجوانب الإنسانية في نفس الإنسان، والتي تظهر من خلالها الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، في حين أن الشرائع الأخرى جعلت الجوانب الحيوانية في جسم الإنسان، مُسْتكنَّة في أطواء النفس، والتي تظهر من خلال مسالكها المشروعة في شريعة الإسلام.

ومع توجيهات الشريعة الإسلامية السامية في النفس الإنسانية، فهي لم تبعد بذلك عن إقامة الفطرة الإنسانية خير قيام، فهي شريعة متوافقة مع ميول الإنسان وغرائزه، ومتمشية مع واقعه وتركيب خلقه، فهو جسم له متعة البدن والروح والعقل، فلا محاربة لتلك الشخصيات في نفس الإنسان، ولا إخماد لمشاعرها، لكنها تهتم بها غاية الاهتمام، في حين أنها تضع لتلك الغرائز

(١) فتح الباري ٣/ ٢٩٤.

(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم ص٥٠٠ وما بعدها، فقد ذكر ابن القيم خمسة عشر وجهاً من الأدلة العقلية في بيان ذلك، وأما الأدلة النقلية فمنها ما يأتي:
أ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا . . . الآية﴾ [الروم: ٣٠].
ب ـ حديث أبي هريرة ﷺ المتقدم ذكره في الولادة على الفطرة.
جـ ـ حديث عياض بن حمار ﷺ، المتقدم ذكره.
د ـ ما رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب)، قال القرطبي في تفسيره ١٤/ ٢٥: «فذكر منها قص الشارب وهو من سنن الإسلام»، وأما الحديث فأخرجه البخاري في اللباس، حديث [٥٨٨٩].

والميول الفطرية الضوابط التي تمنع عن الإنسان الضرر والفساد.

وميزان الإسلام للإنسان إنما هو بمعيار التمايز والتفاضل في التقوى، والإيمان بالله ـ جل وعلا ـ، وبذلك تحصل له الكرامة عند ربه ـ تعالى ـ، قال ـ جل شأنه ـ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، فالتفاضل في جنس الإنسان عند الله ـ تعالى ـ، ليس باعتبار الطبقة أو اللون أو النسب أو اللغة، إذ أن الإسلام رسالة عامة للإنسانية على اختلاف فئاتها، فليس فيها أنظمة للبيض وأخرى للسود، وليس للعرب أحكام تختلف عن أحكام العجم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

واختلاف فئات النوع الإنساني وألوانه، إنما هو لحكمة أرادها الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . .﴾ الآية [الحجرات: ١٣]، فبهذا المنهج الإلهي العظيم تحصل المودة والرحمة القائمة على التعارف الإسلامي بين المسلمين، وبذلك تحصل الحرية التي يسعى إليها كثير من فئات النوع الإنساني.

يقول محمد أبو زهرة: «ولا بد أن يحترم أهل الأرض حرية أهلها، فلا يكون تعارف إذا لم تحترم الحرية، لأنه إذا كان أساس العلاقات، الإرهاق النفسي، وعدم احترام الحرية الشخصية، لا يكون ذلك تعارفاً، بل يكون استعباداً واسترقاقاً، أو استعماراً بلغة ذلك العصر. . فلا يمكن ثمة تعارف كالتعارف الذي دعا إليه القرآن الكريم»(١).

---

(١) المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص٥٢، ٥٣.

ب ـ الشيطان وإطلاقاته في كتاب الله

لقد استعمل القرآن الكريم أسماءً متعددة للشيطان، وذلك من خلال سياق قصة استكباره على ربه تعالى وعدم سجوده لآدم عليه السلام وتحدِّيه بني آدم وتوعده لهم بالغواية والإضلال، وتحذير الله ـ تعالى ـ عباده من هذا العدو اللدود، ونهيه تعالى لهم عن اتباع الشيطان، ولذا فسأتناول تلك الإطلاقات مبيّناً اشتقاقاتها، وتعريفاتها، واستعمالاتها في القرآن الكريم.

أولاً: إبليس:

البَلَسُ في لغة العرب: من لا خير عنده، أو عنده إبلاسٌ وشرّ، وأبلس: يئس وتحيّر[1] يقول ـ تعالى ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الروم: ١٢]، ومنه قول العجاج[2]:

يا صَاحِ تَعْرِفُ رَسْماً مُكرساً؟ قال: نعم أعرفه وأبلسا[3]

وجاء في لسان العرب: «المُبْلِسُ: الساكت من الحزن أو الخوف، والإبلاس: الحيرة، وقال أبو بكر: الإبلاس معناه في اللغة: القنوط وقطع

---

(١) انظر: القاموس المحيط مادة (البلس).

(٢) هو: عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي، أبو الشعثاء، ولد في الجاهلية، وقال الشعر فيها، ثم أسلم، وكان قد لقي أبا هريرة رضي الله عنه وسمع منه أحاديث، وله ديوان، توفي نحو سنة ٩٠ للهجرة.
انظر: الشعر والشعراء ص٣٩٧، البداية والنهاية ١٠/٩٨، الأعلام ٤/٨٦.

(٣) لسان العرب مادة «بلس» ٦/ ٣٠.

الرجاء من رحمة الله ـ تعالى ـ ويقال: أَبْلَسَ الرَّجلُ، إذا انقطع فلم تكن له حُجَّة»[1].

وقال العقاد: «وأشهر أسماء الشيطان الأكبر في اللغة العربية هو اسم (إبليس)... والمتكلم الذي يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه إبليس كل ما يريده القائل من هذه الصفة، فهي دالة في كلام الخاصة والعامة على الدّس والفتنة والدهاء والسعي بالفساد، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة، مستعاراً من صفات إبليس في العقيدة الإسلامية»[2].

وأما أصل اسم «إبليس» ففيه قولان:

القول الأول: إن إبليس اسم أعجمي، ولذلك لا ينصرف للعجمية والعلَمية، قاله الزجّاج[3]، وأبو علي الفارسي[4]، وابن الأنباري[5]، قال ابن الأنباري[6] بعد أن استبعد كون اسم «إبليس» عربياً: «لأنه لو كان كذلك

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) كتاب (إبليس) للعقاد ص٤٧.

(٣) هو: إبراهيم بن السّري بن سهل الزجاج، أبو إسحاق، النحوي، اللغوي، المفسر، أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه، قال الخطيب: «كان من أهل الدين والفضل، حسن الاعتقاد، جميل المذهب»، وله مصنفات عديدة مفيدة، توفي ٣١٠هـ.
انظر: معجم الأدباء ١/ ٨٢، وفيات الأعيان ١/ ٤٩، بغية الوعاة ١/ ٤١١.

(٤) هو: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي، ولد بمدينة فسا، واشتغل ببغداد، وكان إمام وقته في علم النحو، وطوّف كثيراً من بلاد الشام، ومضى إلى طرابلس، فأقام بحلب مدة، وخدم سيف الدولة ابن حمدان، وكان متهماً بالاعتزال، وله شعر قليل، ومصنفات كثيرة نافعة، مات ببغداد في ربيع الأول سنة ٣٧٧هـ.
انظر: معجم الأدباء ٢/ ٤١٣، بغية الوعاة ١/ ٤٩٦، البلغة ص٨٠.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ١١٤، وتفسير ابن عطية ٨/ ٣١١، والأضداد لابن الأنباري ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٦) هو: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين بن الأنباري، أبو بكر، المقرئ النحوي الأديب، كان من أعلم الناس بنحو الكوفيين، وأكثرهم حفظاً للغة، وكان =

كان عربياً منوَّناً، كما يجري (إكليل) وهو على مثاله، فلما وجدنا الله ﷻ قال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ فلم ينوّنه علمنا أنه أعجمي مجهول الاشتقاق»[1]، واستبعد أصحاب هذا القول أن يكون اسم «إبليس» مُشتقّاً، بأنه لو كان مشتقاً لسُمّي به إبليس بعد طرده ويأسه من رحمة الله، وظاهر القرآن يدل على أنه كان يسمى بهذا الاسم قبل ذلك، قال ابن حجر بعد أن ذكر هذا الاستبعاد: «ولا دلالة فيه، لجواز أن يسمَّى بذلك، باعتبار ما سيقع له»[2].

القول الثاني: إن إبليس اسم عربي مشتق من الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله ـ تعالى ـ، وإنما لم ينصرف لأنه معرفة، ولا نظير له في الأسماء، فشبّه بالأعجمية، قاله أبو عبيدة[3] وابن جرير الطبري[4] وغيرهما[5].

والذي يترجح أن اسم «إبليس» عربي، للاعتبارات الآتية:

= صدوقاً زاهداً متواضعاً فاضلاً، دَيِّناً من أهل السنة، وصنف كتباً كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث وغيرها، توفي سنة ٣٢٨هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٣٤١، بغية الوعاة ١/ ٢١٢، البلغة ص٢١٢.

(١) الأضداد لابن الأنباري ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٢) فتح الباري ٦/ ٣٩١.

(٣) هو: معمر بن المثنى التيمي بالولاء، البصري، أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم بالأدب واللغة، وأنساب العرب وأخبارها، وهو أول من صنف غريب الحديث، قال الجاحظ: «لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة»، توفي سنة ٢٠٩هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/ ٥٠٩، وفيات الأعيان ٥/ ٢٣٥، بغية الوعاة ٢/ ٢٩٤.

(٤) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، أبو جعفر، شيخ المفسرين، وأحد الأئمة الأعلام، وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من عصره، وله مصنفات جليلة في فنون عديدة، توفي سنة ٣١٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ١٩١، طبقات المفسرين للسيوطي ص٨٢، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ١١٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١/ ٢٢٧، والقرطبي ١/ ٢٩٥، ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ١/ ٨٧.

١ ـ أن اسم «إبليس» لا نظير له في الأسماء العربية، ولذلك ترك استعماله استثقالاً، فشبَّهه العرب بالأسماء الأعجمية التي لا تجرى، يقول ابن جرير: «فإن قال لنا قائل: فإن كان إبليس كما قلتَ: إفعيل من الإبلاس، فهلّا صُرف وأجري؟ قيل: ترك إجراؤه استثقالاً إذا كان اسماً لا نظير له من أسماء العرب، فشبَّهته العرب، إذا كان كذلك، بأسماء العجم التي لا تجري»(١).

٢ ـ أن اسم «إبليس» هو الذي يتفق وواقع حال عدو الله، حيث الحزن والندم واليأس من رحمة الله تعالى، وكلها من معاني الإبلاس، فوافق الاسم حال المسمّى، يقول الراغب(٢): «الإبلاس: الحزن المعترض من شدَّة اليأس، يقال: أبلس، ومنه اشتق إبليس»(٣)، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إنما سُمّي إبليس لأنه أبلس من الخير كله»(٤)، وقال أيضاً: «إبليس أبلسه الله من الخير كله وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته»(٥)، وقال ابن كثير(٦) رحمه الله: (وسمّاه ـ أي الله تعالى ـ إبليس، إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة»(٧).

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٢٧.

(٢) هو: الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، أو الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بالراغب، أديب، لغوي، حكيم، مفسر، وكان من أذكياء المتكلمين، سكن بغداد، وله مصنفات مفيدة، توفي سنة ٥٠٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠، بغية الوعاة ٢/ ٢٩٧، البلغة ص٩١.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، مادة (بلس).

(٤) الأضداد ص٣٣٦.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٢٢٧.

(٦) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصروي الدمشقي الشافعي، عماد الدين، أبو الفداء، الإمام المحدث البارع، كان فقيهاً متفنناً مفسراً مؤرخاً، ولد في قرية من أعمال بُصرى الشام، وانتقل إلى دمشق، ورحل في طلب العلم، وصنف المصنفات المفيدة، وسارت مؤلفاته في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس، توفي سنة ٧٧٤هـ.
انظر: الدرر الكامنة ١/ ٣٧٣، ذيل تذكرة الحفاظ ص٥٧، هدية العارفين ١/ ٢١٥.

(٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤.

٣ ـ ويؤيد هذا المعنى أيضاً أننا نجد القرآن الكريم ذكر لفظ «إبليس» في أحد عشر موضعاً، جاءت تسعة منها في قصة إبليس واستكباره على ربه ـ تعالى ـ وعدم سجوده لآدم عليه السلام[١]، كما أنه من خلال تلك القصة في جميع مواضعها في القرآن الكريم، لم يطلق على هذا العاتي المتمرد إلا اسم «إبليس»، مما يوضح لنا المراد من إطلاق هذا الاسم على عدو الله الشيطان الأول، وهو مطابقة معنى هذا الاسم ومدلوله على الشيطان وهو في تلك الحال من استكباره واحتجاجه الباطل بأنه خير من آدم عليه السلام في أصل الخلق، حتى بطلت شبهته وانقطعت حُجَّته، وسقط قياسه الفاسد، وحصل له من الحيرة والاندهاش ما أخرسه وأقام الحُجَّة عليه، فقنط ويئس من رحمة الله ـ تعالى ـ.

ثانياً: الشيطان:

قال ابن جرير الطبري: «والشيطان في كلام العرب، كل متمرد من الجنّ والإنس والدواب، وكل شيء، وكذلك قال ربنا جل ثناؤه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطيناً مثل الذي جعل من الجن.. قال: وإنما سُمّي المتمرد من كل شيء شيطاناً لمفارقة أخلاقه وأفعاله، أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبُعدِه من الخير»[٢].

وقال الزجّاج: «ومعنى (الشيطان) في اللغة: الغالي في الكفر، المتبعدُ فيه من الجن والإنس»[٣].

---

(١) والآيتان الأخريان اللتان ورد فيهما لفظ «إبليس» هما:
أ ـ قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤، ٩٥].
ب ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٩.

(٣) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ١/ ١١٥.

ويقول العقاد: «واسم (الشيطان) بالألف واللام، هو أشهر هذه الأسماء، لأنه ورد في كتب الديانات الثلاث، ودخل في تعبيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية... قال: ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوي على الخبث والدهاء وحب الأذى والتمتع بالإيذاء... قال: والأرجح عندنا أن الكلمة أصلية في اللغة العربية، قديمة فيها، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية، لأن اللغة العربية اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان»[1].

وأما اشتقاق لفظ «الشيطان» ففيه قولان:

القول الأول: إنه مأخوذ من شطن، إذا بعد عن الخير، ومنه شطنت الدار، ومنه قول نابغة بني ذبيان[2]:

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوًى شَطُونُ ... فبانَتْ والفُؤادُ بها رَهِينُ[3]

وعلى هذا القول فالنون في لفظ «الشيطان» أصلية.

القول الثاني: إنه مشتق من شاط يشيط إذا هلك، وعلى هذا فالنون فيه زائدة، وردّ هذا القول ابن جرير وابن عطية[4]، قال ابن عطية: «ويرد

---

(١) إبليس للعقاد ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) هو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، شاعر جاهلي، من أهل الحجاز، كانت تقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وعدّه عمر بن الخطاب ﷺ أشعر العرب، ولُقِّب بالنابغة لنبوغه في الشعر وإكثاره منه، مات نحو سنة ١٨ قبل الهجرة.
انظر: الشعر والشعراء ص٨٧، الأعلام ٣/٥٤، معجم المؤلفين ٤/١٨٨.

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص١٢٦.

(٤) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي الغرناطي، أبو محمد، كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية، ذكياً فطناً مدركاً، من أوعية العلم، قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة شيخ المفسرين» ولي قضاء المرية، توفي سنة ٥٤١هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/٥٨٧، طبقات المفسرين للداوودي ١/٢٦٥، طبقات المفسرين للسيوطي ص٥٠.

على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعل أفاعيل الشياطين، فهذا يبين أنه تفعيل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا: تشيّط»[١]، واستدل كلٌ من الطبري وابن عطية ببيت أمية بن أبي الصلت[٢]، يصف سليمان عليه السلام:

أيما شاطن عصاه عكاه ورماه في السجن والأغلال

قال الطبري: «لو كان فعلان من شاط يشيط، لقال: أيما شائط، ولكنه قال: أيما شاطن، لأنه من شطن يشطن، فهو شاطن»[٣].

ولا ريب أن الاقتراب من الشر والبعد عن الخير، هو المعنى الذي يوافق حال عدو الله الشيطان، فقد أخبر الله ـ جل وعلا ـ أنه أبعد الشيطان عن كل أسباب الخير وسبله، قال ابن الأثير: «إن جعلت نون الشيطان أصلية كان من الشطن: البُعد، أي بَعُد عن الخير، أو من الحبل الطويل، كأنه طال في الشر، وإن جعلتها زائدة كان شاط يشيط، إذا هلك أو من استشاط غضباً، إذا احتدَّ في غضبه والتهب، والأول أصح»[٤].

وقال الفيروزآبادي[٥]: «شاط يشيط: احترق غضباً، وقيل: منه اشتقاق الشيطان؛ لكونه مخلوقاً من قُوَّة النار، ولكونه من ذلك اختص بالقوة

---

(١) تفسير ابن عطية ١/ ٧٦.

(٢) هو: أمية بن عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي، قدم دمشق قبل الإسلام، وكان مطّلعاً على الكتب المتقدمة، ومات سنة ٥هـ.
انظر: الشعر والشعراء ص٣٠٥، البداية والنهاية ٢/ ٢٠٥، الأعلام ٢/ ٢٣.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٤٩.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٢/ ٤٧٥.

(٥) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي، أبو طاهر، أخذ اللغة والأدب عن والده وغيره من علماء شيراز، وانتقل إلى العراق وأخذ عن علمائها، ثم قدم القاهرة وجال في البلاد الشرقية والشامية حتى صار من أئمة اللغة والأدب ومرجع عصره في الحديث والتفسير، ومصنفاته عديدة، توفي سنة ٨١٦هـ.
انظر: هدية العارفين ٢/ ١٨٠، معجم المؤلفين ١٢/ ١١٨، الأعلام ٧/ ١٤٦.

الغضبية والحميّة الذميمة، والأصح أنه من شطن أي تباعد، ومنه بئر شطون»[1].

ويقول الفخر الرازي[2]: «الشيطان مأخوذ من (شطن) إذا بَعُدَ فحكم عليه بكونه بعيداً»[3].

ولقد أطلق العرب لفظ «الشيطان» على كل من يصدر منه الشر في الغالب، كما يطلقونه على كثير من الحيوانات والآدميين، قال أبو عبيدة: «الشيطان: اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات»[4]، وتقدَّم مثل هذا القول عن ابن جرير والفيروزآبادي.

ومما يدل على إطلاق لفظ «الشيطان» على الإنسي الشرير، ما رواه أبو سعيد الخدري[5] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحداً يمرّ بين يديه، وليدرأ ما استطاع، فإن أبى فليقاتله، فإنما هو شيطان)[6]، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده[7] قال: قال

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي ٣/ ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٢) هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي القرشي البكري الطبرستاني، الإمام المفسر، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير، صاحب التصانيف المشهورة في التفسير والفقه والأصول وغيرها، وقد كان العلماء يقصدونه من البلاد، وكان معظماً عند الملوك، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي، توفي سنة ٦٠٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٤٨، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٢١٥، طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٠.

(٣) التفسير الكبير ١/ ٩٥.

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب، مادة (شطن) ص٢٦٨.

(٥) هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة الخدري الأنصاري الخزرجي، أبو سعيد، صحابي جليل من فقهاء الصحابة، شهد مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وكان ممن حفظ عن رسول الله ﷺ سنناً كثيرة، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين، توفي سنة ٧٤هـ.
انظر: صفة الصفوة ١/ ٧١٤، سير أعلام النبلاء ٣/١٦٨، الاستيعاب ٢/ ٦٠٢.

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة، حديث [٥٠٥] و[٥٠٦] باب منع المار بين يدي المصلي.

(٧) هو: عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي، أحد =

رسول الله ﷺ: (الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاث ركب)[1] قال الخطّابي[2] في شرح هذا الحديث: «معناه والله أعلم: أن التفرُّد والذهاب وحده في الأرض من فعل الشيطان، أو هو شيء يحمله عليه الشيطان ويدعوه إليه، فقيل على هذا: إن فاعله شيطان، ويقال: إن اسم الشيطان مشتق من الشطون، وهو البُعد والنزوح، يقال: بئر شطون، إذا كانت بعيدة المهوى، فيحتمل على هذا أن يكون المراد أن الممعن في الأرض وحده مضاهياً للشيطان في فعله وشبه اسمه، وكذلك الاثنان ليس معهما ثالث، فإذا صاروا ثلاثة، فهم رَكْبٌ، أي جماعة وصحب»[3].

ومما يدل على إطلاق لفظ «الشيطان» على الحيوان، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: (شيطان يَتْبَع شيطانة)[4] فوصفهما ﷺ بأنهما شيطانان لاتِّصاف كل منهما بصفة شيطانية،

= علماء زمانه، وفقيه أهل الطائف ومحدثهم، وكان يتردد إلى مكة وينشر العلم، وحدّث عن أبيه فأكثر وعن غيره، وتردد أصحاب الحديث في الاحتجاج بحديثه، وعُلّل هذا بأن عمرو كان يحدّث بكل ما يسمع، توفي بالطائف سنة ١١٨هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٥/ ٣٣٣، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٦٣، ٥٩٣.

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الاستئذان، حديث [٣٥]، وأحمد في المسند ٢/ ١٨٦، ٢١٤، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ١٥٢ بلفظ (الواحد شيطان)، والحاكم في المستدرك ٢/ ١١٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وصحح النووي إسناده في رياض الصالحين (٣١٧)، وحسّن الألباني إسناده، مشكاة المصابيح ٢/ ١١٤٥.

(٢) هو: حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب الخطّابي البستي، أبو سليمان، كان محدثاً فقيهاً أديباً شاعراً لغوياً، ولد بمدينة بست من بلاد كابل، وأخذ الفقه على مذهب الشافعي، حدث عنه أبو عبد الله الحاكم وأبو محمد الأسفراييني وأبو عبيد الهروي وغيرهم، توفي سنة ٣٨٨هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٣، العبر ٢/ ١٧٤، وفيات الأعيان ٢/ ٢١٤.

(٣) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٣/ ٨٠.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٥، وأبو داود في الأدب، حديث [٤٩٤٠] باب في اللعب بالحمام، وابن ماجه في الأدب حديث [٣٧٦٥] باب اللعب بالحمام، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٥٤٦، وجوّد الألباني إسناده في المشكاة ٢/ ١٢٧٦.

ففي الحمام لما فيها من سرعة الطيران والتقلُّب في الجوّ، وفي الرجل لما فيه من اتّباعها وإعجابه بها حتى شغلته عما هو أهم من الأعمال والواجبات.

ولقد فسّر بعض العلماء لفظ «الشيطان» على ما ألفوه من لغة العرب وإطلاقاتهم كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات: ٦٥]، قال الزجّاج: «إنَّ الشيء إذا استُقبح شُبّه بالشيطان، فقيل: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يُرى ولكنه يُستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، لو رُئي لرئي في أقبح صورة، قال امرؤ القيس[1]:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولم تر الغول قط ولا أنيابها، ولكن التمثيل بما يستقبح أبلغ في باب المذكر، يمثّل بالشيطان، وفي باب ما يستقبح من المؤنث يشبّه بالغول»[2]، وقال الزمخشري[3]: «وشبّه برؤوس الشياطين، دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طِبَاع الناس لاعتقادهم أنه شرٌّ محض لا يخالطه خير»[4]، ويقول القرطبي[5] في تفسيره للآية: «يعني

---

(١) هو: امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، من أشهر شعراء العرب، من أهل نجد من الطبقة الأولى، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة.
انظر: الشعر والشعراء ص٥٢، البداية والنهاية ٢/٢٠٣، الأعلام ٢/١١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٤/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٣) هو: محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي النحوي، أبو القاسم، كبير المعتزلة، كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم، داعية إلى الاعتزال، جاور مكة زماناً، فصار يقال له «جار الله» أصابه خُرَّاج في رجله فقطعها، واتخذ رجلاً من خشب، توفي سنة ٥٣٨هـ.
انظر: طبقات المفسرين للداوودي ٢/٣١٤، وفيات الأعيان ٥/١٦٨، طبقات المفسرين للسيوطي ص١٠٤.

(٤) الكشاف ٣/٣٤٢.

(٥) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، =

الشياطين بأعيانها، شبهها برؤوسهم لقبحهم، ورؤوس الشياطين متصوّر في النفوس وإن كان غير مرئي، ومن ذلك قولهم لكل قبيح: هو كصورة الشيطان، ولكل صورة حسنة: هو كصورة مَلَك، ومنه قوله ـ تعالى ـ مخبراً عن صواحب يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وهذا تشبيه تخييلي»[(١)]، وقال الطاهر بن عاشور[(٢)]: «و(رؤوس الشياطين) يجوز أن يكون مراداً بها رؤوس شياطين الجنّ، جمع شيطان بالمعنى المشهور، ورؤوس هذه الشياطين غير معروفة لهم، فالتشبيه بها حوالة على ما تصوّر لهم المخيّلة، وطلع شجر الزقوم غير معروف، فوُصف للناس فظيعاً بَشِعاً، وشبهت بشاعته ببشاعة رؤوس الشياطين»[(٣)]، وهناك أقوال أخرى في المراد برؤوس الشياطين في الآية:

ـ فقيل: إنها حيّات لها رؤوس وأعراف، وهي من أقبح الحيّات وأخبثها وأخفّها جسماً، قاله الزجّاج[(٤)]، وقال ابن منظور[(٥)]: «وقد تسمى

= أبو عبد الله، من أهل قرطبة، وصاحب التفسير المشهور الذي سارت به الركبان، وكان إماماً عالماً متبحراً في العلوم وله مصنفات تدل على إمامته وفضله، توفي سنة ٦٧١هـ.

انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ص٧٩، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٦٩، معجم المؤلفين ٨/ ٢٣٩.

(١) تفسير القرطبي ١٥/ ٨٦.

(٢) هو: محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، عالم، أديب، كان فصيح عصره، ومفخر مصره، تولى القضاء والفتيا ونقابة الأشراف بتونس، وله عدة مؤلفات، توفي سنة ١٢٨٤هـ.

انظر: هدية العارفين ٢/ ٣٧٨، معجم المؤلفين ١٠/ ١٠١، الأعلام ٦/ ١٧٣.

(٣) التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور ٢٣/ ١٢٤.

(٤) انظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٨٧.

(٥) هو: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن منظور الأنصاري، الإمام اللغوي الحجة، ولد بمصر، وخدم في ديوان الإنشاء في طرابلس، كان صدراً رئيساً، فاضلاً في الأدب، جمع وعمّر وحدّث، وكان مولعاً باختصار كتب الأدب المطولة، توفي في شعبان سنة ٧١١هـ.

انظر: العبر ٤/ ٢٩، بغية الوعاة ١/ ٢٤٨، الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢.

الحية شيطاناً وجانّاً»[(١)]، وقال المبرد[(٢)]:

وفي البقل إن لم يدفع الله شرّه ... شياطين يعدو بعضهم على بعض[(٣)]

ـ وقيل: إنها شجرة معروفة تكون بناحية اليمن، منكرة الصورة، يقال لها: الأستن والشيطان، وإياها عنى النابغة الذبياني بقوله:

تَحيدُ عن أسْتَنٍ سُودٍ أسافِلُهُ ... مَشْيَ الإماءِ الغَوادي تَحْمِلُ الحُزَما[(٤)]

وأطلق بعض العرب لفظ «الشيطان» على فخذ من أفخاذ عشيرتها، إذا اشتهر رجالها بالقوة والشجاعة والإقدام، فقد كان فخذ من أفخاذ بني سعد يطلق عليهم «بنو شيطان» ومنه قول طفيل الغنوي[(٥)]:

وقد منّت الخذواء منّاً عليهم ... وشيطان إذْ يدعوهم ويثوب[(٦)]

وأطلق العرب على العطش «شيطان الفلا»[(٧)]، كما أطلقوا لفظ «الشيطان» على الغضب، وهذا الإطلاق مأخوذ من اشتقاق لفظ «الشيطان»، على القول بأنه مشتق من شاط يشيط إذا هلك، أو من استشاط غضباً، إذا

---

(١) لسان العرب مادة (شطن).

(٢) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، إمام العربية ببغداد في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، وكان كثير الأمالي حسن النوادر، مفوّهاً وعلّامة ثقة، وإنما لُقّب بالمبرِّد لأنه لما صنّف المازني في كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه، فأجابه بأحسن جواب، فقال له: قم فأنت المبرِّدُ، وله تصانيف مفيدة، توفي سنة ٢٨٥هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/٤٧٦، نزهة الألباب ٢/١٤٩، البلغة ص٢١٦.

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ٢٣/٩٦.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص١٠٣.

(٥) هو: طفيل بن عوف بن كعب الغنوي، أبو محمد، شاعر جاهلي، فحل من الشجعان، كان من أوصف العرب للخيل، وكان يقال له في الجاهلية «المُحَبِّر» لحسن شعره، عاصر النابغة الجعدي، وزهير بن أبي سلمى، مات نحو سنة ١٣ قبل الهجرة.
انظر: الشعر والشعراء ص٣٠٠، معجم المؤلفين ٥/٤١، الأعلام ٣/٢٢٨.

(٦) لسان العرب مادة (شطن).

(٧) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي مادة (الشطن) (١٥٦١).

احتد في غضبه والتهب، والشيطان يدفع الإنسان إلى الغضب ويثيره في نفسه، فعن عروة بن محمد السعدي قال: حدثني أبي عن جدي عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[1].

وكذلك أطلق العرب لفظ «الشيطان» على وَسْم الإبل، قال ابن منظور: «والشيطان من سِمَات الإبل، وَسْمٌ يكون في أعلى الوَرْك مُنتَصباً على الفخذ إلى العرقوب ملتوياً»[2].

وأما استعمال القرآن الكريم للفظ «الشيطان»، فإنه يعتبر أكثر الألفاظ إطلاقاً على الشيطان في القرآن الكريم، حيث ورد ذكره في ثمانية وثمانين موضعاً مفرداً ومجموعاً، من خلال سياق آيات متعددة المواضيع والأحداث: فمن ذلك بيان القرآن الكريم لوسوسة الشيطان لأبينا آدم عليه السلام وإخراجه وزوجه من الجنة، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . . .﴾ الآية [البقرة: ٣٦]، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . .﴾ الآية [الأعراف ٢٠]، وجاء إطلاق هذا اللفظ في سياق تحذير القرآن الكريم من اتِّباع خطوات عدو الله والاغترار بتزيينه الباطل، فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٦٨]، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١٤٢]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]، وكذلك تكرر إطلاق «الشيطان» على عدو الله في سياق بيان الآيات الكريمة ضعفَ الشيطان وهوان جنده وأوليائه، فمن ذلك

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٢٢٦، وأبو داود في الأدب، حديث [٤٧٨٤] باب ما يقال عند الغضب، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ومذمومها، حديث [٣٤٤]، والبغوي في شرح السنة ١٣/ ١٦١.

(٢) لسان العرب مادة (شطن).

قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٧٥]، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وأطلق عليه أيضاً هذا اللفظ من خلال الآيات التي تبيّن عداوة هذا المخلوق للإنسان، وتدعو الإنسان إلى معاداته، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . . .﴾ الآية [فاطر: ٦].

وأيضاً جاء هذا اللفظ في سياق حثّ الإنسان على اللّجوء إلى الله عند نزغ الشيطان ومسّه وأمْرِ الإنسان بالاستعاذة من هذا العدو، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، ونجد هذا الإطلاق في سياق الآيات التي تبيّن حفظ الله للسماوات من استراق الشياطن السمع، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: ١٦، ١٧]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٦، ٧]، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢]، وفي بيان مس الشيطان للإنسان وتخبّطه له، نجد القرآن الكريم يطلق عليه هذا اللفظ «الشيطان»، فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١]، ويبرز هذا اللفظ من خلال سياق الآيات الموضحة لعمل الشيطان، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠]، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ . . .﴾ الآية [القصص: ١٥].

ونجده أيضاً في الآيات التي تكشف إنساء الشيطان للإنسان ما فيه

منفعته وصلاحه، يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ . . .﴾ الآية [الكهف: ٦٣].

وحين يقرر القرآن الكريم كفر إبليس وتعليمه السحر للناس وتنزله على السحرة والكهان، نجده يطلق على هذا العدو اسم «الشيطان»، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وعندما يكشف القرآن الكريم عن براءة الشيطان وتخلّيه عن اتباعه في الدنيا والآخرة، نجد لهذا اللفظ نصيباً في الإطلاق القرآني، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . . .﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ الآية [الحشر: ١٦]، إلى غير ذلك من المجالات التي أوضح القرآن الكريم فيها أصل الشيطان واستكباره على ربه ـ تعالى ـ وغوايته لآدم وزوجه، وكشف فيها القرآن الكريم عن وسائل عدو الله وأساليبه الماكرة وخططه التي يستهدف بها الإنسان، وحذّر فيها من اتباع خطواته والاغترار بزخرفته للباطل وتزيينه له.

ثالثاً: الطاغوت:

قال الجوهري[(١)]: «الطاغوت: الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلالة»[(٢)]، وقال الفيروزآبادي: «الطاغوت: اللّات والعُزَّى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومردة أهل الكتاب»[(٣)].

---

(١) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري، أحد أئمة اللسان، ومن أعاجيب الزمان ذكاءً وفطنةً وعلماً، وخطه يضرب به المثل في الجودة، أصله من بلاد الترك من فاراب، وهو أول من حاول الطيران، حيث شدّ له دفين كجناحين وقال: أريد أن أطير، فوقع فمات سنة ٣٩٣هـ. انظر: معجم الأدباء ٢/ ٢٠٥، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٨٠، بغية الوعاة ١/ ٤٤٦.

(٢) الصحاح للجوهري مادة «طغا» ٦/ ٢٤١٣.

(٣) القاموس المحيط مادة «طغا».

وقال الواحدي[1]: «قال جميع أهل اللغة: الطاغوت كل ما عُبد من دون الله، وقال ابن عباس والمفسرون: الطاغوت، الشيطان»[2].

وقال الزجّاج: «والطاغوت: الشيطان، وكل معبود من دون الله فهو طاغوت، والدليل على أن الطاغوت الشيطان قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]»[3].

وروى ابن جرير عن مجاهد والشعبي[4] والضحاك وقتادة والسُّدّي[5] أن المراد بالطاغوت: الشيطان[6].

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان[7]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر قول عمر رضي الله عنه: «ومعنى قوله في الطاغوت إنه الشيطان قوي جداً، فإنه يشمل كل شرٍّ كان عليه أهل

---

(١) هو: علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، أبو الحسن، الإمام المصنف المفسر، أستاذ عصره، أنفق صباه وأيام شبابه في التحصيل، فأتقن الأصول على الأئمة وسافر في طلب الفوائد، ولازم أبا إسحاق الثعالبي، وأخذ عنه التفسير، وقعد للتدريس والإفادة سنين، وتخرج به طائفة من الأئمة، توفي سنة ٤٦٨هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٣، بغية الوعاة ٢/ ١٤٥، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٣٩٤.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ١/ ٣٦٧ بتصرف يسير.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٧٨.

(٤) هو: عامر بن شراحيل بن عبدٍ الشعبي الحميري، أبو عمرو الكوفي، من كبار التابعين، كان فقيهاً شاعراً، وأدرك كثيراً من الصحابة، وكان ذا أدب وعلم على دعابة فيه، قال مكحول: «ما لقيت أحداً أعلم بسنة ماضية من الشعبي»، توفي سنة ١٠٣هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٦/ ٤٥٠، الكنى والأسماء للإمام مسلم ١/ ٥٦٣، تاريخ الثقات ص٢٤٣.

(٥) هو إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن أبي كريمة الحجازي ثم الكوفي الأعور السدّي، أبو محمد، أحد موالي قريش، إمام في التفسير، عارف بالوقائع وأيام الناس، سكن الكوفة، روى عن ابن عباس وأنس رضي الله عنهما ورأى ابن عمر رضي الله عنه، توفي سنة ١٢٧هـ.
انظر: التاريخ الكبير ١/ ٣٦١، تاريخ الثقات ص٦٦، الطبقات الكبرى ٦/ ٣١٨.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ١٣٢ ـ ١٣٣، وانظر: تفسير ابن عطية ٢/ ٣٩٢.

(٧) تفسير الطبري ٥/ ١٣١، وابن كثير ١/ ٣١٢.

الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها»[1]، ويقول ابن قتيبة[2]: «كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان، فهو جبت وطاغوت»[3].

وقال ابن عطية: «والطاغوت: كل ما عبد من دون الله تعالى، والطاغوت أيضاً: الشيطان»[4].

فاسم الطاغوت يشمل كل ذي طغيان من الإنس والجن، يقول ابن جرير بعد أن ذكر الأقوال في معنى «الطاغوت»: «والصواب من القول في الطاغوت: أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً»[5]، ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب[6]: «والطاغوت عام، فكل ما عبد من دون الله، ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، فهو طاغوت»[7].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٢.

(٢) هو: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد، كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة ديّناً فاضلاً، ولي قضاء الدينور، وحدّث عن إسحاق بن راهويه وأبي حاتم السجستاني، له مصنفات بديعة ومحتوية على علوم جمّة نافعة، توفي سنة ٢٧٦هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٦، العبر ١/ ٣٩٧، وفيات الأعيان ٣/ ٤٢.

(٣) تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة ص١٢٨.

(٤) تفسير ابن عطية ١٢/ ٥١٩.

(٥) تفسير الطبري ٥/ ١٣٣.

(٦) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، الإمام العالم المصلح، شيخ الدعوة السلفية في نجد، فقد قمع الله على يدي هذا الإمام البدع والخرافات التي كانت منتشرة في عصره، وأعاد الناس إلى معين الإسلام الصافي، ولقد تأثر بدعوته رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، وله مؤلفات جمة، توفي ﷺ سنة ١٢٠٦هـ.

انظر: هدية العارفين ٢/ ٣٥٠، الأعلام ٦/ ٢٥٧، معجم المؤلفين ١٠/ ٢٦٩.

(٧) مجموعة التوحيد ١/ ١٤ ـ ١٥ تحقيق: بشير عيون.

ولا ريب أن عدو الله الشيطان له النصيب الأكبر من اسم «الطاغوت»، فهو مصدر كل طغيان والداعي إليه، يقول محمد الأمين الشنقيطي[(١)]: «والتحقيق: أن كل ما عبد من دون الله فهو الطاغوت، والحظ الأكبر من ذلك للشيطان، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ . . .﴾ الآية [يس: ٦٠]، وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء: ١١٧]»[(٢)]، ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب: «ولما كان الشيطان بحبائله ووسائله ومغوياته هو أطول باعاً، وأوسع حيلة من غيره في إغواء الناس وإضلالهم، كان أولى من غيره بإطلاق اسم (الطاغوت) عليه، وكان كل من دعا إلى ضلالة من ضلالات الشيطان طاغوتاً مثله»[(٣)]، فإذا أطلق لفظ «الطاغوت» فإنه يشمل الشيطان، وغيره من ذوي الطغيان، ولا يقتصر على عدو الله إبليس، فالعلماء حين يعرّفون «الطاغوت» ببعض الأسماء، فإنهم يريدون بها التمثيل لا الحصر. قال ابن عطية: بعد أن ذكر الأقوال في «الطاغوت»: «وبَيّنٌ أن هذه أمثلة في الطاغوت، لأن كل واحد منها له طغيان، والشيطان أصل ذلك كله»[(٤)]، ويقول الألوسي[(٥)]: «والأولى أن يقال بعمومه سائر ما

---

(١) هو: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ولد عند ماء يسمى (تَنْبه) من أعمال مديرية (كيفا) بشنقيط وهي موريتانيا الآن، توفي والده وهو صغير، وحفظ القرآن مبكراً، وعمل في الدرس والفتيا والقضاء، واشتهر بالفراسة، قدم الحجاز لأداء فريضة الحج فآثر البقاء وجلس للتدريس في المسجد النبوي وأفاد كثيراً توفي سنة ١٣٩٣هـ.
انظر: ترجمته التي كتبها الشيخ عطية محمد سالم، أضواء البيان ١/ ١٨ ـ ٦٤.

(٢) أضواء البيان ١/ ٢٩٠.

(٣) الإنسان في القرآن الكريم، لعبد الكريم الخطيب ص١٥٨.

(٤) تفسير ابن عطية ٢/ ٣٩٢.

(٥) هو: محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء، من أهل بغداد، وعلّامة العراق في زمنه، مفسر، محدث، أديب، سلفي الاعتقاد، تولى الإفتاء ببلده، ثم عزل، وسافر وجمع ثم عاد إلى بغداد وأكمل تأليف مصنفاته، توفي سنة ١٢٧٠هـ.
انظر: هدية العارفين ٢/ ٤١٨، الأعلام ٧/ ١٧٦، معجم المؤلفين ١٢/ ١٧٥.

يطغى، ويجعل الاقتصار على بعض في تلك الأقوال من باب التمثيل»[1].

وأما أصل لفظ «الطاغوت» فيقول ابن جرير: «وأرى أن أصل الطاغوت: الطغَووت، من قول القائل: طغا فلان يطغو، إذا عدا قدره فتجاوز حدّه، كالجبروت من التجبّر، والحلبوت من الحلب، ونحو ذلك من الأسماء التي تأتي على تقدير فعلوت بزيادة الواو والتاء، ثم نقلت لامه، أعني لام الطغووت، فجعلت له عيناً وحوّلت عينه، فجعلت مكان لامه، كما قيل: جذب وجبذ وجابذ وجاذب، وصاعقة وصاقعة»[2].

وقال أبو حيان[3]: «وهو ـ أي لفظ طاغوت ـ، مقلوب أصله طغووت من طغى فقلب، جعلت اللام مكان العين، فصار طوغوت، فقلبت الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها وتحركها، فصار طاغوت»[4].

و«الطاغوت» يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، قال الزجّاج: «الطاغوت في قول النحويين أجمعين يُذكَّر ويؤنَّث»[5]، فمثاله على الواحد المذكّر، قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦]، قال أبو عبيدة: «إنما ذُكّر وأُنِّث لأنهم كانوا يُسَمُّون الكاهن والكاهنة طاغوتاً»[6]، ويرى الأخفش[7]

---

(١) روح المعاني ٣/ ١٣.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ١٩.

(٣) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، قال الصفدي: «لم أرَ في أشياخي أكثر اشتغالاً منه، لأني لم أرَه إلا وهو يسمع أو يشغَل أو يكتب، ولم أره على غير ذلك»، توفي سنة ٧٤٥هـ.
انظر: العبر ٤/ ١٣٤، بغية الوعاة ١/ ٢٨٠، نكت الهميان للصفدي ص٢٨٠.

(٤) تفسير النهر الماد بهامش البحر المحيط ٢/ ٢٨٢.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٧٨.

(٦) تفسير القرطبي ٥/ ٢٨٠.

(٧) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري النحوي، من أئمة العربية، أخذ النحو عن سيبويه، من أهل بلخ، سكن البصرة، وله كتب كثيرة في النحو =

وابن عطية أن سبب تأنيثها لوقوعها على جماعة الشياطين، قال ابن عطية: «وأوقعه هنا على جماعة الشياطين، ولذلك أُنّث الضمير في ﴿يَعۡبُدُوهَا﴾»[1].

ومثال وقوعه على الجمع، قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]. وقرأ الحسن: «أولياؤهم الطواغيت»[2]، ويرى ابن جرير بأنه جُمع خبر «الطاغوت» «يخرجونهم»، لأن الطاغوت اسم للجمع الواحد، وقد يجمع طواغيت، وإذا كان جمعه وواحده بلفظ واحد، كان مثل قولهم: رجل عدل، وقوم عدل وما أشبه ذلك، واستدل ببيت العباس بن مرداس[3]:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور[4]

ويرى الزجّاج جواز مجيء لفظ «الطاغوت» في معنى الجماعة، إذا كان في الكلام دليل على الجماعة[5].

وقيل: إن الطاغوت مصدر في الأصل، ولذلك لزم الإفراد والتذكير، وإليه ذهب سيبويه[6]، وقيل: هو جمع، وهو مذهب المبرد

= والعروض ومعاني القرآن، وهو الذي زاد في العروض بحر «الخبب» مات سنة ٢١٥هـ.
انظر: معجم الأدباء ٣/ ٣٨٢، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٦، وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٠.

(١) تفسير ابن عطية ١٢/ ٥١٩، وانظر: معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧١.

(٢) تفسير القرطبي ٣/ ٢٨٣.

(٣) هو: العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمي، أسلم قبل فتح مكة بيسير، وكان من المؤلفة قلوبهم، وممن حَسُن إسلامهم منهم، وشهد مع النبي ﷺ الفتح وحنيناً، توفي نحو سنة ١٨هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٤/ ٢٠٥، الاستيعاب ٢/ ٨١٧، الإصابة ٤/ ٣١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٣، والإحن: الحقدُ في الصدور.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٣٤٠.

(٦) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي البصري، أبو بشر، أصله من البيضاء من أرض فارس، ومنشؤه البصرة، إمام النحو، حجة العرب، أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، أخذ النحو عن الخليل بن أحمد، وأخذ اللغة عن الأخفش الأكبر، وقد كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقه، ثم أقبل على العربية، فبرع وساد أهل عصره، توفي سنة ١٨٠هـ. =

والأخفش[1]، وردّ ذلك ابن عطية[2].

ولفظ «الطاغوت» في الشريعة الإسلامية يتناول الأمور الآتية:

١ ـ الشيطان، وله الحظ الأكبر من مُسمّى الطاغوت.

٢ ـ كل ما يعبد من دون الله ـ تعالى ـ من إنس أو جن أو صنم أو حجر أو شجر، فقد أثنى الله ـ تعالى ـ على الموحدين له ـ جل ثناؤه ـ في العبادة والمعرضين عن عبادة الطاغوت في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ...﴾ الآية [الزمر: ١٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾ الآية [النحل: ٣٦].

٣ ـ الحاكم بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ، إذ هو طاغية متجاوز الحدّ، متعدٍّ على سلطان الله ـ تعالى ـ، ولذا وصفه ـ تعالى ـ بأقبح الصفات وهي: الكفر، والظلم، والفسق، ونعى ـ تعالى ـ على من يدّعي الإيمان ثم يتحاكم إلى الطاغوت، بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذا إنكار من الله ﷻ على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسُنَّة رسوله، كما ذُكر في سبب نزول هذه الآية، أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود، تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني

= انظر: معجم الأدباء ٤/٤٩٩، بغية الوعاة ٢/٢٢٩، البلغة ص١٦٣.

(١) انظر: تفسير القرطبي ٣/٢٨١، وتفسير ابن عطية ٢/٣٩٢، ومعاني القرآن للأخفش ١/٣٨٠.

(٢) انظر: تفسير ابن عطية ٢/٣٩٢.

وبينك كعب بن الأشرف[1]، وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهر الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكّام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعمُّ من ذلك كله، فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا»[2]، ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز: «والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومُروِّجوها طواغيت، وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، إما قصداً، أو عن غير قصد من واضعه، فهو طاغوت»[3].

٤ ـ الكهان والسَّحرة والعرّافون وأمثالهم، فإنهم طواغيت، حيث إنهم يجترئون على الله ـ تعالى ـ بادّعاء الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]، ولما في سحر هؤلاء من مجاوزة الحدّ في إيذاء الناس وإثارة الفتنة بينهم، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٢].

---

(١) هو: كعب بن الأشرف الطائي، من بني نبهان، شاعر جاهلي، دان باليهودية، وأدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، والتشبيب بنسائهم، وكان يقيم في حصن له قريب من المدينة، ولما كانت وقعة «بدر» حض على الأخذ بثأر قتلى قريش، فأمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الصحابة فقتلوه في قصة مذكورة في كتب السير، وذلك سنة ٣هـ.
انظر: تاريخ الطبري ٢/ ٥٢، الكامل لابن الأثير ٢/ ٩٩، البداية والنهاية ٤/ ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٠.

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمٰن آل شيخ ص٢٩٣، تصحيح وتعليق سماحة الشيخ ابن باز.

٥ - كل من رضي بالطاغوت، وأقرّه على فعله، واعترف به وركن إليه، فهو طاغوت أخرس، لموالاته الطاغوت، والتزامه لدعوته.

٦ - كل مذهب أو منهج أو طريقة لا تتفق مع شريعة الإسلام، فهو طاغوت أيضاً، لمجاوزته ما شرعه الله - تعالى - لعباده، وإخلاله بالمنهج الإلهي، يقول سيد قطب رحمه الله: «والطاغوت: صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي، ويجوز على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنّها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله...»[(١)].

ولقد جاء لفظ «الطاغوت» في القرآن الكريم في ثمانية مواضع، وهي في أعمِّ معانيها تدور حول الشيطان وحزبه، فسأذكر هذه المواضع مع زيادة بيان وشرح من أقوال العلماء والمفسرين، وذلك فيما يأتي:

١ - قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال البغوي[(٢)] في معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾: «يعني الشيطان»[(٣)].

وقال المراغي[(٤)] عند شرح هذه الآية: «أي فمن يكفر بما تكون

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٩٢.

(٢) هو: الحسين بن مسعود بن محمد بن الفرّاء البغوي الشافعي، كان سيداً إماماً عالماً علّامة، ديِّناً فاضلاً وزاهداً قانعاً باليسير، له مصنفات مفيدة في الفقه والتفسير، والحديث وغيرها، توفي سنة ٥١٠هـ.

انظر: وفيات الأعيان ٢/ ١٣٦، سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٣٩، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٥٧.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٣١٤.

(٤) هو: أحمد بن مصطفى المراغي، مفسر مصري، من العلماء، كان مدرس =

عبادته، والإيمان به، سبباً في الطغيان والخروج عن الحق، من عبادة مخلوق، إنساناً كان أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو تقليد رئيس أو طاعة هوى، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه، ولا يرجو شيئاً من أحد سواه»[1].

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال ابن عباس وعكرمة وآخرون، الطاغوت في الآية: الشياطين[2].

يقول القاسمي[3]: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾: أي الشياطين، وسائر المضلين عن طريق الحق ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس وغيرها من طريق الإضلال والإغواء ﴿مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ أي الإيمان الفطري الذي جبل عليه الناس كافة، أو من نور البيِّنات التي يشاهدونها من جهة النبي ﷺ ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي ظلمات الكفر والغيّ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾»[4].

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

= الشريعة الإسلامية بدار العلوم، ولي نظارة بعض المدارس، وعُيّن أستاذ اللغة العربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧١هـ.
انظر: الأعلام ١/ ٢٥٨.

(١) تفسير المراغي ٣/ ١٧.
(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ١/ ٣٠٦.
(٣) هو: محمد بن سعيد بن قاسم القاسمي الحلاق، أبو محمد، إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلعاً من فنون الأدب، كان سلفي العقيدة، انتدبته الحكومة للرحلة وإلقاء الدروس العامة في القرى والبلاد السورية، ثم رحل إلى مصر، وزار المدينة، وعاد إلى دمشق وانقطع للتصنيف وإلقاء الدروس في التفسير والشريعة الإسلامية والأدب، وله مصنفات كثيرة، توفي سنة ١٣٣٢هـ.
انظر: الأعلام ٢/ ١٣٥، معجم المؤلفين ٣/ ١٥٧.
(٤) محاسن التأويل للقاسمي ٣/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧، ط. دار الفكر، الثانية ١٣٩٨هـ.

تعددت الأقوال في المراد بالطاغوت في الآية، فروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه الشيطان، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير(١) وأبو العالية(٢) وقتادة، الطاغوت: الكاهن، وقال ابن مسعود: الطاغوت هاهنا المراد به كعب بن الأشرف وحُيي بن أخطب(٣)، واستدل بقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال عكرمة: الجبت والطاغوت، هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله، وقال محمد بن سيرين(٤) ومكحول(٥): الطاغوت، الساحر(٦)، وقال مجاهد

---

(١) هو: سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء، أبو عبد الله، مولى بني والبة بن الحارث، أحد أعلام التابعين، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم كان يقال له: جهبذ العلماء، وكان ابن عباس إذا حج أهل الكوفة وسألوه يقول: أليس فيكم سعيد بن جبير؟ قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٣/ ٤٦١، الثقات ٤/ ٢٧٥، الحلية ٤/ ٢٧٢.

(٢) هو: رفيع بن مهران الرياحي البصري، أبو العالية، أحد أعلام التابعين، أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سمع من عمر وعلي وأُبيّ وأبي ذر وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم، وحفظ القرآن وقرأه على أُبيّ بن كعب، وتصدر لإفادة العلم، وبَعُدَ صيته، قال ابن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم من أبي العالية»، توفي سنة ٩٠هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٧/ ٧٩، حلية الأولياء ٢/ ٢١٧، الكنى والأسماء ١/ ٦٢١.

(٣) هو: حيي بن أخطب النضري، جاهلي، كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، وكان من الأشداء العتاة، أدرك الإسلام ولم يسلم وآذى المسلمين، وأسر يوم قريظة، فقتل وذلك سنة ٥هـ.
انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٤٨، الأعلام ٢/ ٢٩٢.

(٤) هو: محمد بن سيرين البصري، أبو بكر، تابعي، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، إمام وقته في علوم الدين، ورعٌ ثقة مأمونٌ فقيهٌ قد أعطى هدياً وسمتاً وخشوعاً، نشأ بزازاً، في أذنه صمم، واستكتبه أنس بن مالك، واشتهر بتعبير الرؤيا، وقال ابن عون: «لم أر مثل محمد بن سيرين»، توفي سنة ١١٠هـ.
انظر: صفة الصفوة ٣/ ٢٤١، تذكرة الحفاظ ١/ ٧٧، الكاشف ٣/ ٥١.

(٥) هو: مكحول بن عبد الله الشامي، أبو عبد الله، تابعي، ثقة، إمام أهل الشام في زمانه، طاف الأرض في طلب العلم، وكان له وجاهة عند الناس، قال أبو حاتم: (ما أعلم بالشام أفقه من مكحول)، وقال الزهري: العلماء أربعة، فذكر منهم مكحولاً، توفي سنة١١٣هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٤٣٩، وفيات الأعيان ٥/ ٢٨٠، البداية والنهاية ٩/ ٣١٧.

(٦) انظر: تفسير البغوي ٢/ ٢٣٤، وتفسير ابن عطية ٤/ ٩٨ ـ ٩٩، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٤٨.

والشعبي وزيد بن أسلم(١)، الطاغوت: الشيطان(٢)، وقيل غير ذلك.

٤ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

روى ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس(٣) والضحاك، أن المراد بالطاغوت في هذه الآية: كعب بن الأشرف(٤)، ورجّحه ابن عطية(٥).

٥ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

قال ابن جرير في معنى قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾: «يعني: في طاعة الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه من أهل الكفر بالله»(٦).

ويقول الشيخ السعدي عند تفسير هذه الآية: «هذا إخبار من الله بأن

---

(١) هو: زيد بن أسلم العدوي العمري، أحد التابعين، كان إماماً حجة قدوة، روى عن ابن عمر وجابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع وأنس بن مالك ﷺ، وكان له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ، توفي سنة ١٣٦هـ.
انظر: الثقات ٤/٢٤٦، سير أعلام النبلاء ٥/٣١٦، العبر ١/١٤١.

(٢) تفسير ابن عطية ٤/٩٩.

(٣) هو: الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي، روى عن أنس بن مالك وأبي العالية الرياحي والحسن البصري وغيرهم، وكان عالم مرو في زمانه، وسمع من ابن المبارك، قال النسائي: «ليس به بأس» وذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة ١٣٩هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص١٥٣، الثقات لابن حبان ٦/ ٣٠٠، تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٧.

(٤) تفسير الطبري ٥/١٥٣ ـ ١٥٥، وزاد المسير ٢/ ١٢٠.

(٥) انظر: تفسير ابن عطية ٤/ ١١٥.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ١٦٩.

المؤمنين يقاتلون في سبيله، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الذي هو الشيطان، في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد، يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه، ومتابعته، فالجهاد في سبيل الله، من آثار الإيمان، ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت، من شُعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله، ينبغي له، ويحسن منه من الصبر والجَلَد، ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون، ويقاتلون، وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك»[1].

وقد دلَّت هذه الآية الكريمة على أن المراد بالطاغوت في الآية: الشيطان، حيث قال ـ تعالى ـ بعد ذكر الطاغوت: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، قال ابن عطية: «وتدل قرينة ذكر الشيطان بعد ذلك على أن المراد بالطاغوت هنا: الشيطان»[2].

٦ ـ وقال الحق ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: ٦٠].

قال البغوي في معنى قوله ـ تعالى ـ: «وعَبَدَ الطاغوت»: «أي جعل منهم من عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان، فيما سوّل له، وتصديقها قراءة ابن مسعود: (ومن عبدوا الطاغوت)»[3].

٧ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ١/ ٣٧١.
(٢) تفسير ابن عطية ٤/ ١٣٤.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٧٥.

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: ٣٦].

يقول الطبري عند تفسير هذه الآية: «يقول: وابعدوا عن الشيطان، واحذروا أن يغويكم، ويَصُدَّكم عن سبيل الله، فتضلّوا»(١).

٨ - ويقول جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

روى ابن جرير عن مجاهد وابن سيرين والسدّي أن الطاغوت هاهنا في الآية: الشيطان(٢).

وأما سبب نزول هذه الآية، فروي عن ابن زيد أنها نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل(٣)، وسلمان الفارسي(٤)، وأبي ذر الغفاري، والإشارة في الآية إليهم، وقال ابن إسحاق(٥): «الإشارة بها إلى عبد الرحمٰن بن

---

(١) تفسير الطبري ١٤/١٠٣.

(٢) تفسير الطبري ٢٣/٢٠٦.

(٣) هو: زيد بن عمرو بن نفيل العدوي والد سعيد بن زيد ﷺ، ابن عم عمر بن الخطاب، ولم يدرك الإسلام، وكان يعيب على قريش عبادتهم الأوثان وذبحهم لغير الله تعالى ووأدهم البنات، رحل إلى الشام فسأل اليهود والنصارى عن العلم والدين فلم يعجبه جوابهم، فرجع إلى مكة وهو على دين إبراهيم الخليل ﷺ، وروي عنه أنه كان يقول للرجل إذا أراد قتل ابنته: مهلاً لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، مات على دين إبراهيم وكان المسلمون يترحمون عليه وكان قد توفي قبل البعثة بسبع عشرة سنة.
انظر: الطبقات الكبرى ١/١٢٨، ٣/٢٩٠، الأنساب ٤/١٦٨، الإصابة ٣/٣١.

(٤) هو: سلمان ابن الإسلام أبو عبد الله الفارسي، صحابي جليل، سابق الفرس إلى الإسلام، وحدّث عن النبي ﷺ وخَدَمَهُ، وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث فخرج في طلب ذلك فأُسِرَ وبيع في المدينة، فاشتغل بالرقّ حتى كان أول مشاهده الخندق وشهد بقية المشاهد وفتوح العراق وولي المدائن، توفي سنة ٣٥هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/٦٣٤، سير أعلام النبلاء ١/٥٠٥، الإصابة ٣/١١٣.

(٥) هو: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، كان ثبتاً في الحديث عند أكثر العلماء، إماماً =

عوف[1]، وسعد بن أبي وقاص[2]، وسعيد بن زيد[3]، والزبير، رضي الله تعالى عنهم»[4].

رابعاً: الغَرُور:

ومن الإطلاقات التي استعملها القرآن الكريم في جانب الشيطان، لفظ «الغَرور» بفتح الغين:

قال أبو عبيدة: «كل شيء غرّك حتى تعصي الله - تعالى - وتترك ما أمرك سبحانه به، فهو غَرور، شيطاناً أو غيره»[5].

= في المغازي والسير، وهو أول من جمع مغازي رسول الله ﷺ وألّفها، وقد رأى أنس بن مالك رضي الله عنه، وروى عن الزهري ونافع، توفي سنة ١٥١هـ.
انظر: الثقات ٧/ ٣٨٠، تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٢، وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٦.

(١) هو: عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث القرشي الزهري، أبو محمد، من كبار الصحابة، وممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة والمدينة، وشهد بدراً وما بعدها، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وصلّى النبي ﷺ خلفه في بعض الأسفار، توفي سنة ٣٢هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٥/ ٢٣٩، الاستيعاب ٢/ ٨٤٤، سير أعلام النبلاء ١/ ٦٨، الإصابة ٤/ ١٧٦.

(٢) هو: سعد بن مالك بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة القرشي الزهري المكي، أبو إسحاق، من كبار الصحابة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، وشهد بدراً والحديبية، وسائر المشاهد، وكان مجاب الدعوة، مشهوراً بذلك، توفي بالعقيق سنة ٥٥هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/ ٦٠٦، سير أعلام النبلاء ١/ ٩٢، الإصابة ٣/ ٨٣.

(٣) هو: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي، أبو الأعور، صحابي جليل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين البدريين، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وله أحاديث يسيرة، وشهد حصار دمشق وفتحها، وولاه عليها أبو عبيدة بن الجراح، توفي سنة ٥٠هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/ ٦١٤، سير أعلام النبلاء ١/ ١٢٤، الإصابة ٣/ ٩٦.

(٤) تفسير ابن عطية ١٢/ ٥١٩.

(٥) روح المعاني للألوسي ٢١/ ١٠٨.

ويقول الطبري: «الغَرور بفتح الغين: هو ما غرّ الإنسان من شيء كائناً ما كان، شيطاناً كان، أو إنساناً، أو دُنيا»[(١)].

وقال ابن السكّيت[(٢)]: «الغَرور: الشيطان، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]»[(٣)].

فلفظ «الغَرور» يدخل فيه كل ما غرّ الإنسان وخَدَعهُ من شيطان ومال وشهوة وجاه... إلى غير ذلك، ولكنه يختص بالشيطان أكثر من غيره، لكونه الداعي إلى كل ما يغرّ، كي يُعصى الله وتُترك طاعته ـ سبحانه ـ، ولأنه رأس الغُرور ومصدره، ولتربصه بالإنسان الضعف والغفلة فيدخل عليه من خلالهما بغروره وتزيينه الباطل والمنكر، يقول الراغب: «فالغَرور: كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فُسّر بالشيطان، إذ هو أخبث الغارّين»[(٤)].

ويقول ابن الأثير: «وسُمّي الشيطان غروراً، لأنه يحمل الإنسان على محابّه، ووراء ذلك ما يَسُوء»[(٥)]، ويقول ابن حجر: «والغَرور كل ما يَغر الإنسان، وإنما فسّر بالشيطان لأنه رأسٌ في ذلك»[(٦)]، ويقول ابن الجوزي[(٧)] في بيانه معنى الغَرور: «والغَرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٨٦.

(٢) هو: يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف، المعروف بابن السكيت، كان عالماً بالقرآن ونحو الكوفيين واللغة والشعر، راوية ثقة، وكان معلماً للصبيان ببغداد، له تصانيف كثيرة في النحو ومعاني الشعر وتفسير دواوين العرب، زاد فيها على من تقدمه، توفي سنة ٢٤٤هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/ ٦٤٢، بغية الوعاة ٢/ ٣٤٩، البلغة ص٢٤٣.

(٣) الصحاح للجوهري مادة (غرر).

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٣٧١.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٣٥٦.

(٦) فتح الباري ١١/ ٢٥٥.

(٧) هو: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد القرشي التيمي، كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث، رأساً في الوعظ والتذكير بلا مدافعة، علامة في التفسير والسير والتاريخ، =

صحيحاً، والرديء جيداً: وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك، وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه ويزيد تمكّنه منهم، ويقلّ على مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلمهم»[1].

وأصل الغَرور من غرّ فلاناً، إذا أصاب غُرَّته أي غفلته، ونال منه ما يريد به الخداع[2].

فالغرور على وزن «الفعول»، وهي صيغة مبالغة، أطلقت على الشيطان لكثرة غَروره، يقول الزجّاج: «الغَرور على وزن الفَعُول، وفعول من أسماء المبالغة، تقول: فلان أَكُول، إذا كان كثير الأكل، وضَرُوب، إذا كان كثير الضّرْب، ولذلك قيل للشيطان: الغَرور، لأنه يغرّ ابن آدم كثيراً»[3].

ولقد فسّر كثير من العلماء «الغَرور» في القرآن الكريم بالشيطان. فرواه البخاري عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]، ورواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك[5]، وبه قال مالك عن زيد بن أسلم، وفسّره بالشيطان أيضاً الزجّاج في معانيه[6]، وكذلك ابن قتيبة وأبو حيان[7]، وبه قال أبو حاتم[8]

= فقيهاً، عليماً بالإجماع والاختلاف، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، توفي سنة ٥٩٧هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٧٥.

(١) تلبيس إبليس ص٥٠.
(٢) روح المعاني ٢١/١٠٨.
(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ١٢٥.
(٤) انظر: فتح الباري ١١/ ٢٥٤، فقد ذكره البخاري تعليقاً.
(٥) انظر: تفسير الطبري ٢١/ ٨٧، ٢٢/ ١١٧.
(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٥٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/٢٠٢، ٢٦٣، ٥/ ١٢٥.
(٧) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٣٤٥، وتحفة الأريب لأبي حيان ص٢٣٧.
(٨) هو: محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي، أبو حاتم، أحد أئمة الحفاظ الأثبات العارفين بعلل الجرح والتعديل، سمع الكثير وطاف الأقطار وروى عن خلق من الكبار، قال عنه الذهبي: «الإمام، الحافظ، الناقد، شيخ المحدثين، . . . كان من بحور العلم»، وقد أثنى عليه العلماء والفقهاء، توفي سنة ٢٧٧هـ. =

وابن عطية والبغوي، والقاسمي[1]، بل قال ابن عطية: «الغَرور: الشيطان بإجماع من المتأولين»[2].

ومما يؤيد هذا التفسير، أن الله ـ تعالى ـ عقّب بذكر الشيطان بعد أن نهى عن الاستجابة لدعوات الغرور في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦].

وقد ورد لفظ «الغَرور» في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

١ ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾ [لقمان: ٣٣]، قال البيضاوي[3]: «﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان، بأن يُرجّيكم التوبة والمغفرة فيجسّركم على المعاصي»[4].

٢ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، قال ابن جرير في تفسير الآية: «يقول: ولا يخدعنّكم بالله الشيطان، فيمنّيكم الأماني، ويعدكم من الله العِدَات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله»[5].

= انظر: الثقات ٩/١٣٧، سير أعلام النبلاء ١٣/٢٤٧، تذكرة الحفاظ ٢/٥٦٧.

(١) انظر: تفسير القرطبي ١٤/٣٢٣، وابن عطية ١١/٥١٩، ١٢/٢١٧، والبغوي ٦/٢٩٤، ٤١٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٣/٢٠٨، ١٤/١٤، ١٦/٤٤.

(٢) تفسير ابن عطية ١٤/٣٠٦.

(٣) هو: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي، كان إماماً علامة عارفاً بالفقه والتفسير والعربية والمنطق، وليَ قضاء شيراز، ودخل تبريز وناظر بها، وله مصنفات مفيدة، توفي سنة ٦٨٥هـ.
انظر: البداية والنهاية ١٣/٣٢٧، بغية الوعاة ٢/٥٠، طبقات المفسرين للداوودي ١/٢٤٨.

(٤) تفسير البيضاوي ٢/٢٣٢.

(٥) تفسير الطبري ٢٢/١١٦.

٣ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٤].

قال الفخر الرازي: «الغَرور بفتح الغين، هو الشيطان، لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة»[(١)].

ويقول السعدي: «وهو الشيطان الذي زيّن لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده وصدقتم خبره»[(٢)].

خامساً: الوَسْوَاس:

قال الجوهري: «الوسواس: اسم الشيطان»[(٣)].

وقال مكي بن أبي طالب[(٤)]: «الوسواس: الشيطان»[(٥)].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: ٤]: يعني: من شر الشيطان»[(٦)].

وروى البخاري عن ابن عباس ﷺ أنه قال: الوسواس: إذا وُلد خَنَسه الشيطان، فإذا ذكر الله ﷻ ذهب، وإذا لم يذكر الله ثبت على قلبه»[(٧)].

وروى عنه ابن جرير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس:

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٢٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ٥/ ١٧٩.
(٣) الصحاح ٣/ ٩٨٨.
(٤) هو: مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي المقرئ، أبو محمد، أصله من القيروان، سمع بمكة ومصر من أبي الطيب بن غلبون، وقرأ عليه القرآن، وكان من أهل التبحّر في علوم القرآن، والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التآليف، مجوّداً للقرآن، خطب بجامع قرطبة وانتفع به جمع، توفي سنة ٤٣٧هـ.
انظر: العبر ٢/ ٢٧٣، بغية الوعاة ٢/ ٢٩٨، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٣٣٧.
(٥) العمدة في غريب القرآن ص٣٦١.
(٦) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٥٥.
(٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٦١٤، حيث ذكره البخاري تعليقاً.

٤] «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس»[(١)].

ولقد جاء في الحديث وصف الشيطان بالوسوسة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة، أحال له ضراط حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس)[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أُحدّث نفسي بالشيء لأن أخِرَّ من السماء، أحب إليَّ من أن أتكلم به، فقال النبي ﷺ: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة)[(٣)].

وتطلق الوسوسة على صوت الحُلِي، والهَمْسِ الخَفِي، وهَمْسِ الصَّائِدِ، والكلاب، جاء في لسان العرب: «ويقال لهَمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِي: وَسْوَاس، قال الأعشى[(٤)]:

تسمع للحَلْي وسواساً إذا انصرفت ... كما استعان بريح عِشْرقٌ زَجِلُ[(٥)]

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، حديث [٣٨٩] باب فضل الأذان.. إلخ.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٣٥، وأبو داود في الأدب، حديث [٥١١٢] باب في رد الوسوسة، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٠٢، بلفظ (ردّ أمره)، وابن أبي عاصم في السنة نحوه، حديث [٦٥٨]، وقال الشيخ الألباني في تخريجه لأحاديث السنة لأبي عاصم ١/ ٢٩٦: «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٤) هو: ميمون بن قيس بن جندل، من شعراء الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان يسمى «صنّاجة العرب»، وكان كثير الوفود على ملوك العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، مات في قرية منفوحة باليمامة سنة ٧هـ.
انظر: الشعر والشعراء ص١٥٩، البداية والنهاية ٣/ ٩٩، الأعلام ٧/ ٣٤١.

(٥) انظر: ديوان الأعشى ص١٤٤، والعشرق: شجر، وقيل: نبت، واحدة عشرقة، ونبت زجل: صوّتت فيه الريح. انظر: الصحاح، ولسان العرب، مادة «عشرق» ومادة «زجل».

والهمس: الصوت الخفي، يهز قصباً أو سِبّاً، وبه سُمِّي صوتُ الحُلِي وَسوَاساً، قال ذو الرمّة[(١)]:

فَباتَ يُشْئِزُه ثَأْدٌ ويُسْهِرهُ تَذَوُّبُ الرِّيحِ، والوَسْوَاسُ والهِضَبُ»[(٢)]

وتطلق الوسوسة كذلك على حديث النفس، يقول ابن منظور: «والوسوسة والوسواس: حديث النفس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواساً، بكسر الواو»[(٣)].

وقال ابن الأثير في معنى الوسوسة: «هي حديث النفس والأفكار، ورجل موَسْوِس إذا غلبت عليه الوسوسةُ، وقد وسوست إليه نفسه، وسوسةً ووسواساً، والوسواس أيضاً: اسم الشيطان»[(٤)]، وقال الفيومي[(٥)]: «الوسواس بالفتح: اسم من وسوست إليه نفسه، إذا حدّثته، وبالكسر مصدر»[(٦)].

---

(١) هو: غيلان بن عقبة بن بُهَيش بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة الحارثي، المعروف بذي الرمة، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره، قال أبو عمرو بن العلاء: «فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة»، وكان مقيماً في البادية ويحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً، وامتاز بإجادة التشبيه، مات سنة ١١٧هـ.
انظر: الشعر والشعراء ص٣٥٦، . الأنساب ٣/ ١٤، وفيات الأعيان ٤/ ١١.

(٢) لسان العرب، مادة «وسس» ٦/ ٢٥٥، ومعنى «يشئزه» أي يقلقه، و«ثأد» أي: قذر، وأمر قبيح، و«تذوب الريح»: أي تجيء من هنا مرة ومن هنا مرة، أُخذ من فعل الذئب، لأنه يأتي كذلك، و«هضب» هي المطرة الدائمة العظيمة القطر، وقيل: الدفعة منه، انظر: لسان العرب، مادة «شأز» و«ثأد» و«ذأب» و«هضب»، والقاموس المحيط، مادة «شئز» و«الثأد» و«الذئب» و«هضبت».

(٣) لسان العرب مادة «وسس».

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٥) هو: أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي، أبو العباس، كان فاضلاً عارفاً بالفقه واللغة، اشتهر بكتابه «المصباح المنير»، وكان يخطب بجامع الدهشة بحماة، توفي سنة ٧٧٠هـ.
انظر: بغية الوعاة ١/ ٣٨٩، الدرر الكامنة ١/ ٣١٤، هدية العارفين ١/ ١١٣.

(٦) المصباح المنير ص٢٥٢.

وقد وصف الله ـ تعالى ـ النفس بالوسوسة في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

كما جاء وصف النفس بالوسوسة فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل به أو تكَلَّم)[١].

ويطلق «الوسواس» أيضاً على مرض يحدث بسبب غَلَبَة السوداء[٢]، ويختلط معه الذِّهن، قال الفيومي: «الوَسواس بالفتح: مرض يحدث من غَلَبَة السوداء، يختلط معه الذِّهن، ويقال لما يخطر بالقلب من شر ولما لا خير فيه: وسواس»[٣]، وجاء في المعجم الوسيط: «الوسواس الشيطان، ومرض يحدث من غلبة السوداء، يختلط معه الذهن»[٤].

وأما إطلاق القرآن الكريم صفة «الوسوسة» على الشيطان، فقد ورد في ثلاثة مواضع، هي:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٠].

٢ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في العتق، حديث [٢٥٢٨] باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، ومسلم في الإيمان، حديث [١٢٧] باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر.

(٢) السوداء: مؤنث الأسود، وأحد الأخلاط الأربعة، وهي الصفراء والدم والبلغم والسوداء، المعجم الوسيط ١/ ٤٧٩.

(٣) المصباح المنير ص٢٥٢.

(٤) المعجم الوسيط ٢/ ١٠٧٥.

٣ ـ وهو الموضع الذي أطلق عليه القرآن الكريم اسم «الوسواس» دون اقترانه باسم الشيطان في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس].

قال ابن القيم: «فالوسواس الخَنَّاس، وصفان لموصوف محذوف، وهو الشيطان، وحَسُن حذف الموصوف هاهنا، غلبة الوصف، حتى صار كالعلم عليه... قال: فتعيّن أنَّ الوسواس هو الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، والله أعلم»[1].

(١) التفسير القيم ص٦٠٥.

جـ ـ التعريف بالعداوة

عرّف الجُرْجَاني العداوةَ بقوله: «العداوة: هي أن يتمكّن في القلب من قصد الإضرار والانتقام»[1].

وقال الجوهري: «العَدُوُّ: ضد الولي، والجمع الأعداء، وهو وصف لكنه ضارَعَ الاسم، يقال: تعادى القوم، من العداوة، وتعادى ما بينهم: أي فسد، قال: والعَدَاءُ أيضاً: تجاوز الحدّ والظلم، يقال: عَدَا عليه عَدْواً وعُدُوّاً، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ . . .﴾ الآية. . قال: والعُدْوان: الظلم الصراح، وقد عَدَى عليه، وتعدَّى عليه، واعتَدَى، كله بمعنًى»[2].

وقد فَصّل الراغب معنى العداوة بكلام جيِّد، حيث قال: «والعَدْوُ: التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يعتبر بالقلب، فيقال له: العداوة والمعاداة، وتارة بالمشي، فيقال له: العَدْو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيقال له: العدوان والعَدُو، وتارةً بأجزاء المَقَرِّ، فيقال له: العدواء، يقال: مكان ذا عَدْواء، أي غير متلائم الأجزاء، والعَدُوُّ، ضربان: أحدهما: بقصد من المُعَادي نحو: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٩٢]، ﴿عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، والثاني: لا بقصده، بل تعرض له حالة يتأذّى بها كما يتأذّى مما يكون من العِدى، نحو قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧]، ومن العَدْو يقال: فعادَى عِدَاءً بين ثور ونعجة. . . قال: والاعتداء مجاوَزَة الحق. . . قال: ومن العدوان المحظور

---

(١) التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني ص١٤٨.
(٢) الصحاح ٦/٢٤١٩ ـ ٢٤٢١.

ابتداءً، قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ومن العدوان الذي هو على سبيل المجازاة، ويصح أن يتعاطى مع مَن ابتدأ، قوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ﴾ [النساء: ٣٠]»[1]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «العُدْوَان والعَدَاء والتعدي، واحد»[2]، ويقول ابن تيمية رحمه الله: «وأصل العَداوة: البُغْضُ والبُعْدُ»[3].

وقد ورد لفظ «العداوة» في القرآن الكريم في ستة مواضع، هي:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

٢ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ . . .﴾ الآية [المائدة: ٦٤].

٣ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ . . .﴾ الآية [المائدة: ٨٢].

٤ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١].

٥ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

٦ ـ وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا . . .﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

والعدوان: هو إيذاء الغير أو الذات أو ما يرمز إليهما، وفي علم

---

(١) معجم مفردات القرآن للراغب، مادة (عدا) ص٣٣٨.
(٢) معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخاري ص١٣٣.
(٣) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، لابن تيمية ص١٨.

النفس وحقوله يستخدم مفهوم «العدوان» للدلالة على استجابة يردّ بها المرء على الخيبة والإحباط والحرمان، وذلك بأن يهاجم مصدر الخيبة أو بديلاً عنه[1]، وللعدوان صور عدة منها:

العدوان عن طريق العنف الجسمي، والعدوان باللفظ: بالكيد، والإيقاع، والتشهير، والتنابز، والمشي بنميم[2].

ويكون العدوان غالباً نتيجة لإحباط شديد يصيب دوافع الفرد، أو لتوقع هذا الإحباط، والعدوان لا يعتبر دافعاً فطرياً في نفس الإنسان[3].

وقد أشار القرآن الكريم إلى دوافع العدوان في سياق ذكر قصة آدم عليه السلام وزوجه، وإغواء الشيطان لهما كي يخرجهما من الجنة، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ . . .﴾ الآية [طه: ١٢٣].

ويخبرنا القرآن الكريم أن أول عدوان حَدَثَ في حياة البشرية، هو عدوان ابن آدم قابيل على أخيه هابيل، بعد أن تقبّل الله ـ تعالى ـ قربان أخيه ولم يتقبل قربانه، يقول ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠]، ويشير القرآن الكريم إلى السلوك العدواني الذي يظهر في تعبيرات لفظية من غيبة ووقيعة ونميمة

(١) موسوعة علم النفس ص١٧٩.
(٢) انظر: أصول علم النفس ص٥٥١ ـ ٥٥٤.
(٣) المرجع نفسه.

وسبّ وتهكُّم وسخرية، فمن أمثلة ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

ويمكن أن نصنّف غالبية أنماط السلوك غير الأخلاقي، كالحقد والحسد والكذب والخيانة والخديعة.. إلخ ضمن «العدوان».

وتختلف التصورات التي تنطلق منها بحوث الإنسان في دراسة جانب «العدوان»:

- فمن الناس من يرى أن البيئة بما تحمله من ثقافات منحرفة، تُنَمِّي نزعة «العدوان» لدى الإنسان.
- ومنهم من يرى أن التنشئة يمكن أن تحوّل الإنسان إلى مسالم أو عدواني.
- وهناك اتجاه ثالث يرى أن «الإحباط» هو السبب في تنمية النزعة العدوانية.
- بينما الاتجاه الرابع يرى أن عجز الإنسان عن إشباع حاجاته، يضطره إلى العدوان.
- وأشدّ الاتجاهات مفارقة، هو الاتجاه الذاهب إلى أن «العداوة» تمثل دافعاً فطرياً، يرثه الكائن الحي، ومن أصحاب هذا الاتجاه من يرى أنه يجب أن يُردّ على العدوان بمثله، لأنه يساهم في خفض التوتر من الأعماق ما دام العدوان يُشَكِّل نزعة فطرية لا مناص من صدور الإنسان عنها[1].

---

(١) انظر: دراسات في علم النفس الإسلامي، للدكتور محمود البستاني ١/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

أما التصور الإسلامي لظاهرة العدوان، فإن الإسلام يدعو إلى الابتعاد عن هذه الظاهرة، وعدم الاتصاف بها أو بشيء من أجزائها، فهي من الظواهر المكروهة عند الله ـ تعالى ـ الذي قامت على عدله السماوات والأرض، يقول ابن القيم: «ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي به قامت السماوات والأرض، وأرسل الله ـ سبحانه ـ رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنزل كتبه ليقوم الناس به، كان من أكبر الكبائر عند الله، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه»(١).

فالإسلام يدعو إلى ضد ظاهرة العدوان، فهو يحث على التحلِّي بخلق العفو والتسامح والصبر والمحبة والأُخوَّة والمناصحة، فإذا وقع على المسلم اعتداء وأذى من الآخرين، فإن الخير له في العاجل والآجل أن يتجاوز عن هذا الاعتداء الذي ارتُكب في حقه، وذلك بعد أن أعطى الإسلام هذا الشخص الحق في أن يعاقب خصمه بقدر عقوبته ولا يزيد عليها، وفي هذا يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]، ويقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ...﴾ الآية [المائدة: ٤٥]، قال عبد الله بن عمرو(٢) رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: «يُهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تَصدَّق به»(٣).

---

(١) الجواب الكافي ص٢١٦.

(٢) هو: عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أسلم قبل أبيه، كان إماماً حبراً عابداً، له مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل، واستأذن النبي ﷺ في أن يكتب حديثه، فأذن له، وحمل عنه علماً جماً، يبلغ ما أسنده سبعمائة حديث، وتوفي سنة ٦٣هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/٩٥٦، صفة الصفوة ١/٦٥٥، الإصابة ٤/١١١.

(٣) تفسير الطبري ٦/٢٠٦، وتفسير ابن كثير ٢/٦٤.

ولقد كان الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة في التحلي بخلق العفو والدعوة إليه، فعن أنس بن مالك[1] رضي الله عنه قال: «ما رُفع إلى رسول الله ﷺ شيء فيه القصاص إلا أمر فيه بالعفو»[2].

فديننا الإسلامي الحنيف يحث المسلم أن يخرج عن دائرة أنانيته الضيقة، إلى دائرة أعم وأشمل، وخروج الإنسان من إطار محبته لنفسه إلى محبة الآخرين، الذين هم الدائرة الكبرى، إنما هو ارتقاء خلقي كريم، ولذا فقد ربط الرسول ﷺ بين الإيمان وخلق محبة الآخرين، وجعل وجود الإيمان الصحيح مُرتَهناً بوجود هذه النفس السامية، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[3].

ولقد رتّب الرسول ﷺ حصول الشخصية الإسلامية المثالية على قيام هذا الخلق العظيم والإتصاف به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يأخذ من أمتي بخمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل بهن؟)، قال: قلت: أنا يا رسول الله، قال: فأخذ بيدي فعدّهن فيها، ثم قال: (اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك

---

(١) هو: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي، أبو حمزة، خادم رسول الله ﷺ، وأحد المكثرين من الرواية عنه، وصاحَبَ رسول الله ﷺ ولازَمَه إلى أن مات عليه الصلاة والسلام، وغزا معه غير مرة، وبايع تحت الشجرة، وكان النبي ﷺ يخصّه ببعض العلم. توفي سنة ٩١هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٧/ ١٢، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥، الإصابة ١/ ٧١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢١٣، ٢٥٢، وأبو داود نحوه في الديات، حديث [٤٤٩٧] باب الإمام يأمر بالعفو في الدم، والنسائي نحوه في القسامة، حديث [٤٧٨٤] باب الأمر بالعفو عن القصاص، وابن ماجه في الديات، حديث [٢٦٩٢] باب العفو عن القصاص، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٥٤، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ١٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، حديث [١٣] باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومسلم في الإيمان، حديث [٧١] باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب... إلخ.

تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[1].

إن الإيمان يستلزم حتماً محبة الخالق ـ تعالى ـ، ومن هذه المحبة تنبثق محبة عباد الله، فمن صدق في حبه لله ـ جل وعلا ـ، أحب بحبه الخير لكل عباد الله، فهناك ارتباط وثيق بين الإيمان بالله ـ تعالى ـ، وتوجيه حب القلوب إليه، وبين الإيمان وتحاب المؤمنين من جهة أخرى، فحلقات الإيمان مترابطة ومتلازمة، ومن شأن هذا الشعور الحسن بالمحبة نحو الغير ممن يربطهم الإسلام، السلامة من أمراض خُلُقية ذميمة، كالحسد والبغض وإرادة الشر، والعداوة للآخرين.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣١٠، والترمذي في الزهد، حديث [٢٣٠٥] باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، وابن ماجه نحوه في الزهد، حديث [٤٢١٧] باب الورع والتقوى، وقال في الزوائد: «هذا إسناد حسن»، وأبو يعلى في المسند ٥/ ٤٦١، والخرائطي في مكارم الأخلاق ومعاليها حديث [٢٢٧٠]، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١٢.

الباب الأول

خَلق الشيطان وخَلق الإنسان

وفيه فصول:

الفصل الأول: أصل الشيطان وأصل الإنسان، وشبهة إبليس في ذلك.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أصل الشيطان، ويتناول الشيطان بين الجن والملائكة.

المبحث الثاني: أصل الإنسان.

المبحث الثالث: شبهة إبليس.

الفصل الثاني: الفرق بين معصية إبليس وآدم عليه السلام.

الفصل الثالث: الحكمة من خلق الشيطان.

الفصل الأول

أصل الشيطان وأصل الإنسان

المبحث الأول

أصل الشيطان

يخبرنا القرآن الكريم أن الشيطان خُلق من مادّة نارية، وأن هذا بإقرار عدو الله إبليس، وتقرير الله ﷻ له بذلك في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن عدوه: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وجاء في السُنَّة الشريفة بيان أصل الخلقة الشيطانية، فيما رواه عروة بن محمد عن أبيه عن جده عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلِقَ من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غَضِبَ أحدُكم فليتوضأ)[(١)]، ومن هنا نلحظ أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين أفعال إبليس، والمادة التي خُلق منها، فليس أفعال الشيطان عدوةً للإنسان فحسب، بل إن في عنصر تكوين هذا العدو وأصل خلقته التي خلق منها، عدواً أيضاً لهذا الإنسان.

فعن أبي موسى الأشعري[(٢)] رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذه النار، إنما هي عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم)[(٣)]، فالذنوب والمعاصي التي هي من عمل الشيطان وتزيينه، هي في حقيقتها، نار على

(١) سبق تخريجه، انظر ص٤٦.

(٢) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار بن حرب الأشعري، أبو موسى، صحابي جليل، وإمام كبير، غزا مع النبي ﷺ، وحمل عنه علماً كثيراً، واستعمله على بعض اليمن، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، قال الشعبي: انتهى العلم إلى ستة، فذكر أبا موسى فيهم، توفي سنة ٤٢هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ٩٧٩، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٠، الإصابة ٤/ ١١٩.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، حديث [٦٢٩٤] باب لا تترك النار في البيت عند النوم، ومسلم في الأشربة، حديث [٢٠١٦] باب الأمر بتغطية الإناء... إلخ.

الإنسان، ولذا فقد أرشد النبي ﷺ إلى إطفاء نار الخطيئة بالصدقة، وشبّه إطفاءَها بإطفاء النار بالماء، فعن معاذ بن جبل[1] رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: (لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار...) الحديث[2].

وإذا كان الشيطان خُلق من مادة نارية، فإن هذا لا يعني أن الشيطان باقٍ على ناريته، بحيث يحرق من يمسّه، ولذا فإنه يعذّب بالنار ويتألم منها، كما أن الإنسان خلق من طين، لكنه الآن ليس طيناً، فلو أوذي الإنسان بالطين أو بشيء من أجزائه، لتأذَّى به، مع أنه أصل خلقته، ومما يدل على أن الشيطان غير باق على ناريته عدة أحاديث هي فيما يأتي:

١ ـ ما رواه أبو الدرداء[3] رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ، فسمعناه

---

(١) هو: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن، من أعلام الصحابة، شهد المشاهد كلها، وروى عن النبي ﷺ أحاديث، وشهد بدراً وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وأمّره النبي ﷺ على اليمن، وكان أعلم الصحابة بالحلال والحرام، توفي سنة ١٧هـ.

انظر: كتاب المعرفة والتاريخ ١/ ٣١٤، الاستيعاب ٣/ ١٤٠٢، الإصابة ٦/ ١٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، حديث [٢٦١٦] باب ما جاء في حُرمة الصلاة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد في المسند بنحوه ٥/ ٢٣١، وابن ماجه في الفتن، حديث [٣٩٧٣] باب كف اللسان في الفتنة، والحاكم في المستدرك وصححه ٢/ ٤٤٧، والبيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٢٤٧، وابن أبي شيبة في المصنف مختصراً ٧/ ٢٠٩، والطبراني في المعجم الكبير نحوه ٢٠/ ٧٣، ١٠٣، ١٣٠، ١٤٢، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٢٨.

(٣) اختلف في اسمه: فقيل: عويمر بن عامر، وقيل: ابن عبد الله، وقيل: ابن ثعلبة، وقيل: ابن قيس بن زيد بن قيس بن أمية بن عامر بن الحارث بن الخزرج الأنصاري، =

يقول: (أعوذ بالله منك) ثم قال: (ألعَنُكَ بلَعْنَةِ الله) ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك، قال: (إنَّ عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر، ثلاث مرات...) الحديث[1]، فلو كان إبليس باقياً على مادته النارية لما احتاج أن يأتي بشهاب من نار.

٢ ـ عن صفية بنت حيي[2] ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم...) الحديث[3]، فلو كان هو الآن ناراً، لأحرق بدن الإنسان حين يجري فيه مجرى الدم.

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح، وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: (لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين أصبعيَّ هاتين، الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح

= من عِلْيَة أصحاب رسول الله ﷺ، وشهد معه مشاهد كثيرة، وروى عنه أحاديث عديدة، وهو من الذين أوتوا العمل، وله حِكَم مأثورة مشهورة، ولّاه عمر ﵁ القضاء بدمشق، وتوفي سنة ٣٢هـ.

انظر: التاريخ الكبير ٨/ ٨٦، الثقات ٣/ ٢٨٥، الاستيعاب ٣/ ١٢٢٧.

(١) أخرجه مسلم في المساجد، حديث [٥٤٢] باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة... إلخ.

(٢) هي: صفية بنت حُيَيّ بن أخطب بن سَعية من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران، أم المؤمنين ﵂ كانت من سبي يوم خيبر، فعَرَض عليها النبيُّ ﷺ أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله، فاختارت الله ورسله، وأسلمت، فأعتقها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتزوجها وجعل عتقها مهرها، توفيت ﵂ سنة ٥٠هـ.

انظر: الطبقات الكبرى ٨/ ٩٥، صفة الصفوة ٢/ ٥١، الاستيعاب ٤/ ١٨٧١.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣٢٨١] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في السلام، حديث [٢٤] باب بيان أنه يستحب لمن رُؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرمة أن يقول: هذه فلانة.

مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة. . .) الحديث[1]، فوجود بَرْد لعاب إبليس دليل على عدم بقائه على مادته التي خلق منها، وهي النار، حيث لا يمكن اجتماع الماء والنار.

وحين أخبرنا القرآن الكريم بأن إبليس خلق من نار، فقد توجَّه الخطاب إلى إبليس ضمن خطاب الملائكة، وذُكر في سياق ذكر الملائكة، ومن ثم استثني منهم، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ الآية [الكهف: ٥٠]، ومن هنا اختلف العلماء في إبليس، أهو من الملائكة، أم من الجن؟.

وللعلماء في هذه المسألة قولان أساسان:

القول الأول: إن إبليس من الملائكة، وهو قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما وابن جريج[2] وسعيد بن المسيب[3] وقتادة، قال القرطبي:

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٨٢، ونحوه ١/ ٤١٣، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٨٧ وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٢) هو: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي بالولاء، إمام أهل الحجاز في عصره، وأحد العلماء المشهورين، وهو أول من دوَّن العلم بمكة، بل قيل إنه أول من صنف الكتب في الإسلام، حدّث عن عطاء بن أبي رباح فأكثر وجوّد، وعن أبي مليكة، ونافع مولى ابن عمر وغيرهم، توفي سنة ١٥٠هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٥/ ٤٢٢، صفة الصفوة ٢/ ٢١٦، الثقات ٧/ ٩٣.

(٣) هو: سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي القرشي، أبو محمد سيد التابعين على الإطلاق، وأفقه أهل الحجاز، ذو علم وفقه وورع ودين وعبادة وفضل، روى عن عمر، وقيل: إنه سمع منه، وعن عثمان وعلي وسعيد وأبي هريرة، قال مكحول: طفت الأرض كلها في طلب العلم، فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب، وسئل الزهري ومكحول: من أفقه من لقيتما؟ قالا: سعيد بن المسيب، وقال الشافعي: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن، وقال أحمد بن حنبل: سعيد بن المسيب أفضل التابعين، توفي سنة ٩٤هـ.
انظر: صفة الصفوة ٢/ ٧٩، وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٥، تذكرة الحفاظ ١/ ٥٤.

«وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجَّحه الطبري[1]، وهو ظاهر الآية»[2]، وصحَّحه الخازن[3]، والسمين الحلبي[4]، ونسبه البغوي إلى أكثر المفسرين وصحَّحه، وقال ابن عطية: «وهو ظاهر الآية»[5]، وهو مذهب جمهور العلماء.

واستدلَّ أصحابُ هذا القول بالأدلة الآتية:

١ - قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ...﴾ الآية [البقرة: ٣٤].

قالوا: إن إبليس استثني من جملة الملائكة، والأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع، فهو يفيد ما لولاه لدخل، أو لصحَّ دخولُه، والاستثناء لا يكون من غير الجنس، فلا يحسن القول: فتح الخبَّازون إلا فلاناً، يريدون فلاناً الحدَّاد[6].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/ ٢٢٤.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤.

(٣) هو علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي، المشهور بالخازن لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق، عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية، اشتغل بالعلم كثيراً، جمع، وحدَّث، وألَّف، وله مصنفات جمة في فنون مختلفة، توفي سنة ٧٤١هـ.

انظر: طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٤٢٦، الدرر الكامنة ٣/ ٩٧، هدية العارفين ١/ ٧١٨.

(٤) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم بن محمد الحلبي، كان فقيهاً بارعاً في التفسير والنحو وعلم القراءات ويتكلم في الأصول، خيّراً ديناً، قرأ النحو على أبي حيّان، والقراءات على ابن الصائغ، وولي تدريس القراءات والنحو بالجامع الطولوني، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي نظر الأوقاف، وله مصنفات مفيدة حسنة، توفي سنة ٧٥٦هـ.

انظر: بغية الوعاة ١/ ٤٠٢، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ١٠١، الدرر الكامنة ١/ ٣٣٩.

(٥) انظر: تفسير الخازن ١/ ٤٢٢، والدر المصون للحلبي ١/ ٢٧٣، وتفسير البغوي ١/ ٨١ - ٨٢، وتفسير ابن عطية ١/ ٢٤٥.

(٦) انظر: آكام المرجان في أحكام الجان، لبدر الدين الشبلي ص١٤٩.

٢ ـ إن إبليس لو لم يكن من الملائكة، لما كان الأمر بقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾، متناولاً له، ولو لم يكن الأمر متناولاً له، لم يكن تركه السجود، إباءً واستكباراً ومعصية لله، ولما استحق من الله الذم والعقاب، قال الطبري: «فدلّ باستثنائه إياه منهم، على أنه منهم، وأنه ممن قد أُمر بالسجود معهم، كما قال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١١، ١٢]، فأخبر ـ جل ثناؤه ـ أنه قد أمر إبليس في من أمره من الملائكة بالسجود لآدم»[(١)]، وقالوا: لو لم يكن إبليس منهم وعلم انصراف الأمر إليه، لما عدل إلى الاعتذار عن عدم امتثال الأمر إلى قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وإلا لقال: أنا لست من الملائكة، فلم يتوجّه عليه اللوم[(٢)]، ويقول أبو حيان: «والظاهر أنه استثناء مُتَّصل، لِتَوجُّه الأمر على الملائكة، فلو لم يكن منهم، لما توجّه الأمر عليه، فلم يقع عليه ذمٌ لتركه فعل ما لم يؤمر به»[(٣)]، وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود»[(٤)].

٣ ـ ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمه «عزازيل»، وكان من سُكَّان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يُسمَّون جنّاً»[(٥)].

وما روي عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ـ رضوان الله عليهم ـ، قولهم: «جُعل إبليس على مُلْكِ سماء الدنيا، وكان

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٢٤.

(٢) انظر: عقد المرجان فيما يتعلق بالجان، لعلي بن برهان الحلبي الشافعي ص٣٢.

(٣) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ١/ ١٥٣.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٢٥.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٢٢٤، والأضداد لابن الأنباري ص٣٣٤، وتفسير ابن كثير ١/ ٧٨، ٣/ ٩٠.

من قبيلة من الملائكة، يقال لهم: الجن، وإنما سُمّوا الجنّ، لأنهم خُزَّان الجَنَّة، وكان إبليس مع مُلكه خازناً»[1].

ويقول البغوي: «وقيل: إن فرقة من الملائكة خُلقوا من النار سُمّوا (جنّاً) لاستتارهم عن الأعين، وإبليس كان منهم، والدليل عليه قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ولمّا أخرجه الله من الملائكة، جعل له ذرية»[2].

وبهذه الروايات وجّه أصحابُ هذا القول تفسيرَ قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ الآية [الكهف: ٥٠].

القول الثاني: إن إبليس من الجن وليس من الملائكة.

قاله ابن عباس في رواية، وابن زيد، والحسن البصري، ونسبه ابن الجوزي إلى ابن شهاب الزهري[3]، واختاره الزجّاج والزمخشري[4]، ونسبه الرازي إلى بعض المتكلمين من المعتزلة[5]، ونصره أبو محمد بن حزم[6]، وردّ على مخالفيه[7]، وقال شهر بن حوشب[8] وبعض الأصوليين: «كان من

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٢٥.
(٢) تفسير البغوي ١/ ٨٢.
(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير ١/ ٦٥، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢/ ١٠٣.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ١١٤، والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٨٨.
(٥) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢١٣.
(٦) هو: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، الأندلسي القرطبي، أبو محمد، كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد عنها وانصرف إلى العلم والتأليف، حتى صار عالم الأندلس في عصره، وكان حافظاً فقيهاً يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، له في الأدب والشعر نَفَسٌ واسع، وباع طويل، توفي سنة ٤٥٦هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦، وفيات الأعيان ٣/ ٣٢٥.
(٧) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٤/ ٢٨.
(٨) هو: شهر بن حوشب الأشعري الشامي، أبو سعيد، مولى الصحابية أسماء بنت يزيد الأنصارية، كان من كبار التابعين، حدَّث عن مولاته وأبي هريرة وعائشة وابن عباس =

الجن الذين كانوا في الأرض، وقاتلتهم الملائكة، فَسَبَوْهُ صغيراً، وتعبّدَ مع الملائكة، وخُوطِب»[1]، ومال إلى هذا الرأي محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ[2].

ويكون الاستثناء في الآية ـ عند أصحاب هذا القول ـ منقطعاً، كقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ . . .﴾ الآية [النساء: ١٥٧].

واستدل أصحاب هذا القول بالأدلة الآتية:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ . . .﴾ الآية [الكهف: ٥٠]، فالجن غير الملائكة، فإبليس أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس[3]، روى الطبري عن الحسن أنه قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس»[4].

وروى ابن جرير عن قتادة قال: «كان الحسن يقول في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: ألجأه إلى نسبه»[5]، وقال ابن شهاب: «إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو الإنس، وآدم من الإنس وهو أبوهم، وإبليس من الجن وهو أبوهم»[6].

= وغيرهم، وقرأ القرآن على ابن عباس، وكان عالماً كثير الرواية، حسن الحديث، توفي سنة ١٠٠هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٤/٢٥٨، الطبقات الكبرى ٧/٣١٢، سير أعلام النبلاء ٤/٣٧٢.

(١) تفسير الطبري ١/٢٩٤.
(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٤/١٢١.
(٣) انظر: تفسير البغوي ١/٨٢.
(٤) تفسير الطبري ١/٢٢٦، وانظر: الأضداد لابن الأنباري ص٣٣٧، والعظمة لأبي الشيخ، فقرة [١١٤٦] و[١١٦٢]، وصحّح ابن كثير رواية ابن جرير في تفسيره ٣/٨٩.
(٥) تفسير الطبري ١/٥٠٦.
(٦) مكائد الشيطان لابن أبي الدنيا، ص٥٢، والعظمة لأبي الشيخ، ص٤٨٦، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٤/٤١٢ إلى ابن أبي حاتم.

قالوا: قوله - تعالى -: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: نصٌ قرآني في محل النزاع[1].

٢ - أن الملائكة خلقت من نور، وخُلق إبليس من نار، فقد أخبر الله عن أصل الشيطان الذي خُلق منه، في قوله - تعالى - حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وإبليس من الجنّ، والله - تعالى - يقول عن أصل خلق الجن: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥]، وفرّق النبي ﷺ بين مادة أصل الملائكة والجن والإنس فيما روته عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم ﵇ مما وُصِفَ لكم)[2].

٣ - عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر[3]، الذي ارتكبه إبليس، قال

---

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، حديث [٢٩٩٦] باب في أحاديث متفرقة.

(٣) أجمع العلماء على عصمة الملائكة المرسلين، ووقع الخلاف في غير المرسلين منهم على قولين:

أ - ذهبت طائفة إلى عصمة جميع الملائكة المرسلين وغيرهم، عن المعاصي، واستدلوا بآيات عصمة الملائكة وعدم عصيانهم أمر ربهم.

ب - وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا عصمة لغير المرسلين من الملائكة والمقربين منهم، واحتجوا باعتراض الملائكة على ربهم في خلق آدم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا . .﴾ الآية [البقرة: ٣٠]، واحتجوا أيضاً بقصة هاروت وماروت وبقصة إبليس، انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ١٦٦ - ١٧١، والحبائك في أخبار الملائك للسيوطي ٢٥٢ - ٢٥٤. وظاهر الآيات عصمة جميع الملائكة، مرسليهم وغير مرسليهم، لعموم ذكرهم دون تفصيل، قال القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٧٥: «والصواب عصمة جميعهم، وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحطّ من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم»، وأما ما استدل به من قول الملائكة في سورة البقرة، فليس فيه اعتراض على الله - تعالى -، بل إنه تعجب من كمال علم الله - تعالى -، وإحاطة حكمته بما خفي على العقلاء، وإعظام الله - تعالى - وشدة حبهم لربهم - تعالى - حيث كرهوا أن يكون له عبد يعصيه، كما أن قولهم هذا مسألة منهم =

ـ تعالى ـ مخبراً عن الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ويقول سبحانه: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

قال الزمخشري في قوله: «كان من الجن»: «كلام مستأنف جارٍ مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن»(١)، وقال أيضاً: «جُعل كونه من الجن سبباً في فسقه، لأنه لو كان كسائر مَنْ سجد لآدم، لم يفسق عن أمر ربه، لأن الملائكة معصومون البتَّة، لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس»(٢).

٤ ـ أن لإبليس ذُريَّة(٣)، ولا ذُريَّة للملائكة، لقوله ـ تعالى ـ عن

= إلى ربهم أن يجعل الأرض أو بعضها لهم، كما قال موسى ﷺ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ..﴾ الآية [الأعراف: ١٥٥]، أي لا تهلكنا، وأما ما استدلوا به من قصة هاروت وماروت، فيقول القاضي عياض في الشفا ٢/ ١٧٥: «فاعلم، أكرمك الله، أن هذه الأخبار ـ أي أخبار هاروت وماروت ـ لم يرو فيها شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن، اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم منه كثير من السلف... قال: وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم، كما نصّه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه، وقد انطوت القصة على شنع عظيمة»، وما استدلوا به من قصة إبليس فليس فيه دليل كما سيأتي.

(١) الكشّاف ٢/ ٤٧٨.

(٢) المرجع نفسه ٢/ ٤٨٨.

(٣) للعلماء في ذرية إبليس قولان:

الأول: إن لإبليس ذرية، وذريته أولاده وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم، قاله الحسن وقتادة، وقال القرطبي: «الذي ثبت في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبي بكر الباقلاني أنه خرّج في كتابه مسند أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فبها باض الشيطان وفرّخ)، قال القرطبي: وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه»، تفسير القرطبي ١٠/ ٤٢٠، والحديث أخرجه البيهقي في الشعب ٧/ ٣٧٩، وذكره الهيثمي =

إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ . . .﴾ الآية [الكهف: ٥٠]، فهذا صريح في إثبات الذُرِّيّة لإبليس، قالوا: وإنما قلنا: إن الملائكة لا ذرية لهم، لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى، والملائكة لا أنثى فيهم، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، فأنكر ـ تعالى ـ على من حكم عليهم بالأنوثة، فإذا انتفت الأنوثة، انتفى التوالد لا محالة، فانتفت الذرية[(١)].

٥ ـ أن الملائكة رسل: لقوله ـ تعالى ـ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، والله قد عصم رسله من الوقوع في المعاصي، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وإبليس غير معصوم لما وقع فيه، فوجب أن لا يكون من الملائكة.

المناقشة بين الفريقين:

١ ـ أجاب أصحاب القول الأول على استدلال أصحاب القول الثاني، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ . .﴾ الآية [الكهف: ٥٠] بقولهم: إن الجنّ مأخوذ من الاجتنان، وهو الستر، ولهذا سُمِّي الجنين جنيناً لاجتنابه، ومنه الجَنَّة، لكونها ساترة، ومستترة بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل فيه. فإذا ثبت هذا، والملائكة

= في مجمع الزوائد ٤/ ٧٧، وقال عنه تقي الدين المقدسي في مصائب الإنسان ص١٦٣: «قال بعض الأئمة: إسناده صحيح». ويقول الشنقيطي: «فادّعاء أنه لا ذرية مناقض لهذه الآية مناقضة صريحة كما ترى، وكل ما ناقض صريح القرآن فهو باطل بلا شك، ولكن طريقة وجود نسله، هل هي عن تزويج أو غيره، لا دليل عليها من نص صريح» أضواء البيان ٤/ ١٢٢.

الثاني: ليس له أولاد، ولا ذرية، وذريته أعوانه من الشياطين. انظر: تفسير القرطبي ١٠/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٥/ ١٧٩، وزاد المسير ٥/ ١٥٤، والدر المنثور للسيوطي ٤/ ٤١٢.

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢١٤.

مستورون عن الأعين، وجب إطلاق لفظ «الجنّ» عليهم بحسب اللغة[1]، قال الطبري: «وما أخبرنا الله عنه ـ أي إبليس ـ أنه من الجن، فغير مدفوع أن يُسمَّى ما اجتنّ من الأشياء عن الأبصار كلها جنّاً»[2]، واستدل الطبري بقول الأعشى بن قيس بن ثعلبة البكري، وهو يصف سليمان بن داود عليه السلام وما أعطاه الله، حيث يقول:

ولو كان شيءٌ خالداً أو مُعَمّراً … لكان سُليمان البَريءُ من الدَّهْرِ
بَراه إلهي واصطفاه عَبادَهُ … ومَلَّكه ما بين ثُريا إلى مِصرِ
وسخّر من جنِّ الملائك تسعةً … قياماً لديه يعملون بلا أجْرِ[3]

ثم قال الطبري: «فيكون إبليس والملائكة منهم، لاجتنانهم عن أبصار بني آدم»[4]، وروى الطبري عن محمد بن إسحاق أنه قال: «أما العرب فيقولون: ما الجن إلا كل ما اجتنَّ فلم يُرَ، وأما قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي كان من الملائكة، وذلك لأن الملائكة اجتنّوا فلم يروا، وقد قال الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٥٨]، وذلك لقول قريش: إن الملائكة بنات الله، فيقول الله: إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها، وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذريته نسباً»[5].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾: إنما يُسمى بالجنّان أنه كان خازناً عليها، كما يقال للرجل: مكي ومدني وكوفي وبصري»[6]، وقال القرطبي: «لما كان ـ أي إبليس ـ من

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٢/ ٤١٣، وتفسير القرطبي ١/ ٢٩٥.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٢٦٦.
(٣) لم أجد هذه الأبيات في ديوان الأعشى، وهي في تفسير الطبري ١/ ٢٢٦، ولسان العرب ١٣/ ٩٧ البيت الأخير، والأضداد للأنباري ص٣٣٥.
(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٢٦.
(٥) تفسير الطبري ١/ ٢٢٥.
(٦) المرجع نفسه، وانظر: العظمة لأبي الشيخ ص٤٩٩.

خُزَّان الجنة، نُسب إليها، فاشتقَّ اسمه من اسمها»[1]، ويقول السمين الحلبي: «أما قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ فلا يردّ هذا، لأن الملائكة قد يُسمّون جنّاً لاجتنانهم»[2].

وأجاب أصحاب القول الثاني: بأنه لا يجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أنه كان خازن الجنة، لأن قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] يُشعر بتعليل تركه السجود لكونه جنياً، ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازناً للجنة. يقول الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه، كونه من الجن، وقد تقرر في الأصول في «مسلك النص» وفي «مسلك الإيماء والتنبيه»: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سَرَق فقُطعت يده، أي لأجل سرقته، وسها فسجد، أي لأجل سهوه، ومن هذا القبيل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] أي لِعِلَّة سرقتهما، وكذلك قوله هنا: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي لِعِلَّة كينونته من الجن»[3].

أجاب الأولون: بأن هذا خلاف الظاهر، فلا يصار إليه إلا عند الضرورة.

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ [الصافات: ١٥٨]، فقد أجاب عنه أصحاب القول الثاني بقولهم: إن المَلك يسمى «جنّاً» بحسب أصل اللغة، لكن لفظ «الجنّ» بحسب العرف اختص بالجن، كما أن لفظ الدابة، وإن كان بحسب اللغة الأصلية يتناول كل ما يدبّ، لكنه بحسب العُرف، اختص ببعض ما يدبّ، فيحمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ

(١) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٥.

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١/٢٧٣.

(٣) أضواء البيان ٤/١١٩.

﴿ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ على اللغة الأصلية، وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يحمل على العرف الحادث[1].

٢ ـ أجاب الآخرون على الأولين: بأن قولكم: الأصل في الاستثناء الاتصال، صحيح، ولكن أيضاً الاستثناء المنقطع مشهور في كلام العرب[2]، وقد جاء في القرآن الكريم في عِدَّة آيات، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧]، وغير ذلك من الآيات.

أجاب الأولون: بأن قولكم هذا يُصار إليه عند الضرورة، والحمل على ما ذكرتموه على خلاف الأصل، والدلائل التي ذكرتموها في نفي كون إبليس من الملائكة، ليس فيها إلا الاعتماد على العمومات، فلو جعلناه من الملائكة، لزم تخصيص ما عوّلتم عليه من العمومات، ولو قلنا: إنه ليس من الملائكة، لزِمَنا حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع، ومعلوم أن

---

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢/ ٢١٤.

(٢) اختلف العلماء في مسألة: صحة الاستثناء من غير الجنس، فذهب الجمهور إلى منعه، وذلك لأن الاستثناء استفعال من الثني، وحقيقته أنه استخراج بعض ما تناوله اللفظ، وذلك غير متحقق في المستثنى من غير الجنس.
وذهب أصحاب أبي حنيفة، ومالك، والقاضي أبو بكر، وجماعة من المتكلمين والنحاة إلى جوازه، واستدلوا بالقرآن، حيث استدلوا بما ذكرناه من الآيات وغيرها، واستدلوا أيضاً بالشعر، وهو قول جران العود:
وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس
واستدلوا بقول العرب: ما زاد إلا ما نقص، وما بالدار أحدٌ إلا الوتد، وما جاءني زيد إلا عمرو. واستدلوا بالمعقول: حيث إن الاستثناء لا يرفع المستثنى منه، فصح، كاستثناء الدراهم من الدنانير وبالعكس.
انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢/ ٤٩٦ ـ ٥٠٠، وأصول الدين لعبد القاهر البغدادي ٢٩٦ ـ ٢٩٧، وانظر البيت في: تفسير الطبري ٥/ ٢٧٧، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٥٠٢، ٢/ ٢٦٩.

تخصيص العمومات، أكثر في كتاب الله من حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع.

قال الآخرون: إن إبليس كان جنيّاً واحداً بين الألوف من الملائكة، فغلبوا عليه في قوله: «فسجدوا» ثم استثنى هو منهم، استثناء واحد منهم.

أجاب الأولون: بأنه يجوز إجراء حكم الكثير على القليل، إذا كان ذلك القليل ساقط العبرة غير مُلتَفَتٍ إليه، وأما إذا كان مُعْظَم الحديث لا يكون إلا عن ذلك الواحد لم يجز إجراء حكم غيره عليه[1].

٣ ـ أجاب أصحاب القول الأول، على استدلال أصحاب القول الثاني بأن إبليس له ذرية ولا ذرية للملائكة بقولهم: إن قولكم هذا لا ينافي كون إبليس من الملائكة، فلئن قلتم بأن التوالد لا يكون إلا من ذكر وأنثى، والملائكة لا إناث فيهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا . .﴾ الآية [الزخرف: ١٩]، قلنا: لو امتنع حصول الذرّيَّة إلا من جنسين للزمنا هذا القول، في حين أن هذا غير مسلّم لكم، فإن الله على كل شيء قدير[2].

وأيضاً: فلا يمنع أن يكون من الملائكة وله ذرية، لما ركّب فيه من اللذّة والشهوة دون غيره من الملائكة، يقول الطبري: «وكذلك غير مخرجة أن يكون كان من الملائكة، بأن كان له نسل وذرية، لما ركّب فيه من الشهوة واللذة التي نزعت من سائر الملائكة، لما أراد الله به من المعصية»[3].

٤ ـ وأجاب أصحاب القول الأول على استدلال أصحاب القول الثاني، بعصمة الملائكة، بقولهم: إنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٢/ ٢١٥.
(٢) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي ٢/ ٥٠٠.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٢٧.

الملائكة، لما سبق في علم الله بشقائه عدلاً منه، لا يُسأل عما يفعل[1].

والذي دعا إبليس إلى المعصية، هو الكبر، لما حكاه الثعلبي[2] عن ابن عباس: «إن إبليس كان من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: «الجن» خُلقوا من نار السموم، وخلقت الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية «عَزَازيل» وبالعربية «الحارث»، وكان من خُزَّان الجَنَّة، وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا، وكان له سلطانها، وسلطان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمة، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى الله، فمسخه شيطاناً رجيماً»[3].

٥ ـ وأجاب أصحاب القول الأول على استدلال أصحاب القول الثاني بأن إبليس خلق من نار، وخُلق الملائكة من نور. بقولهم: إنه لا منافاة بين ذلك وبين كونه من الملائكة، إذ ليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه، ما يدفع أنه من الملائكة.

يقول الطبري: «.. وذلك أنه غير مُسْتَنْكَر أن يكون الله ـ جل ثناؤه ـ، خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلقه شتَّى، فخلق بعضاً من نور، وبعضاً من نار، وبعضاً مما شاء من غير ذلك، وليس فيما نزّل الله ـ جل ثناؤه ـ الخبر عما خلق منه الملائكة، وإخباره عما خلق منه إبليس، ما يوجب أن يكون إبليس خارجاً عن معناهم، إذ كان جائزاً أن يكون خلق

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤، وتفسير البحر المحيط ١/١٥٣.

(٢) هو أحمد بن محمد إبراهيم النيسابوري الثعلبي، أبو إسحاق، كان أوحد زمانه في علم القرآن، وحافظاً للغة، بارعاً في العربية، أخذ عنه الواحدي، وصنف «التفسير الكبير» الذي فاق غيره من التفاسير، وهو كثير الحديث، كثير الشيوخ، وله مصنفات جليلة، توفي سنة ٤٢٧هـ.
انظر: وفيات الأعيان ١/ ٧٩، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٦٦، طبقات المفسرين للسيوطي ص١٧.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٥، وتفسير ابن كثير نحوه ١/ ٧٨، ٣/ ٩٠.

صنفاً من ملائكته من نار كان منهم إبليس، وأن يكون أفرد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته»[١].

الترجيح:

إن مسألة معرفة جنس إبليس، وإلى أي الخلائق يُنسب، مسأل غيبية، لا يمكن الجزم والقطع فيها إلا بدليل صريح من الكتاب والسُنَّة، ولا يعتمد في هذه المسألة على الروايات الإسرائيلية، التي لا يُجزم بصحتها، بل منها ما يقطع بكذبه، وهذا ما نلاحظه في هذه المسألة حيث شُحنت بكثير من هذه الروايات المشكوك فيها، ونجد أن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يُعقِّب بكلام نفيس على ما ذكر من بعض الآثار في هذه المسألة، حيث يقول: «وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل ليُنظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يُقطع بكذبه، لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفّاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسَّادة والأتقياء والبررة والنُجباء، من الجهابذة النُقَّاد، والحُفَّاظ الجياد الذين دَوَّنوا الحديث وحَرَّروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه وضعيفه ومنكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعين والكذّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوي، والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر ﷺ، أن ينسب إليه كذب، أو يُحدّث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم، وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل»[٢].

ويقول محمد الأمين الشنقيطي: «وما يذكره المفسرون عن جماعة من السلف، كابن عباس وغيره، من أنه ـ أي إبليس ـ كان من أشراف

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٢٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٠.

الملائكة، ومن خُزّان الجنة، وأنه كان يُدبّر أمر السماء الدنيا، وأنه كان اسمه ـ عَزَازيل ـ كلها من الإسرائيليات التي لا مُعوّل عليها»[1].

لذا فإنه يترجّح لدي أن إبليس كان من الملائكة باعتبار الصورة والتبعية، وهو من الجن باعتبار أصل المادة والخلق، وذلك للاعتبارات الآتية:

١ ـ تصريح الله ﷻ بأصل الشيطان وخلقه، ومن أي الأجناس هو، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ..﴾ الآية [الكهف: ٥٠]، فأخبر ـ جل ثناؤه ـ أن إبليس كان مع الملائكة، وأنه داخل في الأمر بالسجود معهم، فعند الأمر نضح كلُ وعاء بما فيه وخانه طبعُهُ. قال البيهقي[2]: «وإنما دخل إبليس في الأمر الذي خوطبت به الملائكة، لأن الله ـ تعالى ـ قد أذن له في مساكنة الملائكة ومجاورتهم، بحسن عبادته وشدة اجتهاده، فجرى في عدادهم، فلما أُمرت الملائكة بالسجود لآدم دخل في الجملة الملَكُ الأصلي والمُلحقُ بهم، غير أن مفارقته الملائكة في أصل جبلّته حملته على مفارقتهم في الطاعة، فلذلك قال الله ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾»[3].

ويقول ابن كثير: «إن الله ـ تعالى ـ لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم، إلا أنه كان قد تشبّه بهم وتوسّم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذُمّ في مخالفة الأمر»[4].

٢ ـ جواز وقوع الاستثناء من غير الجنس، كما تقدم ذكره، وذلك في

---

(١) أضواء البيان ٤/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) هو: أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي، أبو بكر، كان أوحد أهل زمانه في الإتقان والحفظ والفقه والتصنيف، وكان فقيهاً محدثاً أصولياً، سمع من أبي عبد الله الحاكم الحافظ، وصنف التصانيف النافعة التي سارت بها الركبان إلى سائر الأمصار، وتواليفه تقارب ألف جزء مما لم يسبق إليه أحد، توفي سنة ٤٥٨هـ.
انظر: الأنساب ١/ ٤٣٨، الكامل لابن الأثير ٨/ ١٠٤، سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٦٣.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ١٦٥.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٧٨.

القرآن الكريم ولغة العرب، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ . .﴾ الآية [البقرة: ٣٤]، استثناء يبيّن أن إبليس كان من الملائكة أثناء صدور الأمر، لكنه لا يوجب أن يكون من جنسهم. يقول الزمخشري: «فإن قلت: فيكف صَحَّ استثناؤه وهو جني عن الملائكة؟ قلت: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه، فأخرج الاستثناء على ذلك، كقولك: خرجوا إلا فلانة، لامرأة بين الرجال»[(١)].

٣ ـ الاختلاف الكبير بين عنصر خلق الملائكة، وعنصر خلق إبليس، فالملائكة خلقوا من نور، بينما خُلق إبليس من نار، وقد دل على هذا الفرق في الخلق، عِدَّةُ أدلة منها: قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبليس: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وعن عروة بن محمد عن أبيه عن جده عطية، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[(٢)]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم)[(٣)]، إلى غير ذلك من الأدلة، يقول ابنُ القيم: «الصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد، فإن إبليس كان من الملائكة بصورته، وليس منهم بمادَّته وأصله، كان أصله من نار وأصل الملائكة من نور، فالنافي في كونه من الملائكة، والمثبت لم يتواردا على محل واحد»[(٤)].

وكما أن هناك اختلافاً بين أصل الملائكة، وأصل الجنّ، فهناك اختلاف أيضاً بين مُسمَّى كل منهما، بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

---

(١) الكشّاف ١/ ٥٥٥.

(٢) سبق تخريجه ص٤٦

(٣) سبق تخريجه ص٩٠.

(٤) مصائب الإنسان لابن مفلح المقدسي ص١٦٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢/ ١٠٤.

٤ ـ ومما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة باعتبار أصله وعنصره، أن الله ـ تعالى ـ خلق الملائكة وجَبَلهم على طاعته وعدم مخالفة أمره، فلا تقع منهم المعصية، يقول ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، فلما كان إبليس ليس من عنصرهم، وإنما كان تابعاً لهم في العبادة والتنسُّك، مال إلى طبعه، وأبان عن معدنه، حينما صدر الأمر من الله ـ تعالى ـ بالسجود لآدم.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق: أنه ـ أي إبليس ـ كان منهم باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله، ولا باعتبار مثاله، ولم يخرج من السجود لآدم أحد من الملائكة، لا جبرائيل، ولا ميكائيل ولا غيرهما»[(١)]، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجر: ٣٠] فيه تأكيدان لزيادة تمكين المعنى وترسيخه في الذهن. وسُئِل المبرد عن هذه الآية فقال: «لو قال: فسجد الملائكة، احتمل أن يكون سجد بعضهم، فلما قال: (كلهم) زال هذا الاحتمال، فظهر أنهم بأسرهم سجدوا، فلما قال: (أجمعون) ظهر أنهم جميعاً سجدوا دفعة واحدة»[(٢)].

٥ ـ أنه لم يثبت بنص تناسل الملائكة وأن لهم ذرية، في حين أن إبليس له ذرية ونسل بنص القرآن الكريم والسُنَّة المطهرة، كما تقدم ذكره، حيث إن الملائكة منتفية عنهم صفة الأنوثة، ومن الأمر الطبعي أن التناسل لا يتم إلا بين الذكر والأنثى، فإذا انتفت عنهم صفة الأنوثة، امتنع أحد الأصلين في وجود الذرية، يقول أبو إسحاق: «أجمعنا أن الملائكة لا تتناكح، ولا لها ذرّيّة، وقد كان لإبليس ذرية، دلّ على أنه من غيرها»[(٣)]. والله ـ تعالى ـ أعلم.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣٤٦.

(٢) إعراب القرآن الكريم وبيانه ٥/٢٣٧، وانظر: أنموذج جليل لمحمد بن أبي بكر الرازي ص٢٥٢.

(٣) آكام المرجان في أحكام الجان، للشبلي ص١٥٠.

المبحث الثاني

أصل الإنسان

يخبرنا القرآن الكريم أن مادة خلق الإنسان، هي التراب، وهي مادة الأرض التي يعيش على ظهرها ذلك الإنسان، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٣ ـ ٥٥].

ولقد بيّن الرسول ﷺ أن الإنسان الأول آدم عليه السلام خُلق من قبضة قبضها الله ـ تعالى ـ من جميع الأرض، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ـ تعالى ـ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب)[1].

ومن جانب آخر يذكر القرآن الكريم أن أصل خلق الإنسان، هو الطين، يقول ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، حديث [٤٦٩٣] باب في القدر، والإمام أحمد في المسند ٤/٤٠٦، والترمذي في تفسير القرآن، حديث [٢٩٥٥] باب من سورة البقرة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن حبان في صحيحه ٨/١١.

طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ٧]، ففي هذه الآيات التصريح بأصل الخلقة الإنسانية، وأنه من طين، وقد جاء هذا التصريح أيضاً في خطاب المشركين الذين يَدْعُون غير الله ـ تعالى ـ، تدعوهم وتذكرهم بما هو أقرب إليهم، وألصق بهم، وهو خلقهم من الطين، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾﴾ [الصافات: ١١]، فالطين ـ وهو التراب المخلوط بالماء ـ أصل خلق آدم عليه السلام وذريته، وهو مصدر غذائهم منذ بدء الخلق في الأرحام، حيث إن تكوين الجنين في بطن أمه، متولِدٌ من الدم، والدّم مكوّن من الغذاء، والغذاء من نبات الأرض، وإنما النبات من الطين، فمادّة الطين، هي مصدر تكوين الغذاء في معاش الإنسان، وهي مادّة خِلْقَتِه الأولى.

وفي آيات أخرى يُرجع القرآن الكريم أصل خلق الإنسان إلى الماء، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤]، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٥ ـ ٨]. والمراد بالماء الذي خلق منه الإنسان، الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام، أو يراد به ـ وهو الأظهر ـ النُّطْفَةُ، وهي المرحلة الأولى من مراحل تكوين الجنين، يقول الألوسي في معنى الماء الوارد في الآية: «هو الماء الذي خُمّر به طينة آدم عليه السلام، وجعله جُزءاً من مادة البشر، لتجتمع وتسلسل وتستعد لقبول الأشكال والهيئات، فالمراد بالماء، الماء المعروف، أو يراد بالماء، النطفة، وحينئذ يتعين حمل البشر على أولاد آدم عليه السلام»[١].

واعتبر القرآن الكريم «الصلصال» أصلاً من أصول خلق الإنسان، وذلك في عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

(١) روح المعاني ١٩/ ٣٥.

صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

قال ابن قتيبة: «(الصلصال): الطين اليابس لم تصبه النار، فإذا نَقَرْتَهُ صوَّت، فإذا مسّته النار فهو فخّار، ومنه قيل للحمار، مصلصل، ويقال: سمعت صلصلة اللّجام، إذا سمعت صوت حِلَقِه»(١).

وجاء في الصحاح: «(الصلصال): الطين الحرّ خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار، عن أبي عبيدة»(٢).

وفي أحيان أخرى يُرجع القرآن الكريم أصل الخلقة الإنسانية إلى «النطفة»، وهي نطفة الرجل ونطفة المرأة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النحل: ٤]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ . .﴾ الآية [الإنسان: ٢].

وأصل النطفة هو الماء الصافي، ويُعبّر بها عن ماء الرجل، وهو المنيّ الذي يدفق من الأصلاب في الأرحام، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧]، وكما تطلق النطفة على ماء الرجل فهي أيضاً تطلق على ماء المرأة.

وحين نتأمل تنوع أصل خلق الإنسان وتكوينه في القرآن الكريم، فإننا لا نرى اختلافاً ولا تعارضاً، بل نجد الارتباط والتناسق فيما بين تلك الأنواع، فالقرآن الكريم يعرض أحياناً مادة خلق آدم عليه السلام، فيذكر أن مبدأ خلقه من الأرض، وفي آيات أخرى يذكر أنه من تراب، وفي ثالثة يذكر أنه

---

(١) تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة ص٢٣٧.

(٢) الصحاح للجوهري مادة «صلل» ٥/ ١٧٤٥.

خُلق من طين، وفي رابعة أنه خُلق من صلصال، فهذه المواد الثلاث الأخيرة التي نصَّ عليها القرآن الكريم، هي من مصدر واحد وهو الأرض، فالتراب جزءٌ من الأرض، وهذا التراب إذا اختلط بشيء من الماء صار طيناً، والطين إذا يبس وجفّ وأصبح له صوت يصلصل، صار صلصالاً، فالأرض والتراب والطين والصلصال هي جزء واحد، وإن كان لكل وحدة من هذه المراحل صفة تميزها عن الأخرى.

وعندما يضيف القرآن الكريم أصل خلق الإنسان إلى النطفة، وإلى العلقة، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢]، فإنه يشير إلى المادة التي يستمر بها بقاء هذا النوع الإنساني في خلقه وتكوينه وتناسله في الدنيا، من خلال تلك النطفة والعلقة، وهذه النطفة أو العلقة ليست غريبة عن الأنواع الأربعة الأخرى، بل هي ـ كما ذكرت سابقاً ـ ناتجة عنها ومتولدة منها، يقول الصاوي(١) في تفسير سورة الرحمٰن: «واعلم أنه ـ تعالى ـ أفاد في هذه السورة أن خلق آدم كان من صلصال كالفخار، وفي سورة الحجر: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٨]، أي من طين أسود مُتَغيِّر، وفي الصافات: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [١١]، أي يلصق باليد، وفي آل عمران: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [٥٩]، ولا تنافي بينهما، وذلك لأنه ـ تعالى ـ أخذه من تراب الأرض فعجنه بالماء، فصار طيناً لازباً، ثم تركه حتى صار حمأً مسنوناً، ثم صوّره كما تصور الأواني، ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار، وإذا نُقر صَوَّت، فالمذكور هنا آخر أطواره، وفي غير هذا الموضع تارة مبدؤه، وتارة أثناؤه، فالأرض أمه، والماء أبوه، ممزوجان بالهواء الحامل للحَرّ الذي هو من فيح جهنم، فهو من العناصر الأربع، لكن الغالب في جِبِلَّته التراب»(٢).

---

(١) هو: أحمد بن محمد الخلوتي الشهير بالصاوي، فقيه مالكي، نسبته إلى «صاء الحجر» في أقليم الغربية بمصر، له مصنفات مفيدة، توفي بالمدينة المنورة سنة ١٢٤١هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ١٨٤، الأعلام ١/ ٢٤٦، معجم المؤلفين ٢/ ١١١.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٥٤.

فحينما نلحظ الآيات التي جاءت في بيان خلق الإنسان من نطفة أو من ماء، نجدها تأتي في سياق بيان ضعف الإنسان وتأكيد عجزه، قياساً على غيره من المخلوقات الأرضية والسماوية، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٦]، فهو ماء مهين مدفوق، يحتقره من يراه، ويستقذره من يقع عليه، فمن كانت هذه النطفة المهينة بداية خلقه وتكوينه في بطن أُمِّه، فليس له أن يتكبّر ويترفّع على من يماثله في أصل الخلق والتكوين، «فالمتأمل في القرآن يرى أنه يذكِّر الإنسان بهوانه وضعفه، فهو يلفت نظره إلى خلقه من تراب، أو من طين، أو من نطفة ـ وهذا مُعتَرف به علمياً ـ وذلك كبْحاً لجماح غُروره كي لا يتجاوز حدّه فيكفر بخالقه ويطغى ويستكبر على من حوله»[(١)].

وأيضاً في جانب إضافة أصل الخِلْقَة الإنسانية إلى العلقة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢]، نجد أن هذا البيان جاء في سياق الامتنان على الإنسان بتعليمه ما يضرّه وما ينفعه، وإيهابه العقل الذي يميّز به الخير والشر، ومن هذا الامتنان، تدارك رحمة الله ـ تعالى ـ هذا الإنسان منذ أن كان قطعة دم جامدة في بطن أمه، بعد أن كانت هذه القطعة الدم، نطفة دافقة مهينة، تختلف تماماً عن حال العلقة. إنها عناية الله ـ سبحانه ـ بهذا المخلوق المكلَّف، منذ أن بدأ جسمه بتكوين أجزائه حتى تم خلقه وكمل.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن كل ما يتصل بالإنسان من قريب أو بعيد، حيث يرصده على كل جانب، وفي كل موقف، وعند كل مرحلة من مراحل حياته، إلى أن تنتهي في الدنيا إلى الموت.

ومما فصّل القرآن الكريم الحديث عنه فيما يتصل بالإنسان، المرحلة الجنينية التي يتكوَّن فيها جسم الإنسان في بطن أمه، فأخبر أن النطفة هي

---

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم، لعفيف عبد الفتاح طبّارة ص٤١.

اللبنة الأولى في تكوين جسم الجنين، وهذه النطفة إنما تحصل ـ كما أسلفت ـ نتيجة اللقاء بين الرجل والمرأة، أو بين الذكر والأنثى، فإذا اختلطت نطفة الرجل بنطفة المرأة وحصل التلقيح بينهما، فإنه تصبح هذه النطفة، نطفة أمشاج[1] كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، فسبحان من خلق هذه النطفة المهينة وأمدَّها بالقدرة التي تحولها إلى دم ثم لحم ثم عظم ثم تكسى العظام لحماً، ثم تنفخ فيها الروح، فتتحرك وتتحسس وتشعر بالحركة وتتنفس الهواء وتهضم الطعام وتسمع وترى، فتبارك الله أحسن الخالقين، يقول ابن القيم: «فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها، دلّته على المعاد والنبوات، كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله، فكما تدلّ أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه وأنه الملك الحق المتعالي على أن يخلقها عبثاً ويتركها سُدى بعد كمال خلقها»[2].

فحقاً إن هذه النطفة من تأملها ودقق النظر فيها كفى بها آية عظيمة على قُدْرة الله ـ تعالى ـ على الخلق والإعادة، حيث إن دفقة واحدة لمني الرجل تحمل مائتي مليون حيوان منوي، والذي يلقح بويضة الأنثى هو حيوان منوي واحد فقط من هذا الجمع الغفير جداً من الحيوانات المنوية، ولا دخل للإنسان إطلاقاً في اختيار هذا المنوي الواحد، الذي يلتقي ببويضة الأنثى، ويُخلق منه الجنين، بل ذاك بإرادة الله ـ تعالى ـ، حيث يصل هذا الحيوان المنوي إلى البويضة ويلتصق فيها، ثم ما عدا ذلك من الملايين من الحيوانات المنوية، تذهب وتتلاشى، أما هذا الحيوان المنوي الذي لقَّح البويضة فإنه يواصل مسيرته الخلقية التي أرادها الله ـ تعالى ـ لتكوين هذا الجنين في رحم أمه، ولقد أخبرنا الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة العلمية حين

---

(١) وهي أول مرحلة من مراحل خلق الإنسان.

(٢) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية ٤/ ١٦٦.

سأله رجل عن العزل، فقال: (ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء)[(١)]، يقول الدكتور شفيق عبد الملك[(٢)]: «تبدأ عملية الإخصاب خطواتها بدور الحيوان المنوي الذي إذا أحسَّ بقرب البويضة سرعان ما يفرز مادة خاصة لها قدرة على إذابة جزء من المنطقة الدائرية المشعة [التاج المشع]، وتفرز البويضة بدورها إجابة لذلك مادّة أخرى لزجة القوام على سطحها في منطقة اقتراب الحيوان المنوي تَحِيَّة وترحيباً به من جهة، ومساعدة وتسهيلاً لإمكان تعلقه والتصاقه بسطحها من جهة أخرى. . . وإذا ما ثقبها ودخلها يغلق الثقب حالاً، ولن يسمح لحيوان منوي آخر بالدخول في البويضة، ولذلك يكون نصيب العدد الكبير من الحيوانات المنوية التي حاولت ثقب البويضة والدخول إليها ولم تفلح، أن تظل ملتصقة ومعلقة بمنطقة البويضة الشفّافة حتى تتلاشى»[(٣)].

فسبحان الخالق الحكيم، الذي خلق هذه الملايين من الحيوانات المنويّة في هذه النطفة الصغيرة الحقيرة، لتكون بويضة الأنثى، وهي واحدة فقط، من نصيب حيوان منوي واحد فقط، ولا ريب أن في هذا الخلق البديع والإحكام الدقيق؛ تتجلى عناية الله ـ تعالى ـ بهذا الإنسان منذ أن كان نطفة لزجة في رحم أمه، لا يعلم عن نفسه شيئاً، حتى تم خلقه وخرج إلى الدنيا سويّاً كاملاً في أحسن تقويم.

إن العلم الحديث لم يكتشف حقيقة دور الحيوانات المنوية في إيجاد الإنسان، إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلادي، حيث كانت هناك نظريات تتخبَّط يميناً وشمالاً في تصوّر خلق الإنسان، ومم يخلق؟ وكيف يتكوَّن؟ إلى أن توصَّل علماء الأجنَّة لمعرفة الحيوانات المنوية

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، حديث [١٤٣٨] باب حكم العزل.

(٢) أستاذ علم الأجنة والتشريح في جامعة عين شمس بالقاهرة.

(٣) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار ص١٩٥.

والبويضات، وأن الإنسان يتكوّن منهما معاً[1]، إلا أن هذه الحقيقة التي اكتشفت منذ زمن ليس بالبعيد، ليست علماً جديداً في الحقل الإسلامي الذي يستمد منهجه من القرآن الكريم، إذ كَشَفَ القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، حين نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ ـ ٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ [الفرقان: ٥٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

ولقد كان السائد قديماً أن رحم المرأة ليس إلا حاضناً للجنين فقط، وليس للمرأة دور في تكوين جسم الجنين، وإنما يتكون من ماء الرجل فقط، فليس لرحم المرأة دور سوى الرعاية والتغذية، بَيْد أن القرآن الكريم، الذي أنزله منْ خلق هذا الإنسان وركّبه، كشف لنا عن حقيقة دور المرأة في تكوين جسم الجنين، منْ خلال التقاء مائها بماء الرجل فتتلقح به ثم تصير نطفة أمشاجاً[2]، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، قال ابن قتيبة: «أمشاج: أخلاط، يقال: مشجته فهو مشيج، يريد: اختلاط ماء الرجل بماء المرأة»[3]، ويقول ابن جرير في معنى الآية: «يقول ـ تعالى ذكره ـ: إنا خلقنا ذرية آدم من نطفة، يعني من ماء الرجل وماء المرأة»[4]، ويكشف لنا الرسول ﷺ عن هذه

---

(١) انظر: المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي، للدكتور صالح عبد العزيز كريم ص٣١٣.

(٢) المقرر في علم الأجنة أن النطفة تكون على ثلاثة معان:
أ ـ النطفة المذكرة: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.
ب ـ النطفة المؤنثة: وهي البويضة التي يفرزها المبيض مرة في الشهر.
ج ـ النطفة الأمشاج: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي والبويضة عندما يتم التلقيح.
انظر: المدخل إلى علم الأجنة الوصفي والتجريبي ص٣١٢ ـ ٣١٣.

(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٠٢.

(٤) تفسير الطبري: ٢٩/٢٠٣.

الحقيقة العلمية، وذلك حين أراد يهودي أن يختبر نبوة نبينا ﷺ، فقال: لأسألنَّه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فجاء حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يُخلق الإنسان؟ قال: (يا يهودي، من كلٍّ يُخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدّم)، فقام اليهودي فقال: هكذا كان يقول من قبلك[1].

يقول أبو حامد الغزالي: «وإنما قلنا: مبدأ سبب الوجود من حيث وقوع المنيِّ في الرحم لا من حيث الخروج من الإحليل، لأن الولد لا يخلق من مني الرجل وحده بل من الزوجين جميعاً، إما من مائه ومائها، أو من مائه ودم الحيض، قال بعض أهل التشريح: إن المضغة تخلق بتقدير الله من دم الحيض، وأن الدم منها، كاللبن من الرائب، وأن النطفة من الرجل شرط في خثور دم الحيض وانعقاده، كالإنْفَحَة[2] للبن، إذ بها ينعقد الرائب، وكيفما كان، فماء المرأة ركن في الانعقاد»[3]، ويقول ابن قيم الجوزية: «وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لا يكون إلا بين أصلين، يتولَّد من بينهما ثالث، ومنيِّ الرجل وحده لا يتولّد منه الولد ما لم تمازجه مادة أخرى من الأنثى»[4].

ثم بعد مرحلة تكوين الإنسان في رحم أمه، وهي مرحلة النطفة الأمشاج، تعلق النطفة الأمشاج بالرحم، ولذا تُسَمَّى بالعلقة، وهي المرحلة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٦٥ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والنسائي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٩، وأبو الشيخ في العظمة، حديث [١٠٨٨]، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٤١ وقال: «رواه أحمد والطبراني والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات».

(٢) الإنْفَحَةُ: هي شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع، أصفر، فيُعصر في صُوفة فيَغلظ كالجُبن. القاموس المحيط مادة «نفح».

(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٤٧.

(٤) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص٢٠٩.

الثانية من مراحل خلق الإنسان في رحم أمه، وهي في نفس الوقت تعتبر أول مرحلة انتقالية للنطفة واستحالتها إلى دم، وقد جاء بيان هذه المرحلة في القرآن الكريم فيما تقدم من الآيات.

والعلقة فسَّرها العلماء بأنها قطعة من الدم الجامد، ويقول الأطباء في العصر الحديث: إن العلقة هي المرحلة التي تعلق فيها النطفة الأمشاج بعد أن تكتمل وتصبح مثل ثمرة التوتة، وحينئذٍ تعلق بجدار الرحم وتنشب فيه[1].

وتفسير الأطباء للعلقة إنما هو من خلال الأجهزة الطبية الدقيقة، ومع ذلك فتفسير العلماء للعلقة بأنها الدم الجامد ليس بعيداً عن تفسير الأطباء لها، فالعلقة العالقة، والتي لا تزيد عن نصف ملليمتر قبيل العلوق ولا تكاد تُرى بالعين المجردة، محاطة بالدم من كل جهة، فتفسير العلماء لها بأنها الدم الجامد، اعتماد على ما يرى بالعين المجردة من الدم الغليظ المحيط بالعلقة، إذ هي محاطة بالدم، وهي في ذاتها مُعلَّقة في جدار الرحم، ولعل ابن كثير رحمه الله فطن إلى ذلك حين قال عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]: «أي ثم صيّرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها، ما بين الترقوة إلى السُّرّة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة»[2] ويقول الدكتور محمد البارّ: «إن وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمد، هو أدقّ وصف لهذه المرحلة»[3].

وبعد طور العلقة يأتي طور المضغة، وهي قطعة لحم صغيرة، سُمّيت بذلك لأنها بقدر ما يُمضغ، وصفتها كقطعة لحم لاكتها الأسنان ثم قذفتها بعد مضغها، وهي ترى في رحم الأم بهذه الصفة، وطور المضغة يبدأ بظهور بعض الكُتَل البدنية، فإن شاء الله ـ تعالى ـ إتمام خلقها واكتمال

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص٢٠١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤١.
(٣) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص٣٦٨.

أجزائها أتمه، وإن شاء عدم إتمامها سقطت من الرحم، فالمضغة إذاً قسمان: فما تمّ تكوينه منها فهي مُخلَّقة، وما لم يتم خلقه وتكوينه فهي غير مُخلَّقة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٥].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله مَلَكاً، فقال: يا رب مُخلَّقة، أو غير مُخلَّقة؟ فإن قال: غير مُخلَّقة مجّتها الأرحام دماً، وإن قال: مُخلَّقة، قال: يا رب فما صفة هذه النطفة، أذكر أم أنثى؟ . . .»(١).

ثم بعد مرحلة المضغة تتحول هذه المضغة ـ بإذن الله ـ إلى عظام وتكسى العظام باللحم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، روى ابن جرير عن ابن عباس وعكرمة والشعبي وأبي العالية والضّحاك وابن زيد، في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾: أي نفخ الروح فيه بعد أن كان جماداً، وأيّد ابن جرير هذا القول(٢)، ورُوي عن ابن عمر ومجاهد أن المراد كمال شبابه، وقيل هو نبات الشعر، وقيل خروج الأسنان، قال القرطبي بعد أن ذكر هذه الأقوال: «والصحيح أنه عامٌّ في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحُسْن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت»(٣)، ويقول البيضاوي: «هو صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخه فيه، أو المجموع»(٤)، والظاهر أنه بعد أن كان ممتزج الأعضاء والجوارح، غير واضح المعالم والتقاسيم، يكمل خلقُهُ في

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١١٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٨/ ١٠ ـ ١١.
(٣) تفسير القرطبي ١٢/ ١١٠.
(٤) تفسير البيضاوي ٢/ ١٠٠.

هذه النشأة الآخرة، وتتضح صورته وتستوي جوارحه وتستقيم خلقته، وتبدأ أعضاؤه في الحركة بعد نفخ الروح فيه، فهو إذاً طور التسوية والتصوير والتعديل، ثم نفخ الروح في الجسد.

وتستمر عناية الله ـ تعالى ـ بهذا الإنسان المولود الضعيف، فيكبر شيئاً فشيئاً، فتنبت الأسنان، ويشتد الساعد، وتمشي الرجلان، ويعتدل القوام، وتبطش اليدان، والإنسان يمر من خلال حياته بمراحل عديدة، فبعد مرحلة الفطام، تأتي مرحلة التمييز، فيصبح الصبي مميزاً حتى سن البلوغ، ثم تأتي مرحلة الشباب، وهي تكون بالبلوغ، وفي هذه المرحلة تبرز فيها شخصية الإنسان وتظهر فيها إرادته المستقلة واعتماده على نفسه في أكثر أموره، ثم ينتقل إلى مرحلة الكهولة وتستمر إلى أربعين سنة، وبعد ذلك تأتي مرحلة الشيخوخة، وهي تبدأ بعد الأربعين، وفيها يتم رجحان العقل وزيادة الخبرة، وسلامة الرأي، وتستمر حتى مرحلة الهرم، وهي مرحلة الضعف التي يردّ إليها الإنسان بعد أن كان ضعيفاً ثم صار قوّياً في أكثر مراحل حياته، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧].

المبحث الثالث

شبهة إبليس

إن العبد المربوب حين يحكّم عقله ورأيه فيما يتلقى من ربه ـ تعالى ـ من الأوامر والنواهي، فيأخذ ما يوافق هواه ونظره، ويُعرض عما سوى ذلك، فإن هذا المخلوق، وبذلك المنهج، قد سلك بنفسه سبيل الشقاوة والضلال في الدنيا والآخرة، إذ إن عقل المخلوق وفكره عاجز عن الإحاطة بجميع الحِكَم والغايات التي أرادها الله ـ تعالى ـ فيما شرع لعباده، يقول ابن القيم: «ولأن يلقى العبد ربه بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به، أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه»[(١)].

وإذا استعرضنا أولئك المعارضين لمنهج الله ـ تعالى ـ بآرائهم وأهوائهم، نجد إبليس رأس أولئك المعارضين وزعيمهم، حيث يخبرنا القرآن الكريم أن عدو الله إبليس هو أول من عارض النص الإلهي برأيه وقياسه الفاسد، وقدّم رأيه على الأمر الإلهي الكريم، ولعظم قبح هذا الإعراض الإبليسي وقبح فاعله، فقد شنَّع القرآن الكريم على إبليس في موقفه المذموم مع ربه ـ تعالى ـ، فنجد تكرار هذه القصة في آيات عدة من كتاب الله، وفي هذه الآيات نلحظ التأكيد القرآني على الشبهة الإبليسية التي احتجّ بها عدو الله على ربه ـ تعالى ـ، ففي سورة الأعراف يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ

(١) بدائع الفوائد ١٤٢/٤ بتصرف يسير.

مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [١٢]، وفي سورة الحجر يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [٣٢، ٣٣]، وفي الإسراء يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [٦١]، وفي سورة ص يقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [٧٥، ٧٦].

ومن خلال هذه النصوص القرآنية الكريمة نلحظ أن إبليس عارض أمر ربه بشبهته التي ركَّبها من مقدمتين هما:

المقدَّمة الأولى: قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فهذه مقدمة صغرى، وأما الكبرى فهي محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول، واستند إلى ذلك بقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

المقدَّمة الثانية: معلومة من المقدمة الأولى، أي: ومن خُلق من نار أفضل ممن خُلق من طين(١).

وهاتان المقدمتان اللتان ادّعاهما إبليس، ليستا هما الأصل في امتناعه عن السجود، وإنما ذكرهما تعنُّتاً وعناداً، إذ الأصل في امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام هو الكبر والكفر والإباء المجرد، فالله ـ تبارك وتعالى ـ أخبر في كتابه الكريم أن إبليس لم يسجد مع قدرته على السجود، بقوله: ﴿أَبَىٰ﴾، فالإباء هو الامتناع مع القدرة والاختيار، ولا يُقال لمن لم يكن قادراً على الفعل: إنه أبى، كما أخبر ـ تعالى ـ أن ذلك الإباء كان على وجه الاستكبار بقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، ثم أكّد ـ تعالى ـ أن هذا الإباء والاستكبار من إبليس؛ نتيجة للكفر المتأصّل في نفسه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، يقول أبو عبد الله الشبلي(٢): «اعلم أن هذه الشُّبهة التي ذكرها إبليس، إنما ذكرها

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية ٣/٩٩٨ ـ ٩٩٩.

(٢) هو: محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، أبو عبد الله، ولد بدمشق، من فقهاء الحنفية، =

على سبيل التعنت، وإلا فامتناعه من السجود لآدم إنما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد»[١].

وهذه الشبهة التي رتّب عليها إبليس تلك المقدمتين، واستخلص منها نتيجته الفاسدة، هي شبهة باطلة لعدة وجوه، هي فيما يأتي:

أولاً: إن شُبهة إبليس قامت على القياس مع وجود النَّصّ، والقياس مع وجود النصّ باطل، وكل قياس مع وجود النصّ فهو قياس إبليسي باطل، وقد أكد العلماء هذا الوجه في ردِّ شُبهة إبليس وشنّعوا عليه قياسه الفاسد، قال ابن الجوزي: «قال العلماء: وقع الخطأ من إبليس حيث قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار»[٢]، ويقول الشهرستاني[٣]: «اعلم أن أول شُبهة وقعت في الخليقة، شُبهة إبليس لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خلق منها، وهي النار، على مادة آدم عليه السلام، وهي الطين»[٤]، ويقول ابن القيم عن قياس إبليس: «إنه قياس في مقابلة النصّ، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياساً باطلاً، ويسمّى قياساً إبليسياً، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل، وتقديمه عليه، ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته»[٥].

= ولي قضاء طرابلس، واستمر في القضاء إلى أن توفي بها، وكان يتثبت في أحكامه، ويرابط في السواحل، ويلبس السلاح ويقاتل، وكان ذا محاضرة مفيدة ومنظوم ومنثور، وهو فقيه ومحدّث، وله مصنفات حسان، توفي سنة ٧٦٩هـ.
انظر: الدُّرر الكامنة ٣/ ٤٨٧، هدية العارفين ٢/ ٦٤، الأعلام ٦/ ٢٣٤.

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ص١٥٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ١٧٤.

(٣) هو: محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، كان إماماً مبرزاً، فقيهاً متكلماً، كثير المحفوظ، قوي الفهم، مليح الوعظ، وكان عالماً بأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، وله مصنفات عديدة، توفي سنة ٥٤٨هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٨٦، العبر ٣/ ٧.

(٤) الملل والنحل ١/ ١٥ ـ ١٦.

(٥) الصواعق المرسلة ٣/ ١٠٠٢.

ويعتبر هذا القياس الإبليسي هو أول قياس وقع، قال الحسن البصري: «قاس إبليس وهو أول من قاس»، وقال محمد بن سيرين: «أول من قاس إبليس، وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس»[1].

ثانياً: إن تفضيل إبليس أصلَ خلقه على أصل خلق آدم عليه السلام واستناده في زعمه هذا على قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، غير صحيح، للاعتبارات الآتية:

١ ـ أن التراب منفعته أكثر من النار، فالتراب إذا وُضع فيه القُوْتُ أنتج أضعافاً كثيرة، وهذا من بركته، إذ وَصَف الله الأرض بالبركة، والتراب هو مادة الأرض وعنصرها، قال ـ تعالى ـ في بركة الأرض العامة: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، وأخبر ـ تعالى ـ عن الأرض أنها تهتز وتربو بالماء، ثم تُخرج الزروع والثمار اليانعة، قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وهذه الأرض هي مصدر رزق الإنسان ومنبت قوته ومعاشه، يقول ـ جل شأنه ـ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي جاءت في وصف الأرض بالفضل والبركة والمنفعة للعباد.

أما النار فلم يخبر الله ـ تعالى ـ أنه جعلها مباركة كما أخبر عن الأرض، ولم تذكر النار في القرآن الكريم إلا في معرض العقوبة

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٣١، والدارمي في سننه ١/ ٧٦، وذكر ابن كثير رواية الحسن وابن سيرين في تفسيره ٢/ ٢٠٤ وصحح إسناديهما.

والتخويف، وجاءت في موضع واحد بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٣]، فالنار بالنسبة إلى الأرض كنسبة الخادم إلى المخدوم، إذا استغنت عنها أبعدتها، وإذا احتاجت إليها استدعتها، وهي مذهبة لبركة ما يطوله لهبُها، فلا ترجع إلا هشيماً تسفّه الرياح.

٢ ـ أن النار طبعها الخفّة والطيش والحِدَّة، وأما التراب ففيه الثبات والرزانة، ولما في الأرض من السكينة والاستقرار، استطاع الإنسان أن يستفيد من خيراتها وكنوزها المكنونة فيها، إذ جعلها الله مذللة للإنسان، قال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، ولقد أكد العلماء على هذا الفرق البيّن بين التراب والنار، فيقول ابن جرير: «فجهل عدو الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب، إذا كان معلوماً أن من جوهر النار: الخفّة والطيش والارتفاع علواً، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حمل الخبيث، بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق، على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن من جوهر الطين: الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبّت، وذلك الذي في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم، بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق، إلى التوبة من الخطيئة ومسألة ربه العفو عنه والمغفرة»(١).

ويقول ابن كثير: «فأخطأ ـ أي إبليس ـ قبّحه الله قي قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين، أيضاً فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبُّت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليسَ عنصرُه، ونفع آدمَ عنصرُهُ بالرجوع

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٣٠ ـ ١٣١.

والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف، وطلب التوبة والمغفرة»[١].

٣ ـ أن التراب لا يستغني عنه الإنسان والحيوان، ولا عن ما يتكون فيه ومنه، فهو ضروري لهما، أما النار فإنه يستغني عنها الحيوان، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام الطوال، ولفضل التراب على النار، وما فيه من المنفعة العظيمة، ذكر الله ـ تعالى ـ الاستفادة منه في الحرث والزرع والثمار، في سياق بعض نعم الله ﷻ على خلقه، كما قدَّم ذكره على ذكر النار والاستفادة منها، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٧]، وذكر ـ تعالى ـ نعمة الماء، ثم ذكر ـ جل وعلا ـ نعمة الاستفادة من النار.

٤ ـ أن التراب لا يفتقر إلى حامل يحمله فهو قائم بذاته، في حين أن النار لا تقوم بنفسها، فهي مفتقرة إلى محل تقوم به ويحملها، بل إن هذا المحل لا يكون غالباً إلا من التراب أو فيه، فأين الأكمل والأفضل، القائم بنفسه المستغني عن غيره، أم الذي لا يقوم إلا في محل غيره ويتوقف حصوله على وجود محله؟.

٥ ـ أن الله ﷻ أودع في الأرض خيرات ومنافع كثيرة، ففيها المعادن والأنهار والثمار والعيون والأقوات وأصناف الحيوانات والجنان وغيرها، أما النار فإنه لا يوجد فيها شيء من ذلك أصلاً، فمن أراد الوقوف على الفرق بين التراب والنار، فلينظر إلى البساتين الخضرة، والثمار اليانعة، والروائح الطيبة الزاكية، والمياه العذبة.. إلخ، ثم ليشاهد النار وحرها وشدة لهبها، فإنه يتبين له فضل التراب على النار.

٦ ـ أن التراب إذا خُلِطَ بالماء صار طيناً، وبهذا الطين الذي احتقره إبليس، شُيِّدت المساكن، وأُقيمت المدائن، ورُفعت المآذن التي يذكر فيها

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٤.

اسم الله ـ تعالى ـ، وعُمّرت بيوت الله للعبادة، أما النار فأي شيء عمّرته ورفعته غير لهبها، فهي مع ما فيها من المنفعة، مخربة للبلاد والعباد.

٧ ـ ثم إن الطين مركّب من أصلين أساسين للحياة على الأرض، هما: **أولاً**: الماء الذي جعله الله سبباً رئيساً لحياة الإنسان والحيوان والنبات، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. **ثانياً**: التراب الذي جعله الله خِزَانة للمنافع ومستودعاً لها، ومحضناً للبذر، ومنبتاً للزرع والثمار، وسبباً لحصول القوت، أما النار فلا يوجد فيها هذان العنصران، أو أحدهما.

ثالثاً: لو سُلّم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين، فلا يلزم من ذلك أن يكون المخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فالله ـ تعالى ـ قادر على أن يخلق من المادة الأدنى من هو خير من المخلوق من المادة الأفضل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو من كمال قدرته ـ تعالى ـ، يقول ابن عطية: «وقول إبليس: (أنا خير منه) قياس أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهّم أن النار أفضل من الطين، قاسَ أن ما خُلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خُلق من المفضول، ولم يدر أن الفضائل تخصيصاتٌ من الله ـ تعالى ـ يَسِمُ بها من يشاء»(١)، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إنه وإن كانت النار خيراً من الطين، فلا يجب أن يكون المخلوق من الأفضل أفضل، فإن الفرع قد يختص بما لا يكون في أصله، وهذا التراب يخلق منه الحيوانات والمعادن والنبات ما هو خير منه، والاحتجاج على فضل الإنسان على غيره بفضل أصله على أصله، حُجَّة فاسدة، احتجّ بها إبليس، وهي حُجَّة الذين يفخرون بأنسابهم، وقد قال النبي ﷺ: (من قَصُرَ به عمله، لم يبلغ به نسبه)(٢)»(٣).

---

(١) تفسير ابن عطية ١٢/ ٤٨٩.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم مطولاً عن أبي هريرة رضي الله عنه في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٩٩] باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٥ ـ ٦.

رابعاً: أن الله ـ تبارك وتعالى ـ شرّف طينة آدم عليه السلام التي خُلق منها وفضلها بأمرين هما:

أ ـ أن الله ـ تعالى ـ شرَّفها بأن خلقها بيديه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧٥].

ب ـ أن الله ـ جل وعلا ـ شرّفها بنفخ الروح المقدَّسة فيها كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧٢].

فهذان الأمران من أعظم الأسباب الموجبة لتفضيل الطين على النار.

خامساً: لو فُرض ـ كما زعم إبليس ـ أنه أفضل من آدم، فإن إكرام الأفضل للمفضول من الأخلاق الكريمة الفاضلة، الدالة على تواضع صاحبها، وسخاء نفسه، وحُسن طويّته، وسلامة سريرته، فهو فعل محمود لدى الطباع السليمة، فضلاً عن أن يكون بالأمر المستنكر، ثم إنه لا يلزم من الأمر بالسجود في كل حال أن يكون المسجود إليه أفضل من الساجد، إذ مقصد السجود امتثال أمر الله وطاعته، يقول شارح الطحاوية: «وأما المقدمة الثانية وهي: أن الفاضل لا يسجد للمفضول، فباطلة، فإن السجود طاعة لله، وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد، وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه، وإنما يدل على فضله»(١).

وبهذا يتبين سقوط هذه الشُّبْهَة الإبليسية التي قامت على الكبر والعناد والمعارضة لأمر الله ـ تعالى ـ، فصار إبليس بها إماماً لذوي الآراء الفاسدة، والشُّبهات الباطلة والأهواء المائلة، يقول ابن القيم: «وظنَّ أن هذه الشُّبهة تنفعه في تأويله، فجرى عليه ما جرى، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة، ولا إله إلا الله، كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين، وأنت إذا تأملت عامة شُبه المتأولين التي تأولوا لأجلها النصوص وعطّلوها، رأيتها من جنس شبهته»(٢).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي ص٣٢٤.

(٢) الصواعق المرسلة ١/ ٣٧١.

الفصل الثاني

الفرق بين معصية إبليس وآدم عليه السلام

تبيّن فيما سبق أن إبليس كان مأموراً مع الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام إلا أن إبليس عصى هذا الأمر الإلهي، كبراً وعناداً وكُفراً، وصار بذلك العصيان والتمرُّد على أمر الله ـ تعالى ـ، قائد الأشقياء وإمام الكافرين.

وعرفنا أيضاً أن هذا العدو اللّدود قد وسوس لأبينا آدم عليه السلام حتى أكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها فعصى أمر ربه ـ تعالى ـ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، مما كان سبب خروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض، إلا أن هناك فرقاً شاسعاً جداً بين المعصيتين، ويجدر هنا قبل ذكر الفروق بين معصية إبليس وآدم عليه السلام، أن أوضح السبب الذي دفع آدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة فعصى أمر ربه، ثم أتبع ذلك بمسألة عصمة الأنبياء من الذنوب والمعاصي.

فنقول: إن الله ـ جل وعلا ـ نهى آدم وزوجه عن الأكل من الشجرة وقرن هذا النهي بالوعيد في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، إلا أن آدم أكل هو وزوجه من الشجرة، بَيْد أن آدم عليه السلام لم يقصد بالأكل من الشجرة، المخالفة لأمر الله ولا معصيته ـ تعالى ـ، ولا أن يكون ظالماً مُستحقاً للشقاء، وإنما أكل عليه السلام من الشجرة بتأويل منه لهذا النهي من الله ـ تعالى ـ، يقول ابن عطية رحمه الله: «وآدم إنما عصى بتأويل»(١).

وللعلماء في تأويل معصية آدم عليه السلام أقوال، وتفصيلها فيما يأتي:

القول الأول: إن آدم عليه السلام وزوجه أكلا من غير المشار إليه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولم يريا النهي واقعاً على الجنس، قالوا: ولفظ الإشارة يراد به النوع تارة والعين تارة أخرى، ومما

---

(١) تفسير ابن عطية ١٠/ ١٠٠.

أُريد به الإشارة إلى النوع ما رواه علي بن أبي طالب ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ حريراً بشماله، وذهباً بيمينه، ثم رفع بهما يديه فقال: (إن هذين حرام على ذكور أمتي حِلٌّ لإناثهم)[1]، فإنه ﷺ أراد النوع لا العين فقط، قال القرطبي: «وهو حَسن، فظنَّا أن المراد العين وكان المراد الجنس»[2]، وقال ابن العربي[3]: «وهي أول معصية عُصي الله بها، على هذا القول»[4]، يعني اتِّباع الظاهر، وقال أيضاً: «ولذا إذا أكل من جنسها فدليل على أنه إذا حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنث، وتحقيق المذاهب فيه، أن أكثر العلماء قالوا: لا حنث عليه، وقال مالك وأصحابه: إن اقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه، لم يحنث بأكل جنسه، وإن اقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه، وحنث بأكل غيره، وعليه حُملت قصة آدم، فإنه نُهي عن شجرة عُيّنت له وأريد به جنسها، فحمل القول على اللفظ دون المعنى»[5].

القول الثاني: إن آدم ﷺ حمل النهي على الندب وعلى التنزيه دون التحريم، قال أصحاب هذا القول: «وذلك لأن الصيغة وردت تارة في التنزيه وأخرى في التحريم، والأصل عدم الاشتراك، فلا بد من جعل اللفظ

(١) أخرجه النسائي في سننه في الزينة، حديث [٥١٤٤] باب تحريم الذهب على الرجال، وابن ماجه في اللباس، حديث [٣٥٩٥] باب لبس الحرير والذهب للنساء، وقال ابن المديني: «حديث حسن ورجاله معروفون»، نصب الراية ٤/ ٢٢٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٢٨٢.

(٢) تفسر القرطبي ١/ ٣٠٧.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد العربي المعافري الأندلسي، أبو بكر، أحد الأعلام الحفاظ، ختام علماء الأندلس، تفقه بأبي حامد الغزالي، وأبي بكر الشاشي، والعلامة التبريزي وجماعة، واستقضى ببلده فنفع الله به أهلها، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، متقدماً في المعارف كلها، توفي سنة ٥٤٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٩٦، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ١٦٧.

(٤) أحكام القرآن، لابن العربي ١/ ٢٩.

(٥) المرجع نفسه ١/ ٣٠.

حقيقة في القدر المشترك بين القسمين، وما ذلك إلا أن يُجعل حقيقة في ترجيح جانب الترك على جانب الفعل من غير أن يكون فيه دلالة على المنع من الفعل أو على الإطلاق فيه، لكن الإطلاق فيه كان ثابتاً بحكم الأصل، فإن الأصل في المنافع الإباحة، فإذا ضممنا مدلول اللفظ إلى هذا الأصل صار المجموع دليلاً على التنزيه»[1]. ويقول ابن حزم بعد أن ذكر أنّ كل خلاف لأمر آمر فإنه يُسمّى معصية، وأن هذا الخلاف للأمر منه ما يكون عن عمد وذكر، قال: «ومنه ما يكون عن قصد إلى خلاف ما أمر به، وهو يتأوَّل في ذلك الخير، ولا يدري أنه عاص بذلك، بل يظن أنه مطيع لله ـ تعالى ـ، أو أن ذلك مباح له، لأنه يتأوَّل الأمر الوارد عليه، ليس على معنى الإيجاب ولا على التحريم، لكن إما على الندب، إن كان بلفظ الأمر، أو الكراهة، إن كان بلفظ النهي، وهذا شيء يقع فيه العلماء والفقهاء والأفاضل كثيراً، وهذا هو الذي يقع من الأنبياء عليهم السلام ويؤاخذون به إذا وقع منهم، وعلى هذا السبيل أكل آدم من الشجرة»[2].

القول الثالث: إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة وهو سكران، قاله سعيد بن المسيِّب ويزيد بن قُسيط[3]، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل[4].

القول الرابع: إن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسياً.

وهذا القول هو الذي نصّ عليه القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ:

---

(١) التفسير الكبير ٣/ ٥.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٤/ ٣.

(٣) هو: يزيد بن عبد الله بن قُسيط المدني، أبو عبد الله الليثي الأعرج، روى عن أبي هريرة وابن عمر، وعبيد بن جريج، وابن المسيب، وعروة بن الزبير، وروى عنه حميد بن زياد، ومالك، وابن إسحاق وآخرون، قال ابن إسحاق: «كان ثقة فقيهاً، يستعان به في الأعمال لأمانته وفقهه»، وقال ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث»، توفي سنة ١٢٢هـ.
انظر: الكامل لابن عدي ٧/ ٢٥٨، ميزان الاعتدال ٤/ ٤٣٠، تهذيب التهذيب ١١/ ٢٩٩.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٠٦.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طـه: ١١٥]، ولا ينبغي أن يصرف عنه إلى غيره من الأسباب بدون سبب صارف من القرائن، قال القرطبي عن هذا القول: «وهو الصحيح، لإخبار الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم بذلك حَتْماً وجَزْماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾، ولكن لمّا كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفّظ والتيقّظ، لكثرة معارفهم وعلوّ منازلهم، ما لا يلزم غيرهم؛ كان تشاغله عن تذكر النّهي تضييعاً صار به عاصياً، أي مخالفاً»[1]. وأما الأقوال الأخرى فليس هناك ما يدل على ثبوتها بل إن في بعضها الاعتماد على الإسرائيليات التي لا يعوّل عليها في مثل هذه المسألة، فمما يضعف القول بأن آدم أكل من غير المشار إليه، أن إبليس ذكَّر آدمَ وزوجَه بما نُهيا عنه من الشجرة، سواء كان هذا النهي بالعين أو بالجنس، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وأما القول بأن آدم حمل النهي على التنزيه دون التحريم، فيُسقطه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، فإن اقتران النهي بالوعيد دالٌّ على التحريم، ولو لم يكن النهي للتحريم لما أُخرج آدم من الجنة وأهبط إلى الأرض بعد أن أكل من الشجرة، يقول ابن العربي: «وأما حمل النهي على التنزيه ـ فهي وإن كانت مسألة من أصول الفقه ـ فقد سقط ذلك هاهنا فيها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقرن النهي بالوعيد، ولا خلاف مع ذلك فيه، وكيف يصح أن يقال له لا تأكلها فتكون من الظالمين، ويرجو أن يكون من الخالدين»[2].

وأما القول بأن آدم عليه السلام أكل من الشجرة وهو سكران، فغير صحيح، لأن خمر الجنة لا يُسكر مَنْ شربَه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٧]، وقد ضعّف أبو حيان نِسْبَة هذا القول

(١) تفسير القرطبي ١/٣٠٦، وانظر: قول أبي أمامة أيضاً في تفسير الطبري ١٦/٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٢) أحكام القرآن ١/٣١.

لسعيد بن المسيِّب، حيث قال: «وما أظنه يصح عنه، لأن خمر الجنة كما ذكر الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾، إلا إن كانت الجنة في الأرض على ما فسَّره بعضهم، فيمكن أن يكون خمرها بسُكْر»(١)، ويقول القاضي عياض(٢): «وهذا ـ أي القول بأن آدم أكل من الشجرة وهو سكران ـ فيه ضعف، لأن الله ـ تعالى ـ وصف خمر الجنة أنها لا تسكر»(٣)، كما أبطل ابن العربي هذا القول نقلاً وعقلاً، حيث قال: «أما القول بأن آدم أكلها سكران ففاسد نقلاً وعقلاً، أما النقل فلأن هذا لم يصح بحال، وقد نُقل عن ابن عباس: (أن الشجرة التي نهي عنها الكرم)(٤)، فكيف يُنهى عنها، ويوقعه الشيطان فيها، وقد وصف الله خمر الجنة بأنها لا غول فيها، فكيف توصف بغير صفتها التي أخبر الله ـ تعالى ـ بها عنها في القرآن، وأما العقل: فلأن الأنبياء بعد النبوة مُنزَّهون عما يؤدي إلى الإخلال بالفرائض واقتحام الجرائم»(٥).

فتعيّن أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة ناسياً بإخبار الله ـ تعالى ـ عنه بذلك في كتابه الكريم، والنسيان في الآية يحمل على وجهين:

أ ـ أن يراد به ترك الأمر والعهد، كما قاله مجاهد، وأكثر المفسرين، ويكون على معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

ب ـ أو يراد به السهو والنسيان، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما بناءً على أن

---

(١) تفسير البحر المحيط ١/١٦١.

(٢) هو: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي، أبو الفضل، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، واستقضي ببلده «سبتة» مدة طويلة حمدت سيرته فيها، وله شعر حسن، ومصنفات عديدة مفيدة، توفي بمراكش يوم الجمعة سنة ٥٤٤هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/٤٨٣، سير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٢، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٠٤.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/١٦٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١/٢٣٢.

(٥) أحكام القرآن ١/٣١.

عدم المؤاخذة بالخطأ والنسيان والإكراه من خصائص أمة نبينا محمد ﷺ لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: (قولوا: سمعنا وأطعنا وسلّمنا) قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعلت ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعلت[١]، وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنِّسيان وما استكرهوا عليه)[٢].

إلا أن المعنى الأول للنسيان وهو ترك الأمر والعهد أظهر في معنى الآية، لأن الله ـ تعالى ـ بعد ما أخبر عن نسيان آدم عليه السلام قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، والمراد بالعزم هو الصبر عن الأكل من الشجرة والمحافظة لما أمر الله ـ تعالى ـ به، قال القاضي عياض: «وأكثر المفسرين على أن العزم هنا: الحزم والصبر»[٣]، فالعزم لا يكون إلا على أمر ثابت ومتحقق وجودُه في القلب والفكر، وأما السهو والغفلة والنسيان المعهود فلا يقوم به عزم، إذ ليس له أصل يتحقق به العزم، يقول الطبري: «وأصل العزم: اعتقاد القلب على الشيء، يقال منه: عزم فلان على كذا، إذا اعتقد عليه ونواه، ومن اعتقاد القلب: حفظ الشيء، ومنه الصبر على الشيء، لأنه لا يجزع جازع إلا من خَوَر قلبه وضعفه، فإذا كان كذلك، فلا معنى لذلك أبلغ مما بيَّنه الله ـ تبارك وتعالى ـ، وهو قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، فيكون

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٢٦] باب بيان أنه سبحانه لم يكلِّف إلا ما يُطاق.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ٢/ ٢١٦، وابن حبان في صحيحه بلفظ: (إن الله تجاوز عن أمتي) ٩/ ١٧٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٥٦، وأخرجه الدارقطني في سننه ٤/ ١٧١ بلفظ: (إن الله ﷻ يجاوز)، وحسنّه النووي في الأربعين النووية بشرح ابن دقيق العيد ص١٢٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦٢.

تأويله: ولم نجد له عزم قلب على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه»[١].

ومما يؤيد هذا المعنى أيضاً أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال بعد هذه الآية بقليل: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فنسب إليه ـ تعالى ـ العصيان، والعصيان لا يكون إلا على أمر مقصود ومتَعمَّد، إذ الشخص الذي يجهل النهي لا يسمى عاصياً، ولهذا فقد رتَّب الله الحكم على عصيان آدم بقوله: ﴿فَغَوَىٰ﴾: أي خالف الأمر الذي أدى إلى فساد معيشته وهبوطه إلى الأرض[٢].

ويشهد لهذا المعنى أيضاً أن إبليس ذَكَّر آدم بنهي الله له عن الأكل من الشجرة وأعاده على ذهنه في قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، قال محمد بن أبي بكر الرازي[٣] في بيانه معنى النسيان في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]: «النسيان هنا بمعنى (التَّرك) كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، أي تركناكم في العذاب، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فمعناه: أنه ترك عهد الله ووصيته، وكيف يكون من النسيان الذي هو ضِدُّ الذِّكر وقد جرى بينه وبين إبليس من المناظرة والمجادلة في أكل الشجرة فصولٌ كثيرة؛ منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٠]، فكيف يبقى مع هذا نسيان؟!»[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٢.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٥/ ٢٩٩.

(٣) هو: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، زين الدين الرازي، أبو عبد الله، من فقهاء الحنفية، له علم بالتفسير، والأدب، وأصله من الري، زار مصر والشام، وأقام في قونية سنة ٦٦٦هـ وهو آخر العهد به، له مصنفات مفيدة من أشهرها «مختار الصحاح».
انظر: هدية العارفين ٢/ ١٢٧، الأعلام ٦/ ٥٥، معجم المؤلفين ٩/ ١١٢.

(٤) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل ص٣٣١.

فالنسيان على هذا المعنى الذي رجّحتُهُ هو الذي تُؤول به معصية آدم عليه السلام، وذلك أن إبليس لما أقسم لآدم أنه ناصح له ولزوجه، ظن آدم عليه السلام أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً يمين غموس، فظنَّ صحة كلامه بأنه إن أكل من الشجرة لن يخرج من الجنة، وإن كان قد كذب إبليس في قسمه، فلعل الاعتذار والتوبة تنفعه في عدم الخروج من الجنة، فحكم الله ـ تعالى ـ على عبده آدم بالعصيان في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وإذا كان الله ـ تعالى ـ صرَّح في هذه الآية بمعصية آدم عليه السلام، فهل عصمة الأنبياء خاصة في بعض النبيين دون بعض، أم أنها عامة في الجميع؟ فهذه المسألة فيها اختلاف طويل بين أهل العلم، وأوجز المسألة في الأمور التالية:

١ ـ أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء في باب التبليغ عن الله ـ تعالى ـ[1]، بحيث لا يجوز أن يستقرَّ فيه شيء من الخطأ، فلا يكتمون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ...﴾ الآية [المائدة: ٦٧]، فالله ـ جل وعلا ـ قد تكفّل لنبيه محمد ﷺ حفظ القرآن في صدره فلا ينساه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٦، ٧]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩]، يقول القاضي عياض: «وأجمعت الأمة فيما كان طريقُهُ البلاغ أنه ـ أي نبينا محمداً ﷺ ـ معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها، بخلاف ما هو به، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً»[2]، ويقول أبو الحسن الآمدي[3]: «وأما بعد النبوة، فالاتفاق من

---

(١) نقل شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ١٠/ ٢٩٠؛، اتفاق المسلمين على عصمة الأنبياء في باب التبليغ، وانظر: لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/ ٣٠٤، والعقائد السلفية لأحمد بن حجر آل بوطامي ١/ ٢٤٥.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٢٣.

(٣) هو: علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي، أبو الحسين، المتكلم، =

أهل الشرائع قاطبة على عصمتهم عن تعمّد كل ما يُخلّ بصدقهم فيما دلّت المعجزة القاطعة على صدقهم فيه من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله ـ تعالى ـ»[1]، وقد توعَّدَ الله من يكتم بالمعاقبة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

٢ ـ وأما عصمتهم من الذنوب؛ الكبائر والصغائر، فإن أكثر أهل العلم على عصمتهم من الكبائر دون الصغائر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر؛ هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم يُنقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين إلا ما يوافق هذا القول»[2]. ويقول أبو الحسن الآمدي: «وأما ما ليس بكبيرة، فإما أن يكون من قبيل ما يوجب الحكم على فاعله بالخسّة ودناءة الهمّة وسقوط المروءة، كسرقه خبَّةٍ أو كِسرة، فالحكم فيه كالحكم في الكبيرة، وأمّا ما لا يكون من هذا القبيل، كنظرة أو كلمة سفهٍ نادرة في حالة غضب، فقد اتفق أكثرُ أصحابنا وأكثر المعتزلة على جوازه عمداً وسهواً»[3].

وما حكاه الله ـ تعالى ـ عن آدم عليه السلام، دليل على وقوع الصغائر منهم.

وصدور تلك الصغائر منهم لا يقدح في مقام النبوة ولا يطعن في

= صاحب التصانيف العقلية، قرأ القراءات والفقه، وبرع في الخلاف، وتفنَّن في علم النظر، وكان من أذكياء العالم، وكان في أول أمره حنبلي المذهب فصار شافعياً، وكان حسن الأخلاق، كثير البكاء، رقيق القلب، توفي سنة ٦٣١هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/٢٩٣، سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٤، العبر ٣/ ٢١٠.

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٤٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣١٩.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٤٦.

شرف الرسالة وعلو مكانتها، ولا يجرح مقامهم الرفيع، ولا ينبغي أن يظنّ ذلك، فنثبت ما أثبته الله ـ تعالى ـ عن أنبيائه، ولا نصرفه عن ظاهره، أو نحرفه ونتأوله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر جملة من نصوص الكتاب والسنة في وقوع الصغائر من الأنبياء: «لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية، كما فعل ذلك من صنَّف في هذا الباب، وتأويلاتهم تبيّن لمن تدبّرها أنها فاسدة، من باب تحريف الكلم عن مواضعه»[1]، وقال في موضع آخر: «وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم»[2]، فغاية ما يقال في صدور تلك الصغائر منهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ: هو التشريع للأمة ليقتدى ويُتأسَّى بهم في جانب الإسراع بالتوبة وعدم تأجيلها، ويتضح هذا في أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبي من أنبيائه إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار.

ولا شك أن الأنبياء لا تصدر عن أحدهم الصغيرة لذاتها، وإنما تصدر بطريق التأويل، أو النسيان أو الخطأ، ومع ذلك فإن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يُقَرون على فعل الصغيرة، بل يُنبّهون عليها ويُلهمون الاستغفار، فيُرفع في درجاتهم، قال ابن حزم: «ونقول: إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد، ويقع منهم أيضاً قصد الشيء يريدون به وجه الله ـ تعالى ـ، والتقرّب منه فيوافق خلاف مراد الله ـ تعالى ـ، إلا أنه ـ تعالى ـ لا يُقرُّهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً، بل ينبههم على ذلك، ولا يداثر[3] وقوعه منهم، ويُظهر ﷻ ذلك لعباده ويبيّن لهم»[4]، وقال القرطبي رحمه الله: «وقال بعض المتأخرين: والذي ينبغي أن يُقال: إن الله ـ تعالى ـ قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونسبها إليهم وعاتبهم عليها،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٣١٣.

(٢) المرجع نفسه ١٠/ ٢٩٥.

(٣) أي لا يُغفل ولا يُهمل وقوع ذلك منهم فيدَرَسُ مع الزمن.

(٤) الفِصَل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٤/ ٢.

وأخبروا بها عن أنفسهم وتنصَّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يُزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفي حقهم سيئات، بالنسبة إلى مناصبهم وعُلُو أقدارهم»[١].

٣ ـ ذهبت بعض الطوائف إلى عصمة الأنبياء مطلقاً، وأول من نقل عنهم إطلاق العصمة للأنبياء، هم الروافض، بل إنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل، ومقصدهم من ذلك نقل العصمة إلى من يعتقدون إمامته كعلي رضي الله عنه، والاثني عشر[٢].

وذهب إلى عصمة الأنبياء أيضاً من الكبائر والصغائر جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي، والقاضي عياض، والسبكي[٣]، وأبو إسحاق الإسفراييني[٤] وكثير من المتكلمين[٥].

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٢٠.

(٣) هو: علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف السبكي، تقي الدين، أحد الحُفَّاظ المفسرين المناظرين، عالم بالفقه والأصول والنحو والحديث وغيرها من العلوم، وبرع في الفنون، وتخرَّج به خلق كثير، وناظر، وأقرّ له الفضلاء، وكان مُحقّقاً مُدقّقاً نظّاراً جدلياً، له في الفقه وغيره الاستنباطات الجليلة، والدقائق اللطيفة، توفي سنة ٧٥٥هـ.
انظر: البداية والنهاية ١٤/ ١٩٦، الدُّرر الكامنة ٣/ ٦٣، بُغية الوعاة ٢/ ١٧٦.

(٤) هو: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، أبو إسحاق، الأستاذ الإمام، أحد من بلغ حدَّ الاجتهاد، من العلماء المتبحِّرة في العلوم، واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والفقه والكلام والأصول، ومعرفة الكتاب والسنة، رحل إلى العراق في طلب العلم وحصَّل ما لم يحصِّل غيره من أقرانه، وأخذ في التصنيف والإفادة والتدريس مدة مديدة، توفي يوم عاشوراء سنة ٤١٨هـ.
انظر: الأنساب ١/ ١٤٤، وفيات الأعيان ١/ ٢٨، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٥٣.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١/ ٣٠٨، ولوامع الأنوار البهية للسفّاريني ٢/ ٣٠٥.

واستند أصحابُ هذا القول إلى أمرين هما:

الأمر الأول: أن الله ـ تعالى ـ أمرنا باتِّباع الرسل في أفعالهم وسِيَرِهم وآثارهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . .﴾ الآية [الأحزاب: ٢١]، فإذا جوّزنا عليهم وقوع الصغائر والمعاصي، فإنه يجتمع في هذه الصغائر التي وقعت منهم، الأمرُ باتِّباعها من حيث كوننا مأمورين باتِّباعهم والتأسي بهم، والنهيُ عن اقترافها من حيث كونها معصية، فحينئذٍ يحصل التناقص، والله ـ تعالى ـ لا يأمر عبده بشيء وينهاه عنه في حال واحد.

الأمر الثاني: أن الذنوب تنافي الكمال، وهي تعتبر نقصاً، وإن تاب التائب منها، ولأنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، وتوجب التنفير(١).

* ويجاب عن هذين الأمرين بما يأتي:

أولاً: إنَّ قولكم: إنا أُمرنا باتّباع الرسل أمراً مطلقاً في كل شيء، وأنه لو جاز وقوع المعصية، لحصل التناقض فيما أمرنا به ونهينا عنه، نقول: إن قولكم هذا يَصحُّ إذا اشتبهت علينا المعاصي بالطاعات، أما وأن الله ـ تعالى ـ لا يُقرّهم عليها، بل ينبههم إليها ويُلهمون الإنابة والرجوع عنها فوراً، فحينئذٍ يكون اقتداؤنا بهم إنما هو في جانب الإسراع بالتوبة والمبادرة بها، وفي هذا تشريع للأمة، فكما أُمِرْنا بالتأسي بهم في الطاعات، أُمِرْنا أيضاً أن نتأسَّى بهم في هذا الجانب.

ثانياً: إن قولكم: إن الذنوب نقص في الكمال وإن تاب التائب منها، قول غير صحيح، إذ إن التوبة النصوح تمحو الذنوب والسيئات، ويرفع الله ـ تعالى ـ بفضله وكرمه صاحب التوبة الصادقة إلى أعظم مما كان عليه، يقول ابن تيمية: «وإنما ابتلى الله الأنبياء بالذنوب، رفعاً لدرجاتهم بالتوبة، وتبليغاً لهم إلى محبته وفرحه بهم، فإن الله يحب التوابين ويحب

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٣.

المتطهرين، ويفرح بتوبة التائب أشد فرح، فالمقصود كمال الغاية، لا نقص البداية، فإن العبد تكون له الدرجة، لا ينالها إلا بما قدّره الله له من العمل أو البلاء»[1].

وبعد هذا التوضيح نأتي لبيان الفروق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية عدو الله إبليس، حيث إنَّ بين المعصيتين فروقاً واضحة وتبايناً كبيراً وشاسعاً، فسأفصل هذه الفروق في الأمور الآتية:

١ ـ إن آدم عليه السلام كان مَنْهيّاً عن فعل أمر، وهو الأكل من الشجرة، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

أمّا عدو الله إبليس، فإنه كان مأموراً بامتثال أمر، وهو السجود لآدم عليه السلام، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ . .﴾ الآية [البقرة: ٣٤]، وبيّن ـ تعالى ـ توجّه الأمر إليه في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . .﴾ الآية [الأعراف: ١٢]، قال سهل بن عبد الله[2]: «ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي، لأن آدم نُهي عن أكل الشجرة، فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أُمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه»[3]، ويقول ابن تيمية: «إن أول ذنب عُصي الله به كان من أبي الجن وأبي الإنس، أبوي الثقلين المأمورين، وكان ذنب أبي الجن أكبر وأسبق، وهو ترك المأمور به، وهو السجود، إباءً واستكباراً، وذنب أبي الإنس كان ذنباً صغيراً: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهو إنما فعل المنهي عنه، وهو الأكل من الشجرة»[4].

---

(١) المرجع نفسه ١٠/ ٣٠٩.

(٢) هو: سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التُسْتُري، أبو محمد، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات، وصحب ذا النون المصري، وخاله محمد بن سَوَّار، وله كلمات نافعة ومواعظ حسنة، توفي سنة ٢٨٣هـ. انظر: الأنساب ١/ ٤٦٥، حلية الأولياء ١٠/ ١٨٩، وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٩.

(٣) الفوائد، لابن القيم ص١٥٤.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ٨٨.

٢ ـ إنَّ آدم عليه السلام لم يأكل من الشجرة بعد صدور النهي عن أكلها على الفور، وإنما أكل منها بعد إزلال الشيطان ووسوسته له بالأكل منها كما وسوس لزوجه حواء، وزيّن لهما بأن عاقبة الأكل من الشجرة الخلود في الجنة، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢]، أي خدعهما حتى أوقعهما في الهلاك والهبوط إلى الأرض، وقد كان آدم عليه السلام يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، فغرّهما بوسوسته، قال بعض العلماء: «من خادعنا بالله انخدعنا»(١)، فخدعهما عدو الله حتى أخرجهما من الجنة، ولذا أضاف الله ذلك إلى إبليس لتسبُّبه فيه.

أما إبليس اللعين فقد بادر بإعلان المعصية والاستكبار منذ صدور الأمر إليه من الله ـ تعالى ـ كما يظهر في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١].

٣ ـ إن معصية آدم عليه السلام لم تتجاوز الأكل من الشجرة، ومخالفة النهي عن أكلها فهي في حقيقتها معصية واحدة.

أما معصية إبليس فإنها قد جمعت في حقيقتها أكثرَ من معصية، فقد أدرج عدو الله في معصيته مخالفةَ الأمر، والاستكبارَ على ربه ـ تعالى ـ، ومفارقةَ الجماعة، وتحقيرَ ما كرّمه الله وشرّفه، مع إظهار شبهته الباطلة، يقول الصاوي عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٢]: «قال هنا: ما منعك، وفي سورة الحجر قال: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [٣٢]، وفي سورة صٓ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ

(١) تفسير الطبري ٨/١٤١.

بِيَدَيَّ ..﴾ الآية [٧٥]، اختلاف العبارات عند الحكاية دلّ على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص: مخالفةَ الأمر، ومفارقةَ الجماعة والاستكبار، مع تحقير آدم، وشبهة الخيرية: أن النار جسم لطيف نوراني، والطين جسم كثيف ظُلماني، وما كان لطيفاً نورانياً خير مما كان كثيفاً ظلمانياً»[(١)].

٤ ـ لقد أضاف آدم وزوجه خطيئتيهما إلى نفسيهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ...﴾ الآية [الأعراف: ٢٣]، وهذا هو الأدب الرفيع الذي يقتضي تعظيم مقام الألوهية، ولزوماً لأدب العبودية مع الله، فمعصية آدم عليه السلام وإن كانت مقدّرة كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (احتجّ آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا، خيّبتنا وأخرجتنا من الجنّة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخطّ لك بيده، أتلومني على أمر قدّره الله عليَّ[(٢)] قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى، ثلاثاً)[(٣)]، إلا أن الأدب مع الله ـ تعالى ـ يقتضي

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٦٥.

(٢) إنه ليس لأحد أن يحتج بالقَدَر على وقوع الذنب، استدلالاً باحتجاج آدم عليه السلام، حيث إن آدم عليه السلام لم يحتج بالقدر لأجل الذنب وتبرير الفعل، وإنما احتج بالقدر على المصيبة لا على المعصية، يقول ابن تيمية في الفتاوى ٨/ ١٧٨ ـ ١٧٩: «وأما كونه ـ أي الاحتجاج بالقدر ـ لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مراداً بالحديث، لأن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس، وأيضاً فإن آدم احتجَّ بالقَدَر، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر أهل الملل وسائر العقلاء». وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ١/ ٧٩: «إنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقَدَر المتقدِّم كتابته على العبد، لانفتح هذا لكل من لِيمَ على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق، فينسد باب القصاص والحدود، ولو كان القدر حُجَّة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة، فلهذا قال من قال من العلماء: بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية، والله أعلم».

(٣) أخرجه البخاري في القدر، حديث [٦٦١٤] باب تحاجّ آدم وموسى عند الله، وفي التوحيد، حديث [٧٥١٥] باب ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ومسلم في القدر، حديث [٢٦٥٢] باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

إضافة الحسنة إلى الله، والسيئة إلى النفس، كما قال الحق ـ تعالى ـ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ ..﴾ الآية [النساء: ٧٩].

ويقول العلّامة ابن القيم رحمه الله: «الطريقة المعهودة في القرآن هي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله ﷻ فيُذكر فاعلها منسوبةً إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أَدباً في الخِطَاب»(١).

أمّا عدو الله إبليس فإنه أضاف ضلاله وإغواءه إلى ربه ـ تعالى ـ حيث قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وفي آية أخرى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩]، قال عز الدين المقدسي(٢): «ثم ما كفاك أن خالفت أمره، وجهلت قدره، حتى واجهته بسوء الأدب، تقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فتبرأت من ذنبك وأحلته على ربك، فقطعت نطاق العبودية، فهل رأيت مُحباً يحيل ذنبه على حبيبه، ويضيف نقصه إلى مليكه»(٣).

٥ ـ إن آدم عليه السلام وَجَد من جنسه من يكون مُحرّضاً ومُرغّباً له على الأكل من الشجرة، وهي زوجُهُ حوّاء، فلما رأى أنها أكلت ولم يصبها شيء ودفعته إلى الأكل، أكل منها، كما روى ذلك ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ(٤).

في حين أن عدو الله إبليس وجد من يكون له مُعيناً ودافعاً لامتثال

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ١٨.

(٢) هو: عبد السلام بن أحمد بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر الأنصاري المقدسي، عز الدين، أحد المبرِّزين في الوعظ والنظم والنثر، وشاعر فصيح، وله عدة كتب، توفي في شوال سنة ٦٧٨هـ.

انظر: العبر ٣/ ٣٣٩، البداية والنهاية ١٣/ ٣٠٦، الأعلام ٣/ ٣٥٥.

(٣) تفليس إبليس، لعز الدين المقدسي، بتحقيق سليم الهلالي ص٣٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

أمر الله ـ تعالى ـ والسجود لآدم عليه السلام، وهم الملائكة الأبرار حيث سجدوا جميعهم إلا إبليس الذي لم يجد من يوافقه على كفره وكبره على ربه ـ تعالى ـ.

قال الزمخشري: «وزلّ عليه ـ أي إبليس ـ أن الله ـ سبحانه ـ حين أمر به أعز عباده عليه وأقربهم منه زُلفى، وهم الملائكة، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل، ويستنكفوا عن السجود له من غيرهم، ثم لم يفعلوا، وتبعوا أمر الله وجعلوه قُدَّام أعينهم، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له، تعظيماً لأمر الله، وإجلالاً لخطابه، كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حريّ بأن يقتدي بهم ويقتفي أثرهم»(١).

ويقول الشوكاني(٢): «ولولا سبق شقاوته، وصدق كلمة الله عليه، لكان له بالملائكة المطيعين لهذا الأمر أسوة وقدوة، فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري»(٣).

٦ ـ لقد اعترف أبونا آدم عليه السلام بخطيئته، وأعلن توبته فور إلمامه بالمعصية، قال ـ تعالى ـ حكاية عن آدم وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وبالمقابل فقد تمادى عدو الله إبليس في عصيانه واستمرَّ في عناده واستكباره وغيّه، فحين سأله ربه ـ تعالى ـ الذي خلقه وأكرمه وأمره بالسجود لآدم، سأله وهو أعلم ـ سبحانه ـ، عن سبب امتناعه عن السجود، فيجيب عدو الله في خبث وكبر وإباء وغرور بذاته وفي عدم تأدب مع الله

---

(١) الكشّاف ٣/ ٣٨٣.

(٢) هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، أبو عبد الله، من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء، كان مفسراً، محدّثاً، فقيهاً، أصولياً، نحوياً، وولي قضاء صنعاء، وله مصنفات كثيرة مفيدة، توفي سنة ١٢٥٠هـ.
انظر: هدية العارفين ٢/ ٣٦٥، الأعلام ٦/ ٢٩٨، معجم المؤلفين ١١/ ٥٣.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٩١ ـ ١٩٢.

ـ تعالى ـ بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وفي سورة الحجر يؤكد ـ تعالى ـ استكباره بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [٣٣]، فردّ على الله ـ سبحانه ـ الأمر واستعلى وأصرّ على معصيته، وأخذ يبرر حصول معصيته ويلتمس لها الحُجَجَ والمعاذير الواهية، قال الزجَّاج: «فالفصل بين معصية إبليس ومعصية آدم وحواء، أن إبليس عاند وأقام ولم يتب، وأن آدم وحواء اعترفا بالذنب، وقـالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾»[(١)]، ويقول ابن القيم: «بُلي العدو بالذنب فأصرَّ واحتجَّ وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا نَدِم على الزلة، وبُلي الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم وتضرع واستكان وفزع إلى مَفْزَع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العَتْبُ، وغفر له الذنب، وقُبل منه المتاب، وفُتح له من الرحمة والهداية كل باب»[(٢)].

٧ ـ إن معصية عدو الله إبليس مبنية على الخبث والشرِّ الكامنين في نفسه، فلما أُمر بالسجود ظهر حقده الدّفين وشره الخفي وداؤه الكامن في نفسه، يقول ابن القيم في بيان كيد إبليس وخبثه: «إنه سبحانه لما كان يعلم منك من الخبث والشر الكامن في نفسك ما لا يعلمه غيره، وكان ذلك موجباً لمقته لك، ولم يكن يجري عليك ما تستحقه بمجرد علمه السابق قبلُ، من غير أن يظهر للملائكة ما يُحمد به ويثنى عليه ويُعذر به إذا طردك عن قربه وأخرجك من جنته، فأمرك بأمره، فخرج منك الداء الدّفين بمقابلته بالمعصية ومنازعته ـ سبحانه ـ رداء الكبرياء، فاستخرج أمرُه منك الكفرَ الخفي والدَّاءَ الدّوي»[(٣)].

أما معصية أبينا آدم عليه السلام، فقد كانت مبنية على التأويل ـ كما تقدم ـ حيث لم يظن أن مخالفته يترتب عليها غضب الله وعتابه عليه.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٢/ ٣٢٢.
(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/ ٢١٦.
(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية ١/ ٣٧٨.

٨ ـ لقد كان جزاء معصية آدم عليه السلام الهبوط إلى الأرض والاستقرار فيها إلى حين، وهذا الهبوط والاستقرار كان مقروناً بوعد الرجوع إلى الجنة والخلود فيها لآدم عليه السلام ولمن صلح من ذريته، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أجار الله ـ تعالى ـ تابع القرآن من أن يضل في الدنيا ويشقى في الآخرة، وقرأ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾»(١)، وعنه رضي الله عنه قال: «قال آدم: أي رَب، ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تنفخ فيَّ من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن أنا تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم، قال ـ أي ابن عباس ـ فهو قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]»(٢).

يقول ابن القيم: «ولمَّا أهبطه ـ سبحانه ـ من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء، أعطاهم أفضل مما منعهم، وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه، وأخبر أنه من تمسَّك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته»(٣).

أمّا هبوط إبليس فقد كان مقروناً بالطرد والإبعاد من رحمة الله، والوعيد بالشقاء في الدنيا بطول العمر، وفي الآخرة بخلوده وحزبه في نار جهنم، قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٢٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٣ وصحَّحه.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٤٣، وفي تاريخه ١/ ٨٥، وذكره ابن كثير في تفسيره ١/ ٨٢، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٤ وصححه، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ١/ ١١٦ إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في التوبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم ١/ ٣٢.

﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥]، ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ في وعيده لإبليس وحزبه بالخلود في النار: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٨﴾ [الأعراف: ١٨]، ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]، ﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ۝٦٣﴾ [الإسراء: ٦٣].

٩ ـ ثم إنَّ الفارق الأساس بين المعصيتين؛ أن الله ـ تعالى ـ قَبِلَ توبة آدم عليه السلام واصطفاه وهداه برحمته ومنّه وكرمه، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: ٣٧]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، وذلك ليس لعدو الله إبليس، بل لم تصدر منه توبةٌ أصلاً، إذْ استمر في طغيانه وعناده واستكباره، حيث طلب من ربه ـ تعالى ـ أن ينظره إلى يوم القيامة: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٣٨].

فهذه هي الفروق ـ التي ظهرت لي ـ بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس اللعين، ولا ريب أن هناك فروقاً أخرى خفيت عليّ، وحسبي أني بذلت الوسع في تتبعها واستنباطها.

وأما الجامع بين المعصيتين؛ فإنهما يجتمعان في إطار التكريم الإلهي لأبي البشر، آدم عليه السلام، فالنهي الذي صدر لآدم عن الأكل من الشجرة، إنما هو تكريمٌ لآدم وزوجه وإنعامٌ عليهما بالخلود في الجنة، ولأجل هذا دخل عليهما إبليس من ذلك الباب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: ٣٥].

وأيضاً فقد كانت معصية إبليس نتيجة الحقد والحسد في نفسه على آدم لما كرّمه الله ـ تعالى ـ به وفضله على جميع خلقه، حيث أمر الملائكة بالسجود له، والله أعلم.

الفصل الثالث

الحكمة من خلق الشيطان

لله ـ تبارك وتعالى ـ الحكمة البالغة في خلق هذا الكون، وما أوجد فيه ـ سبحانه ـ من مخلوقات وقدّرها، وهو ـ تعالى ـ أعلم بمصالح عباده وما يقربهم إليه وإلى جنته، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، لكمال حكمته وحمده وصدور أفعاله عن تمام الرحمة والحكمة، فكل ما عداه ـ تعالى ـ مربوب مأمور ومنهي ومسؤول، فله ـ جل شأنه ـ العلم التام والحكمة البالغة مع قهره وسلطانه ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٧]، فلم يخلق ـ تعالى ـ شيئاً من خلقه عبثاً ولا تركهم سُدى، بل خلقهم لحِكَم عظيمة وغايات جليلة ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وبهذا نعلم أن الله ـ تعالى ـ خلق إبليس لحكمة أرادها سبحانه من خلقه، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، فلا يشترط في الإيمان بما أخبرنا الله به في كتابه وسُنَّة رسوله ﷺ الوقوف على الحكمة من خلقه والغاية من وجوده، ولو كان الأمر كذلك؛ لأصبح نصيب الإيمان في القلوب ضئيلاً، حيث إن الإنسان يجهل أشياء كثيرة لا يحيط بعلمها إلا الله الذي خلقها وأوجدها، فعلم الإنسان لا يساوي ذرة في هذا العالم الفسيح بالنسبة إلى علم الله ـ تعالى ـ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فما أخبرنا به ـ تعالى ـ في كتابه وسُنَّة نبيه ﷺ، فإنه يجب على العبد أن يؤمن به إيماناً جازماً موقناً بحقيقته، ومصدِّقاً بوقوعه تصديقاً كاملاً، فالإيمان بالغيب هو أعظم صفة للمتقين المؤمنين، وهي أول صفة ينبغي على المسلم أن يتصف بها، حيث عدّها ـ تعالى ـ في أول صفات المتقين

في قوله ـ تعالى ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأول مراتب تعظيم الأمر: التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله، لكونه مأموراً به، بحيث لا يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له، فَعَلَه، وإلا عَطَّله، فهذا من عدم عظمته في صدره، بل يُسلّم لأمر الله وحكمته، ممتثلاً ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر، أو فَقِهَهَا العقل، كانت زيادة البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته، لم يوهن ذلك انقياده، ولم يقدح في امتثاله، فالمعظِّم لأمر الله يُجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، لا يعللها بعلل توهنها وتخدش في وجه حُسنها، فضلاً عن أن يعارضها بعلل تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء»(١).

إن عالم الجن والشياطين من العوالم الخفية، التي ليس للإنسان سبيل إلى رؤيتها كما يرى أهل جنسه، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]، فالله ـ تبارك وتعالى ـ أخبر أنه خلق الجن والشياطين من نار، وأوجدهم بكيفية خاصة وملائمة لطبيعة حياتهم، فالإيمان بهم من لوازم الإيمان بالله وملائكته وكُتبه واليوم الآخر، ومن أنكر وجودهم فقد أنكر حقيقة أخبر بها ـ تعالى ـ في عدة مواضع من كتابه الكريم، ويكون حينئذٍ ممن قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى

---

(١) الصواعق المرسلة ٤/١٥٦١ ـ ١٥٦٢.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، فالجن والشياطين جاء ذكرهم في آيات كثيرة جداً في القرآن الكريم، فمن آيات ذكر الشيطان، قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥]، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ . . .﴾ الآية [الأعراف: ٢٧]، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، وغير ذلك من الآيات كثير.

وأما آيات ذكر الجنّ عموماً وبيان أصلهم وذكر أحوالهم وبعض أعمالهم فمنها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٧]، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ . . .﴾ الآية [سبأ: ١٢، ١٣]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١]، ومما يدل على اهتمام القرآن الكريم بأمر الجن، أنه جاءت سورة كاملة باسم «الجن» في القرآن الكريم.

وأيضاً جاءت السنة الشريفة بذكر «الجن» وبيان وجودهم، فمن ذلك:

ما رواه عبد الله بن مسعود ﵁ قال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استُطير أو اغتيل، فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِرَاء، قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: (أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن)، قال: فانطلق بنا فأرانا

آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه عن الزاد، فقال: (لكم كل عظم ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بَعْرة علف لدوابكم، فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم)(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني أراك تُحبّ الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذّنتَ بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة)(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم)(٣).

وكذلك استفاضت السنة الشريفة بذكر «الشيطان» والتحذير منه وبيان مداخله وعداوته للإنسان، فمن ذلك:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسّه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان، غير مريم وابنها، ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦])(٤).

وعن صفية بنت حُيي رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، حديث [١٥٠] باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، حديث [٦٠٩] باب رفع الصوت بالنداء، وفي بدء الخلق، حديث [٣٢٩٦] باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم.

(٣) سبق تخريجه. انظر ص٩٠.

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث [٣٤٣١] باب (٤٤)، ومسلم في الفضائل، حديث [٤١٦] باب فضائل عيسى عليه السلام.

(٥) سبق تخريجه انظر ص٧٤.

وعن أبي قتادة[1] رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله، والحُلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوَّذ من الشيطان فإنها لا تضرّه)[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله)[3].

وعن جابر بن عبد الله[4] رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[5]، إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة، التي تقرر وجود الجن والشياطين، وتؤكِّد معايشتهم مع الإنسان في هذا الكون، وأنهم يختلفون عن الملائكة والبشر، وكثير من الناس يؤمنون بوجودهم، وقلة من الناس من أنكر وجودهم مطلقاً، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وجماهير الأمم يُقرّ

---

(١) هو: الحارث، أو النعمان، أو عمرو بن ربعي بن بلدهة بن خناس بن عبيد الأنصاري الخزرجي السلمي، اشتهر بكنيته، صحابي جليل، اختلف في شهوده بدراً، وشهد أحداً وما بعدها، وكان يُقال له: فارس رسول الله ﷺ، ولّاه علي رضي الله عنه مكة، توفي سنة ٥٤هـ.
انظر: صفة الصفوة ١/ ٦٤٧، الاستيعاب ٤/ ١٧٣١، العبر ١/ ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، حديث [٦٩٩٥] باب من رأى النبي ﷺ في المنام، ومسلم في الرؤيا، حديث [٢٢٦١].

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، حديث [٢٠٢٠] باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

(٤) هو: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السّلَمي، صحابي جليل، من أهل بيعة الرضوان، وكان والده من النقباء البدريين، ورُوي عن جابر أنه لم يشهد بدراً ولا أُحداً، منعه أبوه لأجل إخوته، ثم شهد الخندق وما بعدها من المشاهد، وروى عن النبي ﷺ علماً كثيراً، وكان مفتي المدينة في زمانه، توفي سنة ٧٨هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٢/ ٢٠٧، الاستيعاب ١/ ٢١٩، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٨٩.

(٥) أخرجه مسلم في الأشربة، حديث [٢٠١٨] باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

بالجن، ولهم معهم وقائع يطول وصفها، ولم يُنكر الجنّ إلا شِرْذِمَة قليلة من جهّال المتفلسفة والأطباء ونحوهم»[١].

إن عدم رؤية الجن والشياطين لا يدل على عدم وجود هذه العوالم الخفية، فعدم الرؤية ليس دليلاً على عدم الوجود، فكم من أشياء كثيرة نعايشها ونحتاج إليها في حياتنا ونؤمن بوجودها، بَيْد أننا لا نراها، كالهواء والتيار الكهربائي وموجات الأثير، بل إنَّ هناك كثيراً من الجراثيم والميكروبات التي تسبح في هذا الكون، ونؤمن بوجودها، ومع ذلك لا تدركها أعيننا المجردة، فلو أصيب الذي ينكر الجن لعدم رؤيتهم بشيء من تلك الجراثيم، وشخّص الطبيب داءه، ووصف دواءه، وأعلمه بأن هذا المرض ناتج عن تلك المخلوقات الخفية التي لا يراها، فهل سيشك هذا المنكر في صدق قول الطبيب لعدم رؤيته تلك الجراثيم، أم سيوقن إيقاناً جازماً بتعرضها وإصابتها له، وسيبادر بمكافحتها بشتى الوسائل ليستعيد عافيته؟ بل إنَّ الإنسان يحمل بين جنبيه روحاً هي قوام حياته، ولو فارقت بدنه لأصبح جُثّة هامدة، ومع عظيم أهميتها للإنسان، وجزمه بوجودها، فإنه لا يراها ولا يعرف شيئاً عن حقيقتها: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وغير ذلك من المخلوقات التي حُجبت عن نظر الإنسان كثير جداً، فكذلك الحال في عالم الجن والشياطين. ثم أدعو من ينكر وجود الجن والشياطين إلى أن يحضر لدى أحد المشايخ الثقات الذين يقرأون على المصروعين بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه سيرى ويسمع ما يؤكد له وجود هذا النوع من المخلوقات الخفية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما كونه لم يتبين له كيفية الجن، ومقالتهم بعدم علمه، لم ينكر وجودهم، إذ وجودهم ثابت بطرق كثيرة، غير دلالة الكتاب والسُنَّة، فإنَّ من الناس من رآهم، وفيهم من رأى من رآهم، وثبت ذلك عنده بالخبر اليقين، ومن الناس من كلَّمهم

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/٣٢.

وكلّموه، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم»[1].

فإذا آمن الإنسان بوجود «الشيطان» وتيقن من مشاركته له في هذا الكون، وتأكّد من عداوته للناس عموماً، وللصالحين من عباد الله خصوصاً، فيمكن له حينئذٍ أن يستنبط الحِكَم من خلق الشيطان، بما آتاه الله من علم وفتح عليه من فهم واستنباطٍ في ضوء الأدلة الشرعية.

وقد رأيت أن بعض العلماء قد اجتهد في استنباط هذه الحِكَم وإظهارها، فسأذكر هذه الحكم مع زيادة تفصيل وإيضاح في الأمور الآتية:

أولاً: إظهار قدرة الله ـ تعالى ـ على خلق المتضادات والمتقابلات، حيث خلق الله ـ تعالى ـ إبليس، وذاته من أخبث الذوات، وخلق ـ تعالى ـ جبريل عليه السلام، وذاته من أفضل الذوات وأشرفها وأطهرها، فجعل ـ سبحانه ـ الخبيث مُنحازاً إلى روح إبليس الخبيثة، وجعل الطيب مُنحازاً إلى روح جبريل الطيبة، وقد جعل ـ تعالى ـ البشر منقسمين بين هاتين المادتين، المادة الطيبة، والمادة الخبيثة، حيث جعل مادة الأرض مشتملة على الطيب والخبيث، وقد شاء ـ سبحانه ـ أن يخلق بني آدم من مادة الأرض، فجاء بنو آدم مختلفين باختلاف المادة التي خلقوا منها، في ألوانهم وصفاتهم ولغاتهم وأجناسهم وأحوالهم وأخلاقهم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ـ تعالى ـ خلق آدم من قَبْضَة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزن، والخبيث والطيب)[2].

فمن كمال قدرة الله ـ تعالى ـ أن خلق المتضادات كالليل والنهار، والحر والبرد، والداء والدواء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والماء والنار، والألم واللذة، والطيب والخبيث.. إلخ من المخلوقات المتضادَّة،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ٢٨٢.

(٢) سبق تخريجه ص١٠٢.

حيث قابل ـ تعالى ـ بعضها ببعض، وسلَّط بعضها على بعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته ـ تبارك وتعالى[١] ـ.

ثانياً: حين خلق الله ـ جل وعلا ـ آدم عليه السلام من المادة الطينية؛ وهي تشتمل على الطيب والخبيث، فجاء بنو آدم بين الطيب والخبيث، أراد ـ تبارك وتعالى ـ تخليص الطيب من المادة الأرضية من الخبيث، فأخرج من المادة النارية من جعله مُحرِّكاً للنفوس الخبيثة، داعياً لها إلى محل الخبث الذي هو دارها ومقرُّها، لتحظى بالهوان والإبعاد من الله ـ تعالى ـ، وهذا الذي خلقه الله ـ تعالى ـ من تلك المادة النارية وجعله مُحرِّكاً للنفوس الخبيثة، هو إبليس اللعين.

كما أقام ـ تعالى ـ للنفوس الطيِّبة داعياً يدعوها إلى الأفعال الطيبة الحميدة وإلى مرضاة الله ـ تعالى ـ لتحظى بالقرب من ربها ـ جل وعلا ـ في دار كرامته، قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]، يقول ابن القيم: «فظهر أن من بعض الحِكَم في خلق عدو الله، إخراج خبء النفس الخبيثة التي شرها وخبثها كامن فيها، فأخرج خباها بزناد دعوته، كما يخرج خبء النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبء الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبء الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبء القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها، فكم له ـ سبحانه ـ من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس»[٢].

ثالثاً: إكمال مراتب العبودية لأنبياء الله وعباده الصالحين، وإظهار

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٦.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٣٤١.

العبودية المتنوعة التي تحصل بخلق إبليس، في مجاهدته وحزبه ومراغمته في الله، وإغاظته والاستعاذة بالله منه، فتمام العبودية والمحبّة والطاعة لله ـ تعالى ـ تظهر عند المعارضة وعند دواعي الشهوات المخالفة لتلك العبودية، وإنما تظهر حقيقة الإيمان عند الابتلاء والامتحان، يقول ـ تعالى ـ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦].

وهذه الحكمة لا تظهر إذا كان جميع الناس مؤمنين، حيث تتعطل هذه العبودية وأنواعها، من الموالاة لله والمعاداة فيه ـ تعالى ـ، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، والتوبة، والاستغفار، وغير ذلك من مراتب العبودية التي تظهر عند خلق إبليس وحزبه[1].

رابعاً: إظهار كمال الشيء وحسنه بخلق ضدّه، فالضدّ يظهر فضله بخلق ضدّه، فمن كمال حكمة الله ـ تعالى ـ وقدرته، إظهار شرف الأشياء الفاضلة بخلق أضدادها، فلولا الفقر لم يظهر فضل الغنى، ولولا المرض لم يُعرف فضل العافية، ولولا الجهل لم يعرف فضل العلم، ولولا الألم لم يعرفُ فضل اللّذة وشرفها، ولولا القبيح لم يظهر فضل الحسن، ولولا خلق النار لم يُعرف نعيم الجنة وفضلها، فخلق ـ تعالى ـ إبليس مكمّلاً لحسن الأرواح الزكية الفاضلة، التي كمّل بصورتها جمال الظاهر والباطن[2].

خامساً: ظهور آثار أسماء الله ـ تعالى ـ القهرية، كالقهّار، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، والنافع والضار،

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٨.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢.

قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۢ . .﴾ الآية [الفتح: ١١]، والجبّار، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ . .﴾ الآية [الحشر: ٢٣]، وشديد العقاب، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وذو البطش الشديد، يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، والمعزّ والمذل، قال ـ سبحانه ـ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وعند خلق إبليس تظهر أيضاً آثار أسماء الله المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره على عباده، يقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . .﴾ الآية [الشورى: ٢٥] إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لكمال حلمه ـ تعالى ـ وعفوه وتجاوزه عن السيئات وقبوله توبة المذنبين، فلو لم يخلق ـ سبحانه ـ ما يكرهه من الأسباب المؤدّية إلى توبة عباده واستغفارهم ولجوئهم إليه ـ تعالى ـ، لما ظهرت آثار هذه الأسماء العظيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)(١)، فلمحبته ـ تعالى ـ للجود والإحسان والمغفرة، خَلَق من يعامله بالعصيان والإساءة والمخالفة، وهو ـ تعالى ـ يسوق إليه أنواع الملذات والطيبات، ويصبر على أذاه ومساءته، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ما أحدٌ أصبر على أذًى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم)(٢)، فهي حكمة

(١) أخرجه مسلم في التوبة، حديث [٢٧٤٩] باب سقوط الذنوب بالاستغفار.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، حديث [٧٣٧٨] باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾، ومسلم في صفة المنافقين وأحكامهم، حديث [٢٨٠٤] باب لا أحد أصبر على أذى من الله ﷻ.

عظيمة في خلق من يجري على أيديهم تلك المعاصي والمخالفات لتظهر عموم رحمته ـ تبارك وتعالى ـ على عباده، فقد سبقت رحمته غضبه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لما قضى الله الخلق كَتَب في كتابه، فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي)(١)، يقول ابن القيم: «فلو لم يُقدّر الذنوب والمعاصي، فلمن يغفر؟ وعلى من يتوب؟ وعمّن يعفو ويسقط حقّه؟ ويظهر فضله وجوده وحلمه وكرمه، وهو واسع المغفرة، فكيف يعطل هذه الصفة؟ أم كيف يتحقق بدون ما يغفر ومن يغفر له؟ ومن يتوب وما يتاب عليه؟ فلو لم يكن في تقدير الذنوب والمعاصي والمخالفات إلا هذا وحده، لكفى به حكمة وغاية محمودة»(٢).

سادساً: حصول العبرة لجميع العباد بما حصل لعدو الله إبليس؛ من الإهانة والذّل وسوء العاقبة، بسبب عصيانه أمر الله ـ تعالى ـ واستكباره على ربه ـ جل وعلا ـ، وبهذه العبرة يقوي الإيمان ويزداد لدى الملائكة والإنس والجن، ويعظم خوفهم من الله ـ تعالى ـ، حيث شاهدوا وعلموا من حال إبليس وصغاره واحتقاره ما فيه العظة والاعتبار لكل من تسوِّل له نفسه التمرد على أمر الله ـ تعالى ـ، وهذا أمر مشاهد ومعلوم ـ ولله المثل الأعلى ـ فلو أنّ سيداً من البشر عاقب عبده وأهانه واحتقره على ذنب فَعَله، فإن من يشاهد ويسمع ويرى من البقية ممن تحت يد هذا السيد ستحصل له العبرة والعظة وعدم المخالفة لسيده حتى لا يقع في مثل ما وقع فيه ذاك العبد من العقاب والإهانة والاحتقار، والاعتبار والاتعاظ هو من أهم مقاصد القرآن الكريم في ذكر القصص وأحوال الأمم السابقة وما حلّ بهم من السُّخط ونزل بهم من العذاب حين خالفوا أوامر الله وعادوا أنبياءه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣١٩٤] باب ما جاء في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ومسلم في التوبة، حديث [٢٧٥١] باب في سعة رحمة الله.. إلخ.

(٢) شفاء العليل، لابن قيم الجوزية ص٣٧٢.

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وغير ذلك من الآيات كثير.

سابعاً: إن الله ﷻ يحب من عباده أن يشكروه بحقيقة الشكر المستحقة له ـ تعالى ـ، وبأنواع الشكر جميعها، فخلق ـ تعالى ـ عدوَّه إبليس، وجعله مخالطاً للإنس والجن، وابتلى ـ سبحانه ـ عباده الصالحين وامتحنهم بهذا العدو الخبيث، لينال أولئك الصالحون من أنواع شكره ـ تعالى ـ ما لم يتحقق دون وجود هذا العدو، فجعله ـ تعالى ـ على تلك الحال، ليكون أبلغ لعباد الله ـ تعالى ـ في الثناء على الله ﷻ وشكره على ما أسداه إليهم من التكريم وفَضَّلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

ثامناً: إنه يترتب على خلق من يكفر بالله ويشرك به ـ تعالى ـ ويعاديه ويضادّ رسله، من الحِكَم الظاهرة والباطنة وعجائب قدرته ـ تبارك وتعالى ـ وحُسْن صنعه، ما هو أحب إليه ـ جل وعلا ـ وأعظم في مصلحة أوليائه من عدم وجود عدوه إبليس، إذ لولا كفر قوم نوح عليه السلام لما ظهرت آية الطوفان، التي أرسلها الله عليهم وبقيت عبرتها إلى يوم القيامة، وحين كفر قوم هود عليه السلام أرسل الله عليهم الريح الصرصر، آية ظاهرة، وعبرة باقية، وبعد أن أعلن فرعون كفره واستكباره على ربه ـ تعالى ـ، أظهر الله على يد كليمه موسى عليه السلام من الآيات والعجائب ما حكاه لنا ـ تعالى ـ في كتابه الكريم، وأظهر ـ تعالى ـ على يد خليله إبراهيم عليه السلام حين ألقاه قومه الكافرون في النار بالمنجنيق، من الآيات والفضائل العظيمة، حيث جعل سبحانه حرّ تلك النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وأبدل سوء حالها بجنة خضراء في وسط تلك النار العظيمة، فأصبحت هذه الحادثة آية باهرة وعبرة دائمة على مرّ القرون والأجيال.

وحين نزغ الشيطان بين يوسف عليه السلام وإخوته، ظهرت من خلال

أحداث قصته عليه السلام من المواعظ والدروس والعجائب المستفادة ما أفردت له سورة كاملة في القرآن الكريم، وأيضاً لمّا حادّ المشركون رسول الله ﷺ وجاؤوا بالحديد والعتاد والعُدد في يوم بدر، ظهرت كثير من الآيات والعظات، ولولا وجود الكفار لما قامت عبودية الجهاد، ولما نال أهله فضل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ولما وُجد من يُؤْثِر محبة الله - تعالى - على نفسه وأهله وولده وماله، فما ظهر صبر الرسل وأتباعهم، وظهر جهادهم في سبيل ربهم، إلا عند وجود الكفار المحادّين لله ورسوله، فخلق عدو الله إبليس إنما هو سبيل لإظهار منافع ومصالح وهدايات وعبر ودروس وبصائر لذوي الألباب، وهذا من تمام ظهور آيات الله - تعالى - وكمال صنعه وعجائب قدرته.

تاسعاً: إن الله - تعالى - شاء وقضى أن النعيم والسعادة لا يوصل إليهما ولا ينتهي عندهما إلا على جسر التعب والمشقة، المحفوف بالأشواك والمنغصات، ولا تنال لذتهما إلا من باب المكاره والصبر والمجاهدة في سبيل الله - جل وعلا -، ولذا قال ﷺ: (حُفّت الجَنَّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشَّهوات)[1]. فوجود عدو الله إبليس وتسليطه على الإنسان وتمكينه من وسائل الإضلال والغواية، من أسباب ظهور تلك الإرادة والمشيئة، وهذا من السنن المتفق عليها عند العقلاء، حيث إن من أراد بلوغ المقاصد الحسنة، والغايات الجميلة، والفضائل الكريمة، فلا بد من مجاهدة نفسه في تحصيلها، والجدّ والتعب من أجل تحقيقها، وكل من كان أكثر مجاهدة وأطول مصابرة كان أسعد حالاً وأحسن عاقبة ممن هو دونه، وسائر العقلاء يعدّون ذلك التعب والجهد والمشقة لتحقيق تلك الغايات من الأمور المحببة إلى نفوسهم، بل يجدون في القيام بها من اللّذة والسعادة ما لا يجدون في غيرها، لعلمهم أنها الطريق الموصل إلى تلك الفضائل والكمالات.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، حديث [٢٨٢٢].

عاشراً: إن الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ واللّوذ به ـ جل وعلا ـ: مما يحبه ـ تعالى ـ من عباده، ولذا حث نبيه ﷺ أن يستعيذ به من شر الشيطان وحزبه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٦]، وحث ـ تعالى ـ نبيه أن يستعيذ به ـ سبحانه ـ عند قراءة القرآن: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، فهذه الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ تظهر عند خلق إبليس، إذ هو سبب ذلك العوذ ولازمه، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعوّذ إسماعيل وإسحاق من الشيطان، وكان نبينا محمد ﷺ يعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما من عدو الله الشيطان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ يُعوّذُ الحسن والحسين، ويقول: (إن أباكما كان يعوّذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامّة)[1].

إحدى عشرة: تحقيق الحمد المطلق لله ـ تعالى ـ من جميع الوجوه، فهو ـ تعالى ـ محمود على خفضه وعدله ومنعه وإهانته وانتقامه، كما هو محمود ـ جل وعلا ـ على عطائه ورفعه وتفضّله وإحسانه، وقد حَمِد نفسه ـ تبارك وتعالى ـ على ذلك كله، فحمد نفسه على ربوبيته الشاملة للخلائق فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ١]، وحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض فقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١]، وحمد نفسه على وحدانيته جل جلاله في الألوهية والملك، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ . .﴾ الآية [الإسراء: ١١١]، كما حمد نفسه ـ تعالى ـ في كل زمان ومكان: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث [٣٣٧١] باب (١٠).

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٨]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ . . .﴾ الآية [القصص: ٧٠]، وقد وصف نفسه ـ جل ثناؤه ـ بالحمد في كتابه الكريم في آيات كثيرة جداً، ووصفه به ملائكته في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . .﴾ الآية [الزمر: ٧٥]، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . .﴾ الآية [الشورى: ٥]، بل إن خلقه ـ جل وعلا ـ يلهجون بحمده تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . .﴾ الآية [الإسراء: ٤٤]، وحين يدخل أهل الجنة جنة ربهم فإنهم يحمدونه على هذه النعمة العظيمة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يتمخَّطون)، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: (جُشاء[1] ورشح كرشح المسك، يُلهمون التسبيح والتحميد كما يهلمون النَّفس)[2]، فبخلق عدو الله إبليس ووجوده في الدنيا يحصل هذا الحمد المطلق من جميع وجوهه، فكل ما كان من لوازم حمده ـ تعالى ـ فله في خلقه ووجوده الحكمة التامة، وله في ذلك الحمد المطلق، إذ كلما كان الفاعل أعظم حكمة، كان أعظم استحقاقاً للحمد، والله ـ جل وعلا ـ له الحكمة البالغة في كل شيء، وله الحمدُ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه، والله تعالى أعلم.

---

(١) الجُشاءُ: هو تنفّس المعدة عند الامتلاء، انظر: لسان العرب مادة «جشأ».

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، حديث [٢٨٣٥] باب في صفة الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً.

الباب الثاني

عداوة الشيطان ومكائده

وفيه فصول:

الفصل الأول: أسباب عداوة الشيطان وفيه مباحث:

المبحث الأول: الاستكبار وعدم السجود.

المبحث الثاني: تكريم بني آدم.

المبحث الثالث: كفره ومعصيته.

المبحث الرابع: طرده من رحمة الله.

الفصل الثاني: أساليب مكائد الشيطان وفيه مباحث:

المبحث الأول: أمره بالفحشاء والمنكر.

المبحث الثاني: تزيين الباطل.

المبحث الثالث: إنساؤه ذكر الله.

المبحث الرابع: وعده ووعيده.

الفصل الثالث: أهدافه الدنيوية والأخروية وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأهداف الدنيوية.

المبحث الثاني: الهدف الأخروي.

الفصل الأول

أسباب عداوة الشيطان

المبحث الأول

الاستكبار وعدم السجود

لقد أخبرنا الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم عن امتناع عدوه إبليس عن السجود لآدم عليه السلام حين أمر الله ـ تعالى ـ الملائكة بالسجود، وكان إبليس معهم يتعبّد ويتنسّك فدخل في الأمر بالسجود مع الملائكة، ولذا ناله من العتاب والعقاب بسبب امتناعه عن امتثال أمر ربه ـ جل وعلا ـ ما أخبرنا به ـ تعالى ـ في القرآن الكريم، ثم كشف الله ما في نفس إبليس حين أخبرنا ـ تعالى ـ عن امتناع هذا العدو عن السجود، وأن هذا الامتناع من الشيطان إنما هو نتيجة الكبر الذي في نفسه، فلم يكن امتناعه عن السجود عفوياً ولا عن حسن مقصد وغاية، ولكن حين رأى أن الله ـ تعالى ـ قد خَصَّ آدم عليه السلام بأنواع الكرامة وعلو المنزلة عنده ـ تعالى ـ، حيث خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته، حينئذٍ بلغ الكبر من عدو الله كل مبلغ، وثار الحقد والحسدُ في نفسه على أبي البشر آدم عليه السلام.

وهذه الحقيقة يخبرنا بها ـ تعالى ـ في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٣٣]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢].

قال القرطبي في بيان استكبار إبليس: «فكأنّه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم، فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته، وكان بدء الذنوب الكبر ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة، ثم الحسد، إذْ حسد ابن آدم أخاه»[1].

ولقد اختلف السلفُ في السبب الذي سوَّلت لإبليس نفسه من أجله الاستكبار على ربه ـ تعالى ـ، وبيان ذلك في الأمور الآتية:

أولاً: روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك أقوالاً هي فيما يأتي:

أ ـ عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم «الجن» خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث، قال: وكان خازناً من خُزَّان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار ـ وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت ـ قال: وخُلق الإنسان من طين، فأول من سكن الأرض الجنَّ، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس من جند من الملائكة ـ وهو هذا الحي الذين يقال لهم الجن ـ فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك، اغترَّ في نفسه، وقال: صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطّلع الله على ذلك من قلبه، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه»[2].

ب ـ ومن الأقوال المروية عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب استكبار إبليس، أنه كان على مُلك السماء وسائسها وسائس ما بين السماء والأرض وخازن الجنة مع اجتهاده في العبادة، فأعجب بنفسه ورأى أن له بذلك

---

(١) تفسير القرطبي ١/٢٩٦.

(٢) تفسير الطبري ١/٢٠١، وتاريخه ١/٥٨.

فضلاً، فاستكبر على ربه حين أمره بالسجود لآدم عليه السلام، قال الطبري: حدَّثنا موسى بن هارون الهمداني، قال: حدَّثنا عمرو بن حمَّاد، قال: حدَّثنا أسباط، عن السدي، في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس ـ وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ـ وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قال: «لما فرغ اللهُ من خلق ما أحب استوى على العرش، فجعل إبليس على مُلك سماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: «الجن»، وإنما سُمّوا الجن لأنهم خُزَّان الجنة، وكان إبليس مع مُلكه خَازِناً، فوقع في صدره كبر، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزيّة لي، قال لي ابن جرير: هكذا قال موسى بن هارون[1]، وقد حدَّثنا به غيره وقال: لمزية لي على الملائكة، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطَّلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]»[2].

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه «عَزَازيل» وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فذلك الذي دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمون جِنّا»[3].

جـ ـ ما روي عن ابن عباس أن عدو الله إبليس كان من بقايا خلق

---

(١) هو: موسى بن هارون بن عبد الله البغدادي البزاز، أبو عمران، كان إمام عصره في حفظ الحديث ومعرفة الرجال، وكان ثقة، متقناً شديد الورع، عظيم الهيبة، قال أبو بكر الضبعي: «ما رأينا في حُفاظ الحديث أهيب ولا أورع من موسى بن هارون». توفي سنة ٢٩٤هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/١١٦، العبر ١/٤٢٧، تذكرة الحفاظ ٢/٦٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١/٢٠٣، وتاريخه ١/٥٩، والدر المنثور ١/٩٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/١٦، وقد ذكره ابن كثير بطوله في تفسيره ١/٧٧ ثم قال: «فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم، والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول: على شرط البخاري».

(٣) تفسير الطبري ١/٢٢٤، وتاريخه ١/٥٩.

خلقهم الله ﷻ فأمرهم بأمر فأبوا طاعته، قال ابن جرير: حدَّثنا محمد بن سنان القزّاز قال: حدَّثنا أبو عاصم عن شَبِيب عن عكرمة عن ابن عباس قال: «إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: لا نفعل، فبعث الله عليهم ناراً تحرقهم، ثم خلق خلقاً آخر، فقال: إني خالق بشراً من طين، اسجدوا لآدم، فأبوا، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، قال: ثم خلق هؤلاء، فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم»[1].

ثانياً: قال آخرون: بل السبب في استكبار إبليس عن السجود لآدم أنه كان من بقايا الجن الذين كانوا في الأرض، فسفكوا فيها الدماء وأفسدوا فيها، وعصوا ربهم، فقاتلتهم الملائكة.

روى ابن جرير عن شهر بن حوشب في قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قال: «كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسَرَهُ بعض الملائكة فذهب به إلى السماء»[2].

ثالثاً: إن سبب استكبار إبليس كان من أجل أن الأرض كان فيها قبل آدم عليه السلام الجن، فبعث الله إبليس قاضياً يقضي بينهم، فلم يزل يقضي بينهم بالحق ألف سنة حتى سُمّي حَكَماً، وسمّاه الله به، وأوحى إليه اسمه، فعند ذلك دخله الكبر فتعظَّم وتكبّر، وألقى بين الذين كان الله بعثه إليهم حَكَماً البأس والعداوة والبغضاء، فاقتتلوا عند ذلك في الأرض ألفي سنة، فيما زعموا، حتى إن خيولهم تخوض في دمائهم، قالوا: وذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق: ١٥]، وقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فبعث الله ـ تعالى ـ عند ذلك ناراً فأحرقتهم، قالوا: فلما رأى إبليس ما نزل

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٢٧، وتاريخه ١/ ٦٠.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٢٢٦، والكامل لابن الأثير ١/ ١٧.

بقومه من العذاب عرج إلى السماء، فأقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهداً، لم يعبده شيء من خلقه مثل عبادته، فلم يزل مجتهداً في العبادة حتى خلق الله آدم، فكان من أمره ومعصيته ربه ما كان[(١)].

إن هذه الأقوال في سبب استكبار إبليس هي في بيان أمر غيبي لا يُعلم إلا بدليل يُعوّل عليه من النصوص الصحيحة الصريحة، وهي أقوال كما نرى لا تقوم على شيء من ذلك، بل ربما هي من الإسرائيليات، قال أبو جعفر الطبري بعد أن ذكر تلك الأقوال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وجائز أن يكون فسوقه عن أمر ربه كان من أجل أنه كان من الجن، وجائز أن يكون من أجل إعجابه بنفسه لشدة اجتهاده في عبادة ربه، وكثرة علمه، وما كان أوتي من ملك السماء الدنيا والأرض وخَزْن الجنان، وجائز أن يكون كان لغير ذلك من الأمور، ولا يُدرك على ذلك إلا بخبر تقوم به الحُجَّة، ولا خبر في ذلك عندنا كذلك، والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه»[(٢)]، فالله ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وفي آية أخرى ذكر الكبر دون ذكر الإباء في قوله ـ جلا وعلا ـ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: ٧٣، ٧٤]، فلعل كبره كان مبنياً على شبهته التي تقدم الكلام عنها[(٣)]؛ وهي أنه يرى أن أصل خلقه وتكوينه أفضل من أصل خلق آدم وتكوينه، إذ هو خُلق من نار وآدم خُلق من طين، فهو ـ في زعمه ـ أعلى مرتبة وأرفع منزلة من آدم، فكيف يسجد الفاضل للمفضول؟ وقد اعترف إبليس بهذه العلة التي كانت سبباً في كبره وامتناعه عن السجود، حيث سأله الله ـ وهو أعلم جل وعلا ـ عن سبب امتناعه عن السجود في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا

(١) تفسير الطبري ١/ ٦٠ ـ ٦١.
(٢) تاريخ الطبري ١/ ٦٠.
(٣) انظر: مبحث شبهة إبليس ص١١٦.

﴿تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٢، ٣٣]، وفي آية أخرى يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٥، ٧٦].

فمن خلال هذه الآيات التي يحكي لنا الله ـ جل وعلا ـ فيها عن إقرار إبليس عما في نفسه من الشُّبهة التي كانت سبباً في امتناعه عن السجود لآدم، يمكن لنا أن نتعرف على منبع كبره ومصدره، وهو تلك الشبهة التي اعترف بها، فحينئذٍ يمكن أن نقول: إن امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام هو إباءٌ، على وجه الاستكبار، سببه تلك المقارنة بين أصل الخلقين، والتي كانت سبب بواره وخسرانه.

قال أبو حامد الغزالي في بيانه أن الكبر على الناس يؤدي إلى الكبر على أوامر الله ـ تعالى ـ: «وإنما ضُرب إبليس مثلاً لهذا، وما حكاه من أحواله إلا ليُعتبر به فإنه قال: أنا خير منه، وهذا الكبر بالنَّسَب لأنه قال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذي أمره الله ـ تعالى ـ به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له، فجرَّه ذلك إلى التكبر على أمر الله ـ تعالى ـ، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد»[1].

فقد كان الكبر سبب خذلان إبليس وسقوطه في الهاوية، حيث اغتر بعنصره وأعجب به فتحركت جرثومة الكبر في نفسه فعارض أمر ربه عز وجل، فالكبر يمثل انحرافاً خُلقياً يعدل بصاحبه عن طريق الحق ويصرفه عن اتّباع الصراط المستقيم، وهو من أبرز العوامل التي تؤدي إلى انحراف المفاهيم الفكرية، والتي تدفع صاحبها إلى بطر الحق وغمط الناس.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٩٩.

ولما كان الكبر هو السبب الرئيس في شقاء إبليس وصغاره، فإن عدو الله يجتهد بشتى وسائله وأساليبه لإيقاع الإنسان فيما وقع فيه من الاتصاف بالكبر والاستعلاء على أمر الله ـ تعالى ـ، وما ترتب عليه من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

وحيث إن من مهمات هذه الرسالة بيان العداوة بين الشيطان والإنسان، وما تنطوي عليه تلك العداوة الشيطانية من الوسائل الماكرة والمقاصد الخبيثة، فإنه يجدر بنا أن نسلِّط الضوء على صفة الكبر الذميمة، ونكشف أستارها ونعرف حقيقتها، من خلال نصوص الكتاب والسُّنَّة الشريفة وأقوال أهل العلم في بيان أنواع الكبر ومجالاته وأسبابه التي ينشأ عنها، ثم كيفية علاج هذه الصفة الخطيرة.

فالكبر هو الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره[(١)].

والاستكبار يكون على وجهين هما:

أحدهما: أن يتحرَّى الإنسان ليصير كبيراً، وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب، فإنه محمود.

والآخر: أن يتشبّع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا الوجه ما ورد في القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

يقول الألوسي: «وأصل الاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق، لا بمعنى تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله، بل بمعنى عدَّ نفسه كبيراً واعتقاده ذلك»[(٢)].

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ص٤٣٨.
(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٤٣٨.

وإذا كان القرآن الكريم قد حمد التواضع وأثنى على المتواضعين في قوله - تعالى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ . .﴾ الآية [المائدة: ٥٤] إلى غير ذلك من الآيات، فإن القرآن الكريم قد حمل حملة صارمة على الكبر وأهله وحذّر منه في عدة آيات منها: قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقوله - جل وعلا -: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل: ٢٣]، وأمثالها من الآيات كثير.

وقد كان نبينا محمد ﷺ أعظم الناس تواضعاً لربه - تعالى - ولعباد الله، فهو أكمل الناس خُلقاً وقدراً، وقد أثنى الله على رسوله ﷺ بقوله - جل وعلا -: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، وكان ﷺ يحث على خلق التواضع والتحلّي به في جميع الأمور، وبيّن ﷺ فضل هذا الخلق العظيم وحسن عاقبته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله)[1].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، حديث [٢٥٨٨] باب استحباب العفو والتواضع.

* وقال النووي: «قوله ﷺ: (وما تواضع أحد لله إلا رفعه) فيه أيضاً وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجلُّ مكانه، والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا» صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٤١ - ١٤٢.

وعن ثوبان[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وهو بريء من ثلاث: الكبر والغلول والدَّين، دخل الجنة)[2].

ومع دعوة الرسول ﷺ إلى الاتصاف بخلق التواضع فقد كان يحذّر من الكبر ويبيّن سوء عاقبته ومصير المتكبرين في الآخرة، فعن حارثة بن وهب الخزاعي[3] قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مُتضعِّف[4] لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُل[5] جَوَّاظ[6] مستكبر)[7]، وعن أبي

---

(١) هو ثوبان بن بُجْدُد وقيل جحدر، من أصحاب رسول الله ﷺ، ومولى رسول الله ﷺ، سُبي من أرض الحجاز، فاشتراه النبي ﷺ وأعتقه، فلزم النبي ﷺ وحفظ عنه علماً كثيراً، وطال عمره، واشتهر ذكره، وتوفي سنة ٥٤هـ.
انظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم ٣/ ٢٨٠، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥، الإصابة ١/ ٢١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب السير، حديث [١٥٧٢] باب ما جاء في الغلول، والإمام أحمد ٥/٢٧٦، ٢٨١، وأخرجه ابن ماجه في سننه بلفظ الإمام أحمد، كتاب الصدقات، حديث [٢٤١٢] باب التشديد في الدَّين، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، حديث [٨٧٦٤] باب الغلول، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣١ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) هو حارثة بن وهب الخزاعي، له صحبة، وهو أخو عبيد الله بن عمر لأمه، وله رواية عن النبي ﷺ وعن جندب الخير الأزدي وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم، ويُعدّ في الكوفيين.
انظر: الثقات ٣/ ٧٩، الاستيعاب ١/٣٠٨، الإصابة ١/ ٣١٣.

(٤) قال ابن الأثير في معنى «مُتَضَعِّف»: «يريد الذي يتَضَعَّفُهُ الناس ويتجبَّرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال»، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٨٨، وقال ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٣١: «المستضعف المحتقر لخموله في الدنيا».

(٥) العتل: قال الفراء: الشَّديد الخصومة، وقيل: الجافي عن المواعظة، وقال أبو عبيدة: العتل: الفظُّ الشديد من كل شيء وهو هنا الكافر، وقال الحسن: الفاحش الآثم، وقال الخطابي: الغليظ العنيف، وقيل غير ذلك، انظر: فتح الباري ٨/ ٥٣١.

(٦) الجوّاظ: الجمُوع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته، وقيل: القصير البطن، النهاية في غريب الحديث ١/ ٣١٦.

(٧) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، حديث [٤٩١٨] باب «عتل بعد ذلك زنيم»، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث [٢٨٥٣] باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتجَّت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبَّارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله عز وجل لهذه: أنت عذابي أعذب بكِ من أشاء «وربما قال: أصيب بك من أشاء»، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها)[1].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة: الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدّقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون)[2]، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: (يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرِّجال يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى «بُولُس» تعلوهم نار الأنيار يُسقون من عُصارة أهل النار طينة الخبال)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، «قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم»، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملك كذّاب، وعائلٌ مستكبر)[4].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث [٢٨٤٦] باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، حديث [٢٠١٨] باب ما جاء في معالي الأخلاق، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والثرثار، هو الكثير الكلام، المتشدِّق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم»، وأخرج الخرائطي نحوه في مساوئ الأخلاق ومذمومها، حديث [٥٨٣].

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، حديث [٢٤٩٢] باب (٤٧)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، والإمام أحمد نحوه ٢/ ١٧٩، والبخاري في الأدب المفرد، باب الكبر، حديث [٥٥٧]، والحميدي في مسنده نحوه ٢٧٢٢ حديث [٥٩٨] وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٢٤٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٨٨.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، حديث [١٠٧] باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار.

ولقد عرّف الرسول ﷺ الكبر بأبرز مظاهره في السلوك، والتي يتّصف بها المتكبر وتختفي معها آثار الأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كبر)، قال رجل: إن الرجل يُحبُ أن يكون ثوبه حَسَناً ونعله حسنة، قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق، وغَمْط الناس[1])[2].

فالرسول ﷺ ذكر في هذا الحديث أهم مظاهر الكبر في السلوك من خلال أبرز صفتين من صفات الكبر تكون لهما انعكاسات سيئة على المتكبر، وهما صفتا: بطر الحق، وغمط الناس.

فمظهر بطر الحق يكون في أمور عديدة: فالبطر في النعمة عند كثرتها، هو الطغيان فيها والإسراف والتبذير منها دون مبالاة ولا تقدير لعظم هذه النعمة، والبطر في الحركة والمشيء، هو التبختر والخيلاء وعدم الاتزان، ولقد نهى الله ﷻ عن هذا النوع من المشي حين عرض وصايا لقمان لابنه حاثّاً عباده على اتّباع تلك الوصايا وتطبيقها في السلوك ومشيداً تعالى بحكمة لقمان، فقال ـ تعالى ـ حكاية عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٧، ١٨]، كما نهى ـ جلا وعلا ـ عن تلك المشية بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، ففي هذه الآية الكريمة يكشف الله ـ تعالى ـ للمستكبر عن حقيقة حاله المنحصرة في ذاته الصغيرة من أعلاه إلى أدناه، فهو حينما يمشي على الأرض ويضرب برجليه عليها ويتطاول في مشيته

(١) قال النووي: «غَمْطُ الناس: معناه احتقارهم، وأما بَطَر الحق فهو دفعه وانكاره ترفعاً وتجبراً»، صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٩٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، حديث [٩١] باب تحريم الكبر وبيانه.

ويتبختر بها مرتفعاً بقامته على الناس، فإنه في تلك الحالة لا يعدو أن يكون مخلوقاً ضعيفاً، تقف قوته ذليلة صاغرة عند أعتاب قوة الأرض والجبال، فمهما فعل في إظهار نفسه وعلوها فإنه لا يستطيع أن يخترق الأرض بقدميه بتلك المشية المتبخترة، ولا أن يتجاوز الجبال أو يبلغ طولها حين يستعلي بقامته على الناس، ولقد حذَّر النبي ﷺ من هذه المشية وبيّن سوء عاقبة فعلها فيما يرويه ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به، فهو يتجلجل[1] في الأرض إلى يوم القيامة)[2]، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة...) الحديث[3].

فالمشي على وجه الاستكبار والافتخار بالثياب واللباس والتعالي على الناس، عمل يبغضه الله ورسوله، إلا إذا كان لتحقيق مصلحة للإسلام والمسلمين، كأن يكون في موطن قتال أعداء الإسلام، فيظهر لهم تلك المشية ليلقي في قلوبهم الذعر والوهن، ويظهر لهم عزة الإسلام وقوّته.

ومما تعظم به رذيلة الكبر أن المتكبِّر قد يُعرض عن الاستجابة لأوامر الله ويدعو إلى مخالفتها، لأنه إذا سمع الحق ممن صدع به استنكف عن قبوله وصدّ عنه، وهذا هو البطر عند ظهور الحق ومعرفته، ولقد نعى الله عز وجل على المتكبرين عن اتّباع الحق إذا دُعوا إليه، وذلك في آيات عديدة، منها قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ

(١) يتجلجل: أي يغوص في الأرض حين يُخسف به، والجَلْجَلة: حركة مع صوت، النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٨٤.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث [٣٤٨٥] باب (٥٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، حديث [٣٦٦٥] باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ، وفي كتاب اللباس، حديث [٥٧٩١] بلفظ: (من جر ثوبه مخيلة)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، حديث [٢٠٨٥] باب كراهة ما زاد عن الحاجة من الفراش واللباس.

عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢ ـ ١٧٣]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١]، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٧]، وأمثالها من الآيات كثير.

وعن إياس بن سلمة بن الأكوع(١) أن أباه حدّثه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال: (كل بيمينك)، قال: لا أستطيع، قال: (لا استطعت) ما منعه إلا الكبر، قال: فما رفعها إلى فيه(٢).

وأما «غَمْطُ الناس» فهو كما عرّفه علماؤنا: احتقار الناس وازدراؤهم والتصغير من شأنهم، محاولة من المتكبر في إخلاء الساحة من أهل الفضيلة والمجد كي يبرز شخصه وتعلو مكانته ويشار إليه بالبنان، ولقد أخبر ـ تعالى ـ عن كبر الكافرين على أنبيائهم واحتقارهم لهم واستصغار ما جاؤوا به من الآيات البينات من الله ـ تعالى ـ، فعارضوا بذلك الحق ولم يستجيبوا لدعوة الله لهم باتّباعه، قال ـ تعالى ـ حكاية عن ثمود قوم صالح عليه السلام:

---

(١) هو: إياس بن سلمة بن الأكوع، تابعي، ثقة، روى عن أبيه، وله أحاديث كثيرة، توفي سنة ١١٩هـ.

وأما أبوه فهو: سلمة بن عمرو، وقيل وهب بن عمرو بن الأكوع، صحابي جليل، أول مشاهده الحديبية، وكان من الشجعان، وله مشاهد معروفة في حياة النبي ﷺ وبعده، وكان يفتي بالمدينة، روى عنه جماعة من تابعي أهل المدينة، توفي بالمدينة سنة ٧٤هـ.

انظر: التاريخ الكبير ١/ ٤٣٩، ٤/ ٦٩، الثقات ٣/ ١٦٢، ٤/ ٣٥، صفة الصفوة ١/ ٦٨٣.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، حديث [٢٠٢١] باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤] وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، ومع استكبارهم على أنبيائهم واحتقارهم لهم فإنهم مع ذلك يعلمون أن الحق فيما جاء به الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

فالمتكبِّر الذي يحتقر الناس ويستعلي عليهم، تدفعه نفسه إلى ذلك الكبر إعجاباً بتلك النفس واغتراراً بها وتعظيماً لها، قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي: «وأما الكبر على الخلق فهو غمطهم واحتقارهم، وذلك ناشئ عن عجب الإنسان بنفسه، وتعاظمه عليهم، فالعجب بالنفس يحمل على التكبر على الخلق واحتقارهم والاستهزاء بهم وتنقيصهم بقوله وفعله، وقال رسول الله ﷺ: (بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم)[1]»[2].

وكلما كان المتكبر بعيداً عن خشية الله ومراقبته وغير مقدّر عواقب كبره، كان غمطه للناس أشد، واحتقاره لهم أعظم، والكبر أنواع ومجالات هي فيما يأتي:

١ ـ الكبر بالعلم، فقد يغترّ العالم بعلمه ويستعظم به على الناس، ويعتبر تعليمه العلم صنيعة منه إلى المتعلمين ومعرف لديهم، وهو يرى أنه أعلى عند الله وأفضل من أولئك المتعلمين، ولا ريب أنّ هذا من تزيين الشيطان وتلاعبه به، قال الحافظ الذهبي[3]: «وأشرُّ الكبر الذي فيه من

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، حديث [٢٥٦٤] باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٢) بَهْجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، للعلّامة السعدي ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) هو: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل الفارقي ثم =

يتكبَّر على العباد بعلمه ويتعاظم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للآخرة كسره علمه وخشع قلبه واستكانت نفسه وكان على نفسه بالمرصاد، لا يفتر عنها، بل يحاسبها كل وقت ويتفقدها، فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة، وبطر على المسلمين وتحامق عليهم وازدراهم، فهذا من أكبر الكبر، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[(١)].

٢ ـ الكبر بالعمل والعبادة، حيث يَعْجَبُ العابد بعبادته فيترفع بها على الناس ومخالطتهم، فيرى أنهم هالكون وهو الناجي من النار، وهو حين يتكبر على عباد الله ويرى أنهم هالكون فإنه في تلك الحالة هو الهالك في الحقيقة، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم)[(٢)].

قال الخطَّابي: «معنى هذا الكلام: أن لا يزال الرجل يعيب الناس،

= الدمشقي، شمس الدين، أبو عبد الله الذهبي، الإمام العالم العلامة، مؤرّخ الإسلام، كان حافظاً لا يجارى، فقد أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، مع ذهن يتوقد بالذكاء، وجمع الكثير، ونفع الجمَّ الغفير، وله مصنفات كثيرة مفيدة، توفي سنة ٧٤٨هـ.

انظر: نكت الهميان ص٢٤١، البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٦، الدّرر الكامنة ٣/ ٣٣٦.

(١) كتاب الكبائر للذهبي ص٨٧.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، حديث [٢٦٢٣] باب النهي عن قوله: هلك الناس. قال النووي: «روي ـ أهلكهم ـ على وجهين مشهورين، رفع الكاف وفتحها، والرفع أشهر، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في حلية الأولياء في ترجمة سفيان الثوري (فهو من أهلكهم)، قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين: الرفع أشهر ومعناها: أشدّهم هلاكاً، وأما رواية الفتح فمعناها هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم، لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزّناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه»، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٧٥.

ويذكر مساويهم ويقول: قد فسد الناس، ونحو ذلك من الكلام، يقول ﷺ: إذا فعل الرجل ذلك، فهو أهلكهم وأسوأهم حالاً مما يلحقه من الإثم في عيبهم والإزراء بهم، والوقيعة فيهم، وربما أدَّاه ذلك إلى العُجْب بنفسه فيرى أن له فضلاً عليهم، وأنه خير منهم، فيهلك»[1].

فالكبر ربما جرّ صاحبه إلى أن يحكم على غيره بعدم المغفرة لذنوبه وأنه أصغر من أن تغفر ذنوبه فهو غرق في خطاياه ورذائله، وهذا الأمر خطير جداً فربما أحبط الله ﷻ عمل ذلك المتكبر الذي حكم على غيره بالهلاك وعدم المغفرة، وغفر لذلك المسيء، فعن جندب بن عبد الله[2] ﷺ أن رسول الله ﷺ حدّث (أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله ـ تعالى ـ قال: من ذا الذي يَتَألَّى[3] عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرتُ لفلان، وأحبطت عملك) أو كما قال[4].

قال أبو حامد الغزالي: «العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكبر مستقرّاً في قلبه؛ يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر، ولكنه قطع أغصانها بالكُلّيّة.

---

(١) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٥/ ٢٦٠.

(٢) هو جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي ثم العلقي، كنيته أبو عبد الله، له صحبة، كان بالكوفة ثم صار إلى البصرة، وله عدة أحاديث، وروى عنه الحسن وابن سيرين وأبو عمران الجوني وغيرهم، وعاش إلى نحو سنة ٧٠هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٢/ ٢٢١، الطبقات الكبرى ٦/ ١٠٩، الثقات ٣/ ٥٦، الاستيعاب ١/ ٢٥٦، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٤، الإصابة ١/ ٢٦٠، تهذيب التهذيب ٢/ ١٠١.

(٣) يَتَألَّى: قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث ١/ ٦٢: «وهو من الإلِيَّة: اليمين، يقال: آلى يُولي إيلاء، وتألّى يتألى تألّياً، والاسم: الألِيَّة».

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة، حديث [٢٦٢١] باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله ـ تعالى ـ.

الثانية: أن يظهر ذلك على أفعاله بالتَّرفُّع في المجالس والتقدّم على الأقران وإظهار الإنكار على من يُقصّر في حقه، وأدنى ذلك في العالم أن يُصعّر خدّه للناس كأنه مُعْرِض عنهم، وفي العابد أن يعبّس وجهه ويقطّب جبينه كأنه مُتنزّه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تُقطَّب، ولا في الوجه حتى يُعبّس، ولا في الخدّ حتى يُصعّر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يُضم، إنما الورع في القلوب، قال رسول الله ﷺ: (التقوى ها هنا وأشار إلى صدره)[1].

الثالثة: وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات والتشمّر لغلبة الغير في العلم والعمل»[2].

٣ ـ التكبر بالحسب والنسب، فمن له نسب شريف يحتقر ويزدري من ليس له ذلك النسب، وقد يكون ذلك المحتَقَر أرفع منه علماً وعملاً، ولو كان يعلم هذا المتكبر ما فيه خيره وصلاحه لعلم أن النسب الشريف والحسب الرفيع لا يسمو إلا بالتقوى والخشية من الله المتكبر ـ جل وعلا ـ، فعن أبي نضرة[3] قال: «حدّثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب البر والصلة والآداب، حديث [٢٥٦٤] باب تحريم ظلم المسلم.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٣) هو: المنذر بن مالك بن قطعة العبدي، أبو نضرة البصري، من ثقات تابعي أهل البصرة ومن كبار علمائها، وكان من فصحاء الناس، روى عن علي بن أبي طالب وأبي هريرة وأبي سعيد وطائفة من الصحابة، قال أبو زرعة والنسائي: ثقة، وقال ابن سعد: «ثقة كثير الحديث»، توفي سنة ١٠٨هـ.

انظر: التاريخ الكبير ٧/ ٣٥٥، تاريخ الثقات ص٤٣٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٢٩.

ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أَبلَّغت؟ قالوا: بَلَّغَ رسول الله ﷺ...) الحديث[1]، وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: (انظر فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ليدعن رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفها النتن، وقال: إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم من تراب)[3].

ولقد رأى عدو الله إبليس أن في هذا النوع من الكبر مدخلاً يدخل به على كثير من الناس، فزيّن لهم كبرهم ولبّس عليهم حتى يقصروا عن العمل ويتّكلوا على أنسابهم، والنبي ﷺ حذّر من الاتكال على النسب في التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالطاعات وبيّن أن من لم ينفعه عمله فلن ينفعه نسبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه)[4]، قال ابن الجوزي: «ومن تلبيسه ـ أي إبليس ـ عليهم أن يكون لأحدهم نسب معروف فيغتر به فيقول: أنا من أولاد أبي بكر، وهذا يقول:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٤١١، وأبو نعيم في الحلية عن أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق حجة الوداع، فذكره، ٣/ ١٠٠، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٤ إلى الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه من حديث أبي سعيد وقال: «رجال البزار رجال الصحيح»، وصحَّح ابن تيمية إسناده في اقتضاء الصراط المستقيم ص١٤٤، كما صحَّحه الألباني في غاية المرام ص١٩١.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٨٤: «رجاله ثقات».

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٥٢٤، وأبو داود نحوه، كتاب الأدب، حديث [٥١١٦] باب في التفاخر بالأحساب، والترمذي نحوه، كتاب المناقب، حديث [٣٩٥٥] باب في فضل الشام واليمن، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، والبيهقي في شعب الإيمان نحوه، ٤/ ٢٨٥، ٢٨٦، وفي السنن الكبرى ١٠/ ٢٣٢، وصحّحه شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ص٧٣، ١٤٤، وأخرجه البغوي في شرح السنة بلفظ (لينتهين أقوام) ١٣/ ١٢٤، وكُلّهم بلفظ (عُبِّيّة)، وعند أحمد والبيهقي بلفظ (عَيْبَة)، قال البغوي في شرح السنة ١٣/ ١٤٢: «العُبِّيّة: الكبر والنخوة، بضم العين وكسرها».

(٤) سبق تخريجه ص١٢٠.

أنا من أولاد علي، وهذا يقول: أنا شريف من أولاد الحسن أو الحسين أو يقول: أنا قريب النسب من فلان العالم أو من فلان الزاهد، وهؤلاء يبنون أمرهم على أمرين:

أحدهما: أن يقولوا: من أحب إنساناً أحب أولاده وأهله.

والثاني: أن هؤلاء لهم شفاعة، وأحق من شفعوا فيه أهلهم وأولادهم، وكلا الأمرين غلط، أما المحبة فليس محبة الله ﷻ كمحبة الآدميين، وإنما يحب من أطاعه، فإن أهل الكتاب من أولاد يعقوب، ولم ينتفعوا بآبائهم ولو كانت محبة الأب تسري لسرى إلى البعض أيضاً.

وأما الشفاعة فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولما أراد نوح حمل ابنه في السفينة قيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ولم يشفع إبراهيم في أبيه، ولا نبينا في أمه، وقد قال ﷺ لفاطمة ؓ: (لا أغني عنكِ من الله شيئاً)[(١)]، ومن ظن أنه ينجو بنجاة أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه»[(٢)]، فهل انتفع أبو لهب وأبو طالب ـ وهما عمَّا النبي ﷺ ـ بقرابتهما منه ﷺ، مع أن أبا طالب هو الذي ربّاه صغيراً ودافع عنه عند قومه ونصره، فلم ينفعه حبه له مع عدم دخوله في الإسلام، بل إن الله ﷻ نهى نبيه ﷺ أن يستغفر له بعد موته في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][(٣)].

فهل يصح بعد هذا أن يدّعي من تكبّر بنسبه وحسبه أن هذا النسب والحسب سينفعه يوم القيامة، وأنه من أهل الفوز بشفاعة من ينتسب إليه؟.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ؓ، كتاب التفسير، حديث [٤٧٧١] باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث [٢٠٤] باب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

(٢) تلبيس إبليس ص٤٧٢ ـ ٤٧٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١١/٤١، والنسائي ١/٥٦١، والبغوي ٤/١٠٠، ومستدرك الحاكم ٢/٣٦٦.

٤ ـ الكبر بالجمال، وذلك أكثر ما يكون بين النساء، ويدعوهن ذلك الكبر إلى التَّنقُّص والثلب والغيبة، ولو أن تلك النسوة تدبَّرن في أمر خلقهن، لعلمن أن الإنسان ليس له تدخل في صنع هذا الخلق أو ذاك، بل هو بيد الخالق ـ جل وعلا ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ . . .﴾ [آل عمران: ٦] الآية، فينبغي للعاقل أن يرجع إلى رشده حين تراوده نفسه أن يتكبر أو يغتر بما أعطاه الله من حسن الخلق والجمال، وليعلم أن ذلك ابتلاء من الله ـ تعالى ـ لينظر بماذا يقابل هذا العبد تلك النعمة، أبالشكر أم بالكبر والعجب بالنفس؟.

٥ ـ الكبر بالمال، وهو أمر يجري بين الملوك والتُّجّار والناس في أملاكهم جميعها، فيحقر الغني الفقير ويزدريه ويتعالى عليه، وقد أنكر الله ـ جل وعلا ـ على من تكبر بماله على من هو دونه من الناس وذكر لنا عاقبة كبره واغتراره بماله، قال ـ تعالى ـ مخبراً عن صاحب الجنة الذي تكبر بما آتاه الله من النعمة: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٤٣]، ثم قال ـ تعالى ـ مخبراً عن سوء عاقبته: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٤٢، ٤٣]، وحين تكبَّر قارون بماله وطغى بما آتاه الله من الكنوز العظيمة، خسف الله به وبداره فلم يجد من يكون له منقذاً من أمر الله، يقول ـ تعالى ـ عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨١].

٦ ـ الكبر بالقوة وشدة البطش على أهل الضعف والمسكنة، كفرعون

الذي طغى وتكبّر بقوته وجيشه وأتباعه، فأهلكه الله تعالى.

والكبر له أسباب ينشئ عنها وينبعث منها، وبواعث مولدة له ودافعة لظهوره، ويمكن حصرها في الأمور الآتية:

أولاً: العجب بالنفس، وعليه يترتب عدم الخضوع لأحد، وتمتد هذه الرغبة في العجب بالنفس إلى أقصاها حيث التمرد على طاعة الله ﷻ، ومع هذه الرغبة يتولد الشعور بالاستغناء عن الآخرين، ثم يتولد عن هذا الشعور الطغيان والكبر، قال ـ تعالى ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧]، والفرق بين العُجب والكبر: أن الكبر يستدعي متكبَّراً عليه ومتكبَّراً به، أما العجب فلا يستدعي غير المعجب، فلو لم يُخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون مُعجباً ولا يتصور أن يكون متكبراً[(١)]، فالعُجب يورث الكبر، قال أبو حامد الغزالي: «اعلم أن الكبر خُلُق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة، وينبغي أن تُسَمَّى تكبراً، ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير، وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذي يتعلَّق بالكبر، فإذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله، أو بشيء من أسبابه استعظم نفسه وتكبّر»[(٢)].

ثانياً: الحقد على الآخرين والحسد لهم، وهو إرادة الامتياز على غيره ولو بغير حق، ومع إرادة هذا الامتياز والتفوق على الغير من كل وجه؛ يأتي الشعور الأعمى بالاستعلاء الذاتي، فهو يرى أن من حقه على المجتمع أن يمنحه هذا التفوق والامتياز على الغير، ويجب أن يعترف له بذلك، فإذا لم يحصل على تلك الرغبة الجوفاء فإنه يحقد على المجتمع ويبغض من فيه، قال أبو حامد: «وأما الحقد فإنه يحمل على التكبر من غير عجب، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه،

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين ٣/ ٢٩٦.

(٢) المرجع نفسه ٣/ ٢٠٣ ـ ٣٠٥.

فأورثه الغضب حقداً ورسخ في قلبه، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وإن كان عنده مستحقاً للتواضع»[1].

ثالثاً: الرياء، وهو رغبة المتكبر في إخفاء ما يشعر به من نقص في الذات أو العمل، فهو حريص كل الحرص أن يظهر في أعين الناس بمظهر الرفعة والسيادة، وأن لا يعرفوا نقصه ويكشفوا عيبه، قال أبو حامد: «وأما الرياء فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه، ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من أن يقول الناس: إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه: الرياء المجرد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه»[2].

فالكبر رذيلة تغشى على بصر صاحبها فتمنعه عن رؤية الحق، والمتكبر في اتّباعه للباطل يظن أنه في مكانة رفيعة ومرتبة عالية، ولكنه في الحقيقة انتفاخ هوائي من صنع الخيالات والأوهام منقطع عن المكانة الرفيعة الحقة في الاتصاف بفضائل الأخلاق والسلوك، والمتكبر يظن أن التواضع وخفض الجناح ينزل مكانته ويحطّ من قدره، وذلك من تزيين الشيطان له، فهو لو تأمل فيمن حوله من الناس لرآهم ينفرون منه ويحتقرونه ويعتبرونه ضعيف العقل فيعاملونه بنقيض قصده ومراده.

فالمسلم مأمور أن يتواضع لله وينكسر قلبه له تعالى، وأن يخفض جناح الذل والرحمة لعباد الله، وأن يُنزل نفسه لهم في غير ذلة أو مهانة لغير الله تعالى، بل عليه أن يتوسط بين الكبر والضَّعَة فلا إفراط ولا تفريط في إنزال النفس منزلتها اللائقة بها، ورحم الله عبد الله بن المبارك[3]

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) هو: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي، =

حيث قال: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل»[1].

ولابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ كلام جَيّد في الفرق بين التواضع والمهانة حيث قال: «والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خُلُق هو **«التواضع»**: وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلاً، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله، وهذا خُلُقٌ إنما يعطيه الله عَزَّ وَجَلَّ من يحبه ويكرمه ويقربه، أما **«المهانة»**: فهي الدناءة والخسّة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السُفَّل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل ذي حظ لمن يرجو نيل حظ منه، فهذا كله ضَعَة لا تواضع، والله ـ سبحانه ـ يحب التواضع ويبغض الضَّعَة والمهانة»[2].

فالكبر داء خطير لا يزول ممن ابتلي به بمجرد التَّمني والرغبة فقط، وإنما يزول بمعالجته وانتزاع جذوره من أصلها، وذلك يتحقق من خلال أمرين هما:

= أبو عبد الرحمٰن، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأحد الأتقياء في وقته، كان حافظاً، غازياً، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، وصنّف التصانيف الحسان، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة والشعر، وكان كثير الغزو والحج، قال ابن عبد البر: «أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله»، توفي سنة ١٨١هـ.

انظر: تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، وفيات الأعيان ٣/ ٣٢، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٨.

(١) التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا فقرة (٨٩) ص١٤٢.

(٢) الروح، لابن القيم ص٣١٣ ـ ٣١٤.

الأمر الأول: العلم الحقيقي بالله ـ جل وعلا ـ، وأن يعرف الإنسان نفسه القاصرة حق المعرفة، فإذا عَرف الإنسان ربه عَلِم أنه لا يليق الكبر والعظمة إلا به ـ تعالى ـ، وإذا عرف حقيقة نفسه علم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، بل كان في حيِّز العدم دهوراً طويلة، ثم خُلق من تراب تطأه الأقدام وتعلو عليه، ثم من نطفة قذرة، ثم من علقة مُنتنة، ثم من مضغة مُحتقرة، ثم خلق الله له عظاماً ثم كسى العظام لحماً، وحين خرج إلى الدنيا كان ضعيفاً غاية الضعف فلا سمع ولا بصر ولا إدراك ولا نطق ولا بطش باليد ولا مشي بالرِّجل، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ١، ٢].

فالعاقل إذا نظر في أصل خلقه ومبدأ تكوينه علم أنه لا يليق به البطر والكبر والفخر والعجب بالنفس، وأنه ضعيف بذاته؛ فهو يمرض من غير إرادته ويجوع كذلك ويعطش كذلك ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإذا تأمل في حاله رأى أن نسيانه أكثر من تذكره وجهله أكثر من علّمه، ولا يأمن في لحظة من لحظات حياته أن يُسلب سمعه وبصره وقوته بل وروحه التي بين جنبيه، وحين يموت فإنه يصير جماداً كما كان ولا يبقى إلا الشكل والصورة، وحين يوضع في التراب فإن تلك الأعضاء التي كان يترفع بها المتكبر على الناس تتحول إلى جيفة مُنتنة كما كان في أوله نُطفة مذرة، ثم تتحلل أجزاؤه وتتفتت أعضاؤه ويأكل الدود جميع بدنه إلا ما يبقى منه ليُبعث يوم الحشر والنشور، فمن كان هذا أصله ونهايته فليس له أن يتكبر ويتعالى على عباد الله من أمثاله، قال أبو العتاهية[1]:

(١) هو: إسماعيل بن القاسم بن سُويد بن كيسان العنزي بالولاء، أبو إسحاق، أحد من سار قوله وانتشر شعره وشاع ذكره، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء قديماً، ثم =

مـا بـالُ مـن أولـه نُـطـفـة وجـيـفـة آخـره يـفـخـرُ
أصبح لا يـمـلـك تـقـديـم مـا يـرجـو ولا تـأخـيـر مـا يـحـذرُ
وأصـبـح الأمـر إلـى غـيـره في كل ما يُقضى وما يُقدرُ[1]

الأمر الثاني: العلاج العملي، وهو التواضع الحقيقي لله ولعباده، والمواظبة على اتّباع أخلاق المتواضعين، فقد كان رسول الله ﷺ خير المتواضعين وسيِّدهم، فكان ﷺ لا يُحب أن يقوم الصحابة له عند رؤيته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لم يكن شخصٌ أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك»[2]، وعن أبي أمامة الباهلي[3] رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو متوكئ على عصا فقمنا إليه، فقال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يُعظِّم بعضها بعضاً)[4]، ومن تواضعه ﷺ أنه كان يُسَلِّم على الكبير والصغير، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه مَرّ على صبيان فسلّم عليهم، وقال:

= تنسّك وعدل عن ذلك إلى الشعر في الزهد وطريقة الوعظ، فأحسن القول وأجاد فيه، توفي سنة ٢١١هـ.
انظر: تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٠، الشعر والشعراء ص٥٣٨، وفيات الأعيان ١/ ٢١٩.

(١) ديوان أبي العتاهية ص١٠٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدب، حديث [٢٧٥٤] باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، وقال أبو عسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والبخاري في الأدب المفرد، حديث [٩٤٩]، والبيهقي في الشعب ٦/ ٤٦٩ بلفظ: (لم يتحركوا».

(٣) هو: صُدي بن عجلان الباهلي، أبو أمامة، من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن المكثرين في الرواية عنه، روى عن عمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهم، وروي أنه بايع تحت الشجرة، سكن الشام وتوفي بها سنة ٨٦هـ.
انظر: الكنى والأسماء ١/ ١٠٣، الاستيعاب ٤/ ١٦٠٢، الإصابة ٣/ ٢٤٠.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ٢٥٣، ونحوه ٥/ ٢٥٦، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، حديث [٥٢٣٠] باب في قيام الرجل للرجل، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، حديث [٣٨٣٦] باب دعاء رسول الله ﷺ، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٤٦٩، والخرائطي نحوه في مساوئ الأخلاق ومذمومها حديث [٥٨١].

كان النبي ﷺ يفعله[١]، وقد بلغ من تواضعه ﷺ أنه يذهب في حاجة من يحتاجه ولو كان ذلك المحتاج جاريةً صغيرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كانت الأَمَةُ من إِمَاء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»[٢].

ويعتبر التواضع شعار الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء والصالحين، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع ملازمته للنبي ﷺ، وتصديقه له منذ بداية دعوته، ومرافقته في الهجرة، ومصاهرته له ﷺ، وإطلاق النبي ﷺ اسم «الصدّيق» عليه، مع ذلك كله لم يدخل العجبُ نفسه، ولم يتكبَّر على الناس حين أخبر النبي ﷺ أن إيمانه يعدل إيمان الأمة، بل كان يقول رضي الله عنه: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن»[٣]، ويقول: «وددت أني خُضْرة يأكلني الدواب»[٤]، وهذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يغترّ بتسمية النبي ﷺ له بالفاروق، ولم يعجب بمواقفه المضيئة وفتوحاته وبطولاته العظيمة في الإسلام وفرار الشيطان منه، فقد كان رضي الله عنه يخاطب نفسه محذِّراً لها من عذاب الله ويقول: «عمر أمير المؤمنين، بخ بخ، والله يابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنّك»[٥]، وكان يقول عند وفاته: «وددت أن ذلك كفافاً لا عليّ ولا لي»[٦].

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه ينام في المسجد وعليه ملحفة وهو أمير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، حديث [٦٢٤٧] باب التسليم على الصبيان، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، حديث [٢١٦٨] باب استحباب السلام على الصبيان.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، حديث [٦٠٧٢] باب الكبر.

(٣) الزهد، للإمام أحمد ص١٣٥.

(٤) المرجع نفسه ص١٣٩.

(٥) المرجع نفسه ص١٥٤، وحلية الأولياء ١/ ٥٢.

(٦) أخرجه البخاري مُطوَّلاً من حديث عمرو بن ميمون، كتاب فضائل الصحابة، حديث [٣٧٠٠] باب قصة البيعة، والإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٢.

المؤمنين، فعن الهمداني قال: «رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين»[1]، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحمل التمر في ملحفة، فيقال له: نحمل عنك يا أمير المؤمنين فيقول: «لا، أبو العيال أحق أن يحمل»[2].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يأكل حتى يؤتى له بمسكين يأكل معه، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يشتغل بيديه وهو أمير المؤمنين، فقد أتاه ليلة ضيف وكان يكتب، فكان السِّراج يطفأ، فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه، فقال عمر: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبِه الغلام، فقال: هي أول نومة نامها، فقام وأخذ البطَّة وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت يا أمير المؤمنين، فقال: «ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً»[3].

وكان نبي الله سليمان عليه السلام يجيء إلى أوضع مجالس بني إسرائيل فيجلس معهم فيقول: «مسكين بين ظهراني مساكين»[4].

فإذا تقرر هذان الأمران في نفس الإنسان «العلاج العلمي والعملي» فحينئذٍ عليه أن يركّز علاجه على الداء الذي أصابه ونوع الكبر الذي داخل نفسه، فلكل نوع من الكبر علاج يناسب حاله ويزيل أسبابه، وعلاج أنواع الكبر في الأمور الآتية:

١ ـ من كان كبره بالعلم، فليعلم أن الكبر بالعمل من أعظم أمراض الكبر، فهو عظيم عند الله وعند الناس، وعلاجه أن يعرف الإنسان المتكبر بعلمه أن من عصى عن علم ودراية فمعصيته أشد وأقبح وأفحش جناية ممن

(١) الزهد للإمام أحمد ص١٥٨، وحلية الأولياء عن الحسن ١/ ٦٠.
(٢) الزهد لأحمد ص١٦٦، وإحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٦.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٦، والزهد لأحمد ص٣٥٧، وسيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص٢٠٣.
(٤) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا فقرة (١٠٣) ص١٤٨، وبهجة المجالس ٢/ ٤٤٦.

عصى بدون علم، فمن يعلّم الناس العلم وفي مقدمته الأخلاق والفضائل، ثم يتكبر عليهم، فقد عَلِم وعلّم علماً لا يعمل به، وقد نعى الله ﷻ على الذين يأمرون الناس بالخير ولا يمتثلون به، فقال ـ تعالى ـ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤]، وقد أنكر الله ﷻ على من لم يطابق قولَه فعلُه، وشبّه الذي يعلم ولا يعمل بما علّم بالحمار الذي يحمل على ظهره كتباً تزخر بالعلوم والمعارف وهو لا يستفيد من علمها شيئاً، قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ [الجمعة: ٥]، وقد حذَّر النبي ﷺ من مخالفة عمل الإنسان لقوله في أمره ونهيه، وبيّن سوء عاقبة ذلك يوم القيامة، فعن أسامة بن زيد[(١)] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتابه[(٢)] في النار، فيدور كما يدور الحمار برَحَاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه)[(٣)]، فكلما تفكَّر المتكبر في خطر العاقبة وسوء المصير، انكسرت نفسه وظهر خوفه وخشيته من الله تعالى.

---

(١) هو: أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، حِبّ رسول الله ﷺ وابن حبِّه، ولد بمكة ونشأ حتى أدرك ولم يعرف إلا الإسلام ولم يَدِنْ بغيره، وهاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان أسامة عند رسول الله ﷺ كبعض أهله لحبِّه له، وهو ابن حاضنة النبي ﷺ: أم أيمن، وقد استعمله النبي ﷺ على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عمر وكبار الصحابة، توفي سنة ٥٤هـ.
انظر: الاستيعاب ١/ ٧٥، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٩٦، الإصابة ١/ ٢٩.

(٢) الأقتاب: هي الأمعاء، الصحاح مادة «قتب» ١/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث [٣٢٦٧] باب صفة النار وأنها مخلوقة، وأخرجه مسلم في الزهد، وحديث [٢٩٨٩] باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله.

قال أبو حامد الغزالي: «فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره، فهذا بذاك، وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أُخذ وقُهر اشتهى أن يكون قد كان فقيراً، فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال، والعياذ بالله منه»[1].

٢ ـ وأما علاج كبر العمل والعبادة، فبطبع النفس على التواضع للناس جميعاً، فإذا كان الله ﷻ رضي أن يُسمِّي خلقه عباداً في مواضع كثيرة من كتابه العزيز، أفلا يرضى العبد أن يكون العبد المسلم أخاً له فيتواضع ويلين جانبه له، فالمتكبر بعبادته وعمله لا يستطيع أن يجزم أن ذنوبه أقل من ذنوب من تكبر عليه، بل قد يكون المتكبر أكثر ذنوباً ممن تكبر عليه، وكفى بالكبر ذنباً، إذ إن الذنوب لا تنحصر فيما يصدر من الجوارح، بل إن هناك ذنوباً وآثاماً يتحملها الإنسان لما يحمل في صدره من الحسد والحقد والكبر والرياء واعتقاد الباطل في صفات الله ـ تعالى ـ إلى غير ذلك من أعمال القلوب التي يؤاخذ بها العبد ويحاسب عليها، فربما حمل المتكبر في باطنه من خفايا الذنوب ما صار به ممقوتاً عند الله، وربما جرى للفاسق الظاهر فسقه من طاعات القلوب كحب الله وتعظيمه فكُفِّر بذلك سيئاته فصار فوق ذاك المتكبر يوم القيامة، قال وهب بن منبّه[2]: «ما عُبد الله ﷻ بشيء أفضل من العقل، وما يتم عقل امرئ حتى تكون فيه عشر خصال»، فعدّ تسعة منها، حتى بلغ العاشرة، فقال: «والعاشرة: هي ملاك أمره بها ينال مجده وبها يعلو ذكره وبها عُلاه في الدرجات في الدارين كليهما، قيل: وما هي؟ قال: أن يرى أن جميع الناس بين خير منه وأفضل، وآخر شر منه

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣١٣.

(٢) هو: وهب بن منبّه بن كامل بن سيج بن ذي كبار اليماني الذماري الصنعاني، أبو عبد الله، تابعي جليل، ثقة، صدوق، كثير النقل من الإسرائيليات، وصاحب الأخبار والقصص، يُروى عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، توفي سنة ١١٠هـ.
انظر: حلية الأولياء ٤/ ٢٣، وفيات الأعيان ٦/ ٣٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٤٤.

وأرذل، فإذا رأى الذي هو خير منه وأفضل كسره ذلك وتمنى أن يلحقه، وإذا رأى الذي هو شر منه وأرذل قال: لعل هذا ينجو وأهلك، ولعل لهذا باطناً لم يظهر لي، وذلك خير له، ويرى ظاهره لعل ذلك شر لي، فهناك يكمل عقله، وساد أهل زمانه، وكان من السبّاق إلى رحمة الله ﷻ وجنته إن شاء الله ـ تعالى ـ»[1].

٣ ـ وأما علاج من تكبر بحسبه ونسبه، فعليه أن يُدرك أنه تعزّز وافتخر بكمال غيره ومجد لا يُنسب إليه، والأصل أن يفخر الإنسان ـ إن حقَّ له أن يفخر ـ بمجده وكماله في العلم والعمل بما يُرضي الله ـ تعالى ـ، وأكثر ما يدَّعيه من تكبر بنسبه أن في نسبه من هو ذو شرف وفضل، فلو حضر ذلك الشريف وقال لهذا المتكبر: إن ما تدَّعيه من شرف ورفعة هو لي دونك فما الذي عندك الآن منه؟ لكان ذلك الكلام انقطاعاً لكبره وإفحاماً له، ويحكي عن مملوك أنه افتخر عليه بعض رؤساء زمانه، فقال له المملوك: «إن افتخرت عليَّ بفرسك فالحُسن والفراهة للفرس لا لك، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالحُسن لها دونك، وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم دونك»[2]، ثم ليعلم من تكبر بآبائه وأجداده أن الفخر إنما هو برفع الدرجات وحط السيئات ودخول الجنة التي أعدها الله ـ تعالى ـ للمتقين، فهذا هو الفوز والفخر الحقيقي كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وليتأمل المتكبر بنسبه في حال من تكبر به فإنه صار تراباً، وهذا المتكبر هو إلى التراب أقرب منه إلى من تكبر به، فعليه أن يرجع إلى رشده وليتيقن أنه لن ينفعه ذلك النسب يوم القيامة كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ

(١) حلية الأولياء ٤/٤١، وإحياء علوم الدين ٣/٣١٦.
(٢) تهذيب الأخلاق، لابن مسكويه ص١٦٣.

وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧]، ولقد أعلن الرسول الكريم ﷺ تلك الحقيقة بين عشيرته وبني عمومته وأهل بيته، كي لا يفخر أحد بنسبه فيتَّكل عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: (يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب[(١)] لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً)[(٢)]، «إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختصّ بها ذلك المنهج الرباني الكريم، إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة»[(٣)]، ولكنها وشيجة العقيدة والإيمان بهذا الدين القويم.

٤ ـ وعلاج التكبر بالجمال أن ينظر المتكبر في باطن نفسه ويتأمل حقيقة ما يحمله في بدنه، ولا يجعل همّه النظر إلى الظاهر فقط، فإنه إذا

---

(١) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي، عم رسول الله ﷺ، حضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، ثم أسلم وكتم قومه ذلك، وهاجر قبل الفتح، وشهد الفتح، وثبت يوم حنين، وقد كان رسول الله ﷺ يجلّه ويعظمه وينزله منزلة الوالد من الولد، وكان ذا رأي وعقل تام، توفي سنة ٣٢هـ.

انظر: الاستيعاب ٢/ ٨١٠، سير أعلام النبلاء ٢/ ٧٨، الإصابة ٤/ ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، حديث [٤٧٧١] باب ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٦.

نظر في باطنه علم أنه يحمل قبائح كثيرة تكدِّر عليه فخره بجماله، فالقبائح والنجاسات محاطة بجميع بدنه، فهو يحمل رجيع طعامه في أمعائه، والبول في مثانته والمخاط في أنفه والوسخ في أذنيه والدم شريان حياته، ولو أهمل تنظيف بدنه لخرجت منه الروائح الكريهة والنتنة وصار كالبهيمة المهملة، فإذا نظر في نفسه وحاله مع بدنه وكيفية معاملته له بمداومة النظافة وإزالة النجاسة، كان ذلك أحرى أن لا يتكبر بما أعطاه الله من حسن المظهر، وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مُظهر الكبر إعجاباً بصورته ... انظر خَلَاك فإن النَّتْنَ تثريبُ
لو فكَّر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبرَ شُبَّانٌ ولا شِيبُ
هل في ابن آدم مثل الرأس مَكْرَمة ... وهو بخمْس من الأقذار مَضرُوبُ
أنف يَسيل وأذن ريحها سَهِكٌ[1] ... والعينُ مرفضة والثغر ملعوبُ
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر فإنك مأكولٌ ومشروبُ[2]

ثم إن المتكبر بجماله لا يأمن أن يُسلب منه جماله فيُسلط عليه من الأمراض ما يحوِّله إلى قبيح مستكره تشمئز منه النفوس وتنصرف عنه الأنظار، فكم من وجوه حسنة صارت وجوها سامجة قبيحة بسبب داء سلُط عليها فسلخ جمالها، فالكيّس يعلم أن ما أعطاه الله من حسن وجمال إنما هو ابتلاء منه - جل وعلا - يبتلي به عبده ينظر أيشكر أم يكفر، فإذا استشعر الإنسان تلك الأمور وتعاطى هذا العلاج فحينئذٍ يكون إلى التواضع أقرب منه إلى الكبر.

٥ - وأما التكبر بالمال والغنى فعلاجه أن يتأمَّل المتكبر في هذا المال الذي يتكبر به على العباد فربما احترق المال أو كسدت التجارة أو ماتت الدواب... إلخ فهل يبقى الكبر في نفسه؟ لا بل يعود ذليلاً كسيراً، وحينئذٍ يَصْغُرُ عند الناس ويُحتقر.

---

(١) السهك: ريح كريهة تجدها من الإنسان إذا عَرِق، تقول: إنه لسهك الريح، لسان العرب ١٠/ ٤٤٥ مادة «سهك».

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص٢٣٣.

والمتكبر بماله لو فكر لرأى أن كثيراً من أهل الضلال والفساد من يزيد عليه في ماله بكثير، فكيف له أن يتكبر بما يسبقه فيه الضالون وأهل الشقوة؟!.

٦ ـ وأما من تكبر بقوّته وسلطانه فليتذكّر ما سلط عليه مما هو دونه بكثير، فلو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه، ولو أرسل عليه أضعف خلقه فدخل في أذنه أو منخره لعجز عن إخراجه، فحينما تكبر نمرود بن كوش بن نعمان بقوّته في زمن إبراهيم عليه السلام، سلّط الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يُضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بهما رأسه، وكان جبَّاراً أربعمائة سنة، فعذَّبه الله بقدر تلك السنوات التي تكبر وتجبّر فيها ثم أماته الله ـ تعالى ـ[1]، فمن لا يطيق أن يقاوم حشرة صغيرة في أنفه أو أذنه فكيف يظهر التكبر بقوته؟.

وليعلم المتكبر بقوَّته أن مقياس الفضل والمجد ليس بالقوة، وإنما بالأخلاق والفضائل الحميدة، ولو كانت العبرة بالقوة لكان للبهائم النصيب الأكبر في ذلك.

وبعد فإن التواضع زينة العقلاء وحيلة الفضلاء وتاج الصالحين والعلماء، فالمسلم مأمور أن يتحلَّى به ويطبع نفسه على الاتصاف به، وبذلك يسدّ على عدوه الشيطان باباً طالما حرص ولا زال يحرص أن ينفذ منه ليجرّ الإنسان معه إلى هاويته السحيقة التي انحدر إليها بسبب كبره واستعلائه على ربه تعالى.

---

(١) انظر: قصته في تاريخ الطبري ١/ ١٧٢ وما بعدها، وكتاب العظمة لأبي الشيخ ص٤٣٢ ـ ٤٣٣ والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٣٩ وما بعدها.

المبحث الثاني

تكريم بني آدم

إن من فضل الله ـ تبارك وتعالى ـ على آدم وذريته أن ميَّزه وكرَّمه على سائر خلقه؛ فخلقه ـ جل وعلا ـ بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، فهي أربع تشريفات لعبده آدم وذريته ذكرها ـ تعالى ـ في كتابه الكريم، فقال ـ تعالى ـ ذكره: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . .﴾ الآية [البقرة: ٣١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٥]، وقد جاء ذكر هذه التشريفات لآدم عليه السلام في حديث الشفاعة الذي يرويه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجمع الله المؤمنين يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، فينطلقون حتى يأتون آدم عليه السلام فيقولون: يا آدم أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من هذا، فيقول: إني لست هُنَاكم، ويذكر خطيئته التي أصاب من أكل الشجرة. . .) الحديث[1].

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، حديث [١١٤٣٣] سورة الصافات، ونحوه في سورة هود حديث [١١٢٤٣] وأخرج نحوه في تفسيره، حديث [٤] سورة البقرة، وأخرجه البخاري في صحيحه دون قوله: (ونفخ فيك من روحه) كتاب التوحيد، حديث [٧٤١٠] باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ وحديث [٧٤٤٠] =

فهذا التكريم وذلك التخصيص من الله ـ تعالى ـ لعبده آدم عليه السلام دون غيره من خلقه بتلك التشريفات التي رفعت منزلته وأعلت مكانته وعظَّمت قدره عند سائر المخلوقات، كل ذلك كان سبباً رئيساً في إثارة نار الحقد والحسد في نفس عدو الله إبليس على آدم وذريته من بعده، فأعلن عداوته لهذا المخلوق المُكَرَّم، حيث قطع على نفسه عهداً أن يُهين هذا الإنسان وأن ينزل مكانته السَّامية ويحط من قدره، وذلك بدعوته إلى كل فاحش ومنكر من القول والفعل، وتزيين كل باطل وقبيح، فيجعله تابعاً له في الدنيا بفعل الفواحش وانتهاك النواهي وعدم امتثال الأوامر وفعل الواجبات، وفي الآخرة بمرافقته له في النار، والحرمان من الجنة التي أعدّها الله لآدم وذريته، ولقد صرَّح إبليس بهذا السبب الذي أثار نار الحقد والعداوة في نفسه على آدم وذريته لا سيما تكريمه بسجود الملائكة له، وأخذ عدو الله يتوعد بني آدم باستمالتهم إلى المعاصي والاستيلاء عليهم بفعل كل ما هو محرم وقبيح، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]، قال ابن تيمية: «قوله قَصصاً عن إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، فإن هذا نص في تكريم آدم على إبليس إذ أُمر بالسجود له»[2].

إن إبليس يسعى إلى تحطيم الإنسان الذي كرّمه الله وأعلى مكانته بكل ما يستطيع من وسائل الإغواء والإضلال والتزيين، فهو يقول: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ

= باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ وحديث [٧٥١٦] باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ونحوه في كتاب الرقاق حديث [٦٥٦٥] باب صفة الجنة والنار، وأخرج مسلم نحوه، كتاب الإيمان، حديث [١٩٣] باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(١) لأحتنكن: أي لأستولين عليهم ولأستأصلنَّهم ولأستميلنَّهم، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم أو غير ذلك، تفسير الطبري ١٥/١١٦.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٦٥.

ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ويقول في آية أخرى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، ويقول: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ويقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، ولقد أمدَّ الله هذا العدو في حبل الغرور، وخلّى بينه وبين ذرية آدم، فهو يلقاهم بكل ما معه من خيل ورَجل وحيلة وحول ووسائل فساد وهلاك لبني آدم، إلا من اعتصم بالله والتجأ به، فهو في حفظ الله ورعايته وليس لإبليس عليه سلطان كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥]، وقد ظهر حسد إبليس لآدم عليه السلام حين أُمر الملائكة بالسجود لآدم، مع أن السجود لم يكن سجود عبادة، وقد نقل ابن العربي والقرطبي والرازي اتفاق المسلمين على ذلك(١)، إلا أنهم اختلفوا في كيفية هذا السجود على أقوال هي فيما يأتي:

القول الأول: إن السجود كان لله ـ تعالى ـ، وآدم عليه السلام كان كالقبلة، قاله الشعبي وإبراهيم المزني(٢)، وقد قوّى ابن العربي هذا القول لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] حيث قال: «ولم يكن ـ أي السجود ـ على معنى التعظيم، وإنما صدر على وجه الإلزام للعبادة واتخاذه قبلة»(٣).

القول الثاني: وقال قوم: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مُبْقًى على أصل اللغة وهو التذلّل والخضوع والانقياد، أي: اخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل.

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٧، وتفسير القرطبي ١/ ٢٩٣، والتفسير الكبير للرازي ٢/ ٢١٢.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٠٢ وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٥٢.

(٣) أحكام القرآن، لابن العربي ١/ ٢٧.

القول الثالث: إن السجود كان طاعة لله ـ تعالى ـ، وتكريماً لآدم وتعظيماً وتحية له وإظهاراً لفضله، وهذا هو المفهوم من قوله ـ تعالى ـ لملائكته: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وهو المصرَّح به في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ . . .﴾ الآية [الإسراء: ٦٢] فهو سجود حقيقي لله ـ تعالى ـ طاعةً وعبادةً، وتكريماً لآدم وتعظيماً لقدره، وقد ذهب إلى هذا كثير من أئمة التفسير والعلماء، فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أمرهم أن يسجدوا له كرامة من الله أكرم بها آدم»[1]، وقال قتادة: «فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته»[2]، وقال أبو جعفر الطبري: «وكان سجود الملائكة لآدم تكرمةً لآدم وطاعة لله لا عبادةً لآدم»[3].

ويرى البيهقي رحمه الله أن السجود لآدم هو في حقيقته سجود تعظيم لله ـ تعالى ـ على خلقه آدم حيث قال: «ومعلوم أن ابن آدم إنما أمر بالسجود لله عز وجل لا لغيره، فدلّ ذلك على أن السجود الذي أُمر به الشيطان من جنس ما أمر به ابن آدم؛ وهو السجود لله عز وجل، ولكن عند خلق آدم إعظاماً لقدرة الله عز وجل الذي أظهرها لهم بخلقه إياه»[4].

ومما كرّم الله عز وجل به آدم عليه السلام أن علّمه أسماء الأشياء، وللعلماء في هذه الأسماء التي علمها الله عبده آدم عليه السلام قولان هما:

القول الأول: إن الله علّمه كل الأسماء، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن وقتادة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس، إنسان ودابَّة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[5]، وعن

---

(١) الدر المنثور ١/ ١٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٢٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ١٨٠.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٢١٥، وابن كثير ١/ ٧٤، والدّر المنثور ١/ ١٠١، وانظر: تفسير ابن عطية ١/ ٢٣٤.

مجاهد أنه قال: «علّمه الغراب والحمامة واسم كل شيء»[١]، وعن سعيد بن جبير قال: «علّمه اسم كل شيء حتى البعير والبقرة والشاة»[٢]، وعن الحسن وقتادة قالا: «علّمه اسم كل شيء، هذه الخيل، وهذه البغال، والإبل، والجن والوحش، وجعل يسمّي كل شيء باسمه»[٣].

القول الثاني: إن الله ـ تعالى ـ علّم آدم أسماءً معدودة لمسَمَّيات مخصوصة، وهذه المسمَّيات هي:

أ ـ أنه علّمه أسماء الملائكة، وهو قول أبي العالية[٤].

ب ـ أنه علّمه أسماء الأجناس دون أنواعها، كقولك: إنسان ومَلَك وجني وطائر، وهذا قول عكرمة[٥].

جـ ـ أنه علّمه أسماء ما خلق من الأرض؛ من الدواب والهوام والطير، قاله الكلبي[٦] ومقاتل[٧] وابن قتيبة[٨].

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢١٥.

(٢) المرجع نفسه، والدر المنثور ١/ ١٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٢١٦.

(٤) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٦٣.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) هو: محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النّضر الكوفي، صاحب التفسير والأخبار والأنساب، يروي عنه الثوري ومحمد بن إسحاق، قال ابن عدي: «حدّث عن الكلبي وابن عيينة وحمَّاد بن سلمة وإسماعيل بن عياش وهُشَيم وغيرهم من ثقات الناس ورضوه بالتفسير، وأما في الحديث فخاصة إذا روى عن أبي صالح عن ابن عباس ففيه مناكير»، توفي سنة ١٤٦هـ.
انظر: الكامل لابن عدي ٦/ ١١٤، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٩، ميزان الاعتدال ٣/ ٥٥٦.

(٧) هو: مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي، كبير المفسرين، يروي عن مجاهد والضحاك وعطاء وغيرهم، قال ابن المبارك: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة»، وكان من أعلم الناس بتفسير القرآن، ورُوي عن الشافعي ﷺ أنه قال: «الناس عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير»، توفي سنة نيف وخمسين ومائة من الهجرة.
انظر: الكامل لابن عدي ٦/ ٤٣٥، وفيات الأعيان ٥/ ٢٥٥، ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٣.

(٨) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٦٣.

د - أنه علّمه أسماء ذريته، فقد أخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: «أسماء ذريته أجمعين»[1].

ورجّح ابن جرير أنه - تعالى - عَلّم آدم أسماء ذريته وأسماء الملائكة، دون أسماء سائر أجناس الخلق[2].

والذي يظهر من الآية أن الله - تعالى - علّم آدم عليه السلام أسماء كل شيء من المسمَّيات دون تخصيص شيء دون شيء، فالله - تعالى - أكَّد هذا العموم بقوله (كلها) وهو تأكيد يفيد شمول جميع أسماء الأشياء، ويشهد لهذا العموم ما تقدم في حديث الشفاعة الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حيث جاء فيه: (وعلّمك أسماء كل شيء)[3]، قال القرطبي بعد أن ذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما في تعليم آدم أسماء كل شيء: «وهذا الذي يقتضيه لفظ (كلها) إذ هو اسم موضوع للإحاطة والعموم»[4]، ولا ريب أن آدم عليه السلام علم أسماء الأشياء ومسمّياتها، حيث إن معرفة الشيء لا تتم إلا بمعرفة اسمه وذاته، فالله - تعالى - أخبر آدم بأسماء الأشياء وذواتها التي تطلق عليها تلك الأسماء، يقول الراغب الأصفهاني: «﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾، أي: الألفاظ والمعاني مفرداتها ومُركباتها، وبيان ذلك أن الاسم يستعمل على ضربين، أحدهما: بحسب الوضع الاصطلاحي وذلك هو في المُخْبَر عنه نحو رَجُلٍ وفَرَسٍ، والثاني: بحسب الوضع الأَوَّليّ ويقال ذلك للأنواع الثلاثة: المُخْبَر عنه والرابط بينهما المسمّى بالحرف، وهذا هو المراد بالآية؛ لأن آدم عليه السلام كما عَلِم الاسم علم الفعل والحرف، ولا يعرف الإنسان الاسم فيكون عارفاً لمسَمّاه إذا عُرِضَ عليه المُسمّى، إلا إذا عرف ذاته»[5]، وقال البهي

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢١٦.

(٢) انظر: المرجع نفسه.

(٣) سبق تخريجه ص١٩٧.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٢٨٢.

(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن ص٢٥٠.

الخولي: «أي علّمه حقائق مسمياتها وما لها من خصوصيات المنافع والمضار، فإن اسم الشيء يقترن دائماً في الذهن بحالة من صورة ولون وأجزاء، وبحالة من سائر المقومات والمزايا الحسيّة والمعنوية، وما جدوى الاسم إذا لم يكن دالاً على ما وراءه من مقومات الذّات وخصائص الجواهر والعناصر؟»(١).

لقد خصّ الله ﷻ الإنسان بخصوصيات كبيرة وعظيمة، حيث خصّه بإنزال الكتب وإرسال الرسل بالهداية والتشريع وجعل له الاختيار في شَقِّ طريقه إما إلى الهداية أو الضلال، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣]، «إنه التكريم في أعلى صُوَرِه، لهذا المخلوق الذي يُفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكنه وُهِبَ من الأسرار ما يرفعه على الملائكة، لقد وُهِبَ سِرَّ المعرفة، كما وُهِبَ سِرَّ الإرادة المستقلة التي تختار الطريق، إنَّ ازدواج طبيعته وقُدرته على تحكيم إرادته في شَقِّ طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه»(٢)، وحين كرّم الله ﷻ هذا الإنسان بسجود الملائكة له، كرّمه أيضاً بأن أعلن هذا التكريم في كتابه الكريم في مواضع عديدة، وفي تكريم الله ـ تعالى ـ لآدم بأن خلقه بيده تكريمٌ آخر، وهو أن الله ﷻ نسب خلقه إلى ذاته ـ تبارك وتعالى ـ وذلك في موضع واحد في القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ . . .﴾ الآية [ص: ٧٥]، في حين أن كل المخلوقات أخبر ـ تعالى ـ عن خلقها بصيغ أخرى مثل: فطرها وسواها. . . إلخ، وما ذاك إلا عناية من الله ـ تعالى ـ بهذا المخلوق، إذْ تولى خلقه بيديه ـ جلا وعلا ـ دون واسطة، قال الشوكاني في معنى الآية: «أي ما صرفك وصدّك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة، وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له

---

(١) آدم ﷺ ص١٠٨.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٧.

وتشريفاً»[1]، وفي هذا التكريم لهذا المخلوق بيان بأن هذا الإنسان مخلوق ابتداءً دون أن يكون متطوراً أو متحولاً عن غيره من المخلوقات كما يزعم بعض الملحدين.

ومن مظاهر تكريم الله ـ تعالى ـ لآدم في أطوار خلقه وتكوينه أن نفخ فيه من روحه، وأخبر ـ تعالى ـ عن هذا التكريم بأسلوب يدل على غاية التكريم والتشريف لهذا المخلوق، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ . . .﴾ الآية [السجدة: ٩]، وهذا الأسلوب الذي ذكره الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يعبّر به في بيان خلقِ كائنٍ آخر من المخلوقات، فأفاد أن هذا النفخ مخصوص بالإنسان تكريماً له، يقول الأستاذ البهي الخولي: «ومن الملاحظ أن الله ـ سبحانه ـ لم يقل في الملائكة أو الجن: إنه نفخ فيهم من روحه، ولم يقل في الجنّ ولا في الملائكة إنه جاعلهم خلفاء في الأرض بل خصَّ الإنسان وحده بذلك، فمن خلال الارتباط الوثيق بين خصوصية الروح وخصوصية الخلافة تنقدح العلة الصحيحة، ويسوغ لنا أن نقول ـ بناء على ذلك ـ إن الروح هو «الملكة العليا» أو الجهاز الإلهي ـ ولله المثل الأعلى ـ الذي جهز به الإنسان ليحقق به الخصائص الروحية الأساسية لمقومات تلك الخلافة»[2]، فنفخ الروح في الإنسان هو ارتقاء بهذا المخلوق إلى معالي القيم والأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها في حياته، ويتحلى بسموها في معاملته مع بني جنسه، ويسلك من خلالها الطريق إلى جنة النعيم، فيكون ممن قال فيهم ـ جل ثناؤه ـ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ . . .﴾ الآية.

ولقد كرّم الله ـ جل وعلا ـ الإنسان بالعلم وخصّه به دون غيره من المخلوقات، وقد جاء ذكر هذا التكريم في أول سورة نزلت على النبي ﷺ

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٤٥.

(٢) كتاب آدم عليه السلام ص٤٨.

ـ على أرجح الأقوال ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، قال ابن كثير: «فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهنّ أول رحمة رحم الله بها العباد وأول نعمة أنعم الله بها عليهم[(١)]، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن مِنْ كَرَمِهِ ـ تعالى ـ أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣ ـ ٥]، وفي الأثر (قيِّدوا العلم بالكتابة)[(٢)]»[(٣)].

وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى تكريم الإنسان بفضيلة العلم في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وقد فسَّر أبو السعود[(٤)] المراد بالبيان في الآية

(١) يعني ﷺ أول رحمة ونعمة لهذه الأمة المحمَّدية، وإلا فإن رحمة الله ونعمه على العباد منذ أوجدهم.

(٢) أخرجه الدارمي من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١/١٣٨، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٨٨ من قول عمر بن الخطاب وأنس بن مالك رضي الله عنهما، وصحَّح الروايتين عنهما، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٥٢ عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وذكره عن أنس رضي الله عنه وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٥٢٩.

(٤) هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود، من علماء الترك المستعربين، كان فقيهاً، مفسراً، شاعراً عارفاً باللغات العربية والفارسية والتركية، وقرأ على والده كثيراً، وتنقَّل في المدارس في بلاد متعددة، وتقلَّد القضاء في بروسة ثم القسطنطينية فالروم إيلي، وأضيف إليه الإفتاء، وكان حاضر الذهن، سريع البديهة، مهيباً، توفي بالقسطنطينية سنة ٩٨٢هـ.
انظر: الأعلام ٧/٥٩، معجم المؤلفين ١١/٣٠١.

بقوله: «والبيان هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن»[1]، فالعلم نعمة عظيمة من الله ﷻ للإنسان امتنّ بها عليه، فبالعلم يَعرِفُ شرع الله ومراده منه وعاقبته ومصيره، وبالعلم تتقدم الثقافات ويتصل ماضيها بحاضرها عن طريق كتابة العلوم وحفظها، يقول المراغي: «ولمّا كان الإنسان مدنياً بطبعه لا يعيش إلا مجتمعاً بسواه كان لا بد له من لغة يتفاهم بها مع ما سواه من أبناء جنسه ويكتب إليه في الأقطار النائية، والبلاد النازحة، ويحفظ علوم السلف، لينتفع بها الخلف، ويزيد فيها اللاحق على ما فعل السابق، وهذه مِنّةٌ روحية كبرى لا تعدلها منّة أخرى في هذه الحياة، ومن ثم قدَّمها على النِّعم الأخرى الآتية»[2].

إن الإنسان يُعتبر المحور في هذا الكون حيث سخر الله ﷻ له ما في السماوات والأرض، فهو مع ضعفه يتصرف في المخلوقات القويّة ويُسخرها لخدمته ومنفعته ويُطوّعها كيف شاء، فالدَّواب مع ضخامتها وقوّتها جعلها الله ﷻ مذلّلة لهذا الإنسان ليستفيد منها في الركوب والأكل والشرب وحمل المتاع ونحوه، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٥ ـ ٨]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣]، كما أن الله ﷻ سخّر للإنسان السفن في البحر لتنقله من مكان إلى آخر، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ...﴾ الآية [إبراهيم: ٣٢]،

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٦٦٠.

(٢) تفسير المراغي ٢٧/١٠٦.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١]، ويتّسع مفهوم وسائل النقل التي سخرها الله ﷻ في زماننا هذا لتشمل جميع المواصلات التي أرشد الله ﷻ الإنسان لصنعها من طائرات وسيارات وقاطرات وبواخر متطوِّرة وغيرها من الوسائل الحديثة، التي ألهم الله الإنسان لتركيبها وتهيئتها للركوب والانتقال.

ولقد كرّم الله الإنسان بما رزقه من الطيبات من الزروع والثمار من الخضار والفاكهة المختلفة الألوان والمذاق، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]، قال ابن عطية في معنى هذه الآية: «وفي هذه الآية عَدَّد اللهُ ـ تعالى ـ فيها على بني آدم ما خصّهم به من دون سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة منهم خارجون على الكثير المفضول، وحملهم في البر والبحر مما لا يصلح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره في البر والبحر جميعاً، والرزق من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المُركَّبات من الأطعمة، وغاية كل حيوان أن يأكل لحماً نيئاً أو طعاماً غير مُركَّب»(١).

وكرم الله ـ تعالى ـ آدم وذريته بأن خلقهم على أحسن هيئة وقوام وجعل الآدمي يمشي منتصباً على رجليه ويأكل بيديه، وغيره من المخلوقات يمشي على أربع ويأكل بفمه مباشرة، وكرّمه ـ تعالى ـ بما أودع فيه من الاستعدادات الفطرية من العقل والفؤاد ما يميز به ويعمل ويفكر وينتج ويركّب ويسمو إلى بلوغ كماله في الدنيا والآخرة.

ولقد اختلف المفسرون فيما فُضِّل به بنو آدم على غيرهم:

١ ـ فرُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: هو أنهم يأكلون بالأيدي وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض، وروي عنه أنهم فُضّلوا بالعقل.

---

(١) تفسير ابن عطية ٩/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

٢ ـ وقال الضحاك: كرَّمهم بالنطق والتمييز.

٣ ـ وقال عطاء[(١)]: بتعديل القامة وامتدادها، والدوابّ مُنكبّة على وجوهها.

٤ ـ وقال محمد بن كعب[(٢)]: بأن جعل محمداً ﷺ منهم.

٥ ـ وقال الماوردي[(٣)] كرمهم بالأمر والنهي[(٤)].

٦ ـ وقال ابن جرير الطبري: «بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم»[(٥)].

٧ ـ ويرى ابن عطية والقرطبي والراغب أن تفضيل بني آدم على غيرهم إنما هو بالعقل دون غيره، قال ابن عطية بعد أن ذكر بعض الأقوال في تكريم بني آدم على غيرهم: «وهذا كله غيرُ محذق، وذلك أن للحيوانات من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة

---

(١) هو: عطاء بن أبي رباح أسلم القرشي مولاهم أبو محمد المكّي، من سادات التابعين فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً وزهداً، حدّث عن عائشة وأم سلمة، وأم هانئ وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم من الصحابة، وكان حُجّة، إماماً، كبير الشأن، توفي سنة ١١٤هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ٥/٧٨، ميزان الاعتدال ٣/ ٧٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٩٨.

(٢) هو: محمد بن كعب بن سليم بن عمرو القرظي، أبو حمزة، كان عالماً بتفسير القرآن والفقه، ثقة صالحاً عابداً، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، قال عنه ابن سعد: «كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً»، كان في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه وذلك سنة ١٠٨هـ.
انظر: الأنساب ٤/ ٤٧٥، الطبقات الكبرى ٥/ ٣٤٠، سير أعلام النبلاء ٥/ ٦٥.

(٣) هو: علي بن محمد بن حبيب البصري، أبو الحسن، كان من وجوه الفقهاء الشافعيين، ومن كبارهم، وجعل إليه ولاية القضاء في بلدان كثيرة، وله تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه والتفسير والأحكام السلطانية وغيرها، توفي سنة ٤٥٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٢، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٦٤، طبقات المفسرين للسيوطي ص٧١.

(٤) انظر هذا القول وما قبله في تفسير البغوي ٥/١٠٨ والقرطبي ١٠/ ٢٩٤ وزاد المسير ٥/ ٦٢.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٢٥.

الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يُملك الحيوان كله، وبه يُعرف الله ـ تعالى ـ ويُفهم كلامه ويُوصل إلى نعميه»[1]، وقال القرطبي: «والصحيح الذي يُعوَّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب»[2]، وقال الراغب الأصفهاني وهو يذكرُ الأقوال في معنى «الأمانة» في القرآن الكريم قال: «وقيل: العقل، وهو الصحيح، فإن العقل هو الذي لحصوله يتحصَّل معرفة التوحيد وتجري العدالة وتعرف حروف التهجِّي، بل لحصوله تعلم كل ما في طوق البشر تعلُّمه، وفعل ما في طوقهم من الجميل فعله، وبه فُضّل على كثير ممن خلقه»[3].

وبعد فإن تفضيل بني آدم على غيرهم من الخلق أعمّ من أن يختصَّ بميزة من الميزات التي كرَّمهم الله بها على غيرهم، فالتفضيل إنما هو بكل ما كرّم الله بني آدم على سائر الخلق، حيث التكريم بحسن القوام والنطق والبيان والتمييز وتسخير الكون لهم، وتسليطهم على غيرهم، والأكل بالأيدي وغير ذلك مما كرّم الله به الإنسان على غيره، وعلى رأس ذلك كله العقل، الذي به يُعرف الحق من الباطل، وبه تثبت مسؤولية الإنسان في الحياة، وبه يكون الثواب والعقاب، قال جمال الدين القاسمي: «﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، أي: بالنطق والتمييز والعقل والمعرفة والصورة، والتسلط على ما في الأرض والتمتع به»[4].

وكذلك فضَّل الله آدم وذريته على غيرهم بأن جعلهم خلائف في الأرض، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ

---

(١) تفيسير ابن عطية ٩/ ١٤٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٩٤.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة «أمن» ص٢٢.

(٤) محاسن التأويل ١٠/ ٢٥٠.

خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، «إن أبرز إيحاءات قصة آدم ـ كما وردت في هذا الموضع ـ هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها، ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه، وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملأ الأعلى الكريم، أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض؛ كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له وفي طرد إبليس الذي استكبر، وفي رعاية الله له أولاً وأخيراً»[1]، وللمفسرين في المراد بالخليفة في الآية قولان هما:

١ ـ أنه آدم عليه السلام دون ذريته.

٢ ـ أنه آدم وذريته.

ومدلول الآية يوضح أن المراد بالخليفة آدم وذريته إذ أنهم تبعٌ له وهم نسله من بعده، قال ابن تيمية: «وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾ يَعُم آدم وذريته، لكن الاسم متناول آدم عيناً كقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٣] إلى أمثال ذلك»[2].

وقال الزمخشري: «أُريد بالخليفة آدم واستغنى بذكره عن ذكر بَنِيه كما يُستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم»[3]، ونحوه قال أبو حيان والسمين الحلبي[4].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٦٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ٤٢.

(٣) الكشاف ١/ ٢٧١.

(٤) انظر: البحر المحيط ١/ ١٤٠، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١/ ٢٥٣.

ثم إن مما يدل على أن المراد بالخليفة آدم وذريته قوله الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . .﴾ الآية [البقرة: ٣٠]، وآدم عليه السلام لا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء ولكن ذلك يصدر من بعض ذريته على مدى وجودهم في الحياة الدنيا، قال محمد الأمين الشنقيطي بعد أن ذكر القولين في المسألة: «وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتمل الوجهين المذكورين فاعلم أنه قد دلَّت آيات أخر على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ . . .﴾ الآية [البقرة: ٣٠] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١٦٥]، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ . . .﴾ الآية [النمل: ٦٢]، ونحو ذلك من الآيات»(١).

واختلف المفسرون في معنى خلافة آدم عليه السلام على قولين:

القول الأول: إن آدم عليه السلام خليفة عن الله ـ تعالى ـ في إقامة شرعه ودلائل توحيده والحُكْم في خلقه، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وجميع أهل التأويل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنما معناه: خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم عليه السلام، ومن قام مقامه بعده من ذريته»(٢).

فأجاز أصحاب هذا القول أن يُقال: فلان خليفة الله في أرضه ومن دعاته إلى دينه(٣)، واحتجّوا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ الآية [البقرة: ٣٠] وأمثالها.

واستدلوا أيضاً بما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الدنيا حُلوة خَضِرَة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا

---

(١) أضواء البيان ١/١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) تفسير ابن عطية ١/٢٢٨.

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٥١.

الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

وقد أخذ القرطبي من قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ومن غيرها من الآيات، وجوب نصب إمام حيث قال: «هذه الآية أصلٌ في نصب إمام وخليفة يُسمع ويُطاع لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ثم قال: «ودليلنا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] أي يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي»[2].

القول الثاني: إن المراد بالخليفة في الآية بنو آدم الذين يخلفون أباهم آدم عليه السلام، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله، وهذا قول الحسن البصري حيث قال: «إنما سمّى الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل»[3]، وقال النووي: «ومعنى مُستخلفكم فيها جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم»[4].

وقال الزمخشري: «والخليفة من يخلف غيره، والمعنى خليفة منكم، لأنهم كانوا سُكّان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته»[5].

وقال ابن كثير في معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، قال: «أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل»[6].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، حديث [٢٧٤٢] باب أكثر أهل الجنة الفقراء.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٦٤.
(٣) تفسير ابن عطية ١/ ٢٢٧.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٥٥.
(٥) الكشاف ١/ ٢٧١.
(٦) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠.

فمَنَعَ أصحابُ هذا القول أن يُقال لأحد: إنه خليفة الله، وصَوَّب ابن القيّم هذا المنع[1]، وعلّل المانعون منعَهم بأن الخليفة إنما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره، والله ـ تعالى ـ شهيد غير غائب، قريب غير بعيد، فمحال أن يخلفه غيره، بل هو سبحانه الذي يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته، قالوا: ومما يدل على أن الله يخلف عبده ما رواه النوَّاس بن سَمْعان[2] رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحْنا إليه عَرف ذلك فينا، فقال: (ما شأنكم؟) قلنا: يا رسول الله ذكرت الدّجّال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: (غيرُ الدّجال أخْوَفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم...) الحديث[3].

وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن سرجس[4] رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ إذا أراد السفر قال: (اللّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل...) الحديث[5]، وعن أم سلمة[6] رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ١٥٢.

(٢) هو: النَّواس بن سمعان الكلابي ويقال: الأنصاري، له صحبة، روى عن النبي ﷺ عدة أحاديث، وروى عنه أبو إدريس الخولاني وحبيب بن نفير الحضرمي، وهو معدود في الشاميين.
انظر: التاريخ الكبير ٨/ ١٢٦، الاستيعاب ٤/ ١٥٣٤، الإصابة ٦/ ٢٥٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، حديث [٢٩٣٧] باب ذكر الدَّجال وصفة ما معه.

(٤) هو: عبد الله بن سرجس المزني، صحابي، سكن البصرة، روى عن النبي ﷺ أحاديث وعن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما، قال الذهبي: «صحَّ أن رسول الله ﷺ استغفر له»، توفي سنة نيف وثمانين بالبصرة.
انظر: الاستيعاب ٣/ ٩١٦، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢٦، الإصابة ٤/ ٧٥.

(٥) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن عبد الله بن سرجس ٤/ ١٣٨، والإمام أحمد في المسند ٥/ ٨٣، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٥٠، وأخرجه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الحج، حديث [١٣٤٢] باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره.

(٦) هي: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر القرشية المخزومية، أم =

(اللّهم اغفر لأبي سلمة[1] وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين. . .) الحديث[2].

قالوا: ولهذا أنكر أبو بكر الصدِّيق ﷺ على من قال له: يا خليفة الله، قال: «لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ، وأنا راضٍ به»[3]، قال ابن تيمية: «والله لا يجوز له خليفة، ولهذا لما قالوا لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله ﷺ، حسبي ذلك، بل هو سبحانه يكون خليفة لغيره، قال: والخليفة إنما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف، وسُمّي خليفة لأنه خلف عن الغزو، وهو قائم خلفه، وكل هذه المعاني منتفية في حق الله ـ تعالى ـ وهو منزه عنها، فإنه حي قيوم، شهيد، لا يغيب وهو غنيٌّ يَرزق ولا يُرزق، يرزق عباده وينصرهم ويهديهم ويعافيهم بما خلقه من الأسباب التي هي من خلقه، والتي هي مفتقرة إليه كافتقار المسببات إلى أسبابها، فالله هو الغني الحميد، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما: ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]،

= المؤمنين، زوج النبي ﷺ، ومن المهاجرات الأُول، دخل بها النبي ﷺ في سنة أربع من الهجرة، وكانت تعدّ من فقهاء الصحابيات، عُمِّرت حتى بلغها مقتل الحسين ﷺ، فوجمت لذلك، وغشي عليها، وحزنت عليه كثيراً، وتوفيت بعده بيسير، وذلك سنة إحدى وستين من الهجرة.

انظر: الاستيعاب ٤/١٩٣٩، سير أعلام النبلاء ٢/٢٠١، الإصابة ٨/٢٤٠.

(١) هو: عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله المخزومي، أبو سلمة، صحابي جليل، من السابقين الأولين إلى الإسلام، وأول من هاجر إلى المدينة، وهو ابن عمة النبي ﷺ، وتزوج أم سلمة ﷺ ثم صارت بعده إلى رسول الله ﷺ، وشهد أبو سلمة بدراً وأحداً، توفي ﷺ سنة ١٤هـ.

انظر: الاستيعاب ٣/٩٣٩، سير أعلام النبلاء ١/١٥٠، الإصابة ٤/٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، حديث [٩٢٠] باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/١٠ ـ ١١، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/١٣٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ...﴾ الآية [الزخرف: ٨٤]، ولا يجوز أن يكون أحد خلفاً منه، ولا يقوم مقامه لأنه لا سميّ له ولا كفء له، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به»[١].

وقد أجاب أصحاب هذا القول عن استدلال أصحاب القول الأول في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] بقولهم: لا خلاف أن المراد بالخليفة آدم وذريته، وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف أنه جعله خليفة عمن كان قبله في الأرض، وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، فليس المراد به خلائف عن الله، وإنما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً، فكلما هلك قرن خلفه قرن، إلى آخر الدهر، وأما قول موسى عليه السلام: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فليس ذلك استخلافاً عنه، وإنما هو استخلاف عن فرعون وقومه، أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم، وكذا قول النبي ﷺ: (إن الله مستخلفكم فيها)[٢].

الترجيح:

إن الخلافة كما تكون لغيبة المستَخْلِف أو موته أو عجزه، تكون أيضاً لتشريف المستخلَف، وعلى هذا الاعتبار يحمل ما أضافه الله ورسوله من الخلافة للأنبياء والصالحين، وبناءً عليه فلا يمنع أن يُقال: «خليفة الله» باعتبار إضافة التشريف للمستخلَف، لا لحاجة الله ـ تعالى ـ الحي الشهيد المهيمن القيوم الرقيب الحفيظ الغني عن العالمين، قال البيضاوي: «وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به ـ تعالى ـ إلى من ينوبه بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقي أمره بغير واسطة»[٣].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ٤٥.
(٢) سبق تخريجه ص٢١١.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٤٩ ـ ٥٠.

وكذلك كل عبادة شرعها الله لعباده إنما هي لتشريفهم وتكريمهم وتكميل قصورهم والارتقاء بهم إلى أسمى المراتب والدرجات، وليس لحاجة الله ـ تعالى ـ لتلك العبادة ولا لافتقاره ـ تعالى ـ إليها، وعلى هذا يحمل كلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: «فمن جعل له خليفة فهو مشرك به»[1]، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد المعنى الآخر وليس معنى التشريف والتكريم، وقد رجَّح الراغب الأصفهاني هذا المعنى حيث قال: «والخلافة: النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض»[2]، وقد جاء ذكر خلافة الله لعباده في أحاديث كثيرة، وهي خلافة تشريف وتكريم لبني آدم، فمن هذه الأحاديث ما تقدم ذكره ومنها ما يأتي:

- عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قِبَل خراسان فأتوها فإن فيها خليفة الله المهدي)[3].

- وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال في سؤاله النبي ﷺ عن الشر مخافة الوقوع فيه: فقلت: يا رسول الله، أيكون بعد هذا الخير شر كما كان قبله شر؟ فقال: (نعم)، قال: فقلت: فما العصمة يا رسول الله؟ قال: (السيف)، قال: قلت: وهل بعد هذا السيف بقيّة؟ قال: (نعم، تكون إمارة على أقذاء وهدنة على دَخَن)، قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: (ثم تنشأ دعاة الضلالة فإن كان لله يومئذٍ في الأرض خليفة جَلَد ظهرك وأخذ مالك فالزمه، وإلا فَمُتْ وأنت عاضٍ على جذل شجرة. . . .) الحديث[4].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ٤٥.

(٢) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب، مادة «خلف» ص١٥٧.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٢٧٧، وابن ماجه في الفتن بلفظ: (فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج)، حديث [٤٠٨٤] باب خروج المهدي، والحاكم في المستدرك بلفظ ابن ماجه ٤/ ٥١٠، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين».

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٥/ ٤٠٣، وأبو داود في الفتن والملاحم، حديث [٤٢٤٤] =

❑ وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه، فالمعصوم من عصم الله ـ تعالى ـ)[1]، وأمثالها من الأحاديث التي جاء فيها إضافة خلافة بني آدم إلى الله ـ تعالى ـ فهي خلافة تشريف وتكريم لهذا المخلوق المميز، فهذا المعنى باعتبار خلافة الله لبني آدم في الأرض.

أما باعتبار خلافة بني آدم بعضهم بعضاً فهو كما ذكره علماؤنا بأنه خلافة قرن قرناً آخر وأهل زمان أهل زمان قبلهم، وهو المراد من قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [النمل: ٦٢].

ويمكن تلخيص خلافة الله لآدم ﷺ في الأرض في الأمرين التاليين:

١ ـ إن أُبوَّة آدم ﷺ للنوع الإنساني هي موضع التكريم والاستخلاف في الأرض، فهو أول من خلقه الله من جنس البشر، وتسري وظيفة الاستخلاف في الأرض في ذريته.

٢ ـ إن خلافة آدم ﷺ في الأرض قائمة على ما يحتمله بنو آدم من أمانة عظيمة وما يترتب على هذه الأمانة من مسؤولية العلم، وتبعة الابتلاء[2].

فتشريف الله ـ تعالى ـ وتكريمه لبني آدم باستخلافهم في الأرض، هو باعتبار جنسهم لامتيازهم على كثير ممن خلق الله ـ جل وعلا ـ، وباعتبار هذا التمييز لهم، حملهم الله ـ تعالى ـ في البر والبحر وعلى الدواب

= باب ذكر الفتن ودلائلها، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٧٩، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه»، وأخرجه البخاري بلفظ آخر في الفتن، حديث [٧٠٨٤] باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ ومسلم في الإمارة، حديث [١٨٤٧] باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، حديث [٧١٩٨] باب محاسبة الإمام عماله.

(٢) انظر: القرآن وقضايا الإنسان ص٥٢.

والسفن ورزقهم من الطيبات المختلفة، وسخر لهم ما في هذا الكون الفسيح، فكل هذا التكريم بذلك التمييز يظهر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وتكريم الإنسان بالاستخلاف في الأرض لا يتعارض مع وجود فئات من البشر تنحرف عن أداء ما يقتضيه هذا التكريم وتعدل عن اتّباع الصراط المستقيم، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤ ـ ٦]، وقال ـ تعالى ـ في تلك الفئة من الناس: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فانصراف بعض الناس عن أداء الأمانة التي تَحمّلها، لا يطعن في أصل تكريم الإنسان بهذا الاستخلاف في الأرض، فهو استخلاف باعتبار النوع الإنساني لا باعتبار كل فرد منه، ولذا يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: ٣٩].

فباستخلاف الإنسان في الأرض وغيره مما خصَّ الله به بني آدم على غيرهم من الخلق، يظهر تكريم الإسلام للإنسان ورفع شأنه وعلو منزلته، وفي هذا ردٌّ على ما يزعم بعض المستشرقين بأن الإسلام لم يكرم الإنسان، فالقرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته يرفع مكانة الإنسان ويعلي قدره ويسمو بخلقه وسلوكه ويرتقي به إلى أعلى درجات السلوك القويم والأخلاق الحميدة والفضائل الكريمة.

ونعود فنقول: إن هذا التكريم وذلك التشريف والتخصيص لآدم عليه السلام وبنيه من بعده بتلك الخصائص التي لم يحزها غيرهم من سائر الخلق، كان سبباً من أسباب حسد الشيطان لآدم وذريته وإعلانه العداوة له ولبنيه من بعده، تلك العداوة المستمرة التي لا تنقطع ـ بوعد الله ـ عز وجل ـ لإبليس ـ إلى يوم القيامة.

المبحث الثالث

كفره ومعصيته

يُعتبر إبليس رأس الكفر وزعيم الكافرين، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ بكفر إبليس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وفي أمثالها من الآيات، وكفر إبليس هو كفر إباء واستكبار واستعلاء على أمر الله ـ تعالى ـ بالسجود لآدم عليه السلام، وقد أراد إبليس أن يسري هذا الكفر في بني آدم كي يحطَّ من كرامتهم ويهبط بسموهم وارتقائهم إلى أدنى الدركات وأسفلها، حيث إن مرتبة الكفر هي أولى المراتب التي يدعو إبليس بني آدم إليها، فعن سبرة بن أبي فاكة[1] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل[2] فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهدُ النفس والمال فتقاتل فتُقتل فتنكح المرأة ويُقسم المال، فجَاهَد...) الحديث[3].

---

(١) هو: سبرة بن الفاكة، ويقال: ابن الفاكهة ويقال: ابن أبي الفاكة المخزومي، وقيل: الأسدي، صحابي نزل الكوفة، روى عنه عمارة بن خزيمة وسالم بن أبي الجعد.
انظر: التاريخ الكبير ٤/ ١٨٧، الاستيعاب ٢/ ٥٧٨، الإصابة ٣/ ٦٤.

(٢) الطِّوَل: هو حبلٌ طويل تشدّ به قائمة الدابة، انظر: لسان العرب مادة «طول».

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، حديث [٣١٣٤] باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وفي السنن الكبرى ٣/ ١٥، والإمام أحمد ٣/ ٤٨٣، وابن أبي شيبة في مصنَّفه ٤/ ٥٦٤، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٥٧، والبيهقي نحوه في الشعب ٤/ ٢١، وحسّن =

وعدو الله إبليس يتسلل إلى نفس الإنسان بالأفكار الرديئة، والتي من خلالها يوقعه في التشكيك بربه، ثم الكفر به ـ تعالى ذكره ـ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينْتَه)[1]، وهو حين يدعو الإنسان إلى الكفر فيستجيب له، فإن هذا العدو يكون أول المتبرئين من هذا الإنسان الذي استجاب لإضلاله وغوايته، يقول ـ تعالى ـ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، ويذكر المفسرون قصة في سبب نزول هذه الآية تبيّن كيف يجرّ إبليس بني آدم إلى الكفر ومن ثم يعلن براءته منه، فعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: «كان راهب يتعبّد في صومعته، وإن امرأةً زيّنت له نفسها فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت، فقتلها ودفنها، فجاؤوه فأخذوه وذهبوا به، فبينما هم يمشون إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيّنت لك فاسجد لي سجدة أُنْجِكَ، فسجد له، فأنزل الله ﷻ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ...﴾ الآية»[2] [الحشر: ١٦]، قال ابن القيّم عند ذكر أجناس الشر التي يدعو إليها إبليس: «الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذ نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره

= ابن حجر سنده في الإصابة ٣/ ٦٤ في ترجمة الراوي، وصحَّح إسناده العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، حديث [٣٢٧٦] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في الإيمان، حديث [١٣٤] باب بيان الوسوسة في الإيمان.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٣٧٣، والطبري في تفسيره نحوه ٢٨/ ٤٩، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، حديث [٣٨٠١] تفسير سورة الحشر، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه»، وقال العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء ٣/ ٢٧: «وصله بُطين في مسنده من حديث علي».

واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونُوَّابه»[1]، فهذا العدو جَمَعَ كيده وحَشَدَ جُنده لإضلال الإنسان وإيقاعه في براثن الكفر والشرك بالله ـ جل وعلا ـ، فهو لا يريد لهذا المخلوق الذي كرَّمه ـ تعالى ـ أن يوحّد ربه بالعبادة، بل إنه يتقطع كمداً وحسرة وندامة إذا رأى العبد في طاعة ربه، بل حين يراه ساجداً لله سجدة، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار)[2].

وللعلماء في معنى «كان»[3] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] قولان:

القول الأول: إنَّ «كان» في الآية بمعنى «صار»، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقال ابن أحمر[4]:

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [٨١] باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة.

(٣) «كان» في القرآن العزيز على خمسة أوجه هي:
أ ـ «كان» بمعنى الأزل والأبد، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].
ب ـ «كان» بمعنى المضي المنقطع، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ..﴾ الآية [النمل: ٤٨].
ج ـ «كان» بمعنى الحال، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..﴾ الآية [آل عمران: ١١٠].
د ـ «كان» بمعنى الاستقبال، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].
هـ ـ «كان» بمعنى صار، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ١٢٧.

(٤) هو: عمرو بن أحمر بن العمَّرد بن عامر الباهلي، أبو الخطاب، شاعر مخضرم، كان من شعراء الجاهلية فأسلم، وغزا مغازي في الروم، وأصيبت إحدى عينيه، وأدرك أيام عبد الملك بن مروان، ومات نحو سنة ٦٥هـ.
انظر: الشعر والشعراء ص٢٢٩، الإصابة ٥/ ١١٤، الأعلام ٥/ ٧٢.

بتيهاء قفر والمطيّ كأنها قَطا الحَزْن قد كانت فراخاً بُيوضُها[(١)]

فـ«كان» في الآية والبيت بمعنى «صار»، قال ابن جرير: «ومعنى قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنه كان حين أبى عن السجود من الكافرين حينئذٍ»[(٢)]، وقال الزمخشري: «أُريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً، لأن (كان) مطلق في جنس الأوقات الماضية فهو صالح لأيها شئت»[(٣)]، وقال الألوسي: «﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وصار منهم باستكباره وتعاظمه على أمر الله ـ تعالى ـ»[(٤)]، وقد ردّ ابن فُورَك[(٥)] هذا القول حيث قال: «وهذا خطأ تردّه الأصول»[(٦)].

القول الثاني: إنَّ «كان» في الآية بمعنى الماضي، أي كان في علم الله ـ تعالى ـ كافراً، قاله مقاتل وابن الأنباري[(٧)] ونسبه البغوي إلى أكثر المفسرين[(٨)]، وأخرج ابن المنذر[(٩)] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: «جعله الله كافراً لا يستطيع أن يؤمن»[(١٠)]، وأخرج ابن أبي

---

(١) لسان العرب مادة «كون» ١٣/ ٣٦٧، وتفسير القرطبي ١/ ٢٩٦.
(٢) تفسير الطبري ١/ ٢٢٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٢.
(٤) روح المعاني للألوسي ١/ ١٠٤.
(٥) هو: محمد بن الحسن بن فُوْرَك الأصبهاني، أبو بكر، شيخ المتكلمين، كان أصولياً، أديباً، نحوياً، واعظاً، سمع بالبصرة وبغداد، وحدّث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة، ومات وهو عائد إلى نيسابور من غزنة مسموماً، سنة ٤٠٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٢، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢١٤، العبر ٢/ ٢١٣.
(٦) تفسير ابن عطية ١/ ٢٤٨، والدر المصون ١/ ٢٧٨.
(٧) زاد المسير في علم التفسير ١/ ٦٥.
(٨) تفسير البغوي ١/ ٨٢.
(٩) هو: محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، أبو بكر، شيخ الحرم، كان فقهياً عالماً مطّلعاً غاية في معرفة الاختلاف والدليل، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، قال ابن خلّكان: «صنّف في اختلاف العلماء كتباً لم يصنّف أحدٌ مثلها، واحتاج إلى كتبه الموافق والمخالف»، توفي سنة ٣١٨هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٠٧، ميزان الاعتدال ٣/ ٤٥٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٩٠.
(١٠) الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٠٤.

حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: «ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة، وعمل بعمل الملائكة، فصيَّره إلى ما بدئ إليه خلقه من الكفر، قال الله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]»[١].

وإلى هذا الرأي ذهب أبو حيان وأبو السعود، قال أبو حيان: «أي كان في علم الله، لأنه لا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فالمعنى: أنه كان في علم الله سيكون من الكافرين»[٢]، وقال أبو السعود: «أي في علم الله ـ تعالى ـ إذ كان في أصله من كَفَرَة الجن فلذلك ارتكب ما ارتكبه على ما أفصح عنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]»[٣]، ونقل القرطبي عن جمهور المتأولين قولهم: «المعنى أي ما كان في علم الله ـ تعالى ـ أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم منه الموافاة»[٤]، قال القرطبي مُعَقّباً على هذا القول: «وهذا صحيح لقوله ﷺ في صحيح البخاري: (إنما الأعمال بالخواتيم)[٥]»[٦].

فهذان القولان في المسألة، والحقيقة أنه لا تعارض بينهما، فإبليس قبل أن يتوجَّه إليه الأمر بالسجود لآدم لم يحكم عليه بالاستكبار والكفر، وحين توجَّه إليه الأمر من الله ـ تعالى ـ بالسجود أبى واستكبر وصار من الكافرين لعدم امتثاله لأمر ربه وعناده، ونسبته الجور لأمر الله ـ جل وعلا ـ، فإبليس قد يكون كافراً في قرارة نفسه مضمراً لكفره فظهر كفره وانكشف

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٨، والدر المنثور ١/ ١٠٤.

(٢) تفسير البحر المحيط ١/ ١٥٤.

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ١١٠.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٧.

(٥) أخرجه البخاري مطولاً من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه كتاب القدر، حديث [٦٦٠٧] باب العمل بالخواتيم، وفي كتاب الرقاق بلفظ (بخواتيهما)، حديث [٦٤٩٣] باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها.

(٦) تفسير القرطبي ١/ ٢٩٧.

أمره عند الابتلاء والامتحان فاستجاب الملائكة للأمر بالسجود، وعصى عدو الله واستكبر، فبداية كفر إبليس لا نعلمها إلا بعد توجَّه الأمر إليه بالسجود، أما قبل ذلك فربما يكون منطوياً على الكفر منذ وُجِدَ كما قال الراغب[1]، إلا أنه لم يحكم بكفره قبل توجُّه الأمر إليه؛ فعليه يقال: إن إبليس كان مسلماً حكماً لا حقيقة، وبعد ذلك صار كافراً حقيقةً وحُكماً، وفي جانب علم الله ـ تبارك وتعالى ـ فلا ريب أن علمه ـ تعالى ـ سابق على صدور الكفر من إبليس فهو ـ تعالى ـ الذي عنده مفاتح الغيب، وكتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء)[2].

وإذا صدر الحكم من الله ـ جل وعلا ـ على إبليس بأنه من الكافرين، فهل يدل هذا على أنه وُجِد قبله جمع من الكافرين كي يدخل في حكمهم؟ للناس في هذه المسألة أقوال هي فيما يأتي:

الأول: قال قوم: إن الحكم على إبليس بأنه من الكافرين دالٌّ على وجود جمع من الكافرين قبله؛ لأن «مِنْ» للتبعيض، فالحكم عليه بأنه بعض الكافرين يقتضي وجود قوم آخرين من الكافرين، حتى يكون بعضاً لهم، واستدلوا بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله خلق خلقاً، فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: لا نفعل فبعث الله عليهم ناراً تحرقهم، ثم خلق خلقاً آخر فقال: إني خالق بشراً من طين، اسجدوا لآدم، فأبوا، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم، قال: ثم خلق هؤلاء فقال: اسجدوا لآدم، فقالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم»[3].

---

(١) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة «كفر» ص٤٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، حديث [٢٦٥٣] باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٣) سبق تخريجه ص١٦٧.

الثاني: وقال آخرون: إن الآية لا تدل على وجود جمع من الكافرين قبل إبليس، ولهم في تفسير الآية وجهان هما:

أ ـ معنى الآية أن إبليس صار من الذين وافقوه في الكفر مستقبلاً، وهو قول الأصمّ[1].

ب ـ إنّ هذا إضافة لفرد من أفراد الماهية إلى تلك الماهية وصحة هذه الإضافة لا تقتضي وجود تلك الماهية، كما أن الحيوان الذي خلقه الله أولاً يصح أن يقال إنه فرد من أفراد الحيوان لا بمعنى أنه واحد من الحيوانات الموجودة خارج الذّهن، بل بمعنى أنه فرد من أفراد هذه الماهية وواحد من آحاد هذه الحقيقة[2].

أقول: إن إبليس أول مخلوق أخبرنا الله ـ تعالى ـ بكفره، ولم يخبرنا ـ تعالى ـ بكفر أحدٍ قبله، حيث لم يثبت بدليل صحيح وجود كافرين قبل إبليس، وما استُنِدَ إليه من حديث ابن عباس لا يُحتجُّ به كما قال ابن كثير، بل ذهب أكثر أهل العلم إلى أن إبليس أول من كفر بالله[3]، فهو إذاً من الكافرين الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك، فيكون معنى الآية مبنياً على اعتبار أن الخطاب فيها موجَّه إلى أمة محمد ﷺ إذ بين حدوث قصة إبليس وصدور الكفر منه وبين بعثه النبي ﷺ قرون كثيرة كان فيها كثير من الكافرين كفرعون وهامان وقارون ونمرود بن كوش وغيرهم، فهؤلاء الكافرين بالنسبة إلى زمن النبي ﷺ ماضٍ غابر، وإبليس كذلك، وعليه فإن إبليس من

---

(١) هو: محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل بن سنان بن عبد الله الأموي مولاهم، أبو عباس، المعروف بالأصم، كان محدّث عصره بلا مدافعة، رحل به أبوه إلى أصبهان ومكة ومصر والشام والجزيرة وبغداد وغيرها من البلاد، فسمع الكثير بها عن الجمّ الغفير، ثم رجع إلى خراسان وهو ابن ثلاثين سنة، وقد صار محدّثاً كبيراً، وكان ثقة صادقاً ضابطاً لما سمعه ويسمعه، كُفَّ بصرهُ قبل موته بشهر، توفي سنة ٣٤٦هـ.
انظر: الأنساب ١/١٧٨، نكت الهميان ص٢٧٩، سير أعلام النبلاء ١٥/٤٥٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ومصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٣٦.

الكافرين الذين وُجِدُوا فعلاً قبل زمن المخاطبين، والله ـ تعالى ـ أعلم.

فإبليس أول من كفر بالله ـ جل وعلا ـ، وأما سبب كفره، فقد اختلف الناس بأي سبب كفر إبليس على أقوال:

أ ـ قالت الخوارج: كفر إبليس بترك السجود ومعصيته لأمر الله، وكل معصية كفر[1]، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

فأما من الكتاب: فإن الله ﷻ أمر بجلد الزاني والزانية غير المحصنين مائة جلدة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ...﴾ الآية [النور: ٢]، فلو كانا كافِرَين لم يُؤمر بجلدهما بل بقتلهما، وأمر سبحانه أيضاً بقطع يد السارق إذا سرق في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، فلو كانت السرقة تُخرج من الملّة وتوجب الكفرَ لأَمر الله ـ تعالى ـ بقتل السارق لكفره، فإن النبي ﷺ قال: (من بدل دينه فاقتلوه)[2]، وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٨]، فسمّاه ـ تعالى ـ أخاً، ولو كان كافراً لم يسمّه أخاً، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ ...﴾ الآية [الحجرات: ٩]، ثم قال ـ تعالى ـ في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ...﴾ الآية [الحجرات: ١٠]، ونصوص الكتاب في هذا الباب كثيرة.

وأما من السُّنَّة: فقد فرّق النبي ﷺ بين الكفر والزنا والقتل، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس،

---

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية ٧/٥٠١، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/٣٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب الجهاد والسير، حديث [٣٠١٧] باب لا يعذب بعذاب الله.

والثيّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة)[1]، فلو كان الزاني والقاتل كافرين لحكم عليهما النبي ﷺ بمفارقة الدين والخروج منه.

وقد ادّخر النبي ﷺ شفاعته لأهل الكبائر من أمته يوم القيامة، ولو كان أصحاب الكبائر كافرين خارجين من الملة لما نالتهم شفاعة النبي ﷺ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)، قال محمد بن علي[2]: فقال لي جابر: يا محمد من لم يكن من أهل الكبائر فما له وللشفاعة[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء الله، من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً)[4].

وقد اتفق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والتابعون لهم بإحسان وأئمة المسلمين على أنه لا يخلَّد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضاً على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الدّيات، حديث [٦٨٧٨] باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ...﴾ الآية، ومسلم في القسامة، وقدّم الثيب على النفس، حديث [١٦٧٦] باب ما يباح به دم المسلم.

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، أبو جعفر الباقر، تابعي جليل، وأحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً وقدراً، وقد روى عن غير واحد من الصحابة، وحدّث عنه جماعة من كبار التابعين، توفي سنة ١١٥هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٤١٠، التاريخ الكبير ١/ ١٨٣، الطبقات الكبرى ٥/ ٢٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، حديث [٢٤٣٦] باب (١١)، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في الزهد، حديث [٤٣١٠] باب ذكر الشفاعة، والطيالسي في مسنده حديث [١٦٦٩] والبيهقي في الشعب ١٠/ ٢٨٧، والآجرّي في الشريعة ص٣٣٨.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٩٩] باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته.

(٥) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية ص٢٠٩.

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على أن العبد المؤمن لا يكفر بمجرد ارتكاب المعصية، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا؟ فقال: «لا يكفر بمجرد الذنب، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزاني غير المحصن يجلد ولا يقتل والشارب يجلد، والقاذف يجلد، والسارق يقطع، ولو كانوا كُفَّاراً لكانوا مرتدين ووجب قتلهم، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف»(١).

وقال شارح الطحاوية: «إن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كَفَر كفراً ينقل عن الملة، لكان مرتداً يقتل على كل حال، ولا يُقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام»(٢).

ب ـ وقال آخرون: كَفَرَ إبليس لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود، ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قُبحاً.

جـ ـ وقال آخرون: إنما كفر إبليس لنسبته إلى الله الجور والتصرف الذي ليس بمرضٍ، قال القرافي(٣): «وينبغي أن يُعلم أنه ـ أي إبليس ـ إنما كفر لنسبته الحق ـ جل جلاله ـ إلى الجور والتصرف الذي ليس بمرض، وظهر ذلك من فحوى قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، ومراده على ما قاله الأئمة المحققون من المفسرين وغيرهم:

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣٠٧.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٤٥.
(٣) هو: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن الصنهاجي البهنسي، المشهور بالقرافي، أبو العباس، مصري المولد والمنشأ والوفاة، فقيه أصولي، مفسر، ومشارك في علوم أخرى، ومن علماء المالكية، وله مصنَّفات مفيدة في الفقه والأصول، توفي سنة ٦٨٤هـ.
انظر: هدية العارفين ١/٩٩، الأعلام ١/٩٤، معجم المؤلفين ١/١٥٨.

أن إلزام العظيم الجليل بالسجود للحقير من الجور والظلم، فهذا وجه كفره لعنه الله»[(١)].

وقال الألوسي بعد أن ردّ زعم الخوارج: «بل ـ أي كَفَر إبليس ـ باستقباحه أمر الله ـ تعالى ـ بالسجود لمن يعتقد أنه خير منه وأفضل كما يدل عليه الإباء والاستكبار»[(٢)].

د ـ وقال جمهور الناس: كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن واعتقد أنه مُحقّ في تمرده وطغيانه، واستدلوا بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فكأنه ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته[(٣)]، قال ابن جُزي[(٤)]: «والأظهر أنه ـ أي إبليس ـ كفر باعتراضه على الله وتسفيهه له في أمره بالسجود لآدم وليس كفره كفر جحود لاعترافه بالربوبية»[(٥)].

وليس لنا في معرفة سبب كفر إبليس إلا ما أخبرنا الله ـ جل وعلا ـ به، حيث رتّب كفره عليه، وهو الإباء والاستكبار، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فكفر إبليس إنما هو بإبائه واستكباره على طاعة الله وامتثال أمره سبحانه، قال ابن تيمية: «وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم، فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر، بل أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين، فكفره بالإباء والاستكبار وما يتبع ذلك»[(٦)]، فإبليس خالف

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، للدميري ١/ ١٩٢.

(٢) روح المعاني ١/ ٢٣١.

(٣) انظر: مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص٣٦ ـ ٣٧.

(٤) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن جُزَيّ الكلبي، كان على طريقة مُثلى من العكوف على العلم، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقهياً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون، من عربية، وأصول، وقراءات، وحديث، وأدب، وتقدّم خطيباً ببلده، على حداثة سنه، فاتفقوا على فضله، قتل يوم الكائنة بطريف، سنة ٧٤١هـ.
انظر: الدّرر الكامنة ٣/ ٣٥٦، طبقات المفسرين للداوودي ٢/ ٨٥، الأعلام ٥/ ٣٢٥.

(٥) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ١/ ٤٤.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٥٣٤.

أمر ربه ﷻ وعاند وتكبّر على طاعة ربه ـ سبحانه ـ، والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ومما فُسّرت به «الفتنة» في الآية أنها الكفر(١)، فعدو الله إبليس أصيب بالفتنة ووقع في الكفر بما صدر عنه من إباء واستكبار وتعاظم على أمر الله ـ تعالى ـ، ولقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر(٢)، سواء كان هذا الكبر كبراً مبايناً للإيمان ومنافياً له، ككبر إبليس وأتباعه ممن يتكبرون على أمر الله وعبادته فإنهم من أهل النار المخلَّدين فيها، يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أم كان الكبرُ كبراً على الناس وترفّعاً عليهم، فإن صاحبه من أهل الكبائر الذين يدخلون النار ويعذبون فيها ثم يُخرجون منها بإذن الله ومشيئته، وعلى هذا يكون معنى الحديث: لا يدخل الجنة دون مجازاة وعقاب، قال النووي بعد أن ذكر بعض الأقوال في معنى الحديث: «بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه»(٣).

فإبليس رفض امتثال أمر ربه، ورفضه كان مصحوباً بالتعاظم والاستكبار والإصرار على الإباء والرفض، فصار قائداً للمخالفين لأوامر الله والمستكبرين عنها، فكلُّ من تكبّر وخالف أمر الله فهو تلميذ لإبليس وتابع له.

وإذا كان ما صدر عن إبليس إنما هو الكفر، فهل كان كفر إبليس جهلاً أم عناداً؟ على قولين بين أهل السنة هما:

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٨/ ١٧٨.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، كتاب الإيمان، حديث [٩١] باب تحريم الكبر وبيانه.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٩١، وانظر: شرح الحديث في فتاوى ابن تيمية ٧/ ٦٧٧ ـ ٦٧٩.

القول الأول: قيل: إن كفره عن جهل وقد سلبه الله ما كان وهبه من العلم فخالف الأمر ونزع يده من الطاعة.

القول الثاني: وقيل: كان كفره عناداً ولم يُسلب العلم، وإنما حمله على كفره حب الرياسة والكبر والإعجاب بما أوتي من النفاسة[1]، وقد نَصَّ الإمام أحمد على معرفة إبليس بالله ـ تعالى ـ[2] واحتجَّ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[3]، واستبعد ابن عطية كفر إبليس عناداً، مع بقاء العلم، ولكنه يرى أن ذلك جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء[4]، وقال أبو حيان تعقيباً على رأي ابن عطية: «وهذا الذي ذكر جوازه واقع بالفعل، فهذا فرعون كان عالماً بوحدانية الله وربوبيته دون غيره، ومع ذلك حمله حب الرياسة والإعجاب بما أوتي من الملك فادّعى الألوهية مع علمه، وأبو جهل[5] كان يتحقق رسالة النبي ﷺ ويعلم أن ما جاء به حق ومع ذلك أنكر نُبوّته وأقام على الكفر، وكذلك الأخنس[6] وأُمية بن أبي الصلت، وغيرهما

---

(١) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص١٨٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي ؟/٢٩٨،والبحر المحيط ١/ ١٥٤، وروح المعاني ١/ ٢٣١.

(٣) انظر: مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص١٨٥.

(٤) انظر: تفسير ابن عطية ١/ ٢٤٩.

(٥) هو: عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أحد سادات قريش في الجاهلية، وأشد الناس عداوة للنبي ﷺ في الإسلام، وكان يقال له: «أبو الحكم» فدعاه المسلمون «أبا جهل»، وقد كان لا يفتر عن الكيد للإسلام والإيذاء للمسلمين، وهو الذي قتل سمية أم عمار بن ياسر، وقُتل أبو جهل يوم بدر، قتله ابنا عفراء، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
انظر: السيرة لابن هشام ١/ ٢٩١، ٢٩٨، ٣٢٠، ٣٥٥٧، ٣٦٢، ٣٩٠، الكامل لابن الأثير ٢/ ٤٩، الأعلام ٥/ ٨٧.

(٦) هو: الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، أبو ثعلبة، واسمه «أُبَيّ» و«الأخنس» لقبه، وكان من المؤلفة قلوبهم وشهد حنيناً، قال ابن عطية: «ما ثبت قط أن الأخنس أسلم»، وتعقَّبه ابن حجر بأن الأخنس قد أُثبت في الصحابة، وقال: «ولا مانع أن يسلم ثم يرتد ثم يرجع إلى الإسلام»، وهذا هو الظاهر، وقد ذكر ابن كثير بأنه ممن شهد فتح مكة وأنه كان مع علي رضي الله عنه يوم صفين، ولُقِّبَ بالأخنس لأنه رجع ببني زهرة من بدر، فقيل: خنس الأخنس، ومات في أول خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ. =

ممن كفر عناداً مع علمهم بصدق الرسل»[1].

وقد جمع أبو إسحاق ابن مفلح المقدسي[2] بين القولين حيث قال: «والتحقيق أنه ـ أي إبليس ـ عارف بالله في الجملة ويعرف وجود الصانع وقدرته، لكن نسبه إلى النقص في الجملة، وهو جهل منه بما يجوز على الله ويمتنع عليه، فهو عارف بالله من وجه كما قال الإمام أحمد، غير عارف بالله معرفة مطلقة كما قال إسحاق»[3].

والذي يظهر من خلال آيات القرآن الكريم التي ذكرت قصة إبليس؛ أن كفره لم يكن عن جهل، وإنما كان كفره عناداً مع علمه بالله ـ جل وعلا ـ، قال الزجّاج في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: «فأعْلَمَ الله ـ جل ثناؤه ـ أن معصية إبليس معصية معاندة وكُفر، وقد أعلم الله أنه من الكافرين فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]»[4]، فعباراته التي جادل الله بها دالة على هذا، فهو يقول لربه ـ تعالى ـ: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فهذا جدال منه لربه مبني على علمه بخلق الله ـ تعالى ـ له من نار ولآدم من طين، ونجده يقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، فهذه ألفاظ دالة على علمه بربه حين كفره وعلمه بالمنهج الصحيح وهو الصراط المستقيم، قال الفخر الرازي في الآية الأخيرة: «إنَّ هذه الآية تدل على أنه ـ أي

= انظر: تفسير ابن عطية ٢/ ١٨٦، البداية والنهاية ٨/ ٢٥٠، الإصابة ١/ ٢٣.

(١) تفسير البحر المحيط ١/ ١٥٤.

(٢) هو: إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي الدمشقي الحنبلي، أبو إسحاق، راميني الأصل، عالم، فقيه، وشيخ الحنابلة في عصره، وله بعض المصنَّفات، توفي سنة ٨٠٣هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ١٩، الأعلام ١/ ٦٤، معجم المؤلفين ١/ ١٠٧.

(٣) مصائب الإنسان ص١٨٥.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٢٢.

إبليس ـ كان عالماً بالدين الحق والمنهج الصحيح، لأنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، وصراط الله المستقيم هو دينه الحق»[1].

وليس في هذه المسألة دليلٌ قاطع يُجْزَمُ به في كفر إبليس أكان جهلاً أم عناداً مع العلم، ولذا قال الألوسي: «وكم أرّقت هذه القصة جفوناً، وأراقت من العيون عيوناً، فإن إبليس كان مدّة في دلال طاعته يختال في رداء مرافقته ثم صار إلى ما ترى وجرى ما به القلم جرى»[2].

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٣٨.

(٢) روح المعاني ١/ ٢٣١.

المبحث الرابع

طرده من رحمة الله

عرفنا فيما سبق أن إبليس كان مأموراً بالسجود لآدم عليه السلام، وداخلاً في خطاب الله للملائكة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]، إلا أن إبليس ـ بعد هذا الأمر الصريح من الله ـ جل ثناؤه ـ امتنع عن الامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ واستكبر أن يسجد لآدم عليه السلام، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فكان عاقبة هذا الامتناع والاستكبار أن طرده الله من جنته وأبعده من رحمته، فحلَّت عليه لعنة الله وغضبه، وأبدل مرافقة الملائكة وجوارهم في الملكوت الأعلى، بقيادة الناس إلى الرذائل والمحرمات وصحبة الفُسَّاق والفُجّار فصار رأس الشر وقائد الفساد في الأرض، يقول ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: ١٣].

قال الشنقيطي: «بيّن الله ـ تعالى ـ في هذه الآية الكريمة أنه عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبُّر، فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً، مُتَّصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾»[1]، ويقول الحق ـ جل ثناؤه ـ مُؤكِّداً حُكمه ـ تعالى ـ بطرد إبليس وإذلاله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: ١٨]، يقول ابن جرير: «وهذا خبر من الله ـ تعالى ذكره ـ عن إحلاله بالخبيث عدو الله ما أحَلّ به من نقمته ولعنته،

(١) أضواء البيان ٢/ ٢٩٤.

وطرده إياه عن جنته، إذْ عصاه وخالف أمره، وراجعه من الجواب بما لم يكن له مراجعته به»(١)، وقال ـ جل وعلا ـ في حق إبليس اللعين: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨]، ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥]، قال ابن كثير: «استحقَّ هذا من الله ـ تعالى ـ لأنه استلزم تَنَقُّصه لآدم وازدراؤه به وترفُّعه عليه، مخالفةَ الأمر الإلهي ومعاندةَ الحق في النص على آدم على التعيين وشرع في الاعتذار بما لا يُجدي شيئاً»(٢).

ولقد كان طرد إبليس من الجنة وهبوطه إلى الأرض ومفارقته الحياة الملائكية في جوار ربِّ البَريَّة، سبباً من أسباب عداوته للإنسان وحقده عليه وإشعاله لفتيل الصراع في حربه مع بني آدم بعد الطرد والهبوط، فما إن حكم الله ـ تعالى ـ على إبليس بالطرد والإبعاد من الجنة حتى طلب من الله أن ينظره إلى يوم البعث والنشور، فلما تحقق له وعد الله ـ تعالى ـ بهذه النُظرة إلى قيام الساعة، أخذ يرعد ويتهجم ويتوعد هذا الإنسان بالغواية والإضلال عن صراط الله المستقيم، فكأنه يرى في هذا المخلوق البشري السبب الرئيس في طرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض، فأخذ على نفسه عزماً مُوثَّقاً وعهداً مؤكداً أن يجتهد كل الاجتهاد في أن يصرف بني آدم عن دخول تلك الجنة، «لقد طرد من الجنة وطُرد من رحمة الله وحَقَّت عليه اللعنة وكُتب عليه الصَّغَارُ، ولكن الشرّير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب، ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم، ثم ليؤدي وظيفته وفق طبيعة الشر التي تمخضت فيه»(٣)، ولبيان المنهج العدواني الذي يسلكه إبليس مع آدم وذريته بعد طرده من الجنة يقول ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ

---

(١) تفسير الطبري ٨/١٣٨.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/٦٦.

(٣) في ظلال القرآن ٣/١٢٦٦.

مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣ ـ ١٧]، ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٤٠]، وأمثالها من الآيات.

واختُلِفَ في الجنة التي أُهبط منها آدم عليه السلام وزوجه، وطُرد منها اللعين إبليس، هل هي جنة الخلد ودار الثواب الموعودة، أم هي جنة أخرى؟ على أقوال في المسألة هي فيما يأتي:

القول الأول: إن تلك الجنة في الأرض، خلقها الله ـ تعالى ـ امتحاناً لآدم عليه السلام، واختلف أصحاب هذا القول في مكانها، فقيل: هي بين فارس وكرمان، وقيل: بأرض عدن، وقيل بفلسطين كورة بالشام.

وهذا القول محكي عن أُبيّ بن كعب(١) وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ووهب بن مُنَبّه وسفيان بن عيينة(٢)، واختاره ابن قتيبة والقاضي منذر بن

(١) هو: أُبَيّ بن كعب بن قيس الأنصاري النجاري، صحابي جليل، وسيّد القُرّاء، كان من أصحاب العقبة الثانية، وشهد بدراً والمشاهد كلها، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يقرأ القرآن على أُبيّ، وكان عمر رضي الله عنه يسميه سيد المسلمين، وهو أول من كتب للنبي ﷺ، وحفظ عنه علماً مباركاً، توفي سنة ٢٢هـ.
انظر: معرفة الصحابة ٢/ ١٦٣، الاستيعاب ١/ ٦٥، سير أعلام النبلاء ١/ ٣٨٩.

(٢) هو: سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أبو محمد، كان إماماً عالماً ثبتاً حجة زاهداً ورعاً مُجْمَعاً على صحة حديثه وروايته، أدرك نيفاً وثمانين من التابعين، وطلب الحديث وهو غلام، ولقي الكبار، وحمل عنهم علماً جمّاً، وأتقن وجوّد وجمع وصنّف، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، ورُحل إليه من البلاد، وكان قويَّ الحفظ، وكان يدلس إلا أنه لا يدلس إلا عن ثقة، توفي سنة ١٩٨هـ.
انظر: تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤، وفيات الأعيان ٢/ ٣٩١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤.

سعيد البلوطي[1]، ونقله عن الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ وأصحابه[2]، ونقله الفخر الرازي عن أبي القاسم البلخي[3][4]، ونقله القرطبي عن المعتزلة والقدرية[5]، قال منذر بن سعيد البلوطي في تقريره لهذا القول: «وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به، لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من حيّز الآخرة، وفي اليوم الآخر تدخل، ولم يأت بعد، وقد وصفها الله ـ تعالى ـ لنا في كتابه بصفاتها، ومُحال أن يصف الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به، والقول بهذا دافع لما أخبر الله به»[6]، واستدل أصحاب هذا القول بأدلة هي:

١ ـ أن الله ـ تعالى ـ قال في شأن جنة الخلد وأهلها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبأ: ٣٥]، ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، فجنة الخلد هي دار القدس، قُدّست عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها، أما جنة آدم فقد لغا إبليس فيها وكذَّب.

٢ ـ أن جنة الخلد لا يخرج منها أهلها لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وهذه الجنة أخرج منها آدم وزوجه.

---

(١) هو: منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي، أبو الحكم، كان إماماً عالماً فصيحاً خطيباً شاعراً أديباً، كثير الفضل، جامعاً لصنوفٍ من الخير والزهد والتقوى، وكان قاضي الجماعة بقرطبة، وكانت له رحلة، لقي فيها جماعة من العلماء باللغة والفقه، وكان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، توفي سنة ٣٥٥هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/ ٥٢١، الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٢، سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٦٩.

(٣) هو: جويبر بن سعيد الأزدي، عِدَادُه في الكوفيين، روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه والضحّاك بن مزاحم وأكثر عنه، وأبو القاسم ضعيف جداً، ويكتب عنه التفسير، وله رواية ومعرفة بأيام الناس، قال عنه أحمد بن سيار: «حاله حسن في التفسير وهو لين في الرواية».
انظر: التاريخ الكبير ٢/ ٢٥٧، الكامل لابن عدي ٢/ ١٢١، الكاشف ١/ ١٩٠.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٣/ ٣.

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١/ ٣٠٢.

(٦) مفتاح دار السعادة ١/ ١١.

٣ ـ أن آدم عليه السلام لو كان في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ولما صح قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فكيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شَجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى؟

٤ ـ أن إبليس كان من الكافرين وقد دخل الجنة ووسوس لآدم وزوجه ولو كانت دار الخلد لم يدخلها.

٥ ـ أن جنة الخلد دار راحة وليست بدار تكليف، وقد كُلِّف آدم أن لا يأكل من الشجرة.

٦ ـ أن الله ـ جل وعلا ـ قال لآدم ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: ١١٨]، وقد عري فيها آدم عليه السلام، وقال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، وأخبر ـ تعالى ـ آدم أنه لا يضحى فيها.

وقد حمل أصحاب هذا القول الهبوط في الآية على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١].

القول الثاني: إنَّ تلك الجنة كانت في السماء السابعة، فالإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض وهذا قول الجبّائي[(١)][(٢)]، واستظهره ابن عطية[(٣)].

القول الثالث: إن هذه الجنة جنة الخلد التي وعد اللهُ عبادَه المتقين،

---

(١) هو: محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد، أبو علي الجبّائي البصري، أحد أئمة المعتزلة، كان إماماً في علم الكلام، متوسعاً في العلم، له في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة، وله تفسير حافل مطول، له فيه اختيارات غريبة، توفي سنة ٣٠٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/٢٦٧، سير أعلام النبلاء ١٤/١٨٣، طبقات المفسرين للسيوطي ص٨٨.

(٢) التفسير الكبير ٣/٤، والبحر المحيط ١/١٥٧.

(٣) انظر: تفسير ابن عطية ٥/٤٤٢.

وهذا قول الجمهور. قالوا: إن الألف واللام في لفظ «الجنّة» لا يفيدان العموم، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة المعهودة عند المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها، قال القرطبي: «من قال: أسأل الله الجنة، لم يُفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد»[(١)]، وأجابوا على استدلالات أصحاب القول الأول بالآتي:

١ ـ أن ما استدلوا به من الآيات في شأن جنة الخلد وأهلها فهذا إنما يكون بعد دخول أهلها فيها، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها[(٢)]، قال أبو محمد ابن حزم في رده على القاضي منذر بن سعيد: «وأما قوله إن الجنة لا كذب فيها وإن من دخلها لم يخرج منها، وقد كذب فيها إبليس وقد خرج منها آدم وامرأته، فهذا لا حُجَّة له فيه، وإنما تكون كذلك إذا كانت جزاءً لأهلها كما أخبر ﷻ عنها حيث يقول: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، فإنما هذا على المستأنف لا على ما سلف، ولا نصَّ على ما ادَّعى ولا إجماع»[(٣)].

٢ ـ أن دخول إبليس الجنة، دخول تسليط لا تكريم إن صَحَّ دخوله فيها، قال ابن القيّم: «إنه أخرج ـ أي إبليس ـ ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً، فمن أين لكم أنه مُنع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه، ويكون هذا دخولاً عارضاً»[(٤)]، قالوا: والصحيح أنه لم يدخل الجنة بل وقف على بابها وكلمهما وأراد الدخول فردّته الخَزَنةُ، وقيل دخل في جوف الحية مستتراً، أو أنه اجتمع بهما على سبيل المرور لا على سبيل الاستقرار بها[(٥)].

(١) تفسير القرطبي ١/٣٠٢.
(٢) انظر: المرجع نفسه ١/٣٠٣.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ٤/٦٩.
(٤) مفتاح دار السعادة ١/١٧.
(٥) انظر: البحر المحيط ١/١٥٧، والبداية والنهاية ١/ ٧٠.

٣ ـ قال القرطبي: «وقولهم: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخُلد في دار الخُلد؟ فيُعكس عليهم، ويقال: كيف يجوز على آدم وهو في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء؟ وهذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسكة من عقل، فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلاً»[1].

وقال ابن القيّم: «فإنها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى»[2].

٤ ـ قالوا: وأما كون جنة الخلد ليست دار تكليف، فذلك بعد دخول أهلها فيها للإقامة المستمرة، والجزاء بالأعمال الصالحة، وأما الدخول الذي يعقبه الخروج بسبب المخالفة فلا ينافي التكليف، بل لا يكون خالياً منه[3]، ثم إن التكليف في الجنة لم يكن بالأعمال التي يُكلَّفُ بها الناس في الدنيا من العبادات، وإنما كان منعاً لآدم من شجرة من جملة أشجار الجنة، وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد، كما أن كل أحد ممنوع عليه أهل غيره فيها[4].

٥ ـ أن الاستدلال بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: ١١٨]، على أن جنة آدم ليست جنة الخلد، حيث أعرى فيها آدم عليه السلام، لا يدل على ما ذُكر، بل هو عكس ذلك، حيث إن صفة الجنة أن لا يُجاع فيها ولا يُعرى، وأما ما حصل لآدم عليه السلام من العُرْي فهو بسبب ما أكل من الشجرة المحرّمة فأهبط عقوبة له، قال ابن حزم: «وهذا ـ أي الاستدلال بهذه الآية ـ لا حُجَّة فيه بل هو حُجَّة عليه، لأن الله عز وجل

(١) تفسير القرطبي ١/٣٠٣.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة ١/١٥.
(٣) انظر: البحر المحيط ١/١٥٧.
(٤) انظر: مفتاح دار السعادة ١/١٩.

وصف الجنة التي أسكن فيها آدم بأنها لا يُجاع فيها ولا يُعرى ولا يُظمأ فيها ولا يُضحى، وهذه صفة الجنة بلا شك، وليس في شيء مما دون السماء مكان هذه صفته بلا شك، بل كل موضع دون السماء[1] فإنه لا بد أن يُجاع فيه ويُعرى ويُظمأ فيه ويُضحى، ولا بد من ذلك ضرورة، فصحَّ أنه سكن المكان الذي هذه صفته، وليس هذا غير الجنة البتة، وإنما عري آدم حين أكل من الشجرة فأهبط عقوبة له»[2].

وأما الاستدلال بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] على أنها ليست جنة الخلد حيث أخبر الله آدم بأنه لا يضحى في جنته، فيقول ابن حزم: «وهذا أعظم حُجَّة عليه، لأنه لو كان في المكان الذي هو فيه شمس لأضحى فيه ولا بد، فصَحَّ أن الجنة التي أسكن فيها آدم كانت لا شمس فيها، فهي جنة الخلد بلا شك»[3].

القول الرابع: أن الكل ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف وترك القطع[4].

والذي أُرجِّحُهُ أن الجنة التي أهبط منها آدم وزوجه، وطُردَ منها عدو الله إبليس، هي جنة الخلد، وهي دار الثواب التي وعدها الله عباده المتقين، وهذا الذي دلّ عليه الكتاب والسُنَّة، وهو قول سلف الأمة، وأهل السنة والجماعة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والجَنَّة التي أسكنها آدم وزوجته عند سلف الأمة، وأهل السُنَّة والجماعة: هي جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدَّة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين، فإن هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب والسُنَّة يردّ هذا القول،

---

(١) لو قال: دون الجنة، لكان أولى.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٦٩.
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤/ ٦٩.
(٤) التفسير الكبير، للفخر الرازي ٣/ ٤.

وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول»[1].

فلفظ «الجنة» إذا أطلق فإنه يحمل على جنة الخلد المعهودة في الذهن، إلا إذا قامت قرينة صارفة عن هذا المعهود إلى معنى آخر، ولا قرينة صارفة عن ذلك المعهود، ثم إن جنة آدم عليه السلام لو كانت في الأرض لما أخبر الله ـ تعالى ـ أن الهبوط كان إلى الأرض، إذْ لا دلالة على اختلاف الجهة التي نقل إليها، فلما قرر ـ تعالى ـ أن الهبوط كان إليها، تبيّن أنه هبوط من جهة مباينة ومقابلة لهذه الأرض، وهي السماء، ولا نعلم أن في جهة السماء جنة غير جنة الخلد التي أخبرنا الله ـ تعالى ـ بها في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ذكر آية هبوط آدم وزوجه واستقرارهما في الأرض، قال: «وهذا يبيّن أنهم لم يكونوا في الأرض وإنما اهبطوا إلى الأرض، فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى كانتقال قوم موسى من أرض إلى أرض لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده»[2].

ومما يدل على أن الهبوط كان من جنة الخلد إلى الأرض قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، حيث خصَّ هذه الجنة بهذا الحكم، وهو ظاهر في أن المراد بها جنة الخلد، وأما جنة الأرض فإن إبليس لم يُنْه عن التكبر فيها.

ويشهد لهذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥]، فدلت الآية على أنهم كانوا قبل الهبوط في مكان لا تنطبق عليه صفة الموت والإخراج، وهذا لا يكون إلا في جنة الخلد[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٤٧.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٤٨، ومفتاح دار السعادة ١/ ٢٩.

ومما يدل أيضاً على أن المراد بالجنة في الآية جنة الخلد ما رواه أبو هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: (يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف[1] لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله...) الحديث[2]، وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم آنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخَطَّ لك بيده، أتلومني على أمر قدّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، ثلاثاً)[3]، فدلّ كلٌّ من الحديثين على أن الجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد.

ففي الحديث الأول بيّن آدم عليه السلام أنه كان السبب في إخراج ذريته من جنة الخلد، وفي الحديث الآخر لم ينكر آدم على موسى عليه السلام لومه له بإخراج ذريته من الجنة، بل أقرّه على ذلك، يقول القرطبي: «فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم، ولو كانت غيرها لردّ على موسى، فلما سكت آدم على ما قرّره موسى، صَحَّ أن الدار التي أخرجهم الله عز وجل منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها»[4]، ويقول ابن تيمية: «وموسى إنما لام آدم لما حصل له وذريته بالخروج من الجنة من المشَقَّة والنكد، فلو كان ذلك بستاناً في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يُعوِّض عنه»[5].

وبهذا يتبين أن طرد الشيطان إنما كان من جنة الخلد التي وعد الله

---

(١) تزلف: أي تقترب كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١].

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٩٥] باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) سبق تخريجه ص١٣٨.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٤٩.

عباده المتقين، فحرم من نعيمها وسرورها ولذتها، وخرج منها خروجاً مقروناً بالذلّة والصَّغار والخيبة، فهبط منها إلى أرض الشقاء وهو يحمل في نفسه العداوة والحقد والبغضاء لهذا الإنسان الذي كرّمه الله ـ تعالى ـ، ويتربص به الشر والفساد والغواية في سائر الأحوال، حيث يراه السبب الرئيس في طرده من جنة الخلد وحرمانه منها أبد الآباد.

الفصل الثاني

أساليب مكائد الشيطان

إنَّ عداوة الشيطان للإنسان عداوة قديمة ومتوارثة في ذريته وأتباعه، وهي عداوة ثابتة ومقررة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، وقد أعلن إبليس هذه العداوة منذ خلق الله ﷻ الإنسان الأول آدم عليه السلام، بل منذ صوّر الله آدم عليه السلام أخذ عدو الله إبليس يطوف بجسده ويتعرّف على مواطن ضعفه ومنافذ الدخول إليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لمّا صوّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خَلْقاً لا يتمالك)[1].

ويشهر عدو الله الشيطان عداوته للإنسان، ويبدأ حربه وكيده له، وتربصه الشر به منذ اللحظات الأولى من عمر هذا الإنسان، حين يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسّه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غير مريم وابنها)، ثم يقول أبو هريرة: «﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]»[2]، قال ابن حجر: «قال القرطبي: هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط، فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، ولم يكن لمريم ذرية غير عيسى»[3].

ولقد تربص هذا العدو اللدود ببني آدم الشرك والكيد والإفساد في جميع نواحي الحياة الدينية والدنيوية، ولن يقرَّ قراره وتهدأ نفسه ويبرد أنينه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، حديث [٢٦١١] باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث [٣٤٣١] باب (٤٤)، ومسلم في الفضائل حديث [٢٣٦٦] باب فضائل عيسى عليه السلام.

(٣) فتح الباري ٦/٥٤١.

إلا بعد أن يوقع كثيراً من بني آدم ويجرّهم إلى مصيره الذي سينتهي إليه وهو العذاب في النار وبئس المهاد، ومن أجل هذه الغاية جمع عدو الله كيده وحشد جنده وأعدَّ عُدَّته لإضلال بني آدم وصَرْفِهم عن المنهج الحق، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت)(١).

قال ابن الجوزي رحمه الله: «اعلم أن الآدمي لما خُلِقَ رُكِّبَ فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه، ووُضِع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه، وأُعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضاً على الإسراف في اجتلابه واجتنابه، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه السلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم»(٢)، فيقعد إبليس للإنسان في كل سبيل يسلكه، يدعوه إلى الباطل ويزينه له في أحسن صورة وأجملها، ويكرّه إليه الحق ويظهره له في أقبح صورة وأرذلها، من أجل أن يصرفه عن اتباع السبيل القويم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ رسول الله ﷺ خطاً، وخط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطاً، ثم قال: (هذا صراط ربك مستقيماً، وهذه السُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣](٣)، ولا عجب في ذلك، فعدو الله قَطع على نفسه عهداً أن

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، حديث [٢٨١٣] باب تحريش الشيطان وبعث سرياه لفتنة الناس.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٣.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ٢/ ٢٦١، والإمام أحمد ١/ ٤٣٥، ٤٦٥، والطبري نحوه في تفسيره ٨/٨٨، والنسائي نحوه في السنن الكبرى ٦/ ٣٤٣، والدارمي في المقدمة، حديث [٢٠٢] باب في كراهية أخذ الرأي، والبغوي في =

يُغوي بني آدم ويستزلّهم عن الطريق المستقيم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ(١) ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ...﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]، قال أبو حيان في معنى هذه الآية: «هذه خمسةٌ أقسم إبليس عليها: أحدها: اتخاذ نصيب من عباد الله وهو اختياره إياهم، والثاني: إضلالهم وهو صرفهم عن الهداية وأسبابها، والثالث: تمنيته لهم وهو التسويل، ولا ينحصر في نوع واحد، لأنه يُمنّي كل إنسان بما يناسب حاله من طول عمر وبلوغ وطر وغير ذلك، وهي كلها أماني كواذب باطلة، .... قال: والرابع: أمره إياهم الناشئ عن تبتيك آذان الأنعام وهو فعلهم بالبحائر، كانوا يشقّون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن فإن جاء الخامس ذكراً حرّموا على أنفسهم الانتفاع بها، قاله عكرمة وقتادة والسدي، والخامس: أمره إياهم الناشئ عنه تغيير خلق الله ـ تعالى ـ»(٢)، وقال المراغي: «﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ إضلال الشيطان لمن يُضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة، وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى، وتمنيته لهم: تزيينه لهم الاستعجال باللذّات الحاضرة، والتسويف بالتوبة والعمل الصالح»(٣).

= شرح السنة ١/ ١٩٦، والآجرّي في الشريعة ص١٠، وابن أبي عاصم في السنة ١/ ١٣ حديث [١٧]، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ١/ ٨٠ ـ ٨١، وحسَّن محققو مسند الإمام أحمد سنده ٧/ ٤٣٦.

(١) البتك: يستعمل في قطع الأعضاء والشّعْر، يقال: بتك شعره وأذنه، ومنه سيف باتك: قاطع للأعضاء، وبتكت الشعر تناولت قطعه، والمراد بها في الآية قطع آذان البحيرة ليعلم أنها بحيرة، وأراد عدو الله أن يدعوهم إلى البحيرة فيستجيبون له ويعملون بها طاعة له. انظر: مفردات الراغب مادة «بتك» ص٣٣، وتفسير الطبري ٥/ ٢٨١.

(٢) تفسير البحر المحيط ٣/ ٣٥٣.

(٣) تفسير المراغي ٥/ ١٦٠.

فهذا العدو يسعى بكل جهده لاستحواذ بني آدم والسيطرة عليهم بكل وسيلة يمكنه استخدامها وكل باب يستطيع النفوذ منه إليهم، فهو يأتي الإنسان من جهاته الأربع ليوسوس له ويغويه بكل باطل ورديء: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشكّكهم في آخرتهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أُرغّبهم في دنياهم، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبّه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أُشهّي لهم المعاصي»(١)، وقال قتادة: «أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم زيّن لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»(٢)، وقال مجاهد: «(من بين أيديهم وعن أيمانهم) حيث يبصرون (ومن خلفهم وعن شمائلهم) حيث لا يبصرون»(٣).

ولا ريب أن تخصيص كل جهة من الجهات التي يأتي الشيطانُ الإنسانَ من قِبَلها بمعصية معيّنة يحتاج إلى دليل يبين ذلك، فالأولى حمل الآية على العموم، بأن الشيطان يدخل على الإنسان بكل المنكرات والسيئات والمعاصي ومن أي جهة استطاع النفوذ منها، قال الزجّاج: «والحقيقة - والله أعلم - أي أَتَصَرَّفُ لهم في الإضلال في جميع جهاتهم»(٤)، وقال ابن عطية في تفسير هذه الآية: «ومقصد هذه الآية أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي لإضلال ابن آدم من كل وجه، وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أمكنه من معتقده، وينسّيه صالح أعمال الآخرة،

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٣٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨، والدر المنثور ٣/ ١٣٦.
(٢) المراجع نفسها.
(٣) تفسير الطبري ٨/ ١٣٧، والبغوي ٣/ ٢١٨.
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٣٢٤.

ويغريه بقبيح أعمال الدنيا، فعبّر عن ذلك بألفاظ تقتضي الإحاطة بهم»[1].

ولقد كان النبي ﷺ يسأل الله ﷻ أن يحفظه من كل الجهات تعليماً لأمته أن يستعينوا بالله - تعالى - لسدّ هذه الأبواب أمام كيد عدو الله وغوايته، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يَدَع هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يُمسي: (اللّهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللّهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللّهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي)، قال: يعني الخسف[2].

ومن أجل كيد الشيطان للإنسان وخطره عليه وسوء مراده وغايته منه، فقد حذّر الله ﷻ بني آدم من هذا العدو اللّدود في آيات كثيرة، حيث بيّن لهم شدة عداوته لهم، وتربصه بهم الشر في كل مجال من مجالات الحياة، وكيده لهم وشراسة صراعه معهم، كي يصرفهم عن منهج الله الذي شرعه لهم، «فقد وجّه الإسلام قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذي ينشئه في الأرض، والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان وحزبه، وهي معركة دائمة لا تضع أوزارها، لأن الشيطان لا يملّ هذه الحرب التي أعلنها منذ لَعْنِهِ وطَرْدِه، والمؤمن لا يغفل عنها، ولا ينسحب منها، وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله، وإما أن يكون ولياً للشيطان، وليس هناك وسط»[3]، فيقول - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ

---

(١) تفسير ابن عطية ٥/٤٤٧.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٥٢، وأبو داود في الأدب، حديث [٥٠٧٤] باب ما يقول إذا أصبح، والنسائي في السنن الكبرى ٦/١٤٥، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٥٥٦]، وابن حبان في صحيحه ٢/١٥٥، وابن ماجه في الدعاء حديث [٣٨٧١] باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، والحاكم في المستدرك ١/٦٩٨، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) في ظلال القرآن ٢/٧٦١.

عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ...﴾ الآية [النور: ٢١]، ويقول ـ تعالى ـ مُبيّناً حرص الشيطان على غواية الإنسان وإضلاله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة ٩١].

وفي معرض بيان الله ﷻ لبني آدم فتنة الشيطان وأمره لهم أن يعتبروا بغواية هذا العدو لأبينا آدم وزوجه وما كان من عاقبة هذه الغواية من إخراج أبينا من الجنة، ولكي لا يستمر خداع الشيطان لبني آدم يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]، وتكمن شدّة هذه العداوة في أنها من عدو خفي، فهو يأتي للإنسان ويؤثر فيه من حيث لا يراه كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وحينئذ يجب أن تكون مواجهة الإنسان لهذا العدو واتقاء خطره على مستوى أساليبه التي يدخل بها على الإنسان، فنقاومه كما نقاوم الأمراض التي لا نراها مثل «الميكروبات» وغيرها من الأمراض التي تفتك بالإنسان من حيث لا يراها، ولكلٍ علاجٌ يناسبه، يقول المراغي: «الخلاصة: إن هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، جاءت تعليلاً للنهي عن تمكين الشيطان مما يبغي من الفتنة، وتأكيداً للتحذير منه وتذكيراً بشديد عداوته وضرره،

والضرر إذا جاء من حيث لا يُرى كان شديد الأثر عظيم الخطر»[1]، وفي مشهد من مشاهد يوم القيامة يوجّه الله الخطاب للمجرمين ناعياً عليهم اتّباعهم للشيطان بعد أن أنذرهم وحذّرهم من اتّباعه في الدنيا، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَامْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

ففي هذه الآيات الكريمات نداءات ربانية من الله ـ تعالى ـ للإنسان ليعرف عدوه الحقيقي، وأن لا يكتفي بمجرد المعرفة بهذا العدو، بل عليه أن يتخذه عدواً وينصب العداء بينه وبين الشيطان، وأن يتصدّى له في صراعه معه في معركته الخالدة بكل ما آتاه الله ﷻ من أسلحة ووسائل تدفع عدوانه وترد كيده.

ومع تحذير الله ـ تعالى ـ عباده من هذا العدو الخطير وبيان عداوته لهم وتربصه الشر بهم في كل ميدان من ميادين حياتهم، فإن الإنسان توجّه بكل ما آتاه الله من قدرة فكرية وتسخير لثروات هذا الكون، إلى إقامة الحواجز بينه وبين كل أنواع الشرور وسدِّ بابها، وسعى بكل جهده إلى إيجاد أسباب الأمن والسلامة في جميع مجالات الحياة، إلا أنه غفل، أو تغافل، عن رأس الشر ومصدره إبليس، ففي حين حرص الإنسان بشتى الوسائل إلى إيجاد الحياة الآمنة والسليمة من الشرور والآفات، إلا أنه يسّر أسباب منافذ الشيطان ووسّع أبواب مداخله وتمكّنه منه، ولذا لم تنجح تلك الجهود البشرية لإقامة الحياة الآمنة في ظل تلك الغفلة عن عدو الإنسان الأول وذريته، فسيطر إبليس على كثير من بني آدم، ونفَّذ خططه فيهم بكل يسر وسهولة، وصار يقودهم إلى كل بلاء ومصيبة، خاصة في

---

(١) تفسير المراغي ٨/١٢٧.

هذا العصر الذي ثُبّتت فيه أركان الشيطان وأقيمت دولته نتيجة لانتشار وسائل الفساد في زمن أصبح فيه اقتناء تلك الوسائل من مظاهر الرقي والحضارة، لا سيما أن من يتولى إدارتها وتغذيتها بما تبثّه من مواد فاسدة هم اتباع عدو الله وأولياؤه، فنشط إبليس في غوايته للإنسان وصرفه عن صراط الله المستقيم، فأصبح لعدو الله صولات وجولات لم يعهدها في عهود ماضية، فما تلك الجرائم والمشكلات والمصائب التي تحدث في كثير من عالم البشرية اليوم، حتى أصبحت تُعدّ بالدقائق والثوان، إلا مؤشر واضح على قيادة هذا العدو اللّدود لكثير من الناس حتى حقَّق فيهم وعيده، الذي أقسم به: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

والعجيب أنك تجد المعنيين بوضع مناهج التربية والسلوك والأخلاق لم يغفلوا جانب النفس والعناية بها، بل اهتموا بها غاية الاهتمام، في حين أهملوا التَّعرّف على عدوهم اللدود مع شدة خطره عليهم وتمكُّنه منهم، علماً أن القرآن الكريم والسُنَّة الشريفة عُنيا بذكر الشيطان أكثر من اعتنائهما بذكر النفس بل إن الشيطان أفردت له سورة كاملة في القرآن الكريم، يقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تأمَّل القرآن والسَّنَّة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيده ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذُكرت في قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، واللوّامة في قوله: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب ـ تعالى ـ لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا هو الذي لا ينبغي غيره، فإن شرَّ النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مَرْكَبُه وموضع شرِّه، ومحل طاعته، وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوّذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله ﷺ: (ونعوذ بالله من شرور

أنفسنا ومن سيئات أعمالنا)[(١)]»[(٢)].

ولقد ابتلى الله ـ تعالى ـ الإنسان في الدنيا بتسليط عدوه عليه ليمحِّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، فقد جعل الله ﷻ مع كل إنسان شيطاناً ملازماً له ومقترناً به، ليبقى هذا الإنسان سالكاً درب الجهاد في معركته الدائمة مع عدوه الشيطان، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فَغِرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: (ما لك يا عائشة؟ أَغِرْتِ؟)، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: (أقد جاءك شيطانك؟)، قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: (نعم)، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: (نعم)، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: (نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم)[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود ﵁ كتاب النكاح، حديث [١١٠٥] باب ما جاء في خطبة النكاح، وقال أبو عيسى: «حديث عبد الله حديث حسن، رواه الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله، عن النبي ﷺ، ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله عن أبي الأحوص وأبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ»، الجامع الصحيح للترمذي ٣/٤٠٥، وأخرجه النسائي في الجمعة، حديث [١٤٠٤] باب كيفية الخطبة، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٤٨٨] و[٤٨٩] و[٤٩٢]، وأبو داود بدون قوله: (وسيئات أعمالنا) كتاب النكاح، حديث [٢١١٨] باب في خطبة النكاح، وابن ماجه في النكاح، حديث [١٨٩٢] باب خطبة النكاح.

(٢) إغاثة اللهفان، لابن قيّم الجوزية ١/١٠٧.

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، حديث [٢٨١٥] باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس.

واختلف في ضبط ميم (فأسلم) أهي بالضم أم بالفتح؟ قال النووي: «وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: أسلم من الإسلام وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطَّابي: الصحيح المختار الرفع، ورجَّح القاضي عياض الفتح، وهو المختار لقوله ﷺ: (فلا يأمرني إلا بخير)»، صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٥٧ ـ ١٥٨، والذي يظهر أن الفتح أرجح لأمور هي:

١ ـ أنه ظاهر الحديث، قال القاضي عياض في الشفا، بتعريف حقوق المصطفى ٢/١١٨: =

فلا ينتصر الإنسان على الشر والفساد والرذيلة؛ إلا إذا انتصر على عدوه إبليس، الذي هو مصدر كل شر وفساد في الأرض.

وملازمة الشيطان للإنسان لا تعني أن للشيطان سلطاناً على بني آدم، بل سلطانه على من أسلم زمام قيادته لعدوه الشيطان واختار سبل الشر والفساد والرجس، يقول ـ تعالى ـ مُبيّناً هذه الحقيقة لعباده ولعدوه إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠]، وإذا كان يوم القيامة فإن إبليس سيعلن هذه الحقيقة لحزبه وأتباعه الذين استجابوا له وتولّوه من دون الله، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي

= «روى فأسلمُ بضم الميم، أي فأسلمُ أنا منه، وصَحّح بعضهم هذه الرواية ورجحها، ورُوي فأسلَمَ، يعني القرين أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخير كالمَلَك، وهو ظاهر الحديث».

٢ ـ أنه جاء في حديث آخر ما يؤيد هذا المعنى وهو ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وُكل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)، أخرجه مسلم في صفات المنافقين، حديث [٢٨١٦] باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، قال ابن حبان في صحيحه ٨/ ١١٠ بعد أن ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يأمره إلا بخير، لا أنه كان يَسْلم منه وإن كان كافراً».

٣ ـ إن الجن منهم المؤمن والكافر، والكافر شيطان، فمن برئ من كفره ودخل في الإسلام فإنه يقال عنه: أسلم وصار من مسلمي الجن، ولا يُسمّى شيطاناً، فالله ـ تعالى ـ جعل نبيه ﷺ كغيره من الناس من جهة اقتران الشيطان بالإنسان، فأعان الله نبيه على شيطانه حتى دخل في الإسلام، يقول الطحاوي بعد أن ذكر حديث عائشة رضي الله عنها: «فوقفنا على أن رسول الله ﷺ قد كان في هذا المعنى كسائر الناس سواه، وأن الله أعانه عليه بإسلامه الذي هداه له حتى صار ﷺ في السلامة منه بخلاف غيره من الناس ممن هو معه من جنسه»، مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي ١/ ٣٠.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ[1] إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فالسلطان الذي نفاه الله عن الشيطان هو سلطان الحُجَّة والدليل، فليس لإبليس حُجَّة في الأصل على ما يدعو إليه، وأما السلطان الذي أثبته الله لإبليس فهو سلطان التسلط بالإغراء والتزيين للمعاصي في نفوس أوليائه، فحين دعاهم إبليس إلى مراده وافقت تلك الدعوة أهواءهم وأغراضهم، ففتحوا له السبل ومدّوا أيديهم إليه واستجابوا لدعوته، فمكّنوا عدوّهم من السيطرة عليهم، حتى صار له سلطان عليهم، وأما من استجاب لدعوة الله ـ تعالى ـ وتعلَّق بحبله المتين وسلك صراطه المستقيم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنه ليس للشيطان عليه سلطان، مهما حاول معه من خلال وساوسه وأفكاره الرديئة، فإنه يزداد تمسُّكاً بحبل ربه واتّباعاً لمنهجه، وقد تؤثر فيه تلك الوساوس أحياناً، إلا أنه سرعان ما يتوب إلى ربه ـ تعالى ـ من قريب، كما أخبر الله بذلك عن عباده المتقين في صريح كتابه ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ولقد اتّبع عدو الله الشيطان في صراعه مع الإنسان سُبلاً مختلفة، وأساليب ماكرة كي يصرف هذا الإنسان عن منهج الله القويم ويصدّه عن صراطه المستقيم، ومن رحمة الله ـ جل وعلا ـ بعباده، أن كشف لهم تلك الأساليب الشيطانية في كتابه الكريم، وبيّن لهم أسلحة ووسائل عدوهم التي يستخدمها في حربه معهم، والسُبل التي ينفذ منها إليهم، والمكائد التي يدبّرها ضدهم.

ولمّا كان هذا البحث دراسة قرآنية في أحوال الشيطان مع عدوه الإنسان فإني سأتناول ـ بمشيئة الله تعالى ـ تلك الأساليب التي يستخدمها الشيطان في غواية الإنسان وزيغه وإضلاله عن المنهج الحق، والتي أخبرنا بها القرآن الكريم في كثير من آياته، وذلك في المباحث الآتية.

---

(١) أي: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله فمنجيّ منه، انظر: تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٠.

المبحث الأول

أمره بالفحشاء والمنكر

إن من المسَلّم به أن الشيطان لا يأمر بخير مَحْضٍ أبداً، بل هو أساس كل شر ومصدره والداعي إليه، ومن الشرِّ الذي يدعو إليه الشيطان بني آدم الوقوع في الفحشاء والمنكر، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من معاني الفساد والخبث والرذيلة، حيث يدعو الإنسان إلى تلك القبائح والمنكرات، مظهراً له النصح والمحبة والشفقة عليه كما أقسم لأبويه من قبل بأنه ناصح لهما فيما يدعوهما إليه من الأكل من الشجرة، فدلّاهما بغُرور حتى أوقعهما فيما نهاهما الله ـ تعالى ـ عنه.

إن الأمر بالفحشاء والمنكر مكيدة من مكائد عدو الله الشيطان، وأسلوب من أساليبه التي يتّبعها في إغواء الإنسان وإضلاله، وسلاح من أسلحته التي يستخدمها في صراعه مع عدوه الإنسان، فهو أسلوب ماكر وباب خطير زلّت فيه أقدام كثير من بني آدم، ولقد كشف الله ﷻ لنا هذا الأسلوب الذي ينتهجه عدو الله مع بني آدم وحذرنا من الاستجابة إليه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ...﴾ الآية [النور: ٢١]، ومع تحذير الله ﷻ لنا من هذا الأسلوب الشيطاني الماكر، فقد نهانا عن كل فحشاء ومنكر وكل فساد ورذيلة في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

فمنهج الشيطان الأساس في غوايته لبني آدم أن يدعوهم إلى كل ما

حذّرهم الله ـ تعالى ـ منه ويأمرهم بكل ما نهاهم الله ـ جل وعلا ـ عنه، حيث إن بداية ضلال إبليس ومعصيته كانت حين خالف أمر الله ـ سبحانه ـ بالسجود لآدم عليه السلام، فصارت تلك المخالفة أصلاً في كل ما يدعو إليه الشيطان بني آدم، يقول الأستاذ رفاعي سرور: «واعتبار نَقْضِ أمر الله خطّاً أساسياً في غواية الناس، أبرز في عمل الشيطان صفة خطيرة، وهي صفة التماثل بين غواية إبليس نفسه والشياطين، وبين إغواء الشياطين للناس، وذلك باعتبار أن غواية إبليس نفسه كانت بتلك الصفة، وهي مخالفة أمر الله، ومن هنا كانت معصية إبليس هي المنطلق الأساسي لعمل الشيطان في عمل الناس، فعندما عصى إبليس ربه عز وجل كان الشر الذي ينتهي عنده كل شر، وكانت هذه المعصية هي المنطلق العملي والمنهجي لإبليس وغوايته ابتداءً، وإغوائه لبني آدم انتهاءً»[1].

فينبغي للإنسان أن يحذر هذا العدو الذي يدعو إلى كل ما نهى الله عز وجل عنه، ويأمر بفعل المحرمات وانتهاكها والحضّ على ذلك، وليعلم أن الشيطان لا يمكن أن يكون ناصحاً له، وليتذكر أن هذا العدو جمع أمره وحشد جنده لغواية بني آدم في حياتهم الدنيا وصرفهم عن منهج الله وشرعه، وقد أقسم على ذلك بقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، قال ابن الجوزي: «فمتى سوّل ـ أي إبليس ـ للإنسان أمراً فينبغي أن يحذر منه أشد الحذر وليقل له حين أمره إياه بالسوء: إنما تريد بما تأمر به نصحي ببلوغي شهوتي، وكيف يتّضح صواب النصح للغير لمن لا ينصح نفسه، كيف أثق بنصيحة عدو؟ فانْصَرِف فما فيّ لقولك منفذ، إلا أنه يستعين بالنفس لأنه يحثّ على هواها، فليستحضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب، لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس»[2].

---

(١) عندما ترعى الذئاب الغنم، لرفاعي سرور ص٤٨.

(٢) تلبيس إبليس ص٣٤ ـ ٣٥.

فالأمر بالفحشاء والدعوة إليها من أوسع أبواب الشيطان التي يدعو الإنسان إليها، وهي كل ما فحش من القول والعمل، قال الطبري: «أما الفحشاء فهي مصدر مثل السرَّاء والضرَّاء، وهي كل ما استفحش ذكره وقبح مسموعه»[١].

والمنكر: هو ما يبغضه الله وتنكره شريعته وينفر عنه ذوو العقول والطِّباع السليمة، قال البغوي: «المنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنَّة»[٢]، وقال القرطبي: «والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعمّ جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها»[٣].

وحين ينهى القرآن الكريم عن المنكر، فإنه يخصّ اسم «المنكر» بالنهي تارة، ويقرنه بالفحشاء تارة أخرى، وذلك لاعتبار عموم الأسماء وخصوصها بحسب الإفراد والتركيب، مثل لفظ: الفقير والمسكين، فإنه يكون لكل منهما معنًى عند الاقتران ليس هو عند الآخر، بخلاف ما إذا أفرد أحدهما فإنه يكون عامّاً لما يدل عليه اللفظان عند الاقتران، وربما كان العطف على الاسم العام ببعض أنواعه على سبيل التخصيص، فإذا قرن المنكر بالفحشاء كان مبنى الفحشاء على المحبَّة والشهوة، والمنكر: ما تنكره القلوب، وإذا أفرد المنكر فإنه يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه[٤].

فالشيطان يدعو إلى كل ما نهت عنه الشريعة واستقذرته النفوس السليمة، فجميع المعاصي والرذائل والقبائح تندرج تحت الفحشاء والمنكر التي يسعى الشيطان إلى جرّ الإنسان للوقوع فيها من خلال اتّباع خطواته الماكرة، يقول السعدي بعد أن ذكر معنى الفحشاء والمنكر: «فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك ـ أي الفحشاء والمنكر ـ

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٧٧.
(٢) تفسر البغوي ٥/ ٣٨.
(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ١٦٧.
(٤) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

فنهى الله عنها العباد، نعمة منه عليهم، أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنّس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها»[1]، فهي رحمة من الله ـ تعالى ـ لعباده أن حَذّرهم من الفحشاء والمنكر، وأخبرهم بأنهما مكيدة من مكائد الشيطان التي يتربص بها بني آدم، وقد جاء هذا التحذير الربّاني بعبارة موجزة وأسلوب غاية في الفصاحة والبيان، مع اقتران هذا التحذير بصورة مستنكرة تنفر عنها طباع المؤمنين وتتنزّه عنها الفِطَر السليمة، قال ابن كثير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]: «هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها»[2]، وقال سيّد قطب: «وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان فيتّبع المؤمنون خُطَاه، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان وأن يسلكوا طريقاً غير طريقه المشؤوم، صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ويرتجف لها وجدانه، ويقشعر لها خياله، ورَسْمُ هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية»[3].

والشيطان حين يأمر الإنسان بالفحشاء والمنكر ويدعوه إليهما، فإنه لا يخاطبه بألفاظ وحروف مسموعة، فإن الإنسان إذا سمع كلام الشيطان له المشحون بالغواية وتربّص الشر به، فإنه لا يستجيب له، ولكنَّ عدو الله الشيطان، بما آتاه الله من قدرة على النفوذ إلى بدن الإنسان وجريانه منه مجرى الدم، فإنه يستخدم في دعوته الإنسان إلى الفحشاء والمنكر عدة وسائل يكيد بها بني آدم ويَنْفُذُ من خلالها إليهم، لَعلَّهُ أن يتمكّن منهم فيحقق فيهم أغراضه ومكائده، فسأذكر هذه الوسائل بشيء من التفصيل، ليعرف الإنسان نوع السلاح الذي يستخدمه عدوه الشيطان في صراعه الدائم معه في

(١) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمٰن السعدي ٣/ ٣٩٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٦.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٠٤.

الحياة الدنيا كي يحذر من الاستجابة لها ويتقي شرها، وهذه الوسائل هي في الأمور الآتية:

أولاً: الوسوسة:

وهي صفة من صفات الشيطان الملازمة له، فهو يصل إلى صدر الإنسان ويوسوس إليه بطريقة لا نُدركها، حتى يقوده إلى مهاوي الردى ومواطن الرذيلة والخيبة والخسران، فقد مكّن الله ﷻ الشيطان من استخدام هذه الوسيلة في معركته مع الإنسان، بل هي أكثر وسيلة يستخدمها عدو الله في دخوله على الإنسان، ولذا فقد أطلق القرآن الكريم صفة الوسوسة على الشيطان لالتصاقه بها وغلبتها عليه، يقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ ـ ٦]، قال الزمخشري: «(الوسواس) اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فوِسواس بالكسر كزِلزال، والمراد به الشيطان، سُمّي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه، لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه»(١).

فالوسوسة مبدأ كل شر يدعو الشيطان بني آدم إليه ويأمرهم بالوقوع فيه، قال ابن القيّم: «فإن قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ [الناس: ٤] يعمّ كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمّها فساداً، وهي الوسوسة، التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويُمنّيه ويُشهيّه، فيصير شهوة، ويزيّنها له ويُحسّنها ويُخيّلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثّل له ويخيّل ويمنّي ويشهّي ويُنسّي علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة

---

(١) الكشاف ٤/٣٠٢.

عزيمة جازمة، فيشتدّ الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً... ثم قال: فأصل كل معصية وبلاء إنما هو من الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذٍ منه»[1].

وإنَّ من الملاحظ أن القرآن الكريم مع ما اشتمل عليه من بيان عداوة الشيطان للإنسان وخطره عليه، وتحذير الإنسان من اتّباع سبيل الشيطان وغواياته، إلا إننا نجد أن القرآن الكريم بأكمله قد خُتم بهذه السورة «سورة الناس»، التي ذكر فيها الشيطان بالصفة الملاصقة له؛ وهي صفة الوسوسة، فكأن نَسَقَ القرآن الكريم يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه من بيان القرآن الكريم لمنهج الهداية والخير والفلاح، ولصراط الله المستقيم والدعوة إلى ذلك، فجاءت هذه السورة في نهاية هذا الذكر الحكيم لتُؤَكِّد هذا المفهوم، بأن من أراد طريق الخير والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ورغب عن سبيل الفساد والضلال والخسران في الدارين، فليحذر من هذا الوسواس الخناس، فإن الشرَّ كل الشرّ الذي حذَّر القرآن الكريم منه هو من وسوسة الشيطان الرجيم، والخير كل الخير في عدم الاستجابة لتلك الوسوسة بسدّ بابها عند أول خواطرها، فالأمر بالاستعاذة من الوسواس في خاتمة هذا القرآن الكريم هو في الحقيقة استعاذة من جميع الشرور التي حذّر منها القرآن الكريم، ولذا جاءت الاستعاذة منها بثلاث صفات لله ـ جل وعلا ـ وهي: ربوبيته ـ تعالى ـ وملكه وألوهيته، قال أبو حيان: «ولما كانت مضرَّة الدِّين وهي آفة الوسوسة، أعظم من مضرَّة الدنيا وإن عظمت، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث: الرب والملك والإله»[2].

واختلف الناس في كيفية وسوسة الشيطان للإنسان على أقوال هي:

أ ـ قال قائلون: يجوز أن يكون الله ـ تعالى ـ جعل الجوَّ أداة لهم

(١) بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨.
(٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٥٣٢.

ـ يعني الشياطين ـ أو جعل لهم أداةً عبر الجوّ، وذلك مُتَّصل بالقلب، فيُحركُ الشيطانُ تلك الآلة من جهة خروق الإنسان فيوصل الوسوسة إلى قلبه بتلك الآلة، مثال ذلك: أنك تأخذ الرُّمح وبينك وبين الإنسان عشرة أذرع، فتكلم فيه فيسمع الإنسان، إذا كان الرمح مجوّفاً وكان متَّصلاً بسمعه[1].

ب ـ وقال قائلون: جسم الشيطان أَرَقّ من أجسامنا، وكلامُهُ أخفى من كلامنا، فيجوز أن يصل إلى سمع الإنسان فيتكلّم بكلامه الخفي، فيكون ذلك هو الوسوسة[2].

جـ ـ وقال قائلون: بل يدخل إلى قلب الإنسان بنفسه حتى يوسوس فيه[3].

ويرى ابن عقيل[4] أن الوسوسة هي كلام تميل إليه النفوس والطِّباع[5].

والحقيقة أن الوسوسة من الشيطان أمر خفي لا يمكن للإنسان الاطلاع عليه، فكيفية حصولها واستخدام الشيطان لها لا يُعرف إلا بدليل يبيّن ذلك، والله ـ تعالى ـ لم يخبرنا عن كيفية تلك الوسوسة، وإنما أخبرنا ﷺ عن وقوعها في صدر الإنسان فيجد الإنسان أثرها في نفسه،

---

(١) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ٢/ ١٢٣.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) هو: علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبد الله البغدادي الظفري الحنبلي، أبو الوفاء، شيخ الحنابلة، وصاحب التصانيف المفيدة، كان إماماً مبرّزاً، كثير العلوم، خارق الذكاء، مكبّاً على الاشتغال والتصنيف، وقد ألف كتاب «الفنون» الذي يزيد على أربعمائة مجلد، وكان يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب، فبرز على أقرانه وساد أهل زمانه في فنون كثيرة، مع صيانة وديانة، وقد متّعه الله بجميع حواسه إلى أن توفي بكرة الجمعة سنة ٥١٣هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٤٣، العبر ٢/ ٤٠٠، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٧.

(٥) انظر: آكام المرجان في أحكام الجان للشبلي ص١٥٧.

يقول المراغي: «الملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لا نعرف حقيقته، بل نؤمن به كما ورد، ولا نزيد عليه شيئاً»[1]، فالشيطان يدعو الإنسان إلى طاعته من خلال هذه الوسوسة، فيصل مفهومها إلى القلب من غير سماع صوت. يقول ابن القيّم: «فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد»[2]، ثم إن دَرْء شر الشيطان ووسوسته لا يتوقف على معرفة طريقة حدوث الوسوسة وكيفيتها، فما أرشدنا الله ـ تعالى ـ إليه من أسلحة في حربنا مع عدو الله الشيطان كافٍ في دفع شروره بأنواعها، دون معرفة كيفية حصولها.

وقد استخدم إبليس هذه الوسيلة ـ وسيلة الوسوسة ـ لأول مرة مع أبينا آدم عليه السلام وزوجه حواء، فدخل عليهما من خلال الوسوسة حتى أغراهما بالأكل من الشجرة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: ١٢٠].

فالوسوسة حِيْلَة من حِيَل إبليس في دخوله على المؤمنين، وهو مستمر في حيلته ومواظب عليها لا يفتر عنها، إذ يوسوس للإنسان بالأمور القبيحة والأفكار الرديئة، يقول الفخر الرازي عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]: «المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يَفْتر عنها، ولهذا المعنى ذُكر القعود، لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال، فيمكنه إتمام المقصود، ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة لا يفتر عنها»[3]، ومع استمرار

---

(١) تفسير المراغي ١٥/ ١٦١.
(٢) التفسير القيم، لابن القيم ص٦٠٠.
(٣) التفسير الكبير ١٤/ ٣٨.

الشيطان في وسوسته للمؤمنين إلا أن وسوسته لا تجد عندهم قبولاً ولا استجابةً لما يمليه عليهم عدو الله من تلك الوسوسة، بل يزدادون قُرباً إلى ربهم وذكراً له ـ تعالى ـ سبحانه ومواظبةً على اتّباع صراطه المستقيم، يقول ـ تعالى ـ واصفاً عباده المتقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، قال محمد رشيد رضا[(١)]: «وقد ثبت أن المتقين يمسُّهم طائف من الشيطان، وهو الوسوسة أو مبدأها، ولكنه إذا مسّهم تذكروا فإذا هم مبصرون فلا يقعون في فخِّ طاعته، بل يُنبههم طائفهُ من الغفلة، فيكونون بعد مسّه أشد اتقاءً لما لا ينبغي، واجتهاداً فيما ينبعي»[(٢)]، وفي قوله: «طائف» ثلاث قراءات:

أ ـ قرأ عامة أهل المدينة والكوفة «طائف»[(٣)].

ب ـ وقرأ أبو عمرو[(٤)] ويعقوب[(٥)] البصريان والمكّي[(٦)]

---

(١) هو: محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الأصل، من العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، نشأ في القلمون وتعلم فيها وفي طرابلس، ونظم الشعر في صباه، ورحل إلى مصر وأصدر مجلة «المنار» لبثِّ آرائه في الإصلاح، وزار بلاد الشام، وعاد إلى مصر وأنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد، وعاد فاستقر في مصر إلى أن توفي سنة ١٣٥٤هـ، وله عدّة مؤلفات من أشهرها التفسير المعروف «بتفسير المنار».
انظر: الأعلام ٦/ ١٢٦، معجم المؤلفين ٩/ ٣١٠.

(٢) تفسير المنار ٧/ ٥١٣.

(٣) تفسير الطبري ٩/ ١٥٧.

(٤) اختلف في اسمه فقيل: زبَّان، وقيل: العريان، بن العلاء بن عمّار بن العريان بن عبد الله التميمي المازني البصري، أبو عمرو، أحد القراء السبعة، كان من أعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر، توفي سنة ١٥٤هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦، بغية الوعاة ٢/ ٢٣١، البلغة ص١٠١.

(٥) هو: يعقوب بن إسحاق بن يزيد بن عبد الله الحضرمي بالولاء البصري، أحد القراء العشرة، كان إماماً مجوداً حافظاً، أقرأ أهل زمانه، وله بعض المصنفات، توفي سنة ٢٠٥هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/ ٦٤٤، البلغة ص٢٤٢، وفيات الأعيان ٦/ ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦٩.

(٦) هو: عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان الكناني الداري المكي، أبو معبد، =

والكسائي[١] «طَيْف»[٢]، وبها قرأ إبراهيم النخعي[٣].

جـ ـ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحَّاك بالتشديد: «طَيِّف» من غير ألف[٤]، وقال الأخفش: «الطيف أكثر في كلام العرب من الطائف»[٥]، قال ابن الأنباري: «وجائز أن يكون (طَيْف) أصله (طَيِّف) إلا أنهم استثقلوا التشديد، فحذفوا إحدى الياءين وأبقوا ياءً ساكنة»[٦].

وإذا كان القراءات هي بين «طائف» و«طيف» بتخفيفها وتشديدها، فهل هما بمعنى واحد أم يختلفان؟ على قولين:

القول الأول: إنهما بمعنى واحد، وهما ما كان كالخيال والشيء يُلم بك[٧]، قال الرغب الأصفهاني: «وقد قُرئ (طَيْفٌ) وهو خيال الشيء وصورته المرائي له في المنام أو اليقظة، ومنه قيل للخيال: طيف»[٨].

القول الثاني: فرَّق بينهما قوم: فقال أبو عمرو بن العلاء: «الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللمّة والوسوسة»[٩]، وقال بعض

= أحد القراء السبعة، ثقة، وله أحاديث صالحة، توفي سنة ١٢٠هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٦/ ٣٢، الثقات ٨/ ٣٤٦، وفيات الأعيان ٣/ ٤١.

(١) هو: علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي، أبو الحسن، المعروف بالكسائي، أحد القراء السبعة، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات، وله عدة مصنفات، توفي سنة ١٨٩هـ.
انظر: تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٣، الأنساب ٥/ ٦٥، وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٥، بغية الوعاة ٢/ ١٦٢.

(٢) النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٧٥، والبدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص١٢٧.

(٣) معاني للقرآن للفراء ١/ ٤٠٢.

(٤) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٠٩.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) التفسير الكبير للرازي ١٥/ ٩٩.

(٧) تفسير الطبري ٩/ ١٥٧.

(٨) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة «طوف» ص٣٢٠.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣١٧.

الكوفيين: «الطائف: ما طاف بك من وسوسة الشيطان، وأما الطَّيف فإنما هو من اللمم والمسّ»[١].

والأولى حمل الآية على عموم ما يطوف الشيطانُ بالإنسانِ من كيده وخذلانه وتربصه الشر به، وتدخل فيه الوسوسة دخولاً أوّلياً، إذ هي أول طائف الشيطان وبدايته، قال الطبري: «وإنما يطوف الشيطان بابن آدم ليستزلَّه عن طاعة ربه، أو ليوسوس له، والوسوسة والاستزلال هو الطائف من الشيطان»[٢]، وقال: «فلا وجه لخصوص معنى منه دون معنى، بل الصواب أن يَعُمّ كما عمّه ـ جل ثناؤه ـ، فيُقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان ما كان ذلك العارض تذكَّروا أمر الله وانتهوا إلى أمره»[٣].

وتُعتبرُ الوسوسة هي منتهى كيد الشيطان ومكره بالمؤمن، وهي دليل ضعفه وعجزه أمام عباد الله المؤمنين، إذ لا يستطيع تجاوزها إلى تحقيق مقصده الخبيث، فلا تجد وسوسته سبيلاً لبلوغ مراده فيهم، كما أخبر ـ تعالى ـ بذلك في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، قال ابن جرير: «يعني بكيده: ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أولياءه من الكفار بالله على رسوله وأوليائه أهل الإيمان به يقول: فلا تهابوا أولياء الشيطان فإنما هم حزبه وأنصاره، وحزب الشيطان أهل وَهْنٍ وضعف»[٤]، ويقول السعدي: «فالشيطان، وإن بلغ مكره مهما بلغ، فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين»[٥]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أحدّث

---

(١) تفسير الطبري ٩/١٥٨.
(٢) المرجع نفسه ٩/١٥٧.
(٣) المرجع نفسه ٩/١٥٨.
(٤) تفسير الطبري ٥/١٦٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ١/ ٣٧١.

نفسي بالشيء لأن أخِر من السماء أحب إليَّ من أن أتكلم به، فقال النبي ﷺ: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة)[1].

ولقد أخبر النبي ﷺ أن ما يجده المؤمن في نفسه من وسوسة الشيطان هو مَحْضُ الإيمان وصريحه، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: (تلك مَحْضُ الإيمان)[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدُنا أن يتكلم به، قال: (قد وجدتموه؟)، قالوا: نعم، قال: (ذاك صريح الإيمان)[3].

فما أخبر به النبي ﷺ من أنه صريح الإيمان، هو استعظام الرجل أن يتكلم به وشدّة خوفه من النطق به، وما حصل في قلبه من الهمِّ والاغتمام من ذلك، قال الخطَّابي: «(ذاك صريح الإيمان) معناه: أن صريح الإيمان هو الذي يمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم، والتصديق به، حتى يصير ذلك وسوسة، لا يتمكّن في قلوبكم، ولا تطمئن إليه أنفسكم»[4].

وقال النووي: «معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان، فإن استعظام هذا وشدّة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٢٣٥، وأخرجه ابن حبان في صحيحه بلفظ (ردّ أمره) ١/ ١٨٠، ٨/ ٢٤، وأبو داود في الأدب، حديث [٥١١٢] باب في رد الوسوسة، والنسائي في عمل اليوم والليلة حديث [٦٦٧]، والبيهقي في الشعب بلفظ ابن حبان ١/ ٣٠٢، وابن أبي عاصم في السنة، حديث [٦٥٨] والطيالسي بلفظ: (الحمد لله الذي لم يقدر منكم إلا على الوسوسة) حديث [٢٧٠٤].

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٣٣] باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٣٢] باب بيان الوسوسة في الإيمان.

(٤) معالم السنن للخطَّابي بهامش سنن أبي داود ٥/ ٣٣٦.

لمن استكمل الإيمان استكمالاً مُحقَّقاً وانتفت عنه الريبة والشكوك»[1]، وقال كثير من العلماء: فكراهة ذلك وبُغضه، وفرار القلب منه، هو صريح الإيمان[2].

فبشَّر النبي ﷺ المؤمنين بأن ما يجدونه من الوسوسة إنما هو علامة الإيمان، وأن هذه الوسوسة دليل على هزيمة الشيطان وضعفه وعجز كيده على المؤمنين، فعدو الله يحرص أشدَّ الحرص أن ينفذ من خلال وسوسته إلى القلوب المليئة بالإيمان لَعلَّه يزعزع إيمانها ويهز ثباتها واطمئنانها وثقتها بربها ـ تعالى ـ، إلا أن كيده يندحر عند عتب نور تلك القلوب المضيئة بالإيمان، فلا يجد له حيلة إلا أن يقف على بابها الذي يجده موصداً أمام وساوسه، قال أبو إسحاق المقدسي: «طيّب النبي ﷺ قلوب المؤمنين لما اغتموا بالوسوسة، بأنها علامة الإيمان ليكون ذلك تسلية لهم، والكفار قلوبهم خالية من الخير ممتلئة من الشر قد صيّرها الشيطان بيتاً لنفسه، فماذا يوسوس له ليفسد عليه صلاته، بخلاف المؤمن فإن عنده كنزاً يدور عليه الشيطان، فالقلوب ثلاثة: قلب خالٍ من الإيمان والخير، وهو قلب الكافر، بيت الشيطان، وقلب فيه إيمان وعليه ظلمة الشهوات، فهناك إقبال وإدبار فلا يخلو من وسوسة، وقلب محشو بالإيمان، كله نور، ولنوره في صدره إشراق، ولإشراقه شعاع، ولإشعاعه شُعَل، فإذا دنا منه الوسواس صار رماداً»[3].

والشيطان يستخدم وسيلة «الوسوسة» في صراعه مع الإنسان، خاصَّة كلما توجَّه العبد إلى ربه وأقبل عليه، فإن الوسواس الخناس ينشط في وسوسته كي يصرفه عن إقباله إلى ربه ـ سبحانه ـ، والوسوسة الشيطانية أنواع وأصناف هي:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٥٤.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٦٠٨.
(٣) مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص١٢٥ ـ ١٢٦.

١ ـ من جهة التلبيس بالحق، قال أبو حامد الغزالي: «فإن الشيطان قد يلبّس بالحق فيقول للإنسان: تترك التنعّم باللذات، فإن العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم. فعند هذا إذا ذكر العبد عظيم حق الله ـ تعالى ـ وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه: الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما، فإذا ذكر العبد وعد الله ـ تعالى ـ ووعيده وجدّد إيمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب»(١).

٢ ـ تكون الوسوسة بتحريك الشهوة وهيجانها وتزيينها في عين الإنسان.

٣ ـ الوسوسة التي تكون بمجرد الخواطر وتَذَكُّر الأحوال الغائبة(٢).

وتعتبر الصلاة من أعظم المجالات التي يستعمل فيها الوسواس وسوسته، فهو يستخدم هذه الوسيلة في تشويشه على المصلي وصرفه عن التدبّر والخشوع فيها، فيذهب بفكره عن مضمون صلاته فربما فرغ من صلاته لا يدري ماذا قال فيها، حيث يشغل فكره بتذكر أمور الدنيا حتى لا يدري المصلي كم صلى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أحال(٣) له ضراط، حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس)(٤)، وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضِي النداءُ أقبل، حتى إذا ثُوِّب(٥) بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضِي التثويب أقبل حتى

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٨.

(٢) انظر المرجع نفسه.

(٣) أحال: أي تحوّل من موضعه، وقيل: هو بمعنى طَفِقَ وأخذ وتهيأ لفعله، النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٦٣.

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، حديث [٣٨٩] باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.

(٥) قال الخطابي: «التثويب هنا الإقامة، والعامَّة لا تعرف التثويب إلا قول المؤذن =

يخطر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يذكره حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى)[1]، وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبّس عليه حتى لا يدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس)[2]، فالمسلم إذا دخل في صلاته فإنه في أعظم مقام يَصِل العبد بربه ويقربه إليه - تعالى -، فإذا وجد الشيطانُ العبدَ في هذا المقام فإنه يشتدّ غيظه ويزداد أنينه، فيبذل جهده ليحول بين هذا المصلي وقلبه، فيذكّره بأمور لم يكن يذكرها قبل صلاته، وهذا الشيطان الذي يوسوس للمصلي في صلاته يُسمّى «خِنْزَب»، ولقد أرشدنا النبي ﷺ إلى التعوذ بالله منه عند الإحساس بأثر وسوسته في الصلاة، وأن يتفل المصلي على يساره ثلاثاً، فعن عثمان بن أبي العاص[3] رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يُلبّسها عَليّ، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك شيطان يقال له خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتْفُل على يسارك ثلاثاً) قال:

= في صلاة الفجر: [الصلاة خير من النوم]، ومعنى التثويب الإعلام بالشيء والإنذار بوقوعه، وأصله أن يُلوّح الرجل لصاحبه بثوبه فيديره عند الأمر يُرهقه من خوف أو عدو، ثم كثر استعماله في كل إعلام يَجهر به صوت، وإنما سُمِّيت الإقامة تثويباً لأنها إعلام بإقامة الصلاة، والأذان إعلام بوقت الصلاة»، معالم السنن للخطّابي بهامش سنن أبي داود ١/ ٣٥٥.

(١) أخرجه البخاري في الأذان، حديث [٦٠٨] باب فضل التأذين، ومسلم في الصلاة، حديث [٣٨٩] باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.

(٢) أخرجه البخاري في السهو، حديث [١٢٣٢] باب السهو في الفرض والتطوع، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، حديث [٥٧٠] باب السهو في الصلاة والسجود له.

(٣) هو: عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان بن عبد الله الثقفي، أبو عبد الله، أسلم في وفد ثقيف، فأمَّره النبي ﷺ عليهم لما رأى من عقله وحرصه على الخير والدين، وكان أصغر الوفد سناً، وأمَّره أبو بكر على الطائف، ثم عمر، ثم استعمله عمر على عمان والبحرين، وكان هو الذي منع ثقيفاً عن الردة بعد وفاة النبي ﷺ، توفي سنة ٥٠هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ١٠٣٥، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٧٤، الإصابة ٤/ ٢٢١.

ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[1].

وهذا الشيطان يأتي المصلي فيشكّكه في طهارته ويوسوس له بأن طهارته غير كاملة أو منتقضة تماماً، حتى يجعل المصلي في حيرة من أمره فيؤدي صلاته وهو منشغل الفكر، أهو لا زال على طهارته أم لا؟ فيخرج من صلاته ولا يدري ماذا قال فيها، ولكن النبي ﷺ قد أرشدنا أن لا نستجيب لتلك الوسوسة وأن نكذّبها من مبدئها، إلا ما تحققنا حدوثه في الصلاة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا صلى أحدكم فلم يدر زاد أم نقص فليسجد سجدتين وهو قاعد، فإذا أتاه الشيطان فقال: إنك قد أحدثت، فليقل: كذبت، إلا ما وجد ريحاً بأنفه أو صوتاً بأذنه)[2].

فيجب على المسلم إذا قام في صلاته أن يجتهد في تدبّر ما يقوله ويفعله، وأن يقطع فكره عن سوى ذلك، وليستحضر أنه في مناجاة ربه ـ تعالى ـ كأنه يراه، وعلى المصلي أن يتذكّر أن هناك شيطاناً يجري منه مجرى الدم، وهو عدوٌّ له ويحاول أن يصرف فكره والإقبال بقلبه عن صلاته وخشوعه فيها، فليجتهد في دفع وسوسته بالإعراض عن كل ما يخطر في فكره وليس من شأن الصلاة، فالذي يُعين على دفع وسوسة الشيطان في الصلاة أمران:

الأول: قُوَّة المقتضى، باجتهاد العبد في أن يعقل ما يقول ويفعل في صلاته، وأن يتدبّر القراءة والذكر والدّعاء، ويستحضر أنه بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ.

---

(١) أخرجه مسلم في السلام، حديث [٢٢٠٣] باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، حديث [١٠٢٩] باب من قال: يتم على أكبر ظنه، وأحمد في المسند ٣/ ١٢، ٥١، ٥٣، ٥٤، وابن حبان في صحيحه ٤/ ١٥٣، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٤٧٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه».

الثاني: ضَعْفُ الشاغل وزوال العارض، بأن يجتهد المصلي في دفع ما يشغل القلب من تفكر فيما لا يعنيه، وتدبّر الجواذب التي تجذب القلب عن مقصود الصلاة[1]، والوسواس كلما قَلّ في الصلاة كانت الصلاة أتم وأكمل أجراً، ولهذا عَظُم أجر الصلاة التي يجتهد العبد فيها بدفع الوساوس والخواطر الواردة، فعن عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه[2])[3].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: (لا يُحدّث فيهما نفسه)، فالمراد لا يُحدّث بشيء من أمور الدنيا وما لا يتعلق بالصلاة، ولو عرض له حديث فأعرض عنه بمجرد عروضه عُفي عن ذلك، وحصلت له هذه الفضيلة إن شاء الله ـ تعالى ـ، لأن هذا ليس من فعله، وقد عُفي لهذه الأمة عن الخواطر التي تعرض ولا تستقر»[4].

وإذا كان الله ﷻ أخبرنا عن وسوسة الشيطان للإنسان، فإنه ـ سبحانه ـ أعطانا السلاح الذي ندفع به كيد وسوسة هذا العدو وغوايته، وهو الاستعاذة به ـ جل وعلا ـ من شر الشيطان ووسوسته، يقول ـ تعالى ـ آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من الشيطان الرجيم، ومرشداً عباده إلى هذا السلاح الفعّال لردّ وسوسة الشيطان: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٧.

(٢) المراد بالمغفرة في الحديث غفران الصغائر، أما الكبائر فتكون مغفرتها بالتوبة النصوح، قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٣/ ١٠٨: «والمراد بالغفران الصغائر دون الكبائر»، وقال السيوطي في شرحه لسنن النسائي ١/ ٦٥: «حمله العلماء على الصغائر».

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء، حديث [١٥٩] باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، وحديث [١٦٤] باب المضمضة في الوضوء، وأخرجه مسلم في الطهارة، حديث [٢٢٦] باب صفة الوضوء وكماله.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠٨.

مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٦]، إنها رحمة الله ـ تعالى ـ ولطفه بعباده أن أدلّهم على هذا الدواء الناجع لغواية الشيطان ووسوسته، ومؤكداً ﷺ في هذا البيان على أعظم ما يتّصف به الشيطان من الإلقاء الخفي في قلب الإنسان وهو الوسوسة، والتي تكون من الشيطان الإنسي بواسطة الأذن، ومن الشيطان الجني بواسطة الصدر بما له من قدرة على النفوذ إلى بدن الإنسان، فالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ إبعاد لوسوسة الشيطان وطرد لغوايته وأفكاره الرديئة التي يلقيها في نفس الإنسان.

ولقد أرشد النبي ﷺ إلى علاج وسوسة الشيطان بالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ والاعتصام به ـ سبحانه ـ من كيد عدو الله الشيطان ومكره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق وكذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينْتَه)[1]، فينبغي على الإنسان إذا عرضت له الأفكار والخواطر الرديئة أن يعتصم بالله في دفعها ولا يسترسل في تأمله وإصغائه لها، وليعلم أن تلك الخواطر هي من وسوسة الشيطان الذي يجرّ الإنسان من خلالها إلى الوقوع في فخ طاعته، قال المازري[2]: «الخواطر على قسمين: فالتي لا تستقر ولا يجليها شبهة هي التي تندفع بالإعراض عنها، وعلى هذا ينزّل الحديث ـ يعني حديث أبي هريرة المتقدم ـ وعلى مثلها ينطلق اسم وسوسة، وأما الخواطر المستقرَّة الناشئة عن الشبهة، فهي التي لا تندَّفع إلا بالنظر والاستدلال»[3].

---

(١) سبق تخريجه ص٢٢٠.

(٢) هو محمد بن علي بن عمر بن محمد التميمي المازري، أبو عبد الله، كان من كبار أئمة زمانه، وأحد الأعلام المشار إليهم في حفظ الحديث والكلام عليه، وكان أحد الأذكياء الموصوفين والأئمة المتبحرين، قال عنه القاضي عياض: «هو آخر المتكلمين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه، ورُتبة الاجتهاد، ودقة النظر... لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض أفقه منه ولا أقْوَم بمذهبهم»، توفي سنة ٥٣٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٢٨٥، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٤، العبر ٢/ ٤٥١.

(٣) فتح الباري ٦/ ٣٩٣.

واختلف في متعلق الجار والمجرور من سورة الناس في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، فهل هذا بيان للناس الموسْوَس إليهم بأنهم من الجن والإنس؟ أم أنه بيان للذي يوسوس بأنه يكون من الجن ومن الإنس؟ على ثلاثة أقوال في هذه المسألة وهي:

القول الأول: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، بيان للناس الموسوَس في صدورهم، والمعنى: يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجِنَّة والناس، أي الموسوَس في صدورهم قسمان: إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي، وهذا اختيار الفراء[١]، وبه قال ابن جرير الطبري[٢].

واستدل أصحاب هذا القول على أن لفظ «الناس» يندرج فيه الجن والإنس، بما ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يُحدّث: إذ جاء قوم من الجن فوقفوا، فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن[٣].

وقالوا أيضاً: إن الله سمَّاهم رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦]، فجاز أن يسميهم هاهنا ناساً[٤].

القول الثاني: إن الوسواس الذي يوسوس في صدور الناس هو من الجِنَّة، وهم ـ أي الموسوَس إليهم ـ من الجن، والمعنى: من شر الوسواس الذي هو من الجن، ثم عطف قوله ـ تعالى ـ «والناس» على «الوسواس»

---

(١) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي مولاهم الكوفي النحوي، أبو زكريا، المعروف بالفراء، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، أخذ النحو عن الكسائي، وكان فقيهاً عالماً بالخلاف، وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفاً بالطب والنجوم متكلّماً، يميل إلى الاعتزال، وله مصنفات عديدة، توفي سنة ٢٠٧هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/٦١٩، وفيات الأعيان ٦/١٧٦، البلغة ص٢٣٨.

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء ٣/٣٠٢، وتفسير الطبري ٣٠/٣٥٦.

(٣) تفسير الطبري ٣٠/٣٥٦، وتفسير البغوي ٨/ ٦٠٠.

(٤) تفسير الطبري ٣٠/٣٥٦، وتفسير البغوي ٨/ ٦٠٠، والتفسير الكبير للرازي ٣٢/١٩٩.

فيكون المعنى: من شر الوسواس والناس، كأنه أُمر أن يستعيذ من الجن والإنس، وهذا قول الزجّاج[(١)].

القول الثالث: إن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للوسواس الذي يوسوس في الصدور، والمعنى: من شرّ الوسواس الجني ومن شر الوسواس الإنسي، فهو استعاذة بالله من شر الموسوسين من الجنسين، قال الأخفش: «وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يريد: من شر الوسواس من الجنة والناس»[(٢)].

وقال الزمخشري: «﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، على أن الشيطان ضربان: جني وأنسي، كما قال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]»[(٣)].

وقال أبو حيان: «و(مِنْ) في ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ للتبعيض، أي كائناً من الجنة والناس، فهي في موضع الحال، أي ذلك الموسوس هو بعض الجِنّة وبعض الناس»[(٤)].

وصحَّح هذا القول ابن تيمية حيث قال: «ولم يذكر ابن الجوزي إلا قولين، ولم يذكر الثالث وهو الصحيح، وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لبيان الوسواس، أي الذي يوسوس من الجنة ومن الناس في صدور الناس»[(٥)]، وصوَّب ابن القيّم هذا القول بقوله: «فالصواب: القول الثاني، وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس في صدور الإنس»[(٦)]، كما صوّب ابن جُزي هذا القول وأظهره[(٧)].

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير ٩/ ٢٧٩.
(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤٧.
(٣) الكشاف ٤/ ٣٠٣.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٣٢.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٥٠٩.
(٦) التفسير القيم، لابن القيم ص٦١٩.
(٧) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن جزي الكلبي ٤/ ٢٢٧.

ولا ريب أن هذا القول هو الأظهر في معنى الآية للاعتبارات الآتية:

١ ـ أن سورة الناس جاءت الاستعاذة فيها من الوسواس وبيان شرِّه وجهة وسوسته، فالحديث في السُّوْرَة منصبّ على هذا الوسواس ودرء شره بالاستعاذة منه، وليس على الموسوَس إليهم.

٢ ـ أن الوسوسة إلى الإنسان تكون من جهتين: من جهة الجن، ومن جهة الإنس، فكما أن الشيطان الجني يوسوس إلى الإنسان بالمعاصي ويزيّنها له، فكذلك الشيطان الإنسي يوسوس إلى الإنسي بما يسوؤه ويخالف به أمر ربه ـ تعالى ـ، يقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا . . .﴾ الآية [الأنعام: ١١٢]، وعن أبي ذر ﷺ قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: يا أبا ذر، هل صلّيت؟ قلت: لا، قال: قم فصل، قال: فقمت فصليت ثم جلست، فقال: يا أبا ذر تعوّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن، قال: قلت يا رسول الله: وللإنس شياطين؟ قال: نعم. . .) الحديث[١].

ولقد أمر الرسول ﷺ أن يدرأ المصلي من يمر بين يديه ما استطاع، فإن امتنع هذا المار أن يتحوَّل عنه فقد أخبر ﷺ بأنه شيطان فليقاتله، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحداً يمر بين يديه وليدرأ ما استطاع فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان)[٢]، قال البيهقي: «وأخيار الجن يُسمّون ملائكة، ثم ينقسمون إلى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٧٨، ١٧٩، وأخرجه النسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، حديث [٥٥٠٧] باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس، وأخرج في السنن الكبرى نحوه ٤/ ٤٦١، وأخرجه الطبري في تفسيره من طرق مختلفة ٨/ ٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢١٧ عن أبي أمامة ﷺ، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ١٦٧ من طرق مختلفة ثم قال: «فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوّته وصحّته، والله أعلم».

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، حديث [٥٠٥] و[٥٠٦] باب منع المار بين يدي المصلي، والمراد بالمقاتلة في الحديث المدافعة التي تكون أشد من الأولى لا حقيقة القتال كما وجّه ذلك أهل العلم.
انظر: فتح الباري ١/ ٦٩٥.

رسل وغير رسل وأشرارهم يدعون شياطين، ثم قد يُستعار هذا الاسم لفجّار الإنس تشبيهاً لهم بفجار الجن»[1]، وقال ابن حجر: «وإطلاق الشيطان على المارد من الإنس سائغ شائع»[2].

٣ ـ أنه يلزم على القول الأول تقسيم الناس إلى جِنَّة وناس، فكأنه بيّن الناس بالناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

٤ ـ أن لفظ «الناس» اسم لبني آدم، ولا يطلق على الجن لا أصلاً ولا اشتقاقاً، فإن الجن سُمّوا جنّاً من الاجتنان وهو الاستتار[3]، فهم مستترون عن أعين الإنس، وأما لفظ «الناس» فمن الإيناس بمعنى الرؤية والإبصار، قال الزمخشري بعد أن ذكر القول الأول: «وما أُحِقُّه لأن الجن سمّوا جناً لاجتنانهم، والناس ناساً لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار، كما سُمّوا بشراً، ولو كان يقع (الناس) على القبيلين وصحَّ ذلك وثبت، لم يكن مناسباً لفصاحة القرآن وبُعْدِهُ عن التصنّع»[4].

٥ ـ أن ما استدل به أصحاب القول الأول، وهو إطلاق لفظ «رجال» على الجن، على جواز إطلاق لفظ «الناس» عليهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ..﴾ الآية [الجن: ٦]، وما استدلوا به أيضاً من قول قوم من الجن حينما قيل لهم: من أنتم؟ قالوا: ناس من الجن، ليس على إطلاقه، فإن لفظ «رجال» و«ناس» في هذين الاستدلالين جاء مقيداً بذكر الجن في كل منهما، ولا يلزم أن يقع هذان اللفظان على الجن عند الإطلاق.

٦ ـ أن عطف الزجّاج لفظ «الناس» على «الوسواس» في الآية، بعيد، لأن العطف على الاسم القريب أولى من عطفه على البعيد، إلا إذا كان

---

(١) شعب الإيمان ١/ ١٦٤.
(٢) فتح الباري ١/ ٦٩٥.
(٣) انظر: لسان العرب مادة «جن» ١٣/ ٩٥.
(٤) الكشاف ٤/ ٣٠٣.

هناك دليل يقتضي العطف على البعيد، فعَطْفُ «الناس» على «الجِنّة» أولى من عطفه على «الوسواس»، ثم إن قول الزجاج يلزم منه الاستعاذة من شرّ بعض الجن وشرّ جميع الناس، وهذا لا يتفق وحال شرّ كل واحد من الجنسين، فإن شرّ الجن أشد خطراً من شرّ الإنس لما لشياطين الجن من قدرة على النفوذ إلى بدن الإنسان، وجريهم منه مجرى الدم.

وبهذا يتبين أن معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] بيان للوسواس الذي يوسوس في صدور الناس بأنه من الجن والإنس، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين غير هذا المعنى في تفسير سورة الناس، قال ابن تيمية: «ويكفي أن المسلمين كلهم يقرأون هذه السورة ـ يعني سورة الناس ـ من زمن نبيهم ﷺ ولم ينقل هذان القولان ـ أي قول الفراء والزجّاج ـ إلا عن بعض النحاة، والأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ليس فيها شيء من هذا، بل إنما فيها القول الذي نصرناه، كما في تفسير معمر عن قتادة ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قال: إن في الجن شياطيناً، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن، فبيّن قتادة أن المعنى: الاستعاذة من شياطين الإنس والجن»[1].

ثانياً: النَّزْغُ والهَمْزُ:

أصل كلمة «نَزَغَ» مأخوذة من نَخسَ الرائضُ الدابَّة وحَمْله على الجري، يقال: نَزَغَه ونَسَغه إذا نَخَسه[2]، وقيل: هو إدخال الإبرة أو طرف العصا أو ما يشبه ذلك في الجلد[3]، ومنه الحديث: (صياح المولود حين يقع نَزْغَةٌ من الشيطان)[4].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/ ٥١٣.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٤٤.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٩/ ١٤٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ، كتاب الفضائل، حديث [٢٣٦٧] باب فضائل عيسى ﷺ.

والنَّزغُ: هو الدخول في أمر لإفساده[1]، قال ابن زيد: «نَزَغْت بين القوم: إذا أفسدتَ بينهم»[2].

وفي اللسان: «النّزغ: الكلام الذي يُغري بين الناس، ونَزَغه: حَرَّكَهُ أدنى حركة، ونَزَغَ الشيطان بينهم ينْزغ ويَنْزِغ نَزْغاً أي أفسد وأغرى. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، نزغ الشيطان وساوسه ونَخْسُهُ في القلب بما يُسَوّل للإنسان من المعاصي، يعني يلقي في قلبه ما يُفسده على أصحابه»[3].

فالنّزغ وسيلة من وسائل الشيطان التي يستخدمها في الخطّة الشيطانية الماكرة لإضلال بني آدم وغوايتهم، ولقد أخبرنا الله ﷻ عن هذه الوسيلة الإبليسية وحَذّرنا منها، فقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

والنّزغُ لا يبتعد كثيراً عن الوسوسة، بل هو نوع من أنواع الوسوسة الخاصة في إثارة التحريش والعداوة والبغضاء بين الناس وشحن النفوس بالغل والغضب، قال الفخر الرازي: «وقيل النّزغُ: الإزعاج، وأكثر ما يكون عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة إلى الشرّ»[4]، ويشهد لهذا المعنى ما رواه سليمان بن صُرَد[5] ﷺ قال: استبَّ رجلان قرب النبي ﷺ، فاشتدَّ

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة «نزغ» ص٥٠٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٥/ ٩٧، وروح المعاني ٩/ ١٤٧.

(٣) لسان العرب مادة «نزغ» ٨/ ٤٥٤.

(٤) التفسير الكبير ١٥/ ٩٧.

(٥) هو سليمان بن صرد بن جَوْن الخزاعي، أبو مطرف، من أصحاب رسول الله ﷺ، روى عن النبي ﷺ أحاديث يسيرة، وكان خيّراً فاضلاً، له دين وعبادة، وكان له سن عالية، وشرف وقدر، وكلمة في قومه، شهد مع علي ﷺ صفين، وكان أمير التوابين بعد مقتل الحسين ﷺ، وخرج هو ومن معه مطالبين بدم الحسين فالتقاهم عبيد الله بن زياد فقُتل سليمان ومن معه وذلك في سنة ٦٥هـ. =

غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أمجنون تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٦])[١].

فالشيطان يجتهد كل الاجتهاد لقطع الروابط الأسريّة والعلاقات الأخوّية بتأجيج نار الوقيعة بين الناس، فربما فلتت الكلمة بين الأخوين، فينزغ عدو الله إلى الآخر ليوقد فتيلها ويحملها على غير مَحمَلِهَا، فيأتي الرد السيء ليلهب نار الصراع، فإذا جَوّ الوفاق والأخوَّة والمودَّة قد تبدَّل بالجفوة والعداء، فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصَلّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش[٢] بينهم)[٣]، فكم أوقع الشيطان، باستخدامه لوسيلة النزغ بين ذوي القرابات والصداقات فصار القريب بعيداً والصديق عدواً والحبيب بغيضاً، لا سيما إذا كانت الأواصر والعلاقات قائمة فيما يرضي الله ـ تعالى ـ، فإن الشيطان يسعى حثيثاً لبتر تلك الروابط وفصل تلك العُرى الأخوية، فإذا النفوس مليئة بالحقد والغضب، والقلوب مشوبة بالجفوة والغلظة، وقصة يوسف عليه السلام خير دليل على استخدام الشيطان هذه الوسيلة الماكرة للوقيعة بين الناس عموماً وذوي الأرحام خصوصاً، يقول ـ تعالى ـ حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ

= انظر: الاستيعاب ٢/٦٤٩، سير أعلام النبلاء ٣/٣٩٤، الإصابة ٣/١٢٧.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وأخرجه البيهقي في الشعب ٦/٣٠٨ ـ ٣٠٩، وأخرج البخاري نحوه بدون ذكر التلاوة، كتاب بدء الخلق حديث [٣٢٨٢] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في البر والصلة، حديث [٢٦١٠] باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.

(٢) الحرش والتحريش: إغراؤك الإنسان والأسد ليقع بِقِرْنِه، وحرّش بينهم: أي أفسد وأغرى بعضهم ببعض. لسان العرب مادة «حرش» ٦/٢٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، حديث [٢٨١٢] باب تحريش الشيطان. . . إلخ.

وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والشيطان ينزغ الإنسان من عدَّة جهات، فأحياناً ينزغه من جهة لسانه ليتلفَّظ المتكلم بألفاظ فاحشة بذيئة، وقد يتلفظ بألفاظ الكفر والشرك بالله ـ تعالى ـ فتهوي به في النار وهو لا يدري، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن العبد ليتكلَّم بالكلمة ما يتبيَّن فيها، يَزِلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق)[١]، وربما انتقل نَزْغُ اللسان إلى الجوارح فينتقل الحال من الكلام إلى الفِعَال، ويقع الشرّ والخصومة والعداء، ولهذا الغرض نهى النبي ﷺ أن يشير المسلم إلى أخيه بالسلاح، فربما نزغ الشيطان إليه فقتل أخاه بسلاحه فيقع في النار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يُشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ[٢] في يديه فيقع في حفرة من النار)[٣]، قال ابن حجر: «والمراد أنه ـ أي الشيطان ـ يُغري بينهم حتى يضرب أحدهما الآخر بسلاحه فيحقق الشيطان ضربته له»[٤].

ويدخل في معنى «النّزغ» «الهَمْزُ» فهمزات الشياطين نزغاتهم وهي نخسها وطعنها للإنسان بما تسوّل له من المعاصي وتستنهضه للغضب وتحثه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، حديث [٦٤٧٧] باب حفظ اللسان، ومسلم في الزهد والرقائق بلفظ: (يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) حديث [٢٩٨٨] باب حفظ اللسان.

(٢) قال النووي: «[ينزغ] ضبطناه بالعين المهملة، وكذا نقله القاضي عن جميع روايات مسلم، وكذا هو في نسخ بلادنا، ومعناه: يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته، وروى في غير مسلم بالغين المعجمة وهو بمعنى الإغراء، أي يحمل على تحقيق الضرب به ويزين ذلك»، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن، حديث [٧٠٧٢] باب قول النبي ﷺ: من حمل علينا السلاح فليس منا، ومسلم بلفظ: (فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان يَنزِعُ) بالمهملة، كتاب البر والصلة والآداب، حديث [٢٦١٧] باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم.

(٤) فتح الباري ١٣/ ٢٧.

فالهمز: هو النخس والغمز وأصله شِدَّة الدفع[١]، ومنه مهماز الرائض لحديدةٍ تُربط على مؤخر رجله ينخس به الدابة لتسرع أو تثبت[٢].

قال الطبري: «والهَمْز: هو الغمز، ومن ذلك قيل للهمز في الكلام، والهمزات جمع همزة»[٣].

ويقول ابن القيّم: «والتحقيق: أنه ـ أي الهمز ـ دَفْعٌ بنَخْزٍ، وغَمْزٌ يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب»[٤].

فالشيطان ينخس الإنسان ويدفعه إلى سبل الهلاك والفساد من خلال وسوسته له بالمعاصي والرذائل، وهمزه له بتأجيج لهب الغضب في نفسه، فيتخبَّطه ويقوده إلى الفخّ الذي نصبه له، ولذا فقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ وأُمّته من بعده أن يتعوذوا بالله من همزات الشياطين وحضورهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

قال ابن عطية: «وأَمَرَهُ بالتعوذ من الشيطان في همزاته، وهي سَوْرات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المحادّة»[٥].

وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن المراد بالحضور في الآية الحضور عند تلاوة القرآن[٦]، وعن عكرمة: عند النزع[٧]، وذهب ابن زيد[٨] أن المراد

(١) انظر: تفسير البغوي ٥/ ٤٢٨.
(٢) روح المعاني للألوسي ١٨/ ٦٢.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ٥١.
(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم ١/ ١١٣.
(٥) تفسير ابن عطية ١٠/ ٣٩٧.
(٦) الكشاف ٣/ ٤٢، وروح المعاني ١٨/ ٦٢.
(٧) المرجعان السابقان.
(٨) هو: عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم العمري المدني، صاحب قرآن وتفسير، وجمع تفسيراً =

بالحضور في جميع الأمور والأحوال[1]، وهو الأولى لأن الشيطان يحرص أن يحضر الإنسان في كل شأنه، فالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من الشيطان عامَّة في جميع الأحوال، ويشهد لهذا المعنى ما رواه جابر بن عبد الله ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الشيطان يَحْضُرُ أحدَكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليُمط ما كان بها من أذًى، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلْعَق أصابعه، فإنه لا يدري في أيِّ طعامه تكون البركة)[2]، قال محمد الأمين الشنقيطي: «والظاهر في قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٨]، أن المعنى: أعوذ بك أن يحضرني الشيطان في أمر من أموري كائناً ما كان، سواء كان ذلك وقت تلاوة القرآن، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، أو عند حضور الموت، أو غير ذلك من جميع الشؤون في جميع الأوقات، والعلم عند الله ـ تعالى ـ»[3].

فالشيطان يتسلَّط على الإنسان بنزغه وهمزه ليصرفه عن طاعةٍ تَوَجَّهَ لامتثالها، أو يستحثه ويزين له معصيةً رَغِبَ عنها، وكثيراً ما يُلهب في نفسه سياط الغضب فيتخبَّطه ويقوده ليقع في فخ طاعته، ويلحظ أن الذي يتسلط عليه الشيطان بنزغه وهمزه يميل إلى شدة الغضب والانفعال والخطأ، ويلاحظ على وجهه الشحوبة والعبوس، وحدَّة وشدة في ألفاظه التي يُطلقها، وتختلف نبرات صوته ولهجة حديثه، ويفقد الحلم والروية، وتهيج لديه محبة الانتقام والإعراض عن العفو والصفح، مع شعوره باختناق وضيق

= في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، قال عنه ابن سعد: «كان كثير الحديث ضعيفاً جداً»، وتوفي سنة ١٨٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٤٩، العبر ١/ ٢١٨، طبقات المفسرين للداوودي ١/ ٢٧١.

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٥١، والدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٨.
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة، حديث [٢٠٣٣] باب استحباب لعق الأصابع... إلخ.
(٣) أضواء البيان ٥/ ٨١٩.

شديد في نفسه، وربما نَفّسَ عنه بالصراخ أو البكاء[1]، ولذا فقد أرشدنا الله ـ جل وعلا ـ أن نستعيذ به ونلتجأ إليه عند شعورنا بنزغ الشيطان وهمزه، وأن لا نسترسل في الاستجابة لنخسه ودفعه، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، ويقول ـ جل وعلا ـ مؤكّداً على هذا العلاج الناجع: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

فحينما يلجأ الإنسان إلى الله ـ تعالى ـ في حالة الغضب فإن الله ـ تعالى ـ يعصمه من نزغ الشيطان وهمزه ويبتعد عنه الشيطان، وربما بقي شيء من حمرة الغضب ملتهباً في القلب، لذا فقد أرشد النبي ﷺ إلى إطفاء هذه الجمرة وإخماد وهجها بالوضوء مبيّناً ﷺ أن مادة الغضب مستمدة من مادة أصل الشيطان وهي النار ولا يطفئ النارَ إلا الماءُ، فعن عروة بن محمد السعدي قال: حدثني أبي عن جدي عطية قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[2].

ولقد كان النبي ﷺ يتعوَّذ بالله من همزات الشياطين ونفخهم ونفثهم، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبّر ثم يقول: (سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)، ثم يقول: (لا إله إلا الله) ثلاثاً، ثم يقول: (الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه)، ثم يقرأ[3].

---

(١) انظر: وسائل إهلاك وإضلال الشيطان للإنسان، لعبد الخالق العطّار ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) سبق تخريجه ص٤٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، حديث [٧٧٥] باب من رأى الاستفتاح =

قال ابن القيّم: «وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال، وهو الأظهر: إن همزات الشياطين إذا أُفرِدَتْ دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كانت نوعاً خاصاً»[1].

وقد جاء عند الإمام أحمد والحاكم[2] ما يبين أن بين همز الشيطان ونفخه ونفثه فرقاً، فهَمْزُهُ الموْتَة وهي الجنون، ونفثه الشِّعْر، ونفخه الكبر.

فهذا الإرشاد من الله ـ تعالى ـ ونبيه ﷺ إلى الاستعاذة بالله ـ جل وعلا ـ عند نزغ الشيطان وهمزه، هو العلاج الفعلي لإطفاء نار الغضب عند ثورته وهيجانه، كما أن الإنسان إذا استشعر عظمة الله وجلاله وأن كل شيء تحت تدبيره وتصرّفه، فلا يحدث حادث في هذا الكون إلا بإرادته ومشيئته، فحينئذٍ يَهُوْن على الإنسان كل أمر قد يثير غضبه ويكدّر خاطره ويتسبب في تسلطه على غيره لينتقم منه، فإذا كان المرء يضجر ويغضب لكل أمر لا يوافق مراده ولا يحقق مطلبه، فلا شك أن ذلك مدخل خطير من مداخل عدو الله الشيطان، الذي يحرص كل الحرص أن ينفخ في تلك اللحظة على جمرة الغضب التي بدأت تشتعل في القلب ليوقد لهبها ويضرم نارها، فيجدر بالمسلم أن يرجع إلى ربه ويعتصم به ـ تعالى ـ حينما يواجه ما يكدّر صفوه ويثير غضبه، ويُسلّم لقضاء الله وقدره ويؤمن بمشيئته وإرادته ـ تعالى ـ، ولا يفتح للشيطان باباً بتحسره على ما جرى، فإن الشيطان يدخل من هذا الباب ليعمل عمله في نفس الإنسان مما يكون سبباً للوقوع في فخِّ هواه ومراده،

= بسبحانك اللّهم وبحمدك، والترمذي في أبواب الصلاة، حديث [٢٤٢] باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، وقال أبو عيسى: «وحديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب»، والإمام أحمد نحوه في المسند ٣/ ٥٠، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٦٥ وقال: «رجاله ثقات»، وحسَّنه ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ٤٢٥، ٤٢٦.

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/ ١١٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة ﵂ ٦/ ١٥٦، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٢٥ عن ابن مسعود ﵁، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، وقد استشهد البخاري بعطاء بن السائب»، وأخرجه ابن المنذر في الأوسط ٣/ ٨٧ حديث [١٢٧٦].

قال ـ تعالى ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان)(١)، قال ابن القيّم رحمه الله: «وما ذاك لمجرد لفظ [لو] بل لِمَا قارنها من الأمور القائمة بقلبه المنافية لكمال الإيمان، الفاتحة لعمل الشيطان، بل أرشد العبد في هذه الحال إلى ما هو أنفع له وهو الإيمان بالقَدَر والتفويض والتسليم للمشيئة الإلهية، وأنه ما شاء الله كان ولا بد، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السُّخط»(٢)، وقال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في شرح هذا الحديث: «ثم إنه ﷺ حَضَّ على الرضا بقضاء الله وقدَره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع، فإذا أصاب العبدَ ما يكرهه، فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدَرِه ليزداد إيمانُه، ويسكن قلبُه وتستريح نفسُه، فإن [لو] في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهمّ والحزن المضعف للقلب، وهذه الحال التي أرشد إليها النبي ﷺ هي أعظم الطرق لراحة القلب، وأدْعَى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسّره منها، والرضا عنه بما فات، ولم يحصل منها»(٣)، وقد ذكر أئمة الدِّين أن الأمر أمران: أمر فيه حِيْلَة، وأمر لا حيلة فيه، فما

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، حديث [٢٦٦٤] باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله.. إلخ.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم ٣/ ٢٠٥.

(٣) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار ص٤٨.

فيه حيلة لا يعجز عنه، وما لا حيلة فيه لا يجزع منه[1].

ولقد أثنى الله ـ تعالى ـ على الذين يرجعون إليه في الشدائد والمصائب ويسلِّمون جميع أمورهم إليه فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿... وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نِعْم العدلان ونِعم العلاوة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ نِعم العدلان، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ نِعم العلاوة»[2].

قال الطُّوفي[3]: «أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي، وهو أن لا فاعل إلا الله، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجَّه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكّن ذلك الغير منه، اندفع غضبه، لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه ـ جل وعلا ـ وهو خلاف العبودية»[4]. قال ابن حجر معقّباً على هذا القول: «وبهذا يظهر السرّ في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان، لأنه إذا توجَّه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة من الشيطان أمكنه استحضار ما ذُكر، وإذا استمرّ الشيطان متلبِّساً متمكِّناً من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك والله أعلم»[5].

---

(١) مجموع فتاوى اين تيمية ١٠/٥٠٧.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٩٦ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه»، وذكره البخاري تعليقاً في الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/٦٥.

(٣) هو: سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، نجم الدين الطُّوفي، كان فقيهاً شاعراً أديباً، قيِّماً بالنحو واللغة والتاريخ، مشاركاً في الأصول، وله عدَّة مصنفات، ومات سنة ٧١٦هـ.
انظر: الدّرر الكامنة ٢/١٥٤، بغية الوعاة ١/٥٩٩، الأعلام ٣/١٢٧.

(٤) فتح الباري ١٠/٥٣٧.

(٥) المرجع نفسه.

ولقد أثنى الله ﷻ على عباده المتقين الذين يملكون أنفسهم عند ثورة الغضب فيكظمون غيظهم، وبيّن ـ تبارك وتعالى ـ أن كظم الغيظ من صفات أهل الجنَّة التي أعدَّها الله ـ تعالى ـ لعباده الصالحين، يقول ـ تعالى ـ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ[1] وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]، فكظم الغيظ هو ضبط ثورة الغضب وكبح جماحها عند هيجانها، قال الزمخشري: «وهو ـ أي كظم الغيظ ـ أن يمسك على ما في نفسه منه بالصبر ولا يُظهر له أثراً»[2]، ويقول الفخر الرازي: «ومعنى قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الذين يكفون غيظهم عن الإمضاء، ويردّون غيظهم في أجوافهم»[3]، ويقول ابن منظور: «كظم الغيظ: تجرُّعه واحتمال سببه والصبر عليه»[4]، ولقد بيّن النبي ﷺ أن الفاضل الممدوح ليس الذي يصرع الرِّجال ولا يصرعونه، بل هو من يملك نفسه عند الغضب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الشديدُ بالصُّرعَة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[5].

ولقد بشّر النبي ﷺ من يكظم غيظه بحُسْنِ المكافأة وعظم الأجر في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يُبَدّل غيظه بحلاوة للإيمان يجدها في جوفه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا، فأومأ أبو عبد الرحمٰن بيده إلى الأرض:

---

(١) يرى ابن عطية رحمه الله أن هناك فرقاً بين الغيظ والغضب، حيث قال: «والغيظ أصل الغضب وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسّر بعض الناس الغيظ بالغضب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال بها معه ظهور في الجوارح وفعل ما ولا بد»، تفسير ابن عطية ٣/ ٣٢٧.

(٢) الكشاف ١/ ٤٦٤.

(٣) التفسير الكبير ٩/ ٧.

(٤) لسان العرب مادة «كظم» ١٢/ ٥٢٠.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب، حديث [٦١١٤] باب الحذر من الغضب، ومسلم في البر والصلة، حديث [٢٦٠٩] باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.. إلخ.

(من أَنْظَرَ مُعسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزَن بربوة، ثلاثاً، ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وُقي الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبدٌ، ما كظمها عبدٌ لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً)[1]، وأما في الآخرة فإن الله ـ تعالى ـ يدعوه يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيخيّره من الحور العين ما شاء، فعن سهل بن معاذ[2] عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله ـ تبارك وتعالى ـ على رؤوس الخلائق حتى يُخيّره من أيِّ الحُوْرِ شاء)[3]، والحث على كظم الغيظ لا يعني إخفاء نزعة الغضب من أصلها وسدّ مصدر ثورتها، فإن ذلك غير مقدور عليه، حيث إن الغضب جِبِلَّة خلقت في النفس الإنسانية، وإنما المقصود من الحث على كظم الغيظ هو ما يتولّد عن هذه الجِبِلَّة ومعالجته بالعلاج الإسلامي، الذي يخرج بمتعاطيه إلى بر الأمان وعدم الوقوع في مصيدة الشيطان، قال ابن حبَّان[4]:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٣٢٧، وقال ابن كثير في تفسيره ١/ ٤٠٧ بعد أن ذكر الحديث: «انفرد به أحمد وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن».

(٢) هو: سهل بن معاذ بن أنس الجهني، تابعي، ثقة، نزل مصر، وروى عن أبيه، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب وزبّان بن فائد، وذكره ابن حبان في الثقات وقال: «لا يعتبر حديثه ما كان من رواية زبان بن فائد عنه».
وأبوه: معاذ بن أنس الجهني، صحابي كان بمصر والشام، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وله رواية عن أبي الدرداء وكعب الأحبار، وروى عنه ابنه سهل، وتوفي بعسفان.
انظر: تاريخ الثقات ص٢٠٩، الاستيعاب ٣/ ١٤٠٢، الإصابة ٣/ ١٨٧، ٦/ ١٠٦.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٤٠، والترمذي في البر والصلة، حديث [٢٠٢١] باب في كظم الغيظ، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأبو داود نحوه في سننه، كتاب الأدب، حديث [٤٧٧٧] باب من كظم غيظاً، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، حديث [٤١٨٦] باب الحلم، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٦١، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ومذمومها، حديث [٣٣٣].

(٤) هو: محمد بن حبَّان بن أحمد بن حبَّان بن معاذ التميمي الدارمي البستي، أبو حاتم، شيخ خراسان، وأحد الحُفَّاظ الكبار المصنفين المجتهدين، ومن أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ، ورحل إلى البلدان وسمع الكثير من المشايخ، ثم ولي قضاء بلده، توفي سنة ٣٥٤هـ. =

«قوله ﷺ: (لا تغضب) أراد به أن لا تعمل عملاً بعد الغضب مما نهيتك عنه، لا أنه نهاه عن الغضب، إن الغضب شيء جِبِلَّة في الإنسان ومحال أن ينهى المرء عن جِبِلَّته التي خلق عليها، بل وقع النهي في هذا الخبر عما يتولَّد من الغضب مما ذكرنا»[1]، ولا ريب أن حديثنا هنا هو عن الغضب المذموم الذي يكون من جهة الشيطان بنزغه وهمزه، أما الغضب المحمود فهو الذي يكون لله ـ تعالى ـ حين تُنتهك حرمة من حرماته، وقد كان نبينا وقدوتنا محمد ﷺ ـ وهو أحلم الخلق ـ إذا رأى أو علم مخالفةً لشرع الله ـ تعالى ـ غضب واحمرّ وجهُهُ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهك حرمة الله، فينتقم لله بها»[2]، يقول الماوردي بعد أن ذكر أسباب الحلم: «وإنما الأولى بالإنسان أن يدعوه للحلم أفضل أسبابه، وإن كان الحلم كلّه فضلاً، وإن عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذُلّاً، ولم يكن حِلْماً، لأننا قد ذكرنا في حدّ الحلم أنه ضبط النفس عن هيجان الغضب، فإذا فُقد الغضب لسماع ما يغضب كان ذلك من ذُلِّ النفس، وقِلَّة الحَمِيَّة»[3].

ويقول ابن القيّم: «فالحميَّة لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه، فإذا غضب فإنما يغضب من أجله، وأما حميَّة النفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه، فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان، حرارة من قِبَل النفس المطمئنة آثارها تعظيم حق الله، وحرارة من قِبل النفس الأمّارة آثارها استشعار فَوْت الحظ»[4].

= انظر: الأنساب ١/٣٤٨، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٩٢، البداية والنهاية ١١/ ٢٧٦.

(١) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/ ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، حديث [٣٥٦٠] باب صفة النبي ﷺ، ومسلم في الفضائل، حديث [٢٣٢٧] باب مباعدته ﷺ للآثام... إلخ.

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص٢٤٨.

(٤) الروح، لابن القيم ص٣١٥.

ثالثاً: الاستفزاز:

الاستفزاز من الفَزّ، وأصل معناه القَطْعُ، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع، ويقال للخفيف فَزّ[١]، ولذا سُمّي به ولد البقر لما تُصُوِّر فيه من الخفّة، كما يُسمى عِجْلاً لما تصوِّر فيه من العَجَلَةِ[٢]، ومنه قول زُهير بن أبي سُلمى[٣]:

كما استغاث بِسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَةٍ   خَافَ العُيُون فلم يُنْظر به الحَشَكُ[٤]

وفي اللسان: «واستفزّه من الشيء: أخرجه، واستفزّه: خَتَله حتى ألقاه في مهلكة، واستفزّه الخوف أي استخفّه»[٥].

والاستفزاز وسيلة من وسائل الشيطان التي يكيد بها بني آدم في صراعه الطويل معهم، فوسيلة الاستفزاز التي يستخدمها عدو الله هي الأقوال والأفعال التي تثير الشهوات وتشعل الغرائز في النفس الإنسانية، ومن ثَمَّ الانقياد إلى ارتكاب الفواحش والمحرمات والوقوع في شباك الشيطان التي نصبها لبني آدم، فهذه الاستفزازات الشيطانية «هي المعركة الصَّاخبة، تستخدم فيها الأصوات والخيل والحيل والرّجِل على طريقة المعارك والمبارزات، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة، أو يستدرجهم للفَخّ المنصوب والمكيدة المدبّرة، فإذا

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ١٥/ ١١١.

(٢) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب، مادة «فز» ص٣٩٣.

(٣) هو: زهير بن ربيعة بن رياح المزني، من مضر، وكان يقيم في الحاجر من ديار نجد، وهو حكيم الشعراء في الجاهلية، ومن أئمة الأدب من يُفَضِّلُه على شعراء العرب كافة، وعرف شعره بالتعفف، وعدم تتبع حوشيّ الكلام، مات سنة ١٣ قبل الهجرة. انظر: الشعر والشعراء ص٧٣، الأعلام ٣/ ٥٢، معجم المؤلفين ٤/ ١٨٦.

(٤) ديوان زهير بن أبي سلمة ص٥٠، ولسان العرب ٥/ ٣٩١، وتفسير ابن عطية ٩/ ١٣٥ ومعنى «سَيْء»: اللبن قبل نزول الدِّرَة يكون في طرف الأخلاف، و«فزّ» هو ولد البقر، و«الغيطلة»: قال: أبو عبيدة هي البقرة الوحشية، و«الحَشَك» شدّة الدِّرة في الضرع، انظر: لسان العرب مادة «سيأ» ١/ ٩٩، ومادة «فزز» ٥/ ٣٩١، ومادة «غطل» ١١/ ٤٩٧، ومادة «حشك» ١٠/ ٤١٢.

(٥) لسان العرب مادة «فزز».

استُدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال»(١).

ولقد كشف الله ﷻ لنا عن هذه الوسيلة الإبليسية والمكيدة الشيطانية في قوله - جل وعلا - لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: ٦٤]، ومعنى «استفزز»: أي استخفّهم، قال ابن جرير: «يعني - تعالى ذكره - بقوله [واستفزز] واستخفف واستجهل، من قولهم: استفزّ فلاناً كذا وكذا، فهو يستفزّه»(٢)، ويرى ابن العربي أن الجهل تفسير مجازي للاستفزاز، والخفّة تفسير حقيقي له(٣). وقال الزجّاج: «معناه استدعهم استدعاءً تستخفّهم به إلى إجابتك»(٤).

وقد فسّر الاستفزاز بالاستخفاف: الفراءُ وابنُ قتيبة والبخاري ومكيُ بن أبي طالب والزمخشري وأبو حيّان وغيرهم(٥).

وهذا الأمر من الله - تعالى - لإبليس بقوله: «واستفزز» لا يعني به امتثال إبليس له، بأن يستفزّ بني آدم بصوته وخيله ورَجِله، ولكنه أمر بمعنى الوعيد والتهديد لعدو الله، كما في قوله - جل وعلا -: ﴿... ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، قال الزجّاج: «فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يُؤمَرَ إبليس أن يقال له: شاركهم في الأموال والأولاد وأجْلِبْ عليهم بخيلك ورجلك وعدهم بأنهم لا يبعثون، فإذا فعل ذلك فهو مطيع؟ فالجواب في ذلك أن الأمر على ضربين: أحدهما: متبع لا غير، والثاني: إذا تقدمه نهيٌ عما يؤمر به، فالمعنى في الأمر الوعيد والتهديد، لأنك قد

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٩.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١١٨.
(٣) انظر: أحكام القرآن، لابن العربي ٣/ ٢٠٧.
(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٣/ ٢٥٠.
(٥) انظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٧، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٨، ومعجم غريب القرآن للبخاري ص١٥٥، والعمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب ص١٨٣، والكشاف ٢/ ٤٥٦، وتحفة الأريب لأبي حيان ص٢٤٦.

تقول: لا تدخُلنَّ هذه الدار، فإذا حاول أن يدخلها قلت: أدخلها وأنت رجل، فلست تأمره بدخولها ولكنك توعّده وتهدّده، وهذا في اللغة والاستعمال كثير موجود، ومثله في القرآن: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾، وقد نُهوا أن يتبعوا أهواءهم وأن يعملوا بالمعاصي»[1].

وإبراراً بقسمه في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، نشط عدو الله إبليس في استفزازه لبني آدم واستخفافه لهم ودفعهم إلى مواطن الرذيلة والمعاصي وحثهم على ارتكابها وسهولة اقترافها، وهو في استفزازه لهم يشاركهم في ميدان المعاصي ويشرف على جميع أعمالهم، ليعيد من انصرف عن المعصية ويحث من تكاسل ويُحرِّض من تقاعس ويشجع من أقبل على الفحشاء والمنكر، وقد جمع من ركبان جنده ومُشاته من يدعوهم إلى طاعته ويصرفهم عن طاعة الله ـ تعالى ـ، داعياً لهم عدو الله بصوته إلى كل منكر ورذيلة.

وقد فسّر ابن عباس رضي الله عنهما استفزاز الشيطان لبني آدم بصوته، بأنه كل داع دعى إلى معصية الله ـ تعالى ـ، وفسّر مجاهد صوت الشيطان باللّهو والغناء، وقال قتادة: بدعائه إياهم إلى طاعته[2].

ويرى الزمخشري أن استفزاز الشيطان للإنسان بصَوْته في الآية ورد مورد التمثيل، مُثّلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم، فصوّت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيّالة ورجّالة حتى استأصلهم[3].

والحقيقة أن صوت الشيطان على حقيقته، وهو دعوته إلى كل معصية لله ـ تعالى ـ سواء كانت غناءً أو لهواً أو غيرها، بوسوسته وغوايته، أو على لسان أوليائه من الإنس والجن، قال ابن جرير بعد أن ذكر الأقوال

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١١٨/١٥، وتفسير ابن عطية ١٣٦/٩، وتفسير البغوي ١٠٥/٥.
(٣) انظر: الكشّاف ٤٥٦/٢.

في معنى صوت الشيطان: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال لإبليس: واستفزز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتاً دون صوت، فكل صوت كان دعاءً إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافاً للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله ـ تبارك وتعالى اسمه ـ له: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]»[١]، وقال ابن عطية بعد أن ذكر الأقوال في معنى الصوت في الآية: «والصواب أن يكون الصوت يعم جميع ذلك»[٢]، وقال ابن تيمية بعد أن ذكر أن من السلف من فسّر الصوت بالغناء: «وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله»[٣].

وأصل «الجَلْب» سَوْقُ الشيء، يُقال: جَلبْتُ جَلْباً، والجَلَبة: الصوت الكثير المختلط الهائل، وأجلبت عليهم صِحْت عليهم بِقَهْرٍ[٤]، وجَلْبُ الشيطان صياحه بهم وحثُّه لهم بالإغواء والدعوة والترغيب والتزيين لكل باطل يرضي عدو الله الشيطان ويسخط الرحمٰن ـ تعالى ـ، وأما الخيل والرَجِل في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]:

فالخيل: هي الخيَّالة، وتقع على الفرسان مجازاً وعلى الأفراس خاصة، والمراد في الآية الأول[٥].

وأما «الرَّجِل» فقال البخاري: «الرّجل: الرجّالة واحدها راجل، مثل صاحب وصحب وتاجر وتَجْر»[٦]، وقال ابن قتيبة مثله[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١١٨.
(٢) تفسير ابن عطية ٩/١٣٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٦٤٢.
(٤) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن مادة «جلب» ص٩٣، وتفسير ابن عطية ٩/ ١٣٦.
(٥) انظر: التفسير الكبير للرازي ٢١/ ٦، وروح المعاني للألوسي ١٥/ ١١١.
(٦) معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري ص٦٧.
(٧) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٨.

وفي المراد بالخيل والرجِل في الآية ثلاثة أقوال هي:

١ ـ إن كلَّ من ركب أو مشى في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده، فكل من شاركه في الدعاء إلى المعصية فهو من خيله ورَجِله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خَيْلُهُ: كلُّ راكب في معصية الله، ورَجله: كل راجل في معصية الله»(١).

٢ ـ إن لإبليس خيلاً ورَجِلاً من الجن والإنس، قاله قتادة ومجاهد(٢)، وقال الفراء: «﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، يعني: خيل المشركين ورِجَالهم»(٣)، وقال الزجّاج: «وجائز أن يكون لإبليس خيل ورجال»(٤).

٣ ـ إن المراد بالخيل والرجِل في الآية ضَرْبُ المثل بمِغْوَار صَوَّت على قوم فاستفزَّهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استَأْصَلَهُم، قاله الزمخشري وقرّ به الفخر الرازي وأجازه البيضاوي(٥).

ولا يمنع أن يكون لإبليس خيل ورِجَال، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية، قال قتادة: «إن له ـ أي إبليس ـ خيلاً ورَجِلاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه»(٦)، وقال الألوسي: «وظاهر الآية يقتضي أن للّعين خيلاً ورَجِلاً وبه قال جَمْعٌ، فقيل: هم من الجِنّ، وقيل: منهم ومن الإنس»(٧).

وأما مشاركة الشيطان للناس في الأموال ففيها أقوال هي:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١١٩.
(٢) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١١٨، ١١٩، وتفسير البغوي ٥/ ١٠٥.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٧.
(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢٥٠.
(٥) انظر: الكشّاف للزمخشري ٢/ ٤٥٦، والتفسير الكبير للرازي ٢١/ ٦، وتفسير البيضاوي ١/ ٥٧٦.
(٦) تفسير الطبري ١٥/ ١١٨.
(٧) روح المعاني للألوسي ١٥/ ١١١.

١ ـ أمره إياهم بإنفاق أموالهم في غير طاعة الله واكتسابها من غير حِلِّها، قاله مجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير.

٢ ـ ما كان من تحريم المشركين من الأنعام كالبحائر والسوائب ونحوها، قاله ابن عباس ورواية عن قتادة.

٣ ـ وقال عطاء: الشرك في أموال الرِّبا.

٤ ـ ما كانوا يذبحونه لآلهتهم، قاله الضحاك[١].

والأولى حمل الآية في مشاركة الشيطان لبني آدم في الأموال على العموم، فكل ما اكتُسب أو أُنفق في معصية الله فهو من مشاركة الشيطان، فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]: «كل مال في معصية الله»[٢]، وقال الفراء: «كل مال خالطه حرام فهو شِركُهُ»[٣] أي إبليس، وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك كل مال عُصِيَ الله فيه بإنفاق في حرام أو اكتساب من حرام أو ذبح للآلهة أو تسييب أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيّاً به أو فيه، وذلك أن الله قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ فكل ما أُطيع الشيطان فيه من مال وعُصي الله فيه، فقد شارك فاعِل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض»[٤].

وقال الفخر الرازي: «نقول: أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرُّف قبيح في المال، سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه، ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة، وهكذا قاله القاضي، وهو ضَبْطٌ حَسَن»[٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١١٩، ١٢٠، وتفسير البغوي ٥/ ١٠٥، وزاد المسير ٥/ ٥٨، ٥٩.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١١٩.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٧.
(٤) تفسير الطبري ٥/ ١٢٠.
(٥) التفسير الكبير ٢١/ ٦.

واختلف في مشاركة الشيطان للناس في الأولاد على أربعة أقوال هي:

١ ـ أنهم أولاد الزنا، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك[(١)].

٢ ـ أنها الموؤدة من أولادهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)] في رواية.

٣ ـ أنهم هوَّدوا أولادهم ونصَّروهم ومجّسُوهم، قاله الحسن وقتادة[(٣)].

٤ ـ أنه تسمية أولادهم عبيداً لأوثانهم، كعبد شمس وعبد العزى وعبد مناف، وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٤)].

والأولى أن يُقال في مشاركة الأولاد ما قيل في مشاركة الأموال، فكلُّ سبب من أسباب الحرام موصل إلى الأولاد أو فعل ما لا يرضى الله فيهم، فإنه من مشاركة الشيطان، قال ابن جرير الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: كل ولد ولدته أنثى عُصي الله بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدِّين الذي ارتضاه الله، أو بالزِّنا بأمه، أو قتله ووأْدِه، أو غير ذلك من الأمور التي يُعصى الله بها بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك المولود له أو منه»[(٥)]، وقال الزجّاج: «وكل معصية في ولد أو مال فإبليس اللعين شريكهم فيها»[(٦)]، وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ عامٌ لكل ما يُصنع في أمر الذرِّيَّة من المعاصي، فمن ذلك الإيلاء بالزنى، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس وعبد الحارث، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه،

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١٢٠ ـ ١٢١، وتفسير البغوي ٥/ ١٠٥، وزاد المسير ٥/ ٥٩.
(٢) المراجع نفسها.
(٣) المراجع نفسها.
(٤) المراجع نفسها.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٢١.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٣/ ٢٥٠.

ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا»[1].

وأما قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، فسيأتي الكلام عن وعد الشيطان في مبحث «وعده ووعيده» إن شاء الله ـ تعالى ـ.

رابعاً: الاستهواء:

الهواء: ممدود ما بين السماء والأرض، والجمع الأهوية، وكل خالٍ هواء، قال زهير بن أبي سُلمى:

كأنَّ الرَّحْلَ منها فوق صَعْلٍ   من الظِّلمانِ جُؤْجُؤهُ هَوَاء[2]

والهوى مقصور: هوى النفس، والجمع الأهواء، وهَوِي بالكسر يَهْوَى هوًى: أي أحب، وبالفتح: سقط إلى أسفل[3]، وقال الراغب: «الهوى ميل النفس إلى الشهوة، وقد يقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سُمِّي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية وفي الآخرة إلى الهاوية، والهوى سقوط من علو إلى سُفل»[4].

وقال الجوهري: «واستهواه الشيطان: أي استَهَامَهُ»[5].

وفي اللسان: «واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقله»[6].

---

(١) تفسير ابن عطية ٩/١٣٨.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٩، والصّحاح للجوهري ٦/ ٢٥٣٧.
والصَّعْل: الصغير الرأي من الرجال والنّعام، وأراد في البيت ذَكَرَ النعام وهو الظَّليم.
جؤجؤه: أي صدره، وقيل: عظام الصدر. هواء: أي خال لا قلب فيه.
انظر: الصحاح مادة «صعل» ٥/ ١٧٤٤، ولسان العرب مادة «جأجأ» ١/ ٤١.

(٣) الصحاح مادة «هوى» ٦/ ٢٥٣٧.

(٤) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب مادة «هوى» ص٥٤٥.

(٥) الصّحاح مادة «هوى» ٦/ ٢٥٣٧.

(٦) لسان العرب مادة «هوا» ١٥/ ٣٧٣.

فيعتبر الاستهواء مكيدة ووسيلة من وسائل عدو الله الشيطان التي يستخدمها في حربه مع الإنسان، ولقد كشف الله ﷻ عن هذه الوسيلة الشيطانية الخفية بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

والاستهواء مشتق من أحد الأمرين الآتيين:

١ ـ استفعال من هَوَى في الأرض يَهْوِي إذا ذهب، فهو مُشْتَقّ من اتّباع الهَوَى والميل[١]، قال ابن عباس: استهوته، أضلته[٢]، وقال ابن قتيبة: «أي هَوَت به وذهبت»[٣]، وقال أبو السعود: «والاستهواء: استفعال من هَوَى في الأرض إذا ذهب فيها كأنها طلبت هَوْيَه وحرصت عليه»[٤].

وقال الزجّاج: «أي كالذي زيّنت له الشياطينُ هَوَاه»[٥]، وقال أبو عبيدة: «تُشبَّه له الشياطين، فيتّبعها حتى تهوي به في الأرض، فتُضلّه»[٦].

٢ ـ أنه من هَوَى يَهْوِي إذا سقط من علو إلى أسفل، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، واستبعده ابن عطية حيث قال: «وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تُتأَول اللفظة بمعنى: ألقته الشياطين في هُوَّة»[٧].

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ١٦٦، زاد المسير في علم التفسير ٣/ ٦٦، وروح المعاني ٧/ ١٨٩.
(٢) معجم غريب القرآن للبخاري ص٢١٨.
(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٥٥.
(٤) تفسير أبي السعود ٢/ ١٦٦.
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢/ ٢٦٢.
(٦) زاد المسير في علم التفسير ٣/ ٦٦.
(٧) تفسير ابن عطية ٥/ ٢٤٢.

وقد رجّح هذا المعنى الفخر الرازي[1] والصَّاوي، حيث قال الصَّاوي: «والاستهواء من الهوى وهو السقوط من علو إلى أسفل، سُمّي الإضلال بذلك لأن من سقط من علو إلى أسفل ولم يجد محلاً يستند عليه هلك»[2].

والذي يتفق وحال الشيطان مع الإنسان هو المعنى الأول، فالشيطان يهوي بالإنسان في الأرض ويذهب به إلى مواطن الفحشاء والمنكر ويزّين له الرذائل والمعاصي، ويستميله إلى كل ما حرَّمه الله ـ تعالى ـ عليه، «وهذا مثل ضربه الله ـ تعالى ـ لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه المقيمون على الدِّين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق، وعنه زائل، يقولون له: ائتنا، فكن معنا على استقامة وهدى، وهو يأبى ذلك ويتَّبع دواعي الشيطان ويعبد الآلهة والأوثان»[3].

فهذه وسائل الشيطان التي يدفع الإنسانَ من خلالها إلى الوقوع في الفحشاء والمنكر والتي أخبرنا الله ـ جل وعلا ـ بها في كتابه الكريم.

ومع حرص الشيطان على إيقاع الإنسان في الكفر واقتراف ما حرم الله ـ تعالى ـ، فإنه يجتهد كل الاجتهاد لصدِّه عن فعل الخير والعزم عليه، يقول ـ تعالى ـ مخبراً لنا عن هذه المكيدة الشيطانية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، وحذرنا الله ـ تعالى ـ من هذه الخطة الإبليسية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٦١، ٦٢].

---

(١) انظر: التفسير الكبير ١٣/ ٣٠.
(٢) حاشية الصَّاوي على الجلالين ٢/ ٢٤.
(٣) تفسير الطبري ٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

فالصدُّ عن فعل الخير والتثبيط عن عمل الصالحات، من أشد ما يدعو الشيطان بني آدم إليه؛ فيرغِّب الإنسان في الكسل والراحة وطول الأمل وامتداد العمر، فإذا عزم التارك للصلاة على التوبة وأداء الصلاة قال له: العمر أمامك طويل، وإذا أراد البخيل أن يخرج الصدقة، قال له: لا تعجل، وإذا أقبل العاقُّ على والديه ليسترضيهما، قال له: تمهَّل، وهكذا حال الشيطان مع كل من تاب من ذنبه وأقبل على الله ـ تعالى ـ بالطاعة، فلا يزال يثبطه ويحثه على التأني وعدم العجلة والتسرع في الأمور ويمنِّيه بطول الأمل حتى يوافيه الأجل، يقول ابن الجوزي: «كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام فلا يزال إبليس يثبطه ويقول: لا تعجل وتمهل في النظر، فيسوّفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوّف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنِّيه الإنابة، كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوَّفه، وكم ساع إلى فضيلة ثبّطه، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال: استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل يصلي، فقال: عليك وقت، ولا يزال يحبب الكسل ويسوّف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل»(١).

ولقد اعترف عدو الله الشيطان بصدّه لبني آدم عن صراط الله المستقيم وتثبيطه لهم عن فعل الخير في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، قال القرطبي: «قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي بالصدّ عنه، وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص٤٨٦

خُيّب. . . قال: والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة»[1]، والنبي ﷺ بيّن لنا حرص الشيطان على ضلال الإنسان وصده عن أبواب الخير وإصراره على ذلك ومتابعته للإنسان في جميع الأحوال، فعن سَبُرة بن فاكة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جُهْد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكحُ المرأة ويقسم المال، فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، ومن قُتِل كان حقاً على الله ﷻ أن يدخله الجنة، وإن غَرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقَصَتْه دابّته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة)[2].

فهذا الشيطان عزم أمره على أن يحول بين الإنسان وبين أسباب الخير وسبله، بل حتى في منامه يعقد على قافيته ليصرفه عن طاعة ربه ـ تعالى ـ إن استحثته نفسه على فعلها، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَعْقِد الشيطان على قافية[3] رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يَضرب على مكان كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلَّت عُقْدَة، فإن صلَّى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[4]، فهي حرب شرسة في

(١) تفسير القرطبي ٧/ ١٧٥.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، حديث [٣١٣٤] باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وفي السنن الكبرى ٣/ ١٥ ـ ١٦ بلفظ: (كمثل الفرس في الطود)، والإمام أحمد ٣/ ٤٨٣، وحَسّن ابن حجر إسناده في الإصابة ٣/ ٦٤، وصحّح العراقي إسناده في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين ٣/ ٢٥.

(٣) قافية الرأس: أي مؤخر العنق، وقافية كل شيء مؤخره، انظر: فتح الباري ٣/ ٣١.

(٤) أخرجه البخاري في التهجد، حديث [١١٤٢] باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا =

اليقظة والمنام أعلنها عدو الله الشيطان ضد عدوه الإنسان ليصرفه عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويدعوه إلى كل ما فيه خسرانه وبواره مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ . . .﴾ الآية [النور: ٢١].

واختلف في عَوْد الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ﴾ على قولين هما:

١ ـ أن الضمير يعود على من يتَّبع خُطوات الشيطان، قاله أبو حيان وجلال الدِّين المحلي(١) والشوكاني(٢).

٢ ـ وقيل: إن الضمير يعود على الشيطان، وبه قال ابن جرير الطبري ووافقه الجمل(٣)(٤)، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يحذّرنا من اتّباع خطوات الشيطان ويعلّل ـ تعالى ـ هذا

= لم يصلِّ بالليل، وفي بدء الخلق، حديث [٣٢٦٩] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، حديث [٧٧٦] باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح.
قال القرطبي: «حكمة الاقتصار على الثلاث أن أغلب ما يكون الانتباه في السّحَر، فإن رجع إلى النوم ثلاث مرات لم ينقض الثالثة إلا وقد ذهب الليل»، وقال البيضاوي: «التقييد بالثلاث إما للتأكيد، أو لأنه يريد قطعه عن ثلاث: الذكر والوضوء والصلاة، وكأنه منعه عن كل واحد منها بعُقْدَة عَقَدها على رأسه، وكان تخصيص القفا بذلك لأنه محل الوهم ومجال تصرفه وهو أطوع القوى الشيطانية وأسرعها إجابة لدعوته»، شرح الزرقاني على موطأ مالك ١/٥٠٩.

(١) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي، جلال الدين، أصولي، مفسّر، فقيه، نحوي، كان مهيباً، صدّاعاً بالحق، وصنف كتاباً في التفسير وأتمَّه الجلال السيوطي، فسُمِّي «تفسير الجلالين»، وله عِدّة مصنفات أخرى، توفي بالقاهرة سنة ٨٦٤هـ.
انظر: هدية العارفين ٢/٢٠٢، الأعلام ٥/٣٣٣، معجم المؤلفين ٨/٣١١.

(٢) انظر: البحر المحيط ٦/٤٣٩، وتفسير الجلالين ص٢٩٣، وفتح القدير للشوكاني ٤/١٤.

(٣) هو: سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، أبو داود، المعروف بالجمل، مفسر، فقيه، فاضل، مشارك في بعض العلوم، من أهل منية عجيل، إحدى قرى الغربية بمصر، وله عدَّة مؤلفات، توفي سنة ١٢٠٤هـ.
انظر: هدية العارفين ١/٤٠٦، الأعلام ٣/١٣١، معجم المؤلفين ٤/٢٧١.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٨/١٠١، والفتوحات الإلٰهية للجمل ٣/٢١٤.

النهي والتحذير بأن الشيطان لا يأمر بما فيه الخير والصلاح وإنما يدعو الإنسان إلى الفواحش والمنكرات، ويشهد لهذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢٦٨]، ولا شك أن من كان من أتْباع الشيطان وحزبه فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، فالشيطان ينطق على لسانه ويدفعه لمجادلة عباد الله الصالحين ودعوتهم إلى ما فيه فسادهم وهلاكهم يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ . . .﴾ الآية [الأنعام: ١٢١].

وإذا كان الله ـ تعالى ـ نهانا عن الفحشاء والمنكر، وحذّرنا من عواقبهما، وبيّن لنا أنهما من مكائد الشيطان التي يدعو الإنسان إليها، فإن الله ـ جل وعلا ـ أعطانا العلاج الوقائي الناجع في محاربة الفحشاء والمنكر، ودحر عدو الله وإبطال كيده، وهذا العلاج يتحقق في إقامة الصلاة والمحافظة عليها وأدائها في وقتها في كل زمان ومكان، يقول ـ تعالى ـ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بُعداً»، ونحوه عن ابن مسعود والحسن البصري(١)، وقال أبو العالية: «إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه»(٢)،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٢٠/ ١٥٥، وتفسير البغوي ٦/ ٢٤٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦، والدر المنثور ٥/ ٢٧٩، وأثر ابن مسعود أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص١٩٩، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤، وصحّح العراقي في تخريج الإحياء ١/ ١٣٤ رواية الحسن، وأورده الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٥٨ وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٦، والدر المنثور ٥/ ٢٧٩.

وقال ابن جزي في معنى الآية: «إذا كان المصلي خاشعاً في صلاته متذكراً لعظمة من وقف بين يديه، حمله ذلك على التوبة من الفحشاء والمنكر، فكأن الصلاة ناهية عن ذلك»[1]، فالصلاة من أعظم الأسباب التي يستعين بها المؤمن على اجتناب الفواحش والمنكرات وفعل الخيرات والطاعات، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، يقول ابن تيمية: «فقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، بيان لما تتضمنه من دفع المفاسد والمضار، فإن النفس إذا قام بها ذكر الله ودعاؤه ـ لا سيما على وجه الخصوص ـ أكسبها ذلك صبغة صالحة تنهاها عن الفحشاء والمنكر، كما يُحسّه الإنسان من نفسه، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾، فإن القلب يحصل له من الفرح والسرور وقُرَّة العين ما يغنيه عن اللذات المكروهة، ويحصل له من الخشية والتعظيم لله والمهابة، وكل واحد من رجائه وخشيته ومحبته ناهٍ ينهاه»[2].

فيجدر بالمسلم إذا قام في صلاته أن يتدبر ما فيها من التلاوة والذكر المشتمل على المواعظ، وأن يتذكر أنه بين يدي رب العالمين، وأنه مطلع على علانيته وسره، وأن يُشعر نفسه أن هذه الصلاة ربما كانت خاتمة عمله وآخر عهده بالدنيا، فحينئذ يكون لصلاته أثر على هيئته وسلوكه وتظهر هيبتها على جوارحه، لأنها تشغل جميع بدنه، فما إن ينتهي من صلاته حتى يدخل في وقت صلاة أخرى فيؤديها بتلك الأوصاف، فتكون دافعة له إلى أبواب الخير والفلاح وصارفة له عن سبل الشر والفساد، يقول ابن جرير: «إن الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا، وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعدَّ الله فيها لأهلها، ففي الاعتبار بها، المعونةُ لأهل طاعة الله على الجدّ فيها»[3].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ١١٧.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٠/ ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٣) تفسير الطبري ١/ ٢٦٠.

المبحث الثاني

تزيين الباطل

إن الإنسان حين ينظر إلى الباطل بجميع ألوانه وأشكاله، بمنظار عارٍ عن الشهوات والشبهات، وبرؤية واقعية ومنطلقة من توجيهات الكتاب والسُنَّة الشريفة، فإنه بلا شك ستتضح رؤيته وتهتدي بصيرته وتنفر نفسه عن مقاربة الباطل فضلاً عن مواقعته والدعوة إليه.

بَيْدَ أن عدو الله الشيطان لا يريد تلك النظرة المتبصّرة والرؤية الواقعية والمستقبلية أن تصدر من الإنسان، فهو يُظهر الباطل في صورة الحق ويدعو الإنسان إلى اتِّباعه ومقارفته عن طريق إثارة شهواته ليبدو الباطل بصورة جميلة ومليحة تدفعه إلى ارتكابه والوقوع في رذائله.

والعِلَّة في تزيين الشيطان الباطل في نفس الإنسان، أنه يجعل ذلك الباطل كأنه حق يجب الدفاع عنه وحمايته ممن يقاومه، وحينئذٍ يندفع بكل قُوَّته لتحصيله والإصرار عليه والواقع أنه يسعى إلى هلاك نفسه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

وقد ذكر الله ﷻ «التزيين» في القرآن الكريم في ست وعشرين موضعاً، ويمكن تقسيمها بنسبتها إلى فاعل التزيين على ثلاثة أقسام هي:

١ ـ نُسِبَ التزيين في مواضع إلى الله ـ تعالى ـ، كما في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ...﴾ الآية [الحجرات: ٧]،

وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وأمثالها من الآيات.

٢ ـ نُسِبَ التزيين في مواضع إلى الشيطان، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآية [الحجر: ٣٩].

٣ ـ ذُكر التزيين في القرآن الكريم دون أن يُسمّى فاعله، كما في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ الآية [البقرة: ٢١٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ . . .﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا . . .﴾ الآية [فاطر: ٨]، قال ابن القيّم: «فأضاف التزيين إليه منه ـ سبحانه ـ خَلْقاً ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلى سببه ومن أجراه على يده تارة، وهذا التزيين منه سبحانه حَسَنٌ، إذ هو ابتلاء واختبار بعبده، ليتميز المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمن من الكافر، . . قال: وهو من الشيطان قبيح. . . قال: فتزيين الرب ـ تعالى ـ عدل، وعقوبته حكمة، وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبُّه وبغضه وإعراضه، والرب سبحانه خالق الجميع»(١).

فتزيين الله ﷻ الأشياء بخلقها وإبداعها وإيجادها مزيّنة، وأما تزيين الشيطان فبالإغواء والوسوسة والإضلال.

وأسلوب تزيين الباطل من أساليب الشيطان الذي أضل به جِبِلّاً كثيراً من الناس على مدى تاريخ البشرية الطويل، فقد أخذ على نفسه عهداً عند ربه ـ تعالى ـ أن يزين الباطل لبني آدم في الأرض ويحسّن لهم كل قبيح

---

(١) شفاء العليل ص١٧٩.

ومكروه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، فإبليس هو الذي زيّن الكفر والعصيان للأمم السابقة وحسّن لهم الصدّ والإعراض عن دعوة الله على لسان أنبيائه، حتى أخذهم الله ـ تعالى ـ بجزاء أعمالهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

ويخبرنا القرآن الكريم أن طُغيان قومَي هود وصالح عليهما السلام وتكبُّرهم عن الاستجابة لدعوة أنبيائهم والاغترار بما عندهم من القوَّة والعُدَّة، إنما كان بتزيين عدو الله الشيطان لهم تلك الأعمال السيئة حتى صدّهم عن سبيل الله ـ تعالى ـ، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨]، قال مقاتل والكلبي وقتادة: «﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي كانوا مُعجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون أنهم على هدى وهم على الباطل[(١)]. ورجَّحه الطبري[(٢)].

وقال الفراء[(٣)]: «وقوله: وكانوا مستبصرين، في دينهم، يقول: ذوو بصائر»[(٤)]، ورجحه القرطبي، وهو ظاهر الآية، فهؤلاء القوم كانت لهم

(١) انظر: تفسير البغوي ٦/ ٢٤٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٠/ ١٥٠.
(٣) هو: محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الحنبلي، ابن الفراء، أبو يعلى، عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون، من أهل بغداد، أفتى ودرّس وتخرّج به الأصحاب، وانتهت إليه الإمامة في الفقه، مع معرفته بعلوم القرآن وتفسيره، وكان ذا عبادة وتهجد، وملازمة للتصنيف، مع الجلالة والمهابة وله عدة مصنفات توفي سنة ٤٥٨هـ.
انظر: الأنساب ٤/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٨٩، البداية والنهاية ١٢/ ٤٩.
(٤) معاني القرآن، للفراء ٢/ ٣١٧.

ألبابٌ يدركون بها الحق من الباطل، إلا أن الشيطان صرفهم عن صراط الله القويم: «فقد كانت لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى، ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال، وانخداعهم بما هم فيه من قوَّة ومال ومتاع ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان، وضيّع عليهم الفرصة»[1].

وحينما عبدت ملكةُ[2] سبأ وقومُها الشمسَ من دون الله ـ تعالى ـ، كانت تلك العبادة والسجود بتزيين من الشيطان لها ولقومها ذلك الفعل، حتى حَسّن لهم بناء قصر عظيم رفيع البناء مُحْكَم التشييد، وكان فيه ثلاثمائة وستون نافذة من مَشْرِقِهِ ومثلها من مغربه، وقد وُضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من نافذة وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساء، يقول الحق ـ تعالى ـ مخبراً عن تلك الملكة وقومها، حكاية عن هدهد سليمان عليه السلام: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ[3] فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٦].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٣٥.

(٢) هي: بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ من نسل يعرب بن قحطان، وقد وليت بعهد من أبيها ونزلت في ملك سليمان عليه السلام وأسلمت لله ـ تعالى ـ وتزوجها عليه السلام ومكث معها سبع سنين وأشهراً.
انظر: قصتها في تاريخ الطبري ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٢، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢٠ ـ ٢١، وتفسير البغوي ٦/ ١٥٥.

(٣) الخبء: الخفي من الأمور وهو من خبأت الشيء، وخبْء السماء: مطرها، وخبْء الأرض: كنوزها ونباتها. تفسير ابن عطية ١١/ ١٩٧.

ولما بزغت شمس الإسلام وظهر نوره ساء ذلك عدو الله الشيطان وكره انتشار الإسلام، فجمع أمره للكيد لهذا الدين وجنده، لما يعلم أن في هذا الدين سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فزيّن للناس كراهية هذا الدين وحسّن لهم دين الآباء والأجداد والانتصار له ومحاربة الرسول ﷺ، حتى نسج للمشركين مخطط قتله ﷺ، فمن ذلك ما زيّنه لهم يوم بدر لحرب المؤمنين وإزهاق الحق وإظهار الباطل الذي هم عليه بصورة الحق الذي يستميتون من أجل الدفاع عنه، حتى قال وليُّ الشيطان أبو جهل: اللّهم أولانا بالحق فانصره[1]، وفي ذلك يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

واختُلف في كيفية تزيين الشيطان الباطل المذكور في الآية، هل كان التزيين بالوسوسة فقط، أم تحوّل الشيطان في صورة إنسان فخاطب المشركين وزين لهم أعمالهم؟

على قولين في المسألة هما فيما يأتي:

أ ـ قيل: إن الشيطان زيّن للمشركين بوسوسته من غير أن يتحوَّل إلى صورة إنسان، وهذا قول الحسن والأصم[2]، وبه قال أبو السعود والألوسي[3].

ب ـ وقيل: بل ظهر لهم الشيطان في صورة إنسان، وهو سراقة بن مالك بن جُعْشُم[4]، وهذا قول ابن عباس والسدي وعروة بن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٧٩، وتفسير القرطبي ٨/ ٢٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير ١٥/ ١٧٤، والكشّاف ٢/ ١٦٢، والبحر المحيط ٤/ ٥٠٤.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود ٢/ ٣٦٤، وروح المعاني ١٠/ ١٥.

(٤) هو: سراقة بن مالك بن جُعْشُمُ بن مالك بن عمرو المدلجي الكناني، يكنى أبا سفيان، له صحبة، أسلم يوم الفتح، وشهد حنيناً مع رسول الله ﷺ، وروى عنه ابن عباس =

الزبير[(١)] وقتادة ومحمد بن كعب وابن جرير الطبري[(٢)] والفراء والبغوي وابن جزي وابن كثير وهو قول الجمهور[(٣)].

وهو الظاهر لما رواه ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس تمثَّل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك وأخذ يُحرِّض المشركين على القتال[(٤)].

ولأن النكوص على العقبين هي صفة الفرار أو رجوع القهقرى عند الإنسان، ولذا وصف الله عز وجل الكفار من قريش بهذه الصفة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون: ٦٦].

ومما يدل على أن إبليس ظهر في صورة إنسان قوله: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ فإنه دالٌّ على أنه قول بالمشافهة وليس بالوسوسة، قال ابن عطية بعد أن ذكر القول الأول: «ويضعف هذا القول أن قوله: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يُلقى بالوسوسة»[(٥)]، ثم إنه ليس هناك ما يمنع من تصور الجن والشياطين بصورة الإنسان، فإن الله ـ جل وعلا ـ منحهم من القدرة

= وجابر وسعيد بن المسيب وابنه محمد بن سراقة، وهو الذي أدرك النبي ﷺ وهو في طريقه إلى الهجرة، فدعا عليه النبي ﷺ حتى ساخت رجلا فرسه، ثم إنه طلب منه الخلاص وأنه لا يدل عليه ففعل وكتب له أماناً، توفي سنة ٢٤هـ.
انظر: الأنساب ٥/ ٢٣٢، الاستيعاب ٢/ ٥٨١، الإصابة ٣/ ٦٩.

(١) هو: عروة بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي المدني، عالم المدينة، وأحد الفقهاء السبعة، ومن أعلام التابعين، روى عن أبيه ومعاوية والمغيرة وأبي هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم رضي الله عنهم، ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه، وكان أروى الناس للشعر، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يرجع إليه في زمن ولايته، توفي سنة ٩٤هـ.
انظر: صفة الصفوة ٢/ ٨٥، وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٢١.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٠/ ١٨ ـ ٢٠.

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٤١٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦٦، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٢/ ٦٧، وتفسير ابن كثير ٢/ ٣١٨.

(٤) انظر: تفسير الطبري ١٠/ ١٨، ودلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٨٧ ـ ٧٩، وتفسير ابن عطية ٦/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٥) تفسير ابن عطية ٦/ ٣٣٤.

ما به يتشكَّلون بصُور شَتَّى، وقد جاء إبليس إلى المشركين بدار الندوة في صورة شيخ نجدي، وهم يتبادلون الرأي هل يقتلون الرسول ﷺ أو يحبسونه أو يُخرجونه[1]، وفي هذا يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومما يدل أيضاً على قُدرة الشيطان على التصوّر بصورة الإنس ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحْثُو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعليَّ عِيَالٌ، ولي حاجة شديدة، قال: فخلّيتُ عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟)، قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله، قال: (أما إنه كذبك وسيعود)، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: إنه سيعود، فرصدته، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج، وعليَّ عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟)، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته فخليت سبيله، قال: (أما إنه كذبك وسيعود)، فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنّك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة؟)، قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: (ما هي؟)، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها

---

(١) انظر: دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني ١/٢٥٧ ـ ٢٦٢.

حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص شيء على الخير ـ فقال النبي ﷺ: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تَعْلَم من تخاطب مُذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟)، قال: لا، قال: (ذاك شيطان)[1]، وقال مجاهد رحمه الله: «كان الشيطان لا يزال يتزيَّن لي إذا قمت إلى الصلاة في صورة ابن عباس، قال: فجعلتُ عندي سكّيناً فتزيّن لي فحملت عليه فطعنته فوقع، وله وجبة، فلم أره بعد ذلك»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «والجن يتصوَّرون في صورة الإنس والبهائم، فيتصوَّرون في صور الحيَّات والعقارب وغيرها، وفي صور الإبل والبقر والغنم، والخيل والبغال والحمير، وفي صور الطير، وفي صور بني آدم، كما أتى الشيطان قريشاً في صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم لما أرادوا الخروج إلى بدر»[3]، وقال رحمه الله: «وكثيراً ما يتصوَّر الشيطان بصورة المدعو المنادَى المستغاث به إذا كان ميتاً، وكذلك قد يكون حيّاً ولا يشعر بالذي ناداه، بل يتصور الشيطان بصورته، فيظن المشركُ الضالُ المستغيثُ بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه وإنما هو الشيطان»[4]، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله نماذج عن بعض الناس ممن تصوَّر الشيطان بصورهم ومنهم:

١ ـ الحلَّاج الحسين بن منصور[5]، فقد كانت له أحوال شيطانية وبهتانية، وكان الشيطان يتصوَّر بصورته.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً، ولم يصرِّح فيه بالتحديث، كتاب الوكالة، حديث [٢٣١١] باب إذا وكل الرجل فترك الوكيل شيئاً.. إلخ، وقال ابن حجر في الفتح ٤/ ٥٦٩: «وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم من طرق إلى عثمان المذكور».

(٢) آكام المرجان في أحكام الجان للشبلي ص٢٢، وعقد المرجان فيما يتعلق بالجان للحلبي ص٤٠.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٤٤.

(٤) المرجع نفسه ص٤٧.

(٥) هو: الحسين بن منصور بن محمى الحلَّاج، كان جدُّه مجوسياً، من أهل فارس، نشأ =

٢ ـ شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة.

٣ ـ الذين يعتقدون بقاء علي بن أبي طالب ﷺ ومحمد بن الحنفية[١]، فقد كان يأتي إلى بعض أصحابهم حتى في صورته، وكذا مُنتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً[٢].

٤ ـ شيخ بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا متُّ فلا تَدَعْ أحداً يغسّلني فأنا أجيء وأغسِّل نفسي، فلما مات رأى خادمه شخصاً في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غُسْلَه ـ أي غسل الميت ـ غاب، وكان ذلك شيطاناً[٣].

٥ ـ يذكر ابن تيمية أن الشيطان تمثَّل به عند بعض من استغاث به، يقول ابن تيمية بعد أن ذكر بعض الأحوال الشيطانية: «وأنا أعرف من هذا وقائع متعددة، حتى إن طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في

= الحسين بواسط، ودخل بغداد وتردد إلى مكة وجاور بها، وكانت له بداية جيدة وتألّه وتصوف، ثم انسلخ من الدين، وتعلم السِّحر، وأرى الناس المخاريق، فكان يخرج لهم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ويمدّ يده إلى الهواء ويعيدها مملوءة دراهم مكتوب عليها: قل هو الله أحد، ويسميها دراهم القدرة، إلى غير ذلك من المخاريق، فافتتن به خلق كثير واعتقدوا فيه الحلول، فأباح العلماءُ دمه، فقتل سنة ٣٠٩هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٢/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣، البداية والنهاية ١١/ ١٤١.

(١) هو: محمد بن علي بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، أبو القاسم، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، من سبي اليمامة زمن أبي بكر الصديق ﷺ، رأى عمر وروى عنه، وعن أبيه، وأبي هريرة، وعثمان، وعمّار بن ياسر، ومعاوية ﷺ، توفي سنة ٨١هـ. انظر: التاريخ الكبير ١/ ١٨٢، المعرفة والتاريخ ١/ ٥٤٤، وفيات الأعيان ٤/ ١٦٩، الكنى والأسماء ٢/ ٦٨٦، الطبقات الكبرى ٥/ ٦٧، سير أعلام النبلاء ٤/ ١١٠، العبر ١/ ٦٨.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١١٢ ـ ١١٤، والفرقان بين الحق والباطل ص١١٨.

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ص١٦٧.

شدائد أصابتهم؛ أحدهم كان خائفاً من الأَرْمن، والآخر كان خائفاً من التّتَر، فذكر كل منهم أنه لما استغاث بي رآني في الهواء وقد دفعت عنه عدوَّه، فأخبرتهم أني لم أشعر بهذا، ولا دفعت عنكم شيئاً، وإنما هذا الشيطان تمثَّل لأحدهم لما أشرك بالله ـ تعالى ـ»[1].

قال الدَّميري[2]: «الجن: أجسامٌ هوائية قادرة على التشَكُّل بأشكال مختلفة، لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة»[3]، وقال القاضي أبو يعلى الفراء: «الجن أجسام مؤلفة، وأشخاص ممثلة، ويجوز أن تكون رقيقة، ويجوز أن تكون كثيفة، خلافاً للمعتزلة في قولهم، إنهم أجسام رقيقة، ولرقَّتها لا نراها»[4]، ويقول علي بن برهان الحلبي[5]: «ولهم ـ أي الجن ـ قدرة على التصور والتشكل بأية شكل أرادوه من الإنس أو البهائم أو الطير أو الهوام»[6].

وتغيير الجن والشياطين لصورهم إلى صُوَر أخرى لا يعني انتقال بنية الجسم وأجزائه إلى الصورة الأخرى، فإن أحداً من الخلق لا يستطيع أن ينتقل من صورته الأصلية إلى صورة أخرى، فربما أن الله ـ تعالى ـ علمهم ضُروباً من الأفعال والكلمات إذا فعلها الجني وقالها تمثل بإذن الله على

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/ ١١٥.

(٢) هو: محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدَّميري، أبو البقاء، كمال الدين، من أهل دميرة بمصر، ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة، باحث، مفسر، أديب، من فقهاء الشافعية، وله عدة مؤلفات، توفي سنة ٨٠٨هـ. انظر: هدية العارفين ٢/ ١٧٨، الأعلام ٧/ ١١٨، معجم المؤلفين ١٢/ ٦٥.

(٣) حياة الحيوان الكبرى ١/ ١٨٥.

(٤) لقط المرجان في أحكام الجان، للسيوطي ص١١.

(٥) هو: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين بن برهان الدين، أصله من حلب، ومولده ووفاته بمصر، مؤرِّخ، أديب، فقيه، نحوي، له تصانيف كثيرة، توفي سنة ١٠٤٤هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ٧٥٥، الأعلام ٤/ ٢٥١، معجم المؤلفين ٧/ ٣.

(٦) عقد المرجان فيما يتعلق بالجان ص٣٩.

الهيئة التي أرادها، ومما يؤيد هذا قولُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن أحداً لا يستطيع أن يتحوَّل عن صورته التي خلقه الله عليها: ولكن لهم سَحَرة كسحرتكم، فإذا رأيتم ذلك فأذنوا»(١). وقال القاضي أبو يعلى: «ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال في الصور، وإنما يجوز أن يعلمهم الله ـ تعالى ـ كلمات وضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله وتكلم به نقله الله ـ تعالى ـ من صورة إلى صورة، فيقال: إنه قادر على التصوير والتخييل، على معنى أنه قادر على قول إذا قاله وفعله نقله الله ـ تعالى عن صورته إلى صورة أخرى بجري العادة، وأما أنه يصور نفسه فذلك محال لأن انتقالها من صورة إلى صورة إنما يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء، وإذا انتقضت بطلت الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة»(٢).

ولقد أضل عدو الله الشيطان بإسلوب «تزيين الباطل» كثيراً من الناس، فكم حَسّن من قبيح وزيّن من فاحش وجمَّل من رذيلة وملّح من ذميم، وقنَّع عيوناً لترى الفواحش والمنكرات والمحرَّمات في قالبٍ مزخرف وصورة حسنة، وهي تُخفي في حقيقتها السمَّ الزُّعاف والدَّاء الدَّفين، فهو يظهر الباطل في صورة الحق مع إضافة الشهوات كي تندفع إليها النفوس المريضة، لتقع فريسة للشيطان الذي يتربَّص بها الشر، ويقودها إلى هلاكها وخسرانها، فعدو الله يعلم أن السبيل لإيقاع بني آدم في فخِّ طاعته ومن ثم مرافقتهم إياه في جهنم، هو في اقتراف المحرَّمات والوقوف في الموبقات، وإطلاق العنان للشهوات لتشبع نهمها بكل طريق، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات)(٣).

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري ٦/٣٩٦ وصحّح إسناده، وأخرجه ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان ص٢٤، وذكره ابن مفلح المقدسي في مصائب الإنسان من مكائد الشيطان ص١١٩.

(٢) آكام المرجان في أحكام الجان، للشبلي ص٢١ ـ ٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، حديث [٢٨٢٢].

والشيطان حين يُزيّن الباطل للإنسان فإنه بالمقابل يظهر الحق في صورة قبيحة ومستهجنة، ليُنَفّر النفوس عنه، فلا تتّبعه وتدعو إليه، فالشيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بوصف النبي ﷺ بالسِّحر والكهانة والجنون والكذب والشعر، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ [الصافات: ٣٦]، ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: ٢٩]، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: ٢]، ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص: ٤] إلى غير ذلك من الآيات.

والشيطان هو الذي أوحى إلى أوليائه بتسمية الحدود الشرعية قَسْوة ووحشية، مع أن في إقامتها يتحقّق العدل ويَعمّ الأمن، وهو الذي أوحى إليهم بتسمية المرأة المحتشمة بحجابها الشرعي رجعية ومتخلِّفة، وأوحى إلى أوليائه بتسمية الدين أفيون الشعوب، وشعائر الإسلام قيود فكرية، والإسلام كبت ورجعية... إلخ[1] من الأوصاف التي ينعق بها الإعلام الموجّه، لإطفاء نور الإسلام وسحق الهوية الإسلامية، وهو إعلام ينطق على لسان عدو الله الشيطان الذي يدعو الناس إلى الكفر بعد الإيمان والضلال بعد الهدى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد: ٢٥].

إن الشيطان حين يزيّن المعصية في نفس الإنسان، فإنه لا يدعوه إليها مباشرة، بل يقرِّبه منها خطوة خطوة وشيئاً فشيئاً، حتى يقع في الفخِّ الذي نصبه له، ولذا حذرنا الله ـ تعالى ـ من اتِّباع خطوات الشيطان والاسترسال

---

(١) انظر: كتاب «شبهات حول الإسلام»، للدكتور محمد قطب.

معها، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، ويقول ـ تبارك وتعالى ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ . . .﴾ الآية [النور: ٢١]، فالشيطان يتدرج مع الإنسان في إضلاله وغوايته، فيدعوه إلى المعصية ويزيّنها في نفسه، ثم يحبب له النظر إليها فتحسُن في عينيه، ثم يدعوه إلى الاقتراب منها وتحسسها وكيفية ارتكابها، وهو في ذلك يوسوس له بأن هذه المعصية من اليسير اقترافها، وليس هناك ما يدعو إلى التردد، حتى يزيل هيبة المعصية من قلبه، ثم يؤمِّنه من عاقبة فعلها، بأنه لن يكشف أمره، ولن يطَّلع أحد على جريمته، وأنه فعل ينتهي في وقته، وليس له مطالب ولا جريرة، ويوحي إليه بأنها فرصة نادرة فعليه اغتنامها والتلذُّذ بها، فربما لا تسنح مثل هذه اللذة الحاصلة والفرصة النادرة. . . وهكذا يقود هذا الإنسان إلى تلك المعصية عن طريق الخطوات الشيطانية المتتابعة، حتى يملأ فكره وقلبه ومشاعره بالرغبة في ارتكابها، ويشحذ عزمه وهمّه على فعلها، ولا يدعه حتى يراه متلبساً بفعلها، وغارقاً في رذائلها، فيُسرّ عدو الله الشيطان غاية السرور وهو يراه مواقعاً لتلك المعصية، فيبتهج بتطبيق خطَّته ونجاح مهمته.

إن عدو الله الشيطان يسعى باستخدامه أسلوب التدرج في الإضلال، أن ينقل الإنسان من معصية إلى ما هو أعظم منها، فهو بخبثه يتلطَّف الإنسان في قيادته من ذنب إلى آخر أكبر جُرماً حتى يصل به إلى هدفة الأكبر الذي يسعى إليه بكل وسائله وأساليبه وهو إخراج الإنسان من دائرة الإيمان بالله ـ تعالى ـ إلى الكفر والشرك به ـ تعالى ـ، ولقد كشف لنا الرسول ﷺ عن هذا الأسلوب الذي يتَّبعه عدو الله لإيقاع الإنسان في المعاصي والشُّبهات والخواطر المضلّة التي يهدف من خلالها إلى تشكيك الإنسان بربه وخالقه ـ تبارك وتعالى ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟

حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينْتَه)[1]، فكل محاولة للشيطان في وسوسته للإنسان لإضلاله وغوايته، إنما يحرص عدو الله على أن تكون عاقبتها الكفر بالله ـ جلا وعلا ـ، وقصة برصيص العابد أنموذج ومثال على اجتهاد الشيطان في إخراج الإنسان من إسلامه وإيمانه، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان راهب يتعبَّد في صومعته، وإن امرأة زيّنت له نفسها فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال: اقتلها فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت، فقتلها ودفنها، فجاؤوه فأخذوه وذهبوا به، فبينما هم يمشون إذا جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زينت لك، فاسجد لي سجدة أنجك، فسجد له، فأنزل الله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ...﴾[2] الآية [الحشر: ١٦]، يقول ابن القيّم بعد أن ذكر هذه الآية: «وهذا السياق لا يختص بالذي ذُكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويُسْلِمُه، كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ...﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فأوردهم شرّ الموارد وتبرأ منهم كل البراءة»[3]، فكم أزلَّ عدو الله بهذا الأسلوب الماكر من أمثال برصيص من بني آدم، موهماً إياهم بالنصح لهم والحرص على إرادة الخير لهم في كل عُقدة من عُقَدِه التي يزينها لهم، حتى يقودهم بخطواته المتتابعة الماكرة إلى مهاوي الردى وحَمْأة الرذيلة، نسأل الله العافية.

ومن الوسائل الشيطانية في تزيين الباطل «تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة إلى النفوس»، فأضل وأغوى بهذه الوسيلة الخبيثة كثيراً من

---

(١) سبق تخريجه ص٢٢٠.

(٢) سبق تخريجه ص٢٢٠، وقد رويت هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما بتفصيل أوسع يوضح أسلوب الشيطان في التدرج في الإضلال، انظر: تفسير الطبري ٢٨/ ٥٠، والقرطبي ١٨/ ٣٩، وتلبيس إبليس ص٣٧، والبداية والنهاية لابن كثير ٢/ ١٢٥.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٨.

الناس الذي كانوا يبتعدون عن المعاصي والمنكرات ويشمئزون منها، حين كانت تلك الموبقات تسمى بأسمائها الشرعية والعرفية، بيد أن إبليس استطاع بمكره وخبثه أن يحول تلك النفوس النقية إلى نفوس سيئة عفنة، همها إشباع شهواتها بأي طريق كان، بعد أن وسوس لها الشيطان بأسماء لتلك المنكرات تميل إليها وتهواها، وأوحى إليها بأن هذه المحرمات إنما هي في حقيقتها لمصلحتهم ومنفعتهم، وهذا أمر ملاحظ في كثير من الناس الذين يقترفون المعاصي ويغشون المنكرات فتجدهم يُخَرِّجُون لأنفسهم بمخارج إبليسية، من أهمها إخفاء الاسم الحقيقي لتلك الأمور المحرمة وتقنيعها بأسماء أخرى مغرية، فسموا الزنا حرية شخصية، وسمُّوا الخمر ـ وهي أم الخبائث ـ بمشروبات روحية، وسموا سفور المرأة وتبرجها خارج بيت الزوجية واختلاطها بالرجال الأجانب؛ حضارة وتقدماً ومدنية، وسموا الرقص والتمثيل والغناء فنّاً وبطولة، والربا فوائد، والغش والخيانة ذكاء وفطنة و«دبلوماسية»... إلخ من المعاصي والمنكرات التي قَنّعها دعاتها بأسماء لامعة، فراجت عند كثير من العوام والجهال، ولا ريب أن هذا من وسوسة الشيطان وإيحائه إلى أوليائه من الإنس لإظهار الباطل في صورة الحق.

إن تحريم الأشياء لم يكن لما تحمله من الأسماء والمصطلحات، وإنما حرَّمها الله ـ جل وعلا ـ لما تشتمل عليه من المضارّ والمفاسد لحياة الإنسان في هذه الدنيا، فهي لا تزول بتغير أسمائها وتحوّل صُورِها، ولقد لعن الله ـ تعالى ـ اليهود لتغييرهم صورة الشحم واسمه حين حرمه الله عليهم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله اليهود، حُرِّمت عليهم الشحوم، فجمّلوها[1] فباعوها)[2].

(١) «جملّوها» أي أذابوها، يقال: جمّلت الشحم وأجملته: إذا أذبته واستخرجت دهنه، انظر: النهاية في غريب الحديث ١/٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث [٣٤٦٠] باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ومسلم في المساقاة، حديث [١٥٨٢] باب تحريم بيع الخمر والميتة.. إلخ.

قال الخطَّابي: «وفي هذا بيان بطلان كل حيلة يُحْتَال بها، توصّل إلى محرم، وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيأته وتبديل اسمه»[1].

والشيطان في محاولته تغيير صورة الباطل وتبديل اسمه، يأتي إلى النفس من الباب الذي تحبه وتميل إليه، فيزين لها ما تهواه وتُؤْثِرُه، فيقوى تأثير وسوسته بميل النفس ومحبوبها، ومن هذا الباب دخل على الأبوين حين علم رغبتهما في الخلود في الجنة، فسمى لهما الشجرة المحرمة بشجرة الخلد، قال ـ تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]. قال ابن القيّم في بيان هذا المدخل الشيطاني: «وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه ويسألها عما تُحبُّه وتُؤْثِرُه، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك عَلَّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يُخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود»[2].

إن الشيطان تمكّن باستخدامه لهذا الأسلوب الماكر «تزيين الباطل» من طوائف كثيرة من بني آدم، لا سيما في هذا العصر الذي راجت فيه بضاعة الشيطان وتوسعت تجارته وكثرت أرباحه التي يسعى إلى الوصول إليها، فما هذه الشعارات والدعوات إلى تحرير المرأة كما يزعم دعاة خروج المرأة من بيتها وعفتها وكرامتها واختلاطها بالرجال، إلا بإيحاء من الشيطان إلى أوليائه، وتزيينه لهم تلك الدعوات الإبليسية، وجهل أو تجاهل أولئك أن الإسلام كفل للمرأة كل رعاية وتكريم واحترام على مستوى الأسرة

(١) معالم السنن للخطابي بهامش سنن أبي داود ٣/ ٧٥٧.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٣١.

والمجتمع، بل إن غالب ما كُلِّف به الرجل دون المرأة إنما هو من باب تشريفها وعلو مكانتها وحفظ كرامتها.

وما خرافة الشيوعية التي سقطت أركانها وفُتّت كيانها في هذا الزمان، إلا بتزيين من عدو الله الشيطان إلى وليه ماركس مؤسس ذلك المذهب الساقط، الذي قام على إنكار وجود الله، والدعوة إلى المادية البحتة التي لا تؤمن إلا بما هو محسوس، فحسّن الشيطان تلك الفكرة في نظر دعاة الباطل، ودعاهم إلى أن يقيموا هذا المذهب على أرض شاسعة ومترامية الأطراف، حتى أذن الله ﷻ بزوال هذه الخرافة وسقوطها، ومما يدعو إلى التعجب والسخرية تشبث كثير من دعاة هذا المذهب من العرب، وغيرهم بحطامه وتعلقهم بهشيم احتراقه ودعوتهم إليه بعد زواله، فسبحان الله كيف سَلّم أولئك زمام قيادتهم إلى الشيطان، يزين لهم كل ضلال ومنكر ويدعوهم إلى التمسك بكل سراب وخيالات لا حقيقة لها، كما زيّن الشر والفساد في نفس لينين وهتلر وأتاتورك، وقبلهم فرعون الذي زيّن له سوء عمله حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وزيّن للسامري حتى صنع لبني إسرائيل عجلاً جسداً له خوار ليُعبد من دون الله.

وما انتشار الخمر وتنوع أشكالها واختلاف كيفياتها، إلا بتزيين من الشيطان لصانعيها ومروّجيها ومتعاطيها، كي يقودهم، بعد أن تخلط عقولهم إلى كل بلاء ومصيبة، فالخمر هي حبل الشيطان الذي يقود به الإنسان إلى ما فيه عطبه وفساده، وهي أم الخبائث ودليلها، ولذا حذرنا الله من عاقبتها بعد أن نهانا عن شربها، وبيّن لنا ـ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ[1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ

---

(١) الميسر: هو القِمَار، والأنصاب: هي الأوثان: سُمِّيت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها ويذبحون قرابينهم عندها، والأزلام: هي القِدَاح التي كانوا يستقسمون بها، واحدها زَلَم، انظر: تفسير البغوي ٣/ ٩٤، وتفسير ابن كثير ٢/ ٩٢ ـ ٩٣.

﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]، وعن أبي بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث[١]، عن أبيه قال: سمعت عثمان ـ يعني ابن عفَّان رضي الله عنه يقول: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبّد، فعَلِقَتْهُ امرأة غويَّة فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية[٢] خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمرة كأساً أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يَرِمْ حتى وقع عليها وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخَمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه»[٣].

ولخبث الخمر وخطرها على الفرد والمجتمع فقد لعن الله عز وجل كل من أعان على صنعها وانتشارها بأي طريق، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أتاني جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل لعن

---

(١) هو: أبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المدني، أحد التابعين، والفقهاء السبعة في المدينة المنورة، روى عن جماعة من كبار الصحابة، وروى عنه جماعة من التابعين، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم، توفي سنة ٩٤هـ.
وأبوه عبد الرحمٰن هو من أشراف بني مخزوم، ولا صحبة له، بل له رؤية، حيث كان ابن عشر سنين حين قبض النبي صلى الله عليه وسلم، روى عن أبيه الحارث وعمر وعثمان وعلي وحفصة وغيرهم رضي الله عنهم، وكان ممن ندبه عثمان رضي الله عنه لكتابة المصاحف من شباب قريش، توفي سنة ٤٣هـ.
انظر للترجمتين: الاستيعاب ٢/ ٨٢٧، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٨٤، ٤/ ٤١٦، العبر ١/ ٨٣، الإصابة ٥/ ٦٦.

(٢) الباطية: هي الإناء، انظر: الصحاح ٦/ ٢٢٨١.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الأشربة، حديث [٥٦٦٦] باب (٤٤)، وعبد الرزاق بن همَّام نحوه في مصنفه ٩/ ٢٣٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٨٧، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٣٦٧، وذكره ابن كثير في تفسيره ٢/ ٩٨ وقال: «وهذا إسناد صحيح».

الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومستقيها)(١).

والفساد الجنسي الذي بث سمومه في العالم أجمع، لم يكن لناره أن توقد ولا للهيبه أن يستعر في النفوس المريضة إلا بتزيين قائد الفساد في الأرض، الشيطان اللعين، ولقد هُيئت لرواج هذا الفساد كلُ الأسباب الداعية إليه وإلى انتشاره، فأقيمت أندية خاصة لهذا الشذوذ غير الأخلاقي، يظهر فيها الرجال والنساء عراة ليختلط كل جنس بالآخر، وانتشرت المؤسسات التي تخدم هذا الفساد الجنسي وتشجعه بشتى الأساليب والوسائل، فهناك من يؤلف كتباً جنسية صِرْفة تدعو إلى ارتكاب هذه الجريمة دون خجل ولا حياء، وتسرد الروايات والقصص المثيرة لكوامن الشهوة، فضلاً عن انتشار المجلّات الجنسية المليئة بالصور الفاضحة التي يخجل منها الحيوان البهيم.

وتعتبر القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية (الأنترنت) أحد العوامل الأساسية في انتشار هذا النوع من الفساد والدعوة إليه، فقلّ أن يوجد بيت في هذا العصر إلا وقد دخلته هاتان الوسيلتان أو إحداهما، والعلة تكمن في عدم ضبطهما ورقابتهما من رب الأسرة والمسؤول عنها فصارت هذه الأجهزة تبث سمومها من خلال نوافذها المطلة على كل فحشاء ومنكر، حتى أصبح الرجل والمرأة يريان رأي العين كل ما تبثه أجهزة الكفر والفجور من صورة فاضحة ومناظر قبيحة وعادات سيئة، وجاء الطفل لينظر - ببراءته - إلى ما يخرج على هذه الشاشات من مشاهد ساقطة، فينشأ وقد ماتت الغَيْرة في نفسه، وكُدِّر صفو فطرته، وعُدِمَ الحياء في سلوكه، وهذا ما

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/٣١٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٨٧، وفي شعب الإيمان ٥/٩، والحاكم في المستدرك ٢/٣٧ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٧٣ وقال: «ورجاله ثقات»، وصحَّح المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ٣/٢٥٠.

يسعى إليه دعاة الانحراف والتحلل، إنهم يريدون إطلاق الغرائز دون ضابط من دين أو أخلاق، وبأي لون كان سُعَارها، إنهم يسعون إلى تحطيم ما بقي من الحواجز في المجتمعات الإسلامية، كي يعود الآدميون قُطعاناً من البهائم ينزو فيها الذكر على الأنثى دون ضابط في دين أو ضمير، فهي حرب معلنة على الأخلاق والمثل العليا باسم الحرية، وهي في الحقيقة دعوة إلى حياة الغاب، والنزوات الشهوانية، ولا عاصم من هذا الدمار الجارف إلا الاعتصام بالله ـ تعالى ـ والسير على منهجه ـ جل وعلا ـ الذي شرعه لعباده، واتباع سنة رسوله ﷺ الذي ضمن الجنة لمن يحفظ فرجه ولسانه عن كل فحشاء ومنكر، فعن سهل بن سعد[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من يضمن لي ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[2].

ولقد دأب عدو الله الشيطان، ولا زال مستمراً على إيقاع الناس في فخِّ مكره، من خلال فتنة النساء وجعلهنَّ طُعْماً مرغوباً على فِيِّ مصيدته التي نصبها في طريق بني آدم، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان)[3]، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتُدْبِر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يردُّ ما

---

(١) هو: سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري الساعدي، أبو العباس، صحابي مدني جليل، من مشاهير الصحابة، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وكان اسمه «حَزَناً» فغيَّره النبي ﷺ إلى «سهل»، وتوفي النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو آخر من مات من الصحابة الكرام بالمدينة، توفي سنة ٩١هـ.

انظر: الاستيعاب ٢/ ٦٦٤، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢٢، الإصابة ٣/ ١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، حديث [٦٤٧٤] باب حفظ اللسان.. إلخ.

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع، حديث [١١٧٣] باب (١٨) وقال: هذا «حديث حسن غريب»، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣/ ٩٣ وزاد في آخره: (وإنها لا تكون إلى وجه الله أقرب منها في قعر بيتها)، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٤٤٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٥، وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثّقون».

في نفسه)[1]، وقال الحسن بن صالح[2]: «سمعت أن الشيطان قال: للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي»[3].

إن فتنة النساء أضرُّ شيء على الرجال، وأسرع الفتن للوقوع في الحرام، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء)[4]، ولعظم خطرهن على الرجال فقد نهى ﷺ أن يختلي الرجل بالمرأة الأجنبية، فإن الشيطان يتسلَّل من خلال تلك الخلوة فيزين كلاً منهما للآخر لتقع الفاحشة والرذيلة، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان...) الحديث[5]، وتعتبر فتنة النساء هي أول فتنة بني إسرائيل، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الدنيا حلوة خَضِرَة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح: حديث [١٤٠٣] باب ندب من رأى امرأة فوقعت في نفسه... إلخ.

(٢) هو: الحسن بن صالح بن حي الهمداني الثوري، أبو عبد الله، أحد الأعلام، فقيه الكوفة وعابدها، قال أبو زرعة: «اجتمع في الحسن بن حي إتقانٌ وفقه وعبادة وزهد»، وشبّهه وكيع بسعيد بن جبير، وقال عنه ابن عدي: «روي عنه أحاديث صالحة مستقيمة، ولم أجد له حديثاً منكراً مجاوز المقدار، وهو عندي من أهل الصدق»، توفي سنة ١٦٩هـ.
انظر: الثقات ٦/ ١٦٤، الكامل لابن عدي ٢/ ٣٠٩، ميزان الاعتدال ١/ ٤٩٦.

(٣) مكائد الشيطان لابن أبي الدنيا ص٥٩، وتلبيس إبليس ص٤٣.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح، حديث [٥٠٩٦] باب ما يتقى من شؤم المرأة، ومسلم في الذكر والدعاء [٢٧٤٠] باب أكثر أهل الجنة الفقراء.

(٥) جزء من حديث أخرجه الترمذي في جامعه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب الفتن، حديث [٢١٦٥] باب ما جاء في لزوم الجماعة، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والإمام أحمد نحوه ١/ ١٨، ٢٦، وابن حبان في صحيحه ٩/ ١٨٨، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٣٤١، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٩١، والحاكم في المستدرك وصححه ١/ ١٩٨، وأبو يعلى في مسنده ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣، ١٣٨، والطبراني في المعجم الأوسط ٢/ ٣٩٤.

النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1]، قال الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «كل نوع من لذاتها ـ أي الدنيا ـ فيه هذه الفتنة والاختبار، ولكن أبلغ ما يكون وأشد، فتنة النساء، فإن فتنتهن عظيمة، والوقوع فيها خطير وضررها كبير، فإنهن مصائد الشيطان وحبائله، كم صاد بهن من مُعافَى فأصبح أسير شهوته ورهين ذنبه، قد عَزّ عليه الخلاص»[2].

ولقد بلغ تزيين الشيطان الباطل للناس، أن زيّن لهم عبادته من دون الله ـ تعالى ـ، فقد وُجد قديماً وحديثاً من يعبد الشيطان.

فعبادة الشيطان قديماً تنتمي إلى الشعور بقوة الشر في البيئة التي نشأت فيها وأحاطت بها، فقد آمن بعض الناس بأن للعالم إلهين، إلٰه الخير وإلٰه الشر، وجعلوا لإلٰه الشر حصَّة في الكون مساوية لحصَّة إلٰه الخير أو قريبة منه، وهذه في طائفة الثنوية «الزردشتية»، وقد كانت تفرض لإله الشر في بعض الأزمنة سُلطاناً أكبر من سلطان إلٰه الخير في العوالم الأرضية، وتعلل ذلك بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين.

وقد قامت هذه العقيدة على أرض فارس حيث لا تعرف العشائر المرتحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة، التي تؤمّن طريقهم ـ على حدّ زعمهم ـ من عواصف الثلوج والحرارة وفتك السباع والأفاعي ونكبات القحط والطوفان[3].

ففي ظل تلك المعتقدات نشأت عبادة الشياطين والتسليم لها بكل معاني الخضوع، خوفاً من شرها، يقول العقاد: «وظاهر من صور الشيطان

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث [٢٧٤٢] باب أكثر أهل الجنة الفقراء.. إلخ.

(٢) بهجة قلوب الأبرار ص٢٥٦.

(٣) انظر: كتاب إبليس للعقاد ص١٣٠.

التي عاشت بين الأوربيين المشارقة في صدر المسيحية، أن عُبَّادَه يقرنون بينه وبين (ديونيسس) صاحب التجلِّي الأعظم في حفلات الخمر والمجون، وكانوا يتقربون لديونيسس بجَدْي يربونه لهذا الغرض، ويصورونه ـ أي ديونيسس ـ في صورة (الساتير) الذي يتزيا بجلد الماعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنباً طويلاً كأذنابها ويمشي بقدمين لهما ظلفان مشقوقان، وكذلك كانت صورة الشيطان في محافل عُبَّادَه الأولين»[1]، وأشهر الطوائف التي تعبد الشيطان هي: الكاثارية، والبوجمولية، والألبية، وهي عبادة تقوم على الخرافات والإباحيات، يقول العقاد: «واشتهر من عباداتهم ـ أي عُبّاد الشيطان ـ عبادة القدّاس الأسود، ومحورها صورة الشيطان عارياً، وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين إليه وتنقل إليهم (البركة) بلمس أعضائه، وتنهي الصلاة بضروب من الإباحيات كالتي كانت تقترف في عبادات أرباب النسل عند الوثنيين»[2].

وفي البلاد العربية هناك نِحْلة تنسب إلى الشيطان ولا تزال لها بقية في العصر الحاضر، وهي النِحْلة اليزيدية التي تقيم في شمال العراق، وينتمي أبناؤها جميعاً إلى الكُرْد، وهي فرقة منحرفة نشأت عام [١٣٢هـ] إثْرَ انهيار الدولة الأموية، وكانت بدايتها حركة سياسية لإعادة مجد بني أمية، ولكن الظروف البيئية والجهل المطبق انحرف بهم إلى تقديس يزيد بن معاوية[3] وإبليس الذي يطلقون عليه اسم (طاووس مالك) أي رئيس الملائكة، وهو رمز وثني لإبليس يحتل تقديراً فائقاً لديهم، وقد جرّهم هذا الاعتبار إلى

---

(١) المرجع نفسه ص١٣٤.

(٢) المرجع نفسه ص١٣٦.

(٣) هو: يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب، أبو خالد الأموي، بويع له بالخلافة في حياة أبيه، أن يكون ولي العهد من بعده، ثم صار خليفة المسلمين بعد والده، وكان فيه إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وتناول المسكر.

انظر: الكامل لابن الأثير ٣/٣١٦، سير أعلام النبلاء ٤/٣٥، البداية والنهاية ٨/٢٢٩.

تقديس تمثال طاووس من النحاس على شكل ديك بحجم الكف المضمومة، وهم يطوفون بهذا التمثال على القرى لجمع الأموال، وترجع فلسفة تقديسهم لإبليس إلى عدة أمور هي:

١ ـ أن إبليس لم يسجد لآدم، فهو بذلك ـ في زعمهم ـ يعتبر الموحّد الأول الذي لم ينس وصية الرب بعدم السجود لغيره، في حين نسيها الملائكة فسجدوا، وقد كافأه الله بأن جعله طاووساً على الملائكة.

٢ ـ يُقدِّسون إبليس خوفاً من شره، لأنه ـ في زعمهم ـ قوي إلى درجة أنه تصدى للرب وتجرأ على رفض أوامره.

٣ ـ ويقدِّسونه أيضاً تمجيداً لبطولته في العصيان والتمرد.

وهم يعتبرون أن إبليس لم يُطرد من الجنة، بل إنه نزل من أجل رعاية الطائفة اليزيدية على وجه الأرض(١).

وهذا المذهب قائم بلا شك على خُزعبلات من القول لا صحة لها، بل إن نصوص الكتاب والسُنَّة تنقضه جُملة وتفصيلاً.

وفي أمريكا في بلاد الحضارة والرُّقي والمدنيَّة ـ كما يزعم الموالون للحضارة الغربية ـ، انتشرت هناك عبادةُ الشيطان بين جميع فئات الناس من جُهَّال ومتعلمين، ولقد تغلغلت هذه الموجة الجنونية في الولايات المتحدة الأمريكية بأسرها، وصارت هذه العبادة الشيطانية إلى أوج غليانها، ومن ذلك طائفة قامت لعبادة الشيطان وتقديسه، وهي طائفة تحيط نفسها بالسرّية التامة كالماسون وغيرهم، وهم في عبادتهم يتطاولون على الله ـ تعالى ـ، ويطعنون سائر الديانات والمذاهب التي تلعن الشيطان وتُقبِّحه، وكان أفراد تلك الطائفة يُقدّمون أولادهم بعد حرقهم استرضاء لإبليس ثم صاروا يُقدِّمون الخراف وصغار الحمام لئلا يكشف أمرهم، هذا ما طالعنا به «وليام وايدي» وهو مُصَوِّر مشهور احتكَّ بتلك الطائفة وشاهد أحوالها عن قرب بعد أن

(١) انظر: الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٥٤٩ ـ ٥٥٥.

دُعي لتصوير هيكلها، حيث يقول: «يوجد في مدينة نيويوك اليوم شيعة تعبد إبليس الرَّجيم على ذات النسق الذي كان معروفاً في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر وبعده، فإن باريس الجميلة كانت ولا تزال إلى الآن مقراً لتلك الطغمة الضالة، وبرلين أيضاً لم تخل من قوم يمَجّدون ذاك الذي يتعوَّذ من ذكره أهل التُّقى، ولندن رفّت[1] بعضهم من زمن غير بعيد، أما في العالم الجديد فإن جزيرة (مرتينيك) كانت المكان الأول الذي اجتاحه أتباع الخنَّاس، ولم يهجروه إلا بعد هياج جبل (بيلي) الناري، يوم هلك من الناس بتلك الضربة الإلهية نحو خمسة وعشرون ألفاً من النفوس، وكان في جملة الذين نجوا هؤلاء المفتونين، فغادروا بلاد النار يحملون إله النار إلى مدينة نيويورك، حيث جعلوها مقراً لهم، على أنهم غير معروفين فيها، لأنهم لا يصرّحون بمذهبهم جهاراً، بل يكتمونه كل الكتمان، والمدهش الموجب للأسف أن كثيرات من النساء قد اندمجن في هذا السلك الشيطاني، ولا يزال العدد منهن ومن الرجال يزداد يوماً عن يوم، كما أخبرني أحد المتعبِّدين، ولكثرة تحفّظهم وشدَّة حذرهم لا يقتنون كتباً، ولا بياناً بأسماء الأعضاء، فالمعتنقون منهم لدين الخناس يعرفون بعضهم بعضاً بعبارات وإشارات معلومة.

أما اجتماعاتهم فتنعقد سراً وراء أبواب مُوْصَدَة، وفي أواخر الليل، حتى إن وكيل المكان الذي يجتمعون فيه لا يعرف عن أمرهم شيئاً، بل يظنهم جمعية سرية كالماسون وأمثالهم، الذي يستأجرون منه نفس المكان في ليالٍ مختلفة.

أما عبادتهم فمنحصرة في تمجيد إبليس وتعظيم اسمه، لاعتقادهم بأنه خلاصة كل شيء صالح وحسن، والتطاول على الله ﷻ والطعن في سائر الديانات التي تقبح اسم الشيطان، وكان من عادات أمثالهم في فرنسا عند

(١) أي: احتضنتهم وأحاطت بهم.

تكريم ذلك المعبود المذموم تقديم الأولاد محترقة لاسترضائه، ثم اضطروا بحكم الأحوال والخوف من القصاص الصارم إذا درت بهم الحكومة إلى استبدال الأولاد بالخراف وصغار الحمام، على أنهم قد أبطلوا هذه المحرقات في الوقت الحاضر، لما في ذلك من التعب وكريه الرائحة، مما يبعث على الظنون وانتهاك السرّ المصون، وعندما سُئل كيف عرفت كل هذا؟ قال: عرفته بعد أن دُعيت كمصوِّر لأخذ رسوم هذه الطغمة في حالة تقديمها آيات الحمد والتسبيح لذلك الاسم القبيح، فبعد أن حلفت الأيمان المغلَّظة بديني وشرفي أن أكتم ما أراه وأسمعه، وأن لا أعلن شيئاً عن الأشخاص والمكان الذي يجتمعون فيه، أجيز لي الدخول إلى شر الأماكن حيث أخذت رسوم المصلين بألبستهم الرسمية، وعندما سألت الذي استدعاني أن يُصَرِّح لي باسمه لكي أُسَطِّره في دفتري حسب عادة المصوِّرين مع كل من يأخذ رسمه، حملق بعينيه، ورفع كلتا يديه فوق رأسه، وكأنه يستغيث من خطر مفاجئ، أو كأن إلٰه إبليس لطمه على جبهته، فارتعدت فرائصه، وقال: الانتحار أسهل عليّ كثيراً من إجابة سؤلك، لأني إن صَرَّحت لك باسمي هدمت بيتي ومستقبلي بيدي، وأصبح ذكري مكروهاً، ليس في نيويورك وحدها بل في العالم كله، على أن عدم تمكّني من معرفة اسمه، وتعهدي بكتمان أمر المكان وهيئة الأشخاص، كل هذا لا يمنعني من التصريح بالحقيقة عن وجود هذه الطائفة الإبليسية في هذه المدينة المسيحية، تعبد الشيطان تحت ظلال قباب كنائس يسوع، إن الأمر مدهش وبعيد عن التصديق لغير العارفين، ولكنه حقيقي لا ريب فيه، بالرغم من غرابته، وذلك ما حدا بي إلى إعلانه للملأ.

بقيت في ضيافتهم وقتاً طويلاً، وسمعت صلاتهم الشيطانية مراراً، ونقلتها بطريقة الاختزال، وهي كما يأتي:

(لك يا نور الوجود كرّست نفسي باحترام ومحبَّة وإيمان، أنت خُلاصة الصلاح ولهذا أَعِدُك بأني سأكون عدوّاً لإله الشر، أنت روح الحق، لهذا

أعدك بكراهية الكذب والرياء والخرافات، أنت يا إبليس النور الأبدي، ولهذا سوف أكون كارهاً للظلام، وأبذل في خدمتك نفسي ونفيسي، أنا لك يا إبليس جسماً وروحاً، فافعل بي كل ما يؤول إلى تمجيد اسمك، أقبل صلاتي وتذللي، وأَنِرْ طريقي ببهائك الساطع، وعندما يدنو يومي الأخير، تجدني شجاعاً هادئاً عند استقبال الموت، وعلى تمام الاستعداد للانتقال إلى أمجادك في النار الأبدية، آمين).

هذه هي الصلاة، وعلى الذين يدخلون في هذا الدِّين الشيطاني أن يعيدوها كلمة كلمة عندما يلقيها عليهم الكاهن الأكبر الملقب بمطران جهنم، ويضع المعتنِق الجديد لهذا المنصب بُرْقُعاً سميكاً أسود اللون على وجهه، ويقاد إلى أمام الكاهن بوقار وانكسار قلب، كما يفعل المنضمّ إلى الجمعيات السريَّة المعروفة.

ففي الليلة التي اجتمعت فيها بجنود إبليس كانت طالبة الدخول في سلكهم امرأة، فَذُهِلتُ لرؤيتها، وغيَّرتُ اعتقادي بضعف الجنس اللطيف وجبن أفراده، فلما جيء بهذه المؤمنة[1] الجديدة إلى دائرة جوق جهنم، كما يسمّونها، أُمِرَتْ بالركوع، فامتثلت، وبرفع يدها للصلاة، ففعلت، وإذ ذاك تلا مِطْرَانُ جهنم كلاماً كفرياً يقشعر لسماعه الجسم، كانت تلك المغرورة تعيده بصوت جهوري، وبكل خشوع، وبعد الفراغ منه أعلن إيمانها وقبولها بتاً لإبليس اللعين.

وبعد أن رأيت كل هذه الغرائب والمدهشات، التي لم أكن أتصور وجود مثلها في نيويورك أو في غيرها من بلدان العالم المتمَدِّن، سألت واحداً من أجناد الرجيم قائلاً: وما معنى كل هذا؟ فأجاب وقال: (معناه أننا نعبد إبليس، لاعتقادنا اللذة في عبادته، مما لا نجده في عبادة الله، فالله الذي نقرأ عن شرائعه المملؤة بالوعيد والخوف من عذاب الآخرة، وتضحية

---

(١) أي: بتلك الكفريات والأباطيل الإبليسية.

كل ما يلذ للنفس في العالم من أجله، لا يجتذب قلوبنا إليه، بل بالعكس يبعدها عنه، فهو حسب تعاليمه ينكر علينا حرية القول والعمل بما يخالف تلك التعاليم، ويحرم كل ما تميل إليه الشهوات من ملاذ الدنيا، أما الشيطان فعلى عكس ذلك، فهو يبيح لنا التصرف كما نحب ونشتهي، فأيهما الأفضل؟)، فلم أجبه، بل تركته في ضلاله، واستأذنت بالانصراف، فشيَّعني إلى الباب، وذكّرني بالقسم، وأكّد عليَّ المحافظة على وعدي بالكتمان، وهكذا تركته وأنا لا أُصدّق أني أخرج سالماً من هذا المكان»[1].

هكذا زيّن الشيطان عبادته في تلك البلاد، التي ينظر إليها كثير من الناس على أنها قمة الحضارة والرُّقي، فقد انتشرت هذه العبادة في تلك البلاد انتشاراً عظيماً، وهي عبادة تتسم بالولاء والتعظيم للشيطان ضمن أجواء مهيأة لتلك العبادات في كل أسبوع، حيث تبتدئ تلك الاحتفالات الشيطانية بالرقص العاري تتلوه حفلات الإباحية التي تنتهي بجرائم شاذَّة غامضة.

إن مجلة «تايم» الأمريكية، وهي من أكبر المجلات في العالم، كتبت في عددها الصادر في تشرين الأول عام ١٩٨٢م تحت عنوان «عودة الشيطان المبّجل إلى الولايات المتحدة الأمريكية» مقالاً يحكي عبادة الشيطان في أمريكا وغيرها من الدول الأوروبية وانخراط ملايين من الشعب الأمريكي في تلك العبادة وإيمانهم بها، ومما جاء في المجلة: «في نهاية الجادّة ترى بعض الشباب والشابات يتقدَّمون ببطء نحو منزل قديم، تتساءل: لماذا جاء هؤلاء في مثل هذا الوقت، فهل من المعقول أن يأتوا في منتصف الليل لممارسة هواية ما أو لاجتماع خيري؟ إن ذلك مرفوض. إذاً لماذا؟ على

(١) دائرة معارف القرن العشرين، تأليف محمد فريد وجدي ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٧، وقد حرصتُ أن أنقل نصَّ كلامه بتمامه، لنقف على أنموذج من النماذج العديدة التي تكشف مدى الحملة الشعواء التي يشنّها عدو الله لإغواء الناس وإضلالهم، ولنتبين كيف يزين إبليس عبادته للناس ويلقنهم ألفاظ الكفر والإلحاد.

الباب الأمامي للمنزل كان هناك شعارٌ برتقالي اللون رُسمت عليه مذرَّة، وفي الطبقة الأولى للمنزل تجمَّع صاحب المنزل وضيوفه ووقفوا بخشوع ووقار أمام مذبح مُغَطّى بستار أسود، وعلى الجدار المواجه لهم فوق المذبح صورة رأس ماعز يطلّ من قلب نجمة غريبة، وقد أحيطت بحروف لا معنى لها، خطوط وألوان وأشكال توحي لك بألف فكرة وفكرة، وفجأة صاح أحدهم بصوت أجش (في هذه الليلة ننتخب واحداً منا كاهناً لك يا شيطان، يا معظم يا معبود، هل تجد أن تكلف السيد «وارلوك شاني» بأن يكون كاهناً لك على الأرض هذه الليلة)، إنه جوّ مروّع يحمل من الغرابة والدَّهشة بحيث تكاد تشعر بأن الموجودين حولك لا ينتسبون للبشرية إطلاقاً، إنهم مخلوقات غريبة وشاذَّة تلبس قناع الآدمية.

بعد ذلك قام الرجل بقراءة بعض «التعاويذ» بلغة لاتينية قديمة، كان يكثر فيها من مناجاة إبليس الشيطان، ثم أعاد تلك التعاويذ باللغة الإنجليزية، وعلى حين غرّة امتدت يده إلى طرف الجدار فجذب سيفاً من غمده كان مُعلّقاً على الجدار وصوب السيف نحو الرجل المنتخب فلامس بشفرته الحادّة الكتف الأيمن ثم الأيسر، وما لبث رجل آخر من الخلف إلا أن ألقى بشيء من البخور وبعض الحشائش الغريبة في الموقد، وعلى أثر ذلك انطلق الدخان يعبق بالمكان بروائح عديدة، وقذف أحدهم قليلاً من البنزين في الموقد فارتفعت على الفور ألسنة اللهب حتى كادت تصل سقف الغرفة»[١].

وتقول المجلة الأمريكية: إن في مدينة «أوكلاند» بولاية كاليفورنيا لا يكاد القمر أن يصبح بدراً كاملاً حتى يجتمع عدد من طلاب وطالبات الجامعة في منزل بأحد الأحياء، تبدأ حفلتهم بنزع الملابس قطعة قطعة ليصبحوا عُراة، وينطلقوا بالتلوّي في رقصة غريبة تدعى «رقصة الشيطان

(١) الجن والشياطين بين العلم والدين، لرياض العبد الله ص٢١٢ ـ ٢١٣.

الكبير المبجَّل»، وفي ولاية «شيكاغو» يلتقي ما بين (٧٥ ـ ١٠٠) شخص من مدراء المكاتب والأطباء النفسانيين والموظفين العاديين وطلاب وطالبات، جمع مختلط من كافة المستويات الاجتماعية والطبقية، يجتمعون في كل أسبوع ليلة واحدة في «معبد الشيطان المعظم» يمارسون داخله أغرب أنواع العبادة الممزوجة بهستريا مروِّعة[١].

لقد وجد الشيطان في أولئك ضالته وأدرك منهم بغيته، حيث زيَّن لهم إقامة تلك الاحتفالات الشيطانية وطوّعهم لعبادته والاستجابة لما يوحي لهم من الأقوال والأفعال الكفرية، بل زيّن لبعض أولئك قتل أنفسهم استرضاءً للشيطان وتقرُّباً إليه وتنفيذاً لرغبته، ومثال ذلك: في عام ١٩٨٠م وفي ولاية كاليفورنيا الأمريكية اكتُشفت جُثَّة شاب مُقيَّدة بالحبال في أحد المستنقعات وكانت أشبه ما تكون بكتلة من اللحم حيث لا معالم على الإطلاق توضح شخصية الجُثَّة، وكانت البصمات ظاهرة بشكل واضح، ولم تطل التحرِّيات، فسرعان ما تم اعتقال شابين مراهقين لم يتجاوزا الخامسة عشر من العمر، ولقد اعترفا بقتلهما لذلك الشاب وبصراحة متناهية، ومن أقوال واعترافات الشابين ما يلي: إن صديقنا ـ أي المقتول ـ كان يخيفنا، وقد كان لديه تأثير شخصي علينا، ولطالما ردَّد على مسامعنا إن «إبليس سيده وحليفه»، ولقد ألحَّ عليه إبليس بزيارته في الجحيم حيث سيسند إليه أموراً مهمة جداً. . وهكذا فقد صمَّم صديقنا تحت وطأة التهديد أن نقيد يديه خلف ظهره ومن ثم نرميه في المستنقع، كان ذلك صعباً للغاية، إلا أنه هددنا بصفته صديقاً لإبليس إن لم نفعل ما يقول فإنه سيؤذينا بعاهات مستديمة، فأوثقناه ومن ثم دفعناه بقوة إلى المستنقع، غير أن المياه لم تكن عميقة مما جعله يصرخ فينا كي نحاول دفعه بأية وسيلة إلى الأعمق، وهذا ما أقدمنا عليه، فقد دفعناه مرة أخرى بواسطة فرع شجرة كبيرة إلى الأعمق وبعد ذلك ابتعدنا نركض خوفاً من أن يعود، وبعد التفتيش الدقيق في غرفة الضحية، عثرت الشرطة على خطاب خاص بالضحية دَوَّن فيه وصفاً

(١) المرجع نفسه.

دقيقاً لدوافع انتحاره، والطريقة التي سيلجأ إليها، وقد ختم خطابه بقوله: «إبليس هو سيِّدي وحليفي، ولقد وعدني بمُهمَّات جمّة، وأنا الآن أُنفّذ ما طلبه مني حَرْفيّاً دون تذمر أو اعترض وبالطريقة التي أراد...»[1].

وتوجد في أمريكا أضخم المكتبات التي تحوي الكتب الشيطانية بسان فرنسيسكو وشيكاغو ونيويورك ونيوجرسي وغيرها من المكتبات التي تضم تلك الكتب وتحمل عناوين غريبة مضمونها الامتثال لأوامر الشيطان والعمل بما يوحي به، وأما الكتاب المعتمد في كافة محافل الشيطان في الولايات المتحدة الأمريكية فهو «كتاب الشيطان المقدّس» لمؤلفه «أنطوان جاندور لافي» الذي أسس هذه المحافل لعبادة الشيطان في سان فرنسيسكو عام ١٩٦٦م، ثم انتشرت فروعها في الولايات الأخرى حتى امتدت إلى الدول الأروبية. وتعتبر مكتبة «علم ما وراء الطبيعة» ومركزها بسان فرنسيسكو من أشهر المكتبات المختصة ببيع الكتب الشيطانية، حيث تبيع ٩٠٪ من مجموع خمسين ألف كتاب متخصص بالسِّحر والشيطان والعبادة، وذلك شهرياً، أما في العالم فإن مبيعاتها تُقدَّر بحوالي نصف مليون كتاب[2].

ولقد وُجدت محافل عبادة الشيطان في فرنسا وسويسرا وإيطاليا.

وأما في ألمانيا فإن ما لا يقل عن (٥٠٠) ألف رجل وامرأة يمارسون نوعاً غريباً من العبادة وهي التعبّد للشيطان، وأن أكثر من (٧٠٠) ألف شخص يتعاطون العلوم السرّية للشيطان[3].

إن الطقوس الشيطانية تعتبر الجنس هو الأساس الذي تقوم عليه، وهو أمر ملاحظ في المحافل التي تقام فيها تلك العبادات، فالرقص والعُري والتفسّخ والمجون هو شعار عبدة الشيطان، ولذا فهم أسوء الناس خُلقاً وسُلوكاً، تقول مجلة «تايم»: «إن متعبِّدي الشيطان، هم أكثر الناس انغماساً

---

(١) نقلاً من كتاب المسكونون بالشيطان، لرياض العبد الله ص٦١ ـ ٦٢ بتصرف.
(٢) الجن والشياطين بين العلم والدين ص٢١٤ ـ ٢١٥.
(٣) المرجع نفسه.

في الشر والفسق والفجور السري والعلني»[1].

إن هذه الفئات من البشر استطاع الشيطان أن يحقق فيهم وعده ويَبَرَّ قسمه، حيث زيّن لهم عدو الله تلك العبادة وحسَّنها في أعينهم، وأوحى إليهم بأنه الملك المطاع، فعليهم أن ينفذوا أوامره بلا قيد أو شرط، وهو في تزيينه لهم تلك العبادة الإبليسية يُقَبّح لهم عبادة الله ـ تعالى ـ ويوحي لهم الشعور بالألم وعدم الراحة في امتثالها، أو الفائدة في فعلها، وهو أسلوب الشيطان وخطَّته التي ينفذها في خضم حملته الشرسة على بني آدم، إذ حين يزين الكفر والشرك للإنسان، ويحسّن له المنكر والفساد، فإنه بالمقابل يجتهد بكل حيله الإبليسية كي يصرفه عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده، وذلك بكراهية طاعة الله وعبادته وحده ـ تعالى ـ، وتقبيح من يفعل ذلك، والميل الشديد إلى إشباع الشهوات وإطلاق الغرائز والملذات دون ضابط من دين أو خُلق، حتى يبلغ به عدو الله مقصده وينتهي إلى حيث أراد من الوقوع في شراك مصيدته والسقوط في فخِّ طاعته.

وما ذاك التشويه لدين الله ـ تعالى ـ الذي يدعو إليه الشيطان بأساليبه الماكرة وأوليائه وجنده إلا لأن عدو الله يعلم تمام العلم أن من توجَّه إلى الله ـ تعالى ـ بالطاعة والعبادة، وتعلَّق بحبله المتين، واستمسك بالعروة الوثقى بدوام ذكره ـ تعالى ـ وفعل ما يقرب إليه ـ جل وعلا ـ، فإن كيد الشيطان يبطل، ووساوسه تذهب أدراج الرياح، وتزيينه يبوء بالفشل، لذا فإن عدو الله يجتهد كل الاجتهاد كي يصرف قلب الإنسان أولاً عن التعلق بربه، وجوارحه عن التذلل والخضوع له ـ تعالى ـ، ومن ثم ينفث سمومه لتجد لها قلباً خاوياً فتتمكَّن منه وتؤثِّر فيه.

فكل عبادة لغير الله ـ تعالى ـ فهي بتزيين الشيطان وهي في حقيقتها عبادة للشيطان، ولقد قرر الله ـ تعالى ـ هذا الأمر في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، فحكم ـ تعالى ـ

(١) الجن والشياطين بين العلم والدين ص٢١٦.

على أولئك الذين صرفوا العبادة لغيره ـ تعالى ـ بأنهم صرفوها لعدوهم الشيطان، يقول ابن القيّم: «فما عَبَدَ أحدٌ من بني آدم غيرَ الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضى الشيطان، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، أي في إغوائهم وإضلالهم: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]»(١).

وباستخدام الشيطان لأسلوب «تزيين الباطل» حسّن عدو الله لكثير من الناس الوقوع في الإفراط والتفريط في العبادات، فزيّن لبعض الناس الانقطاع للعبادة، والابتعاد عن الدنيا ابتعاداً تاماً، والانخلاع عن متاعها انخلاعاً كاملاً، ووسوس لهم أن الارتباط بأيِّ أمر من أمور الدنيا إنما هو ركون إليها واطمئنان إلى حطامها الزائل، وابتعاد عن الله وعن مرضاته ولذَّة مناجاته والتقرب إليه بأنواع القربات، فلقيت هذه الوسوسة الشيطانية قبولاً عند طائفة من البشر، حتى زيّن لهم عدو الله تحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ من الطيبات والمباحات، بَيْدَ أن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه الكريم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الأعراف: ٣٢]، ولقد أضرب بعض أولئك عن الزواج والرغبة في النكاح والذرية وإقامة الأسرة المسلمة، وامتنع بعضهم عن أكل الطيبات من الطعام واكتفى بما لا يقيم صلبه من الطعام، ورغب بعضهم عن النوم على الفراش وفضّل النوم على الأرض الصلبة، إلى غير ذلك مما جمّل الشيطان فعله لهم وحسّنه في نظرهم، وهو فعل لا أصل له في شريعة الإسلام، بل إن نصوص الكتاب والسّنّة تنهى عنه وتحذر من فعله، فالله ـ تعالى ـ يقول حكاية عن قوم قارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ

(١) الجواب الكافي ص٢١٣.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [القصص: ٧٧]، يقول ابن كثير: «أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي مما أباح الله منها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولزَوْجك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقَّه»(١).

ولقد عاب الله ﷻ على النصارى أنهم أحدثوا في الدين ما ليس منه، وأخبر ـ تعالى ـ أن مرضاته لا تتحقق بتلك الرهبانية المبتدعة، وإنما تتحقق باتِّباع شرعه والسير على هدي كتابه، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السرّ، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللَّحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني)(٢)، وهؤلاء المُفْرِطون في العبادة لا يعلمون أنها بتزيين الشيطان، فهم يحسبون أن عدو الله لا يزين لهم الزيادة في العبادة والمبالغة فيها، وفي اعتبارهم أن الشيطان لا يدخل إلى الناس إلا عن طريق المعاصي والرذائل وتزيينها لهم، وهذا اعتبار قاصر، فإن مداخل الشيطان على بني آدم كثيرة وأهمها عند الشيطان أن يصرف العباد عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده، بتزيين الإفراط في العبادة بحجة التقرب إلى الله ـ جل وعلا ـ، ولا عاصم من هذا المدخل

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، حديث [١٤٠١] باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.. إلخ. واللفظ له.

الشيطاني إلا العلم الصحيح والفقة في الدين المستمد في كتاب الله وسنة رسول ﷺ، يقول ابن الجوزي: «قد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن المجيد والأحاديث، فيرى أن النجاة تركها ولا يدري ما الدنيا المذمومة، فَيُلَبِّس عليه إبليس: بأنك لا تنجو في الآخرة إلا بترك الدنيا، فيخرج على وجهه إلى الجبال فيبعد عن الجمعة والجماعة والعلم، ويصير كالوحش، ويُخيّل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي، كيف لا وقد سمع عن فلان أنه هام على وجهه، وعن فلان أنه تعبّد في جبل، وربما كانت له عائلة فضاعت، أو والدة فبكت لفراقه، وربما لم يعرف أركان الصلاة كما ينبغي، وربما كانت عليه مظالم لم يخرج منها، وإنما يتمكن إبليس من التلبيس على هذا لقلة علمه، ومن جهله رضاه عن نفسه بما يعلم، ولو أنه وُفِّق لصحبة فقيه يفهم الحقائق، لعرّفه أن الدنيا لا تُذم لذاتها، وكيف يذم ما مَنَّ الله ـ تعالى ـ به، وما هو ضرورة في بقاء الأرض، وسبب في إعانته على تحصيل العلم والعبادة، من مطعم ومشرب وملبس ومسجد يصلي فيه، وإنما المذموم أخذ الشيء من غير حلِّه أو تناوله على وجه السَّرف لا على مقدار الحاجة»(١).

وبالمقابل فإن الشيطان يزين للإنسان التفريط في العبادة وعدم صرف الوقت فيها، والإقبال على الدنيا والتهالك في الحصول على متاعها بشتى السبل والوسائل، وإطلاق العنان للشهوات لإشباع نهمه منها بأي طريق، ويوسوس له بطول الأمل وامتداد الأجل، فعليه أن يجمع من الدنيا ما استطاع ولو على حساب الآخرين دون ضابط من شرع ولا عقل، فإنْ يئس عدو الله من الاستجابة لتلك الوساوس، وأقبل العبد على طاعة ربه ولم يلتفت إلى غواية الشيطان، فحينئذٍ يأتي إليه عدو الله من باب الإفراط في العبادة والمبالغة فيها، فيزيّن له الشيطان ذلك ويدعوه إليه بحجة أنه عبادة تقرب العبد إلى ربه، فالشيطان إما أن يزيّن للإنسان الإفراط في العبادة أو التفريط فيها ليصرف الإنسان عن صراط الله المستقيم، تحقيقاً لوعده في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله

---

(١) تلبيس إبليس ص١٨٥.

ـ تعالى ـ ما أمر عباده بأمر إلا اعتراض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر: إما إفراط فيه، وإما تفريط فيه، وإذا كان الإسلام الذي هو دين الله لا يقبل من أحد سواه، قد اعترض الشيطان كثيراً ممن ينتسب إليه، حتى أخرجه عن كثير من شرائعه، بل أخرج طوائف من أعبد هذه الأمة وأورعها عنه، حتى مرقوا منه كما يمْرُق السّهم من الرميّة»[1]، ويقول ابن القيّم رحمه الله: «وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشامّه، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً، أخذه من هذه الخطة، فثبّطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتى ربما ترك العبد المأمور جملة، وإن وجد عنده جداً وتشميراً ونهضة، وآيس أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك، وهمّتك فوق هذا، وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا... ثم قال: ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقُوَّة على محاربته، ولزوم الوسط، والله المستعان»[2].

وفي الجملة، فإن مجالات الباطل التي زيَّنها الشيطان لبني آدم كثيرة جداً، فعداوة الشيطان للإنسان عداوة شاملة وشرسة، وقدْرُ تزيين الشيطان الباطل للإنسان بقدر اتساع هذه العداوة وشمولها، فعدو الله يزين الباطل للإنسان يوسوس له بأنه من أنفع الأشياء، وينفِّره من الأفعال الحسنة حتى يظن أنها من أضر الأشياء إليه فيتمكَّن منه الباطل ويعمل به دون غيره، فكم سحر الشيطان بهذا التزيين من البشر فألقاهم في الأهواء المختلفة والمهالك المتنوعة، وصدق الله ـ تعالى ـ حيث يقول: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [فصلت: ٢٥].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٨١.

(٢) الوابل الصيِّب من الكلم الطيب ص١٧ ـ ١٨.

المبحث الثالث

إنساؤه ذكر الله

النّسيان: هو خلاف الذّكر والحفظ، بأن يكون ذاكراً لشيء، فينساه عند الفعل[1]، وقال الجُرْجَاني: «هو الغفلة عن معلوم في غير حالة السِّنة، فلا ينافي الوجوب أي نفس الوجوب، ولا وجوب الأداء»[2].

ولقد خلق الله ﷻ الإنسان وجعله قابلاً للتذكر والنسيان، فمن طَبْع هذا المخلوق البشري أن ينسى، وهذا النسيان يتفاوت كثرة وقلة من شخص لآخر، كما أن لمرحلة العمر أثراً في النسيان، فمرحلة الشباب تختلف عن مرحلة الشيخوخة في استحضار الأمور وتذكرها، إلا أن الجميع تنطبق عليه هذه الظاهرة، ظاهرة النسيان.

وقد ذكر القرآن الكريم النسيان في عدة آيات، يمكن تقسيمها بحسب معانيها إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ـ النسيان العادي، الذي يطرأ في الذِّهن على الحوادث والمعلومات والأسماء والأشخاص، ويتعرَّض الإنسان لهذا النوع من النسيان نتيجة لتزاحم المعلومات وتداخلها، ومثاله قول الله ـ تعالى ـ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦].

٢ ـ النسيان الذي ينطوي على معنى السهو، كأن ينسى الإنسان شيئاً من متاعه في مكان ما، أو يريد أن يتكلم مع شخص آخر في أمور عدة

---

(١) انظر: الصحاح ٦/٢٥٠٨.

(٢) التعريفات ص٢٤١.

فيتكلم في بعضها وينسى البعض الآخر، فلا يذكره إلا فيما بعد، مثاله: ما حكاه الله ﷻ عن فتى موسى ﵇ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٣]، ويطلق علماء النفس على هذا النوع من النسيان «بالتداخل اللاحق» وهو الذي يحدث في تأثير العادات والأنشطة والمعلومات السابقة في التذكر لمادة تتعلم حديثاً[١].

٣ ـ النسيان بمعنى ترك الاهتمام بأمر ما[٢]، ومن أمثلة هذا النوع من النسيان قوله ـ تعالى ـ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]، قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ فإن معناه: تركوا الله أن يطيعوه، ويتَّبعوا أمره، فتركهم من توفيقه وهدايته ورحمته»[٣].

والنسيان لما له من عموم في اعترائه للبشر، فإنه يعتري الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ويعرض لهم، مع ما لهم من مكانة عند الله ـ تعالى ـ، فقد أثبت الله لهم النسيان ووصفهم به وأثبتوه لأنفسهم بما لهم من طبيعة بشرية، فمن ذلك ما أخبر الله ـ جل وعلا ـ به عن نبيه آدم ﵇ في نسيانه للعهد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)[٤]، وقد نسب النبي ﷺ النسيان إلى نفسه الشريفة، وأخبر أنه بشر مثل قومه ينسى كما ينسون، فعن عبد الله بن

---

(١) انظر: القرآن وعلم النفس ص١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) انظر: آدم ﵇ للبهي الخولي ص١٧٦ ـ ١٧٧.

(٣) تفسير الطبري ١٠/ ١٧٥.

(٤) جزء من حديث أخرجه الترمذي في جامعه مطولاً، كتاب تفسير القرآن، حديث [٣٠٧٦] باب من سورة الأعراف، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن حبان في صحيحه ٨/ ١٦، وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٢٥، والحاكم في المستدرك وصحَّحه ٢/ ٣٥٥.

مسعود رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ، قال إبراهيم: لا أدري أزاد أو نقص ـ فلما سلّم قيل: يا رسول الله أحَدَثَ في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صليت كذا وكذا، فثنى رجليه واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلَّم، فلما أقبل علينا بوجهه قال: (إنه لو حدث في الصلاة شيء لنبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحرَّ الصواب، فليتم عليه ثم ليسلم، ثم يسجد سجدتين)[(١)].

وقال القاضي عياض: «وأما ما يكون بغير قصد وتعمد كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به وترك المؤاخذة عليه، فأحوال الأنبياء في ترك المؤاخذة به وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء»[(٢)]، ولا ريب أن نسيان الأنبياء إنما يكون فيما ليس طريقه البلاغ مما أوحاه الله إليهم، فإن الله ـ تعالى ـ قد عصم أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من التقصير في تبليغ الرسالة، سواء كان من جهة النسيان أو غيره، قال القاضي عياض: «وكذلك لا خلاف أنهم ـ أي الأنبياء ـ معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ، لأن كل ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة، مع الإجماع على ذلك من الكافة»[(٣)].

ويقول ابن العربي في إجابته عن كيفية إضافة النسيان إلى الأنبياء: «قلنا: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد هو جهة الخبر عن الإبلاغ؛ فإنهم معصومون فيه نسياناً وذكراً، وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، ولكن ذلك إنما يكون فيما يخبر الله به عنهم، أو يخبرون به عن أنفسهم ولا يجوز لنا نحن ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، حدث [٤٠١] باب التوجّه نحو القبلة حيث كان، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، بدون قوله (ثم ليسلّم) حديث [٥٧٢] باب السهو في الصلاة والسجود له.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض ٢/ ١٤٩.

(٣) المرجع نفسه ٢/ ١٤٤.

فيهم»[1]، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ معصومون فيما يخبرون به عن الله ـ سبحانه ـ، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة»[2].

وإذا كان النبي يعتريه النسيان بما له من طبيعة بشرية، فإن ذلك النسيان لا يُخلّ بمكانة النبوة ولا يقدح في منزلتها الشريفة، فإن الله ـ تعالى ـ قادر أن يعصم أنبياءه من النسيان مطلقاً فيما كان طريقه البلاغ وما ليس كذلك، إلا أن الله ﷻ أراد بحصول ذلك النسيان تعليم أمة النبي أحكام الناسي من خلال درس عملي تتلقاه عن نبيها، يكون له أكبر الأثر في حياتها، ومعرفة أحكام دينها، قال النووي: «فإن السهو لا يناقض النبوة، وإذا لم يقرّ عليه، لم يحصل منه مفسدة، بل تحصل فيه فائدة وهو بيان أحكام الناسي وتقرير الأحكام»[3].

فالنسيان جِبلَّة طُبعَ عليها البشر، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ بهذه الأمة أن رفع عنها ما يترتب على النسيان من التقصير، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[4].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: (قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا) قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

(١) أحكام القرآن، لابن العربي ٣/ ٥٥.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٨٩.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٥/ ٦١ ـ ٦٢.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك وصحّحه ٢/ ٢١٦، وابن حبان في صحيحه ٩/ ١٧٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٣٥٦ وقال البيهقي: «جوَّد إسناده بشر بن بكر وهو من الثقات»، وحسّنه النووي. انظر: شرح الأربعين حديثاً النووية، لابن دقيق العيد ص١٢٢.

أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعلت، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت[١].

ويعتبر النسيان أسلوباً من أساليب الشيطان في كيده للإنسان، فينسِّيه ما فيه خيره وصلاحه من خلال استعداد الإنسان للنسيان، فيلهيه عن طاعة ربه ـ تعالى ـ وذكره، حتى ربما ترك جميع الواجبات، ثم يدعوه إلى المحرمات وارتكاب ما يشينه من المعاصي والمنكرات، «فإذا زيّن الشيطان لغرائز الإنسان أمراً من الأمور، أو زيّن لها غاية من الغايات ـ وهو لا يزين لها إلا ما تحبه ـ لانت لسماعه، ومالت إلى اتِّباعه، وكان لها من اللذة الحالمة، والسريان العذب، والإغراء المطمع، ما يجعل القلب يستحب الركون إليه، ويأنس لمطاوعته والمزيد منه، وينصرف بالتدريج عما لديه من أمر الله، حتى يغدو مشغولاً بخواطر جديدة، وآمال غير التي كان يتعلق بها، وغايات غير التي كان يرسمها له إيمانه بالله، وذلك هو النسيان القلبي»[٢]، يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف يقدر الشيطان على الإنسان؟ قلت: يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره»[٣].

إن وسيلة الشهوات والدوافع الغريزية في الإنسان هي الوسيلة الأساس التي يستعين بها عدو الله في التأثير على الإنسان ودفعه إلى الغفلة والنسيان عن كل ما يصلح دنياه وآخرته، حيث إن الإنسان يميل بطبعه إلى إشباع غرائزه وشهواته، يقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، ومن هنا دخل إبليس على آدم عليه السلام حين رغّبه فيما كان يتمناه وهو الخلود في

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٢٦] باب بيان أنه سبحانه لم يكلّف إلا ما يُطاق.
(٢) آدم عليه السلام للبهي الخولي ص١٧٨ بتصرف يسير.
(٣) الكشّاف ٢/ ٣٢٢.

الجنة والملك الذي لا ينقطع، وأكّد له كل ذلك بالقسم على صدقه ونصحه له، فأكل آدم من الشجرة ونسي عهد الله ـ تعالى ـ بعدم الأكل منها، يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١٥].

والشيطان حين يستحوذ على الإنسان فإن أول ما ينسيه ذكر الله ـ تعالى ـ، قال الحق ـ جل وعلا ـ: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩]، قال الزمخشري: «أي ملكهم الشيطان لطاعتهم له في كل ما يريده منهم حتى جعلهم رعيته وحزبه، فأنساهم أن يذكروا الله أصلاً، لا بقلوبهم ولا بألسنتهم»(١).

ويعتبر نسيان العبد لربه من أكبر الآثام وأخطرها على حياة الإنسان في الدنيا والآخرة، ولذا فقد نهى الله ـ تعالى ـ عباده عن الغفلة عن ذكره وحذّرهم من عاقبتها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، ولقد توعَّد الله ﷻ الغافلين عن ذكره ـ تعالى ـ، والمعرضين عن الاستجابة لآياته ـ سبحانه ـ، بضيق العيش في الدنيا وسوء العذاب يوم القيامة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧].

وأهم أسباب نسيان اللهِ ـ تعالى ـ وذكره ومراقبته، هو التهالك على الدنيا ومتاعها الزائل والتعلُّق الشديد بها حتى تغلب على فكر الإنسان، وقد

---

(١) الكشّاف ٤/٧٨.

حذر الله ـ تعالى ـ من الانغماس في الدنيا وملذاتها والتشبث بها بحيث تكون همّ الإنسان الذي يسعى إليه وينظر من خلاله، حتى تلهيه عن ذكر الله ـ جل وعلا ـ، يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩]، الخاسرون دنياهم وآخرتهم، وإن كانوا يحسبون أنهم حققوا بعض المكاسب، لكنها مكاسب مادية سرعان ما تزول وتنتهي، والمكاسب الباقية هي التي تكون ثمرة التجارة الحقيقية الرابحة في التعامل مع الله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

ولقد أخبر الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم عن إنساء الشيطان للإنسان ما فيه صلاحه ومنفعته، فحكى الله ـ تعالى ـ عن صاحب موسى عليه السلام بأنه أنساه الشيطان أن يحمل حوته معه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . . .﴾ الآية [الكهف: ٦٣]، وذلك حين جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين قال عليه السلام لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعباً، فأجاب الفتى بما ذكره الله عز وجل عنه، فالشيطان يجتهد كل الاجتهاد أن يشغل فكر العبد عن طاعة ربه، ويحاول أن يطيل مدة النسيان والغفلة لدى الإنسان كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، فالنسيان سببه الشيطان ووساوسه الرديئة، وقد دلت هذه الآية على ذلك، يقول الشنقيطي: «وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾، دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أُخر»(١)، ويقول الزمخشري: «ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت؟ قلت:

(١) أضواء البيان ٤/١٥٦.

قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب حتى اعتراه النسيان، وانضم إلى ذلك أنه ضَرِيَ[1] بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب واستأنس بإخوانه، فأعان الإلفُ على قلة الاهتمام»[2].

ومن شواهد القرآن الكريم في إنساء الشيطان للإنسان ما ذكره الله عز وجل عن صاحب يوسف عليه السلام في السجن، فحين أوصاه يوسف أن يذكره عند سيده بعد أن يخرج من السجن، نسي صاحبه تلك الوصية وذاك التذكير؛ مما كان سبباً في مكث يوسف عليه السلام في السجن مدةً أطول، وهذا النسيان إنما كان من الشيطان ليحول بين الإنسان وبين مصلحته أو مصلحة الآخرين من عباد الله الصالحين، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: ٤٢]، وللعلماء في عود الضمير في قوله: «فأنساه» قولان:

١ ـ إنه عائد إلى يوسف عليه السلام والمعنى على هذا القول: إن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام أن يذكر ربه ـ تعالى ـ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل والزجّاج[3]، ورجّحه الفخر الرازي[4]، وإليه ذهب ابن جرير الطبري، حيث قال: «وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، هذا خبر من الله ـ جل ثناؤه ـ عن غفلة عرضت ليوسف من قِبَل الشيطان نسي لها ذكر ربه الذي لو به استغاث لأسرع بما هو فيه خلاصُه»[5].

٢ ـ إن الضمير في «فأنساه» يعود على الناجي الذي أوصاه يوسف عليه السلام أن يُذكّر ربه به، وهو مروي عن مجاهد أيضاً ومحمد بن إسحاق[6]،

---

(١) أي اعتاد. انظر: اللسان مادة «ضرا».

(٢) الكشّاف ٢/ ٤٩١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٣، وزاد المسير في علم التفسير ٤/ ٢٢٧، ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج ٣/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الكبير ١٨/ ١٤٥.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٢.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٠.

ورجّحه أبو حيان وشيخ الإسلام ابن تيمية وأبو السعود والألوسي، وصوّبه ابن كثير[1].

وهذا القول هو ظاهر الآية، فالوصية بالتذكير كانت موجهة من يوسف عليه السلام إلى الناجي الذي سوف يسقي ربه خمراً، فكان النسيان أسبق إلى الناجي من أن يذكر ما أوصاه به يوسف عليه السلام، ويشهد لهذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ[2] بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]، قال ابن عطية: «وبقوله (ادّكر) يقْوى قول من يقول: إن الضمير في (فأنساه) عائد على الساقي، والأمر محتمل»[3]، ويقول ابن تيمية: «ومما يبيّن أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ دليل على أنه كان قد نسي فادّكر»[4].

ويؤيد هذا المعنى أيضاً قراءة ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك[5]: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أَمَةٍ﴾، قال الفراء: «وقد ذُكر عن بعضهم ﴿بَعْدَ أَمَةٍ﴾ وهو النسيان، يقال: رجل مأموه، كأنه الذي ليس معه عقله، وقد أَمِهَ الرجل»[6].

وأيضاً فإن دخول الفاء على قوله: (فأنساه) يشعر بذلك، حيث إن النسيان صدر من ذلك الشخص الذي توجهت إليه الوصية، قال: الألوسي

---

(١) انظر: تفسير البحر المحيط ٥/٣١١، وفتاوى ابن تيمية ١٥/١١٧ ـ ١١٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٨٠.

(٢) ادّكر: أصله اذْتكر، افتعل من الذكر، قلبت التاءُ دالاً وأدغم الأول في الثاني، ثم بدلت دالاً غير منقوطة، ومعنى «ادّكر» أي تذكر ما كان نسي من أمر يوسف عليه السلام، انظر: تفسير ابن عطية ٧/ ٥٢٢.

(٣) تفسير ابن عطية ٧/ ٥٢٣.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ١١٨.

(٥) انظر: تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩، وتفسير ابن عطية ٧/ ٥٢٢، وزاد المسير ٤/ ٢٣١.

(٦) معاني القرآن، للفراء ٢/ ٤٧.

بعد أن ذكر القولين مقدِّماً القول الذي رجحته على الآخر: «وأنت تعلم أن الأول هو المناسب لمكان الفاء، ولقوله الآتي: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾»[1].

وإذا تبيّن لنا أن النسيان سببه الشيطان ووساوسه بما يشغل الإنسان عن تذكّر منفعته وصلاح دينه وآخرته، فإن هذا لا يدل على أن للشيطان سلطاناً وتمكّناً على الإنسان، ولو كان الأمر كذلك لما أضيف نسيان النبي ﷺ إلى الشيطان في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإن النبي ﷺ خير البشر وأفضلهم والله ـ تعالى ـ يقول لعدوه إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ . . .﴾ الآية [الحجر: ٤٢]، قال صاحب تفسير المنار: «وقد استشكل إنساء الشيطان له ﷺ على القول بأن الخطاب في الآية له، وقد ثبت في نص القرآن أن الشيطان ليس له سلطان على عباد الله المخلصين، وخاتم النبيين والمرسلين ﷺ أخلصهم وأفضلهم وأكملهم. . قال: ولكن إنساء الشيطان بعض الأمور للإنسان ليس من قبيل التصرف والسلطان، وإلا لم يقع إلا لأوليائه المشركين. . قال: فثبت بهذا أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان لكونه ضاراً أو مفوّتاً لبعض المنافع، أو لكونه حصل بوسوسته ولو بإشغالها القلب ببعض المباحات، لا يصح أن يُعد من سلطان الشيطان على الناسي واستحواذه عليه بالإغواء والإضلال الذي نفاه الله عن عباده المخلصين»[2]، فمعنى الآية: إن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس مع الذين يخوضون في آيات الله ثم ذكرت هذا النهي فقم عن مجلسهم هذا، والخطاب في الآية للنبي ﷺ والمؤمنين، قال ابن عطية: «وهذا هو الصحيح، لأن علة النهي، وهي سماع الخوض في آيات الله، تشملهم وإياه»[3].

وبعد هذا، فإذا كان القرآن الكريم قد عرض قضية النسيان بالنسبة للإنسان وما تسبب له من مشكلات وفي مقدمتها كيد الشيطان للإنسان من

---

(١) روح المعاني ١٢/٢٤٨.
(٢) تفسير المنار ٧/٥٠٨.
(٣) تفسير ابن عطية ٥/ ٢٣٣.

خلال هذه الجبلَّة التي خلقت فيه، فإن القرآن الكريم شخّص لنا الداء وأعطانا الدواء الناجع لعلاج تلك المشكلة، التي يعاني منها كثير من الناس في حياتهم الدنيوية، فأخبرنا القرآن الكريم أن أفضل ما تعالج به مشكلة النسيان هو ذكر الله ـ تعالى ـ في كل حال، يقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، فَذِكْرُ الله ـ تعالى ـ يدفع الإنسان إلى التقوّي على كل مصالحه ومعايشه والتحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن الشيطان ووساوسه، وبالذكر يحصل صفاء النفس وتعلقها بخالقها واعتمادها عليه ـ سبحانه ـ في جميع أمورها، فضلاً لما يناله الإنسان من الأجر والثواب عند ذكره لربه ـ تعالى ـ، فالذكر يعين على تحقيق مطالب الدنيا والآخرة، ولذا نجد أن القرآن الكريم يحث في كثير من آياته على ذكر الله ـ تعالى ـ والإكثار منه، يقول ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، ويقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ...﴾ الآية [النساء: ١٠٣]، وقد أثنى الله ﷻ على الذاكرين له ـ سبحانه ـ في جميع أحوالهم، وأخبر أن أولئك هم أصحاب العقول الراجحة، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقد أمر نبيُ الله يحيى بن زكريا بني إسرائيل أن يذكروا الله ـ تعالى ـ وأخبرهم أن العبد لا يُحْرِز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ـ تعالى ـ، حيث قال لهم: (وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحْرِز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)(١).

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي عن الحارث الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ، كتاب الأمثال، حديث [٢٨٦٣] باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام... إلخ، وقال =

ومن عوامل دفع النسيان وتحقيق مداومة ذكر العبد لربه ـ تعالى ـ، الانخراط في إطار الجماعة الإسلامية التي يستعين بها المسلم على ذكر شؤون دينه ودنياه، ويصل من خلالها حبل ذكره لربه ـ جل وعلا ـ إذا قطعه أي عائق من العوائق، فإن النسيان من أسلحة الشيطان التي يستخدمها في صراعه مع الإنسان، وعدو الله يتعرض للواحد ويشغله عن طاعة الله، أكثر من تعرضه للجماعة، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)[1]، وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال رسول الله ﷺ: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفُرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة[2] الجنة فليلزم الجماعة، ومن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)[3].

وسيأتي الحديث عن فوائد الجماعة وذمّ الفُرقة والاختلاف، في باب العلاج إن شاء الله ـ تعالى ـ.

= الترمذي: «هذا حديث حسن غريب»، والإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٠٢، والطيالسي في مسنده حديث [١١٦١]، والحاكم في المستدرك وصححه ١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣، وعبد الرزاق في مصنفه ١١/ ٣٣٩ ـ ٣٤١، وأبو يعلى في مسنده ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(١) أخرجه النسائي في الإمامة، حديث [٨٤٧] باب (٤٨) التشديد في ترك الجماعة، وأخرجه في السنن الكبرى ١/ ٢٩٧، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٣٧١، والإمام أحمد نحوه في المسند ٥/ ١٩٦، ٦/ ٤٤٦، وأبو داود في الصلاة، حديث [٥٤٧] باب في التشديد في ترك الجماعة، وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢٦٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٥٤، وفي معرفة السنن والآثار ٤/ ١٠١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٢٤، وصحّحه ووافقه الذهبي، وصحّح النووي إسناده في المجموع ٤/ ١٨٣.

(٢) بحبوحة الدار: وسطها، يقال: بحبح، إذا تمكّن وتوسط المنزل والمقام، النهاية ١/ ٩٨.

(٣) أخرجه الترمذي مطوّلاً في الفتن، حديث [٢١٦٥] باب ما جاء في لزوم الجماعة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والإمام أحمد بنحوه في المسند ١/ ١٨، ٢٦، وابن حبان في صحيحه ٩/ ١٨٨، والحاكم في المستدرك ١/ ١٩٨ وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فإني لا أعلم خلافاً بين أصحاب عبد الله بن المبارك في إقامة هذا الإسناد عنه، ولم يخرّجاه» ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣، وصحّحه الشيخ الألباني في تخريجه لكتاب السُنَّة لابن أبي عاصم ١/ ٤٢ ـ ٤٣، ٤٢١.

المبحث الرابع

وعده ووعيده

إن المتأمّل فيما يقع من جرائم ومشكلات على مستوى الفرد والمجتمع، يجد أن كثيراً منها ناشئ عن وعود مغرية وأماني معسولة من شياطين الجن والإنس بتحقيق نتائج أفضل ومكاسب أكبر، والوصول بصاحبها إلى الأهداف والغايات التي يُؤمِّلها، ومن خلال تلك الوساوس والإغراءات الشيطانية يعيش ذاك المغرور في سلسلة من الأوهام والخيالات والأماني الكاذبة التي تزيّن لصاحبها فعل ما يشينه ولا تحمد عاقبته.

كما أن كثيراً مما يصرف بعض الناس عن فعل الطاعات والقربات بأنواعها لله ـ جل ثناؤه ـ تخويفُ شياطين الجن والإنس لأولئك ووعيدهم بسوء العاقبة، فيخوِّفونهم بالخسران في أموالهم والإهدار لأوقاتهم والضياع لأعمارهم، ويوسوسون لهم بالحاجة إلى الناس والذلة لهم وتشويه الصورة اللامعة وضياع المستقبل الزاهر، ويوحون لهم ببذل الوقت والجهد فيما يعود على الإنسان بالمكاسب الدنيوية الوفيرة.

إن الوعد بالفوز بالمطلوب وتحقيق الغايات المرجوة في فعل المعاصي والمنكرات، والوعيد بالخسران وسوء العاقبة عند فعل الطاعات والقربات لله ـ جل وعلا ـ من أسلحة الشيطان التي يستخدمها في حربه الشرسة مع الإنسان، فكم أوقع عدو الله بني آدم في جرائم ومفاسد نتيجة تزيينه لذاك المنكر وتلك الجريمة، ويَعِدُ الإنسانَ المتربص به الوعود الكاذبة، فيعده بالأمن والأمان، والفرار من القصاص، وحصول المستقبل الأفضل، والغلبة على كل منافس وعدو، وخلو الساحة من كل معارض

وحاسد إلى ذلك من الوعود الباطلة، «ولعل أشد الوعود إغراءً الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعزّ عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة، فيتلطف حينئذٍ إلى تلك النفوس المتحرّجة، ويزيّن لها الخطيئة، وهو يلوّح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة»[(١)]، فيظن هذا الموعود أن تلك الوساوس والأماني تأخذ بيده إلى بر الأمان، ولكنها في الحقيقة تقوده للوقوع في فخّ عدوه الشيطان، الذي يكون أول المتبرئين منه في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن براءة الشيطان من أتباعه الذين استجابوا لوعوده المزيفة وأمانيه المعسولة، حين زيّن للمشركين والكافرين قتال المؤمنين ووعدهم بالنصرة والغلبة عليهم، ثم تبرأ منهم وأسلمهم شر مُسْلَم، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨]، قال قتادة: «ذُكر لنا أنه ـ أي إبليس ـ رأى جبريل تنزل معه الملائكة، فزعم عدو الله أنه لا يَدَيْ له بالملائكة، وقال إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، وكذب والله عدو الله، ما به مخافة الله، ولكن علم أن لا قوة له ولا منعة له، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستعاذ به، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شرّ مُسْلَم، وتبرأ منهم عند ذلك»[(٢)].

ويقول ـ جل ثناؤه ـ مخبراً عن كيد الشيطان للإنسان وغوايته له ثم يعلن براءته منه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: ١٦]، يقول ابن القيّم: «ومن كيده ـ أي الشيطان ـ للإنسان أنه يورده الموارد التي يخيّل إليه أن فيها

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٩.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٩، وتفسير البغوي ٣/ ٦٦، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٥، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

منفعته، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه»[1].

وأما في الآخرة فإن إبليس سيقف خطيباً في مشهد يوم القيامة يكشف زيف وعوده وبطلانها، ويُعلن براءته من أتباعه وكل من استجاب لغوايته ووعوده، وفي ذلك اليوم الحق سيعلن عدو الله الحقيقة التي طالما كان يخفيها في الدنيا ويدعو إلى نقيضها وهي صدق وعد الله ورسوله ﷺ، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢]، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «يخبر ـ تعالى ـ عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذٍ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي على ألسنة رسله، ووعدكم في اتّباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]»[2].

ولقد بيّن لنا القرآن الكريم هذا الأسلوب الماكر الذي ينتهجه عدو الله الشيطان لإيقاع الناس في المعاصي والمصائب بما يعدهم من مواعيد كاذبة عاقبتها الخسران والندامة، يقول الحق ـ جل وعلا ـ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]، قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «يعني بذلك ـ جل ثناؤه ـ: يَعِدُ الشيطانُ المريدُ أولياءَه الذين هم

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣٠.

نصيبه المفروض أن يكون لهم نصيراً ممن أرادهم بسوء، وظهيراً لهم عليه، يمنعهم منه، ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على كل من حاول مكرهم، والفَلْج[1] عليهم، ثم قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول: وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه ولياً من دون الله إلا غروراً، لأنهم كانوا يحسبون أنهم في اتخاذهم إياه ولياً على حقيقته من عِدَاته الكاذبة وأمانيه الباطلة، حتى إذا حصحص الحق وصاروا إلى حاجة إليه قال لهم عدو الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ...﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]»[2]، ثم أخبر ـ جل وعلا ـ عن عاقبة أولئك الذين استجابوا لدعوة الشيطان وصدَّقوا وعوده المغرية وأمانيه الكاذبة، وأعرضوا عن دعوة الله ـ تعالى ـ لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وما وعدهم به ـ جل ثناؤه ـ من النعيم المقيم واللذة السرمدية، فيقول ـ تعالى ـ عن مصير أولئك في الآخرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء: ١٢١]، وتلك الفئة من الناس هي التي قال فيها الحق ـ جل ذكره ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣، ٤].

فالشيطان يجرّ الإنسان إلى مواطن هلاكه وعطبه من خلال تلك الوعود والأوهام الباطلة، فيوسوس له ببلوغ مراده وهدفه والحصول على لذته ومتعته ويَعِده بسلامة الحال وحسن المستقبل... فيقوده رويداً رويداً بتلك الأماني والخيالات إلى ما فيه فساده وسوء عاقبته، «وإنها حالة استهواء معينة هي التي يزيّن فيها الشيطان للإنسان سوء عمله، فيراه حسناً، ويعده الكسب والسعادة في طريق المعصية، فيعدو معه في الطريق، ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل، فيطمئن ويمضي في طريقه إلى المهلكة»[3]، يقول

(١) الفَلْج: الظفر والفوز، وقد فلج الرجل على خصمه يَفْلُجُ فَلْجاً. لسان العرب مادة «فلج» ٢/ ٣٤٧.
(٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٨٦.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦١.

ابن القيّم: «فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك، ويُطَوِّل أمله، ويَعِدُهُ بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، والفرق بين وَعْدِه وتمنيته، أنه يَعِد الباطل ويمنّي المحال»[1]، وفي جانب فعل الخيرات والطاعات والقربات لله ـ تعالى ـ فإن الشيطان يحرص كل الحرص على تثبيط الناس وصدهم عنها وتخويفهم من عاقبتها، ويحبب إليهم أضدادها من الصفات الذميمة والأخلاق القبيحة، ومنها صفة البخل التي يدعو عدو الله بني آدم إليها من خلال تخويف الإنسان من ضياع المال والوقوع في الفقر والحاجة للغير والذلّة عند الآخرين بسبب إنفاق المال، فإذا أراد الإنسان أن يخرج الصدقة وجد في نفسه داعياً يقول له: أمسك عليك مالك فإنك أتعبت نفسك في الحصول عليه، فإذا أخرجته ضاع جهدك وفقر أهلك وولدك، وأصبحت في حاجة شديدة إلى هذا المال، فيوسوس إليه الشيطان بتلك المخاوف والمواقف السيئة ويصوّر في مخيلته الأوهام والأفكار الرديئة حتى يصدّه عن عزمه على فعل الخير والإقدام عليه، ولبيان هذا الأسلوب الشيطاني الخبيث يقول ـ تعالى ـ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول القرطبي: «فهذه الآية متصلة بما قبل[2]، وأن الشيطان له مدخل في التثبيط للإنسان عن الإنفاق في سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء، وهي المعاصي والإنفاق فيها»[3]، وقال ابن كثير: «﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾، أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله:

(١) إغاثة اللهفان ١/١٢٦.

(٢) الآية التي قبلها هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ [البقرة: ٢٦٧].

(٣) تفسير القرطبي ٣/٣٢٨.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلّاق»[1]، وقال ابن القيّم: «فذكر ـ سبحانه ـ وعْد الشيطان وأمْره: يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها»[2]، ويقول ابن جرير في معنى «الفحشاء» في الآية: «يعني يأمركم بمعاصي الله ﷻ وترك طاعته»[3]، ويقول البغوي: «أي بالبخل ومنع الزكاة»[4]، ويقول الكلبي: «كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا»[5] أي هذه الآية، وقال البيضاوي: «﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخيل فاحشاً، وقيل المعاصي»[6].

والظاهر أن الفحشاء في الآية عامة في كل ما يدعو إليه الشيطان بني آدم من المعاصي، ومنها البخل الذي ينمّ عن قسوة القلب وفقدان الرحمة والشعور بالمسؤولية، فيدعو عدو الله الإنسان إلى هذا الخلق الذميم عن طريق تخويفه من ضيق ذات اليد، يقول الفخر الرازي: «وقد نبّه الله ـ تعالى ـ في هذه الآية على لطيفة وهي أن الشيطان يخوفه أولاً بالفقر، ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء ويغريه بالبخل، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد، فالشيطان لا يمكنه تحسين البخل في عينه إلا بتقديم تلك المقدمة وهي التخويف من الفقر»[7].

ويشهد لعموم الفحشاء في الآية ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٦.
(٣) تفسير الطبري ٣/ ٨٧.
(٤) تفسير البغوي ١/ ٣٣٣.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) تفسير البيضاوي ١/ ١٤٠.
(٧) التفسير الكبير ٧/ ٦٥.

قال رسول الله ﷺ: (إن للشيطان لمّة[1] بابن آدم وللمَلك لمّة، فأما لمّةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨])[2].

فعدو الله الشيطان يبذل جهده ليصرف الإنسان عن الإنفاق، لا سيما إذا كان الإنفاق في الطاعات والقربات، فإنه يقبّح هذا الإنفاق في نفس المرء ويثقّله عليها، ويدل على هذا ما رواه ابن بريدة عن أبيه[3] قال: قال رسول الله ﷺ: (ما يُخرج رجلٌ شيئاً من الصدقة حتى يفكّ عنها لحيي[4] سبعين شيطاناً)[5].

---

(١) اللّمةُ: الهِمَّة والخطرة تقع في القلب، أراد إلمام الملَك أو الشيطان به والقرب منه، فما كان من خطرات الخير، فهو من المَلَك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان. النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، حديث [٢٩٨٨] باب (٣) ومن سورة البقرة، وقال: «هذا حديث حسن غريب، وهو حديث أبي الأحوص لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص»، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٢/ ١٧١، وابن جرير في تفسيره ٣/ ٨٨، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٣٠٥، وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان ص٤١، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص٤٨، والبيهقي نحوه في شعب الإيمان ٤/ ١٢٠، وأبو يعلى في مسنده ٥/ ١٩.

(٣) هو: بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، كان إسلامه حين اجتاز به رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة عند كراع الغميم، فلما كان هناك تلقاه بريدة في ثماني من أهله فأسلموا، وصلى بهم العشاء، ثم قدم بريدة على رسول الله ﷺ بعد أحد فشهد معه المشاهد كلها، وروى عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث، وروى عنه ابناه عبد الله وسليمان، توفي سنة ٦٢هـ.

انظر: الطبقات الكبرى ٧/ ٥، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٩، العبر ١/ ٤٨، الإصابة ١/ ١٥١.

(٤) اللّحيُ: منبت اللّحية من الإنسان وغيره، وهو الحَنَكُ. انظر: لسان العرب مادة «لحا».

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٥٠، والطبراني في المعجم الأوسط ٢/ ٢٤، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٧٧ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه»، =

وتخويف الشيطان للإنسان بالفقر والحاجة للغير وسوء العاقبة إذا أنفق في سبيل الله، ليس حرصاً منه على هذا المنفق ولا شفقة عليه ليستغني بماله عن الآخرين، وإنما وعده له بالفقر ليحرمه أجر الإنفاق وعظم مثوبته عند الله ـ تعالى ـ، وليحمّله الوزر والإثم لسوء ظنه بربه ـ تبارك وتعالى ـ.

والله ـ جل ثناؤه ـ قد حث عباده على الإنفاق في سبيله، ووعد المنفق بالثواب وحُسْن الخلف والعاقبة في الدنيا والآخرة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللّهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)(١).

ولقد نعى الله ﷻ على الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر، وأخبر ـ تبارك وتعالى ـ أن بيده رزق الخلائق جميعاً، وهو ـ تعالى ـ الذي يتكفَّل بتيسير أقواتهم ومعاشهم، ويدخل في أولئك من يمنع إنجاب الولد فراراً من الإنفاق وخوفاً من ضيق ذات اليد، يقول ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ(٢) ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

= وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٠٩ وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات».

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، حديث [١٤٤٢] باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ..﴾ الآية [الليل: ٥، ٦]، ومسلم في الزكاة، حديث [١٠١٠] باب في المنفق والممسك.

(٢) الإملاق: الفقر، يقال: أملق الرجل فهو مملق: إذا افتقر. تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٦٣.

وإذا كان الله ﷻ قد حثّ على الإنفاق وأثنى على المنفقين في سبيله ـ تعالى ـ ونهى عن البخل والشُّح، فإنه ـ تعالى ـ شنّع على المبذرين والمسرفين الذين ينفقون أموالهم في غير حقّ، ووسمَهَم ـ سبحانه ـ بأخوَّتهم للشياطين مشابهة لهم في كفر نعمة الله ـ تعالى ـ، فكما أن الشيطان جحد نعمة الله وكَفَرَها بترك طاعته وامتثال أمره، فكذلك إخوانه من بني آدم الذين ينفقون أموالهم في معاصي الله هم أشباهه في كفر النعمة وجحودها، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧].

وليس اعتبار القلة والكثرة هو ضابط التبذير والإسراف، وإنما الاعتبار فيهما هو الإنفاق على غير وجه حق ولو كان درهماً واحداً، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «التبذير: الإنفاق في غير حق»[(١)]، وكذا قال ابن عباس[(٢)] وقتادة[(٣)]، وقال مجاهد: «لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً، ولو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً»[(٤)]، وقال الحسن: «ليس في الإنفاق في سبيل الله سرف»[(٥)]، وعرّف ابن عطية التبذير بأنه: «إنفاق المال في فساد، أو في ترف مباح»[(٦)]، وقال النووي عند شرحه لحديث نزول الملكين المتقدم ذكره: «قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك، بحيث لا يذم ولا يسمى شرفاً، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا»[(٧)].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٧٣، وشعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٢٥٠، والأدب المفرد للبخاري (١٥٨)، والمعجم الكبير للطبراني ٩/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، والمستدرك للحاكم ٢/ ٢٩٣ وصحَّحه.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ١٥/ ٧٣، والأدب المفرد للبخاري (١٥٨)، وشعب الإيمان للبيهقي ٥/ ٢٥٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ٥٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٧.

(٤) المرجعان السابقان.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٧.

(٦) تفسير ابن عطية ٩/ ٦١.

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٧/ ٩٥.

فالمسلم مأمور بأن يعتدل في إنفاقه فلا إفراط ولا تفريط، كما قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «وهذا من باب اللّف والنشر، أي فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال فيبخل بماله ... على قومه يُستغن عنه ويُذْمَم[(١)]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير؛ وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير»[(٢)]، كما أن المسلم مأمور بأن ينفق على من تجب نفقته عليه من أهله وأقربائه، ومن له حقٌّ عليه من الضيوف وغيرهم من غير إسراف ولا تبذير في النفقة، ويجدر بالمسلم أن ينفق في باب الصدقات والإحسان إلى المحتاجين من المسلمين، فإن ذلك ليس من التبذير، فعن ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)[(٣)].

فعدو الله الشيطان يَعِدُ الإنسان الندامة والخسران وسوء العاقبة إن هو أقدم على الطاعة، ويوحي إليه بعدم الفائدة في فعلها، في حين أنه يدعوه إلى المعصية ويَعِدُهُ بعدم الضرر في اقترافها مع حصول اللّذة في ذلك، ويقرر عدو الله تلك الوعود الباطلة للإنسان بأن يوسوس له أنه لا بعث ولا معاد ولا جزاء على الأعمال، وأنه لا جنة ولا نار فيشكّكه في إيمانه وعقيدته بربه - تعالى - واليوم الآخر، لتجد غوايته ووساوسه الرديئة قبولاً في نفس الإنسان واستجابة لها، يقول الفخر الرازي: «إن الشيطان إذا دعا

---

(١) انظر: ديوان زهير ص٨٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨.
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، حديث [٩٩٤] باب فضل النفقة على العيال والمملوك.

إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعله البتَّة، وذلك إنما يمكن إذا قال: لا معاد ولا جنة ولا نار ولا حياة بعد هذه الحياة، فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة البتَّة في فعل هذه المعاصي، وإذا فرغ من هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعاً من اللذة والسرور، ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به... ثم قال: فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولاً عنده أنه لا فائدة فيه، وتقريره من وجهين:

الأول: أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب.

الثاني: أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود، وإذا فرغ عن هذا المقام قال: إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار، فهذه مجامع تلبيس الشيطان»(١).

ووعد الشيطان ووعيده للإنسان إما أن يكون من خلال وسوسته له بتخويفه من فعل الطاعة وتنفيره منها، وتحسينه المعصية وترغيبه فيها، وإما بما يوحيه إلى أوليائه ليثبّطوا أهل الصلاح والتقوى عن طاعة الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وللعلماء في معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ قولان:

الأول: أي يخوّفكم بأوليائه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وابن قتيبة والفراء وأبي علي الفارسي(٢)، وصوّبه ابن تيمية(٣)، واستدل الفراء وابن جرير على هذا المعنى بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢]، أي لينذركم بأساً شديداً(٤)، كما استدل الفراء على

---

(١) التفسير الكبير ٧/٢١ بتصرف يسير.
(٢) انظر: زاد المسير ١/٥٠٦، ومعاني القرآن للفراء ١/٢٤٨، وفتح القدير ١/٤٠٠.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/٢٠٣.
(٤) انظر: معاني القرآن للفراء ١/٢٤٨، وتفسير الطبري ٤/١٨٤.

هذا المعنى بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، أي لينذركم يوم التلاق[١].

ويرى ابن الأنباري أنه لا حاجة إلى إضافة الباء، وأن المعنى: يخوفكم أولياءه، واستدل بقول العرب: قد أعطيت الأموال، يريدون: أعطيت القوم الأموال، فيحذفون «القوم» ويقتصرون على ذكر المفعول الثاني، ثم قال: «فهذا أشبه من ادّعاء باء ما عليها دليل، ولا تدعو إليها الضرورة»[٢]، ولم يرتض ابن جرير هذا الاستدلال من ابن الأنباري، حيث قال: «وليس الذي شبّه بمشبه، لأن الدراهم في قول القائل: هو يعطي الدراهم، معلوم أن المعْطَى هو الدراهم، وليس كذلك الأولياء في قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ مخوفين، بل التخويف من الأولياء لغيرهم، فلذلك افترقا»[٣].

قلت: قرأ أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه «يخوفكم بأوليائه» وهي قراءة إبراهيم النخعي رحمه الله[٤]، وهذا دليل على دخول الباء في الآية، ثم إن دخول الباء وعدمه لا يخل بالمعنى المراد من هذا القول، وهو تخويف أولياء الشيطان لعباد الله المؤمنين.

الثاني: أي يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين، قاله الحسن: والسدي[٥] وذكره الزجّاج[٦]، قال الحسن: «إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا ولي الشيطان»[٧].

---

(١) انظر: معاني القرآن ١/ ٢٤٨.
(٢) انظر: زاد المسير ١/ ٥٠٧.
(٣) تفسير الطبري ٤/ ١٨٤.
(٤) انظر: البحر المحيط ٣/ ١٢٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٣٩، وتفسير ابن عطية ٣/ ٤٢٩.
(٥) انظر: زاد المسير ١/ ٥٠٧، وتفسير القرطبي ٤/ ٢٨٢، والبغوي ٢/ ١٣٩.
(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٩٠.
(٧) الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٨٢.

ولا ريب أن القول الأول هو الذي يتفق وحال الشيطان مع بني آدم في الغواية والإضلال، وينسجم مع أساليب عدو الله في حربه مع الإنسان، فإن أولياء الشيطان هم جنده الذين انضووا تحت رايته، وسلكوا السبيل إلى معسكره، فهو يكيد بهم المؤمنين ويعلن على لسانهم مجادلة عباد الله المتقين كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]، ويؤيد هذا القول قراءةُ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما «يخوفكم أولياءه»[١]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ثم قال بعدها: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فالضمير هنا عائد إلى أولياء الشيطان الذين قيل عنهم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾[٢]، ولذا قال ابن القيّم رحمه الله: «المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه»[٣].

وبالجملة فإن وعد الشيطان ووعيده من أساليب هذا العدو اللدود الذي يتربص بالإنسان كل بلاء ومصيبة، فيزيّن له ما يشينه ويبعده عن ربه ـ تعالى ـ، ويقبّح له ما يزينه ويقربه من ربه ـ جل وعلا ـ، ولا شك أن هذا الوعد والوعيد الشيطاني إنما يتأثر به أصحاب النفوس الضعيفة التي تنساق مع أماني عدو الله وأباطيله، فتستجيب لها ثم تقع في سوء عاقبتها، أما من آمن بموعود الله ـ تعالى ـ من الأجر والثواب وحسن الجزاء على الأعمال الصالحة والطاعات المقربة إلى الله ـ تعالى ـ، ورسخ في قلبه صدق وعيد الله للكافرين والمتجاوزين لحدوده ـ تعالى ـ، فإن نفوسهم أسمى من أن تستجيب لوعد الشيطان ووعيده الكاذب، لعلمهم الثابت أن هذا العدو لا يصدقهم النصيحة ولا يوفيهم العهد والوعد، وإنما مطلوبه الأعظم من وعده ووعيده أن يجرّهم معه إلى نار جهنم التي وعده الله إياها ومن تبعه من

---

(١) الكشّاف ١/ ٤٨١، وتفسير البغوي ٢/ ١٣٩، وتفسير ابن عطية ٣/ ٤٢٨.
(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٢٠٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٤٩٠.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٢٩.

أوليائه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعْد الشيطان وتمنيته، فإن الشيطان يُمَنِّي أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]»[1].

(١) إغاثة اللهفان ١/١٢٦.

الفصل الثالث

أهدافه الدنيوية والأخروية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الأهداف الدنيوية.

المبحث الثاني: الهدف الأخروي.

المبحث الأول

الأهداف الدنيوية

تبين لنا في الفصل السَّابق كيف يُغوي الشيطان بني آدم من خلال أساليبه الماكرة ووسائلة الخبيثة، فيكبّلهم بها ويصيّرهم أسرى الرذائل والمنكرات.

ولا ريب أن عدوَّ الله لا يستخدم تلك الوسائل لذاتها، وإنما يستخدمها لتحقيق أهدافه ومقاصده التي يسعى إلى بلوغها، ويجتهد كل الاجتهاد ليصل ببني آدم إلى مُنتهاها، ولأجل تحقيق تلك الأهداف والمقاصد المبنيّة على الحقد الدّفين في نفسه على الإنسان، فإنه يستعين بجنده وأوليائه، من الجنّ والإنس لإيقاع الإنسان في شَرَكِ مصائده وحبائله التي نصبها كيداً لبني آدم وخُذلانهم.

إن عدو الله الشيطان يهدف من خلال غوايته الإنسان بشتى ألوان الغواية وأشكالها، أن يهبط الإنسان من سمو النفس ونقائها، وسلامة الفطرة وطهارتها، إلى أدنى دركات الرذائل وأحطّها، إنه يريد أن يعْدِلَ بهذا الإنسان عن سُبل الهداية والرشاد والسعادة، إلى مهاوي الضلال والشقاوة والخسران، وأن يحول بينه وبين فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق وجميل السجايا، لينغمس في قبائح الخصال وحَمْأة الرذيلة.

لقد دأب عدو الله الشيطان ولا زال في دَأْبه وحرصه على جعل هذا الإنسان الذي شرَّفه الله وكرّمه وأعلى شأنه عند سائر مخلوقاته، إنساناً حقيراً ذليلاً مُهاناً، قد كبّلته الذنوب والخطايا، وقيّدته المعاصي والآثام، فهو قد حشد جنده وجمع كيده للحيلولة دون بلوغ الإنسان تلك المكانة

العُليا والكرامة العُظمى التي شرّفه الله ـ تعالى ـ بها دون غيره من الخلق، وليصرف همّه وقلبه عن مهمته الأساس في الحياة الدنيا، وهي توحيد الله ـ تعالى ـ وعبادته، بالانغماس في الموبقات والمحرمات، وبذل جهده وعمره في الانهماك في تحصيل اللذّات والشهوات.

فعدو الله الشيطان يجتهد لك الاجتهاد من خلال أساليبه وخططه الماكرة، لتفتيت الأسرة المسلمة ـ وهي اللّبنة الأولى في كيان المجتمع الإسلامي، الذي يستمد منهجه من شريعة الله ـ تعالى ـ فيفرّق بين المرء وزوجه، كي يُضعف من تلاحم هذا الكيان ووحدته، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه منه ويقول: نعم أنت)[1].

ولما لِعَدو الله من خِبْرة طويلة في وضع خططه الإبليسية، وطريقة عرضها ونصب حبائلها، فإنه لا يكلّ ولا يملّ من أجل الوصول ببني آدم إلى الغايات التي يهدف إليها، ويسعى بكل جهده من أجل تحقيقها، فقد أخذ عدو الله على نفسه عهداً أن يُغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسامهم، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن إبليس قال لربه: بعزّتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني)[2].

---

(١) سبق تخريجه ٢٤٧.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٢٩، ٤١، ونحوه في ٣/ ٧٦، والحاكم في المستدرك بلفظ: (إن الشيطان قال، فذكره) ٤/ ٢٩٠، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وأخرجه البغوي في شرح السنة ٥/ ٧٦ بزيادة: (وارتفاع مكاني)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٧، وقال: «رجاله رجال الصحيح».

وأما أهداف الشيطان التي يسعى عدو الله بشتَّى وسائله وأساليبه الماكرة من أجل تحقيقها في صراعه مع عدوه الإنسان، فيمكن ترتيبها في الأمور الآتية.

أولاً: إن أول ما يحرص عليه الشيطان في دعوته وغوايته لبني آدم، أن يدعوهم للخروج من دين الله الإسلام ونور الإيمان، إلى ظلمه الشرك والكفر بالله ـ تعالى ـ، فهذا هو هدفه الأساس، ومقصده الأول، ومطلبه الذي يسعى بكل وسائله وأساليبه، لبلوغه، وتحصيله من الإنسان، إذ لا ذنب أعظم من الكفر بالله ـ تعالى ـ فإذا كَفَر العبد بربه هان عليه كل منكر ورذيلة، وصار ينظر إلى المحرمات بمنظار الإباحية والشهوانية المطلقة وحينئذٍ يكون من أولياء الشيطان وحزبه.

ثانياً: فإن لم تنجح محاولة الشيطان لإخراج الإنسان من دائرة الإيمان بالله ـ تعالى ـ فإنه يدعوه إلى البدعة في الدين، فهي أحب إلى الشيطان من انتهاك المحرمات وفعل الموبقات من المعاصي والآثام، حيث إن ضرر البدعة على الدين كبير، وخطرها على الأمة عظيم، إذ هي طمس لمعالم الدين والخروج عن منهج الله الذي شرعه وارتضاه لعباده، ولذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: «إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها»(١).

يقول ابن القيّم مبيناً هذه العقبة الشيطانية: «والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها والاجتهاد على إطفاء نور السنة»(٢)، فالبدعة باب الكفر بالله ـ تعالى ـ والداعية إليه، ولذا حذر النبي ﷺ فيها أشد تحذير وأوصى بسدّ بابها، وبيّن أنها ضلال في الدين،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٩.

(٢) مدارج السالكين ١/٢٢٣.

وعدول عن منهج الله ـ تعالى ـ، فعن العرباض بن سارية[1] رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[2]، قال ابن رجب[3]: «فقوله: (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ)[4] فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل

---

(١) هو العرباض بن سارية السلمي، أبو نجيح، صحابي جليل، أسلم قديماً، وهو ممن نزل فيهم قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ...﴾ الآية [التوبة: ٩٢]. روى عن النبي ﷺ، وأبي عبيدة بن الجَرَّاح، وكان العرباض شيخاً كبيراً، وكان يدعو: اللّهم كبرت سني ووهن عظمي فاقبضني إليك، توفي سنة ٧٥هـ.
انظر: الأنساب ٣/٢٧٨، سير أعلام النبلاء ٣/٤١٩، الإصابة ٤/ ٢٣٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧، وأبو داود في السنة، حديث [٤٦٠٧] باب في لزوم السنة، والترمذي نحوه في العلم، حديث [٢٦٧٦] باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المقدمة، حديث [٤٢] باب في اتِّباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، والدارمي في المقدمة، حديث [٩٥] باب اتِّباع السنة، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١١٤، والطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧، وفي الأوسط ١/ ٧٨، والحاكم في المستدرك ١/ ١٧٤ وصحَّحه، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢٠٥ وحَسَّنه، وقال عنه أبو نعيم: «هو حديث جيِّد من صحيح حديث الشاميين»، جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/ ١٠٩.

(٣) هو عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب بن الحسن البغدادي الدمشقي الحنبلي، زين الدين، أبو الفرج، من العلماء، محدِّث، حافظ، فقيه، أصولي. تصدَّى للإفادة والتدريس فأقبل عليه الطلبة يأخذون عنه ويفيدون من علومه، ويسمعون مروياته، وكان مقبلاً على العلم ولازمه مطالعةً وكتابةً وتصنيفاً وتدريساً واشتغالاً وإفتاءً، إلى أن توفي سنة ٧٩٥هـ.
انظر: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢١، الأعلام ٣/ ٢٩٥، معجم المؤلفين ٥/ ١١٨.

(٤) أخرجه البخاري في الصلح من حديث عائشة رضي الله عنها، حديث [٢٦٩٧] باب إذا اصطلحوا =

في الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواءٌ في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة»[1].

ثالثاً: ثم إذا يئس الشيطان من إيقاع الإنسان في الكفر أو البدعة، فإنه ينقل إلى العقبة التي بعدهما وهي الوقوع في الكبائر على اختلاف أنواعها ورذائلها، فعدو الله الشيطان يزيّن بحِيَلِهِ ووسائله الخبيثة ووساوسه الرديئة، الكبائر في نظر الإنسان ويجمّلها في نفسه حتى ينزع هيبتها من قلبه فيرغبه فيها أشد رغبة، ويوسوس إليه أن اللذة الكاملة والمتعة الحقيقية هي في اقتراف المعاصي والمحرمات، حتى يغمسه في الفواحش والآثام، فيرى تلك الذنوب العظيمة من أصغر الأمور وأهونها في نفسه، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا)[2].

رابعاً: ثم إذا لم يتمكَّن الشيطان من إيقاع الإنسان في الكبائر، فإنه يدعوه إلى الصغائر ويُحبّبها إليه، ويقول له: هذه صغائر لا تضرّ وهي تُكفَّر إذا اجتُنبت الكبائر، فيهوّن أمرها لديه حتى تجتمع عليه فتُهلكه، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن الشيطان قد أيِسَ أن يُعبَد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي منكم بما تحقِرون)[3]، ولقد حذّر النبي ﷺ من الاستهانة بشأن الصغائر، وأخبر عن سوء عاقبتها وخطرها على الإنسان إذا اجتمعت

= على صُلح جور فالصلح مردود، ومسلم في الأقضية، حديث [١٧١٨] باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٢/ ١٢٨، بتحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٣٠٨] باب التوبة.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٥٥، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٥٧، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٥٤ وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده محققو مسند الإمام أحمد ١٤/ ٤٠٩.

عليه، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم ومُحقّرات الذّنوب، كقوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أَنْضَجُوا خبزتهم، وإن مُحقّرات الذّنوب متى يُؤخذ بها صاحبُها تُهلكه)[1].

خامساً: فإن وفّق الله عز وجل هذا الإنسان واستطاع أن يتغلب على تلك المحاولة الشيطانية، فإن عدو الله الشيطان يدعوه إلى المباحات والإكثار منها والاشتغال بها عن الطاعات والقربات إلى الله ـ تعالى ـ.

ولقد ظفر عدو الله في هذه العقبة بطوائف عديدة من البشر فلا يُرى لهم هَمٌّ ولا اشتغال إلا في متاع الدنيا بشتَّى أنواعه والاغراق فيه والإفراط في تحصيله والظفر به، حتى أصبحت تلك المباحات والتهالك عليها هي ميدان التنافس بين تلك الفئة من الناس والتسابق فيما بينهم، فصار قَدْرُ الإنسان لديهم بقدر حصوله على تلك المباحات والتفاخر بها، بل إن من الناس من ليسوا من أهل الثراء والغنى فاقتحموا الديون ليصلوا من خلالها إلى تلك الحال من المباهاة والمفاخرة، فصرف الشيطان بهدفه هذا أولئك الناس عن مهمتهم الأساس في الدنيا وهي عبادة الله ـ تعالى ـ والتقرب إليه بالطاعات والتزود بزاد التقوى ليوم المعاد: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

سادساً: فإذا أمدَّ الله عز وجل هذا الإنسان بتأييده وتوفيقه وهدايته ولم يستجب لتلك الدعوات التي يوسوس بها الشيطان إليه، وانصرف عنها ويئس عدو الله من تفويت أصل الثواب بالكلية وإقبال العبد عليه، فإنه حينئذٍ يأمره بالأعمال المرجوحة ويقصره عليها، ويوسوس له بأن في فعلها غاية الطاعة وأفضل العبادة فلا ينبغي الزيادة عليها، فيرضى العبد بذلك ويطمئن إليه، ولا تطلب نفسه فوق ذلك من الأعمال الفاضلة والراجحة فيُفَوِّتَ عليه كمال الأجر وحسن الثواب.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٣٣١، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٤٥٦، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٩٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٩٠ وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وحسّن ابن حجر إسناده في فتح الباري ١١/ ٣٣٧.

إن العبد ربما يظن أن تكاسله عن بلوغ الغايات الفاضلة والدرجات السامية في الطاعة والعبادة لله ـ تعالى ـ، ليس من وساوس الشيطان وكيده بالإنسان، فهو يظن أن الشيطان لا يدعو إلى خير قط، ولا يدري أن الشيطان يدعو إلى أبواب كثيرة من الخير ليصل من خلالها إلى باب خطير من أبواب الشر، فيكون هذا الباب هو هدفه وغايته من تلك الأبواب المتعدِّدَة.

ولبيان هذه المكيدة الشيطانية يقول ابن القيّم ـ رحمه الله تعالى ـ: «وقَلَّ من يتنبَّه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقُربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله. وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوّت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجلَّ وأفضل، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوّابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده»(١).

سابعاً: فإن عجز الشيطان أن يوقع الإنسان في هدف من أهدافه السابقة ويئس من ذلك، سلّط عليه جنده وأتباعه من الإنس والجن بشتى أنواع التسليط والأذى بالقول والفعل، لإطفاء نور الإيمان، وكلما زاد تمسك العبد بمنهج الله ـ تعالى ـ زاد الشيطان في جلبه عليه بخيله ورَجِله، وكلما جدّ العبد في الصلاح والاستقامة والدعوة إلى الله ـ تعالى ـ، جدّ عدو الله في تسليط السفهاء وإغرائهم به، ولو نجا من ذلك أحد لنجا منه

---

(١) بدائع الفوائد ٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢.

نبينا محمد ﷺ والأنبياء قبله، وهم أفضل الخلق وأكرمهم عند الله ـ تعالى ـ.

وحين يبلغ الإنسان في صراعه مع عدوه الشيطان هذه العقبة فإنه قد آيس الشيطان من صرفه عن منهج الله واتّباع شرعه وسلوك صراطه المستقيم، وحينئذٍ تتكسر سهام عدو الله عند أعتاب هذا الحصن المنيع، وتبوء كل محاولات عدو الله لغواية هذا الإنسان وإضلاله بالفشل، حيث سدّ هذا الإنسان كل سبل مكائد عدو الله لبلوغ مقاصده وأهدافه منه، فقد التجأ إلى ربه ـ تعالى ـ واحتمى بحماه، وتحصَّن بحصنه، فهو في راحة دائمة من شرور هذا العدو اللدود، وفي سعادة حقيقية لاعتصامه بمولاه واتِّباع سبيل مرضاته ـ تعالى ـ، كما قال الحق ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

المبحث الثاني

الهدف الأخروي

إن من المعلوم والمشاهد أن الحياة الدنيا يعتريها النقص والتحول والفناء، ويشوبها الكدر والأحزان والأسقام، فهي وإن صلح عيشها وتزيّنت لأهلها وطاب مقامها، إلا أنها سريعة الزوال والتبدّل، ومهما خاض الناس في متاعها واستعذبوا حُلوها وخضرتها، فإنهم سرعان ما يفارقونها وينتقلون منها إلى دار أخرى ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فحال الدنيا كحال النبات حين يخضرّ ويزين لأهله ويعجبوا به، ثم يتحول ورقاً صُفراً، فيتحطم ويصبح هشيماً تذروه الرياح: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

فإذا كان الإنسان سيفارق الدنيا ـ لا محالة ـ بانتهاء الأجل المحتوم والمقدّر له فيها، فإنه سينتقل إلى دار البرزخ بعد الموت، ومنها إلى الدار الآخرة حين يقوم الناس للحساب والجزاء يوم القيامة، وهذه الدار هي دار القرار حيث لا زوال منها ولا انتقال عنها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار نعوذ بالله منها، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

فالحياة الحقيقة والخالدة، هي الحياة في الدار الآخرة، حيث الحياة الأبدية الدائمة، يقول الله ـ جل وعلا ـ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، يقول ابن كثير: «أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل

هي مستمرة أبد الآباد»[1]، وقال السعدي في تفسير الآية: «أي الحياة الكاملة التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدّة، لأنها أبدان وقِوَى خُلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمُل به الحياة وتتم به اللّذة، من مُفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، مما لا عَين رأيت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[2]، فقد أكد الله ـ تعالى ـ خلود الحياة الآخرة ودوامها واستمرارها بصيغة دالة على الحركة والاضطراب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، حيث جاءت بالبناء على «فعلان»، يقول الزمخشري: «وفي بناء «الحيوان» زيادة معنًى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء (فعلان) من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغضان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دالٌ على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على (الحياة) في هذا الموضع المقتضي للمبالغة»[3].

وحين كانت الدار الآخرة هي مُستقر الإنسان الأبدي، ومقامه الدائم، جعل الله ﷻ الحساب العادل والجزاء الكامل في تلك الدار، فالثواب العظيم والعطاء الجزيل إنما يناله أهله في الدار الآخرة في جنات الخلود، يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٧]، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١]، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]، وكان النبي ﷺ يقول:

اللّهم لا خير إلا خير الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة[4]

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ٤/ ٧٢.

(٣) الكشّاف ٣/ ٢١٢.

(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري في الصلاة عن أنس بن مالك ﵁، حديث [٤٢٨] باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتّخذ مكانها مساجد؟ ومسلم في المساجد، حديث [٥٢٤] باب ابتناء مسجد النبي ﷺ.

كما أن العذاب الشديد والعقاب الأليم والنكال والخزي الأكبر يذوقه مستحقُّوه في الدار الآخرة، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [الزمر: ٢٦]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣].

فالفوز الكبير والجائزة العظمى لا تُنال إلا في الدار الباقية، حين ينجو المؤمن من عذاب النار ويخلد في جنات النعيم، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥، ١٦].

وفي الدار الآخرة تنكشف خسارة الكافرين، وتعظم ندامتهم، وخَطْبُهم، حيث الخسارة الكبرى يوم القيامة، يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل: ٤، ٥]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وحيث إن الفوز والخسارة الحقيقيين مرتبطان بالحياة الأبدية في الدار الآخرة، فإن الحياة الدنيا في حقيقتها ليست إلا سبيل وطريق إلى تلك الدار الباقية، وهي دار الامتحان والتمحيص إلى دار الجزاء والحساب، ولذا فإن متاع الدنيا ولذاتها وشهواتها قليلة وحقيرة في ميزان الآخرة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وهي عند الله ﷻ أهون من الجَدْي الميت على أهله، بل إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ بالسوق والناس كنفته[1]، فمرَّ

---

(١) الكَنَفُ: الجانب والناحية، والمعنى أن الناس بجانبه. انظر: النهاية في غريب الحديث ٤/٢٠٥.

بجَدْي أَسَكَّ[1] ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟)، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: (أتحبون أنه لكم؟)، قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه، لأنه أَسَكّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)[2].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شَرْبة ماء)[3]، وحيث إن الدنيا دار امتحان وابتلاء وطريقٌ إلى الدار الباقية، فقد نُهي المسلم عن التهالك على حطامها، وصرف الجهد والوقت كله في سبيل تحصيلها، والغفلة عن الحياة الآتية في الدار الآخرة، ولكن المسلم مأمور بالاعتدال في تحصيل ما يعينه من أمور الدنيا على تحصيل أمور الآخرة، إذ الغفلة ونسيان الحياة الآخرة والانغماس في لذات الدنيا والإقبال عليها وحدها، خسران كبير يوم القيامة فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

ولهذه الأهمية العظمى للحياة الآخرة كان الإيمان بها ركن من أركان الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، فقد عدّ الله الإيمان باليوم الآخر في جملة صفات المؤمنين التي لا يتم إيمانهم إلا بتحقيقها، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

(١) أَسَكُّ: أي مصطلم الأذنين، مقطوعهما. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد، حديث [٢٩٥٧].

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، حديث [٢٣٢٠] باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وقال أبو عيسى: «هذا حديث صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في الزهد، حديث [٤١١٠] باب مثل الدنيا، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٤٢ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]، ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [النمل: ١ ـ ٣].

ولقد أكد النبي ﷺ على أهمية هذا الركن في تحقيق الإيمان وصحته، في حديث مجيء جبريل عليه السلام إليه، حيث سأله عن الإسلام ثم سأله عن الإيمان، فقال ﷺ: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه. . .) الحديث(١).

ولما كانت الدار الآخرة هي دار الجزاء والحساب والثواب والعقاب، وهي آخر المنازل التي ينتقل إليها الإنسان، وهي دار الخلود التي لا تزول ولا تفنى، فإن عدو الله الشيطان يسعى بشتى وسائله وأساليبه لتكون عاقبة الإنسان في تلك الدار الخسران والخيبة والندامة والخزي، ومرافقة عدو الله في النار وبئس القرار.

إن الشيطان يسعى بكل جهده من خلال تلك الوسائل والأساليب التي يكيد بها بني آدم ويتربَّص بهم الشرَّ والفساد في تنفيذها، من أجل تحقيق هدفه الأكبر وغايته العظمى ومقصده الأساس في حربه مع الإنسان؛ وهو الحرمان من جنة النعيم التي أعدَّها الله لعباده المتقين، ودخول النار والخلود فيها.

فما تزيين الشيطان للناس الباطل وتحسينه لديهم، وإظهاره في صورة الحق الذي يجب اتّباعه والدعوة إليه والدفاع عنه، وما أمرُهُ بالفحشاء والمنكر والدعوة إليهما في كل ميدان من ميادين الحياة التي قعد عدو الله

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الإيمان، حديث [٨] باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . . إلخ.

وحزبه في طريقها، وما صدُّه للإنسان عن منهج الله ـ تعالى ـ وإنساؤه ذكر ربه ـ جل وعلا ـ وما تخويفه للإنسان من امتثال الواجبات وفعل الطاعات والصالحات، وتأمينه من فعل الفواحش والمحرَّمات، وإطلاق الغرائز والشهوات دون ضابط من دين أو خلق... إلى غير ذلك مما يدعو عدو الله بني آدم إليه، إلا لتكون طريقاً ووسيلةً لتحقيق ذلك الهدف الشيطاني الخطير في الدار الآخرة.

ومن رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ ولطفه بعباده أن كشف لهم هدف الشيطان الأخروي منهم، وبيّن لهم مقصد عدوهم القديم فيهم، وحذّرهم ـ جل وعلا ـ من الاستجابة لدعوات هذا العدو اللدود، وأمر ﷻ عباده بالتصدي له ومعاداته كي لا يحقق فيهم هدفه الأكبر ومقصده الأساس في حربه الشرسة معهم، فقال الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦].

فما غرض عدو الله من دعوة الناس إلى اتِّباع الهوى والركون إلى الدنيا، والانغماس في لذاتها وشهواتها، إلا إضلالهم وإلقاءهم في العذاب الأليم يوم القيامة، يقول قتادة: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ فإنه لحقٌّ على كل مسلم عداوته، وعداوته أن يعاديه بطاعة الله، ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ وحزبه: أولياؤه ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ليسوقهم إلى النار، فهذه عداوته»(١)، ويقول السعدي: «﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذا غايته ومقصوده ممن تبعه، أن يُهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد»(٢).

فعدو الله الشيطان لا يدعو الناس إلى عذاب الجحيم مباشرة، وإنما

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ١١٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ٤/ ٢٠٥.

يدعوهم ويحملهم على مباشرة الأسباب التي تقودهم إلى النار والعذاب المهين، ولذا فإن عدو الله أشد ما يحرص عليه في حربه مع الإنسان أن يَحُولَ بينه وبين التوبة النصوح من مباشرة الأعمال التي تكون سبباً في دخوله النار والحرمان من جنة النعيم، فيختم له بسوء الخاتمة، ويكون من حزب الشيطان يوم القيامة، يقول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣، ٤]، يقول ابن جرير في تفسير هذه الآية: «وتأويل الكلام: قُضي على الشيطان أنه يُضلُّ أتباعه، ولا يهديهم إلى الحق، وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يقول: ويسوق من اتَّبعه إلى عذاب جهنم الموقدة، وسياقه إياه إليه بدعائه إياه إلى طاعته ومعصية الرحمٰن، فذلك هدايته من تبعه إلى عذاب جهنم»[(١)].

فهذا هو المقصد الأخير للشيطان والهدف الأكبر لعدو الإنسانية الأول، فليعلم كل من استجاب إلى دعوات هذا العدو وغوايته بفعل المعاصي والمحرمات، أو بالإعراض عن امتثال الأوامر وفعل الواجبات، أنه قد أجاب دعوة الشيطان إلى النار، وأنه سلك طريقاً كئيباً مظلماً عاقبته الإهانة والخسران في عذاب السعير، وأنه أخذ بحبل طرفه الآخر بيد عدوه الشيطان، الذي يجرّه به على مهل إلى الهاوية والذلّة والندامة الأبديّة في العذاب المهين، ثم يكون ذلك العدو الغرور هو أول المتبرئين منه يوم القضاء والفصل بين الناس، كما قال الله جل ثناؤه:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(١) تفسير الطبري ١٧/١١٦.

الباب الثالث

الوقاية والعلاج من الوقوع في حبائل الشيطان

وفيه فصول:

الفصل الأول: الوقاية من مكائد الشيطان، وفيه مباحث:

المبحث الأول: مداومة ذكر الله والتعوّذ من الشيطان.

المبحث الثاني: اتّباع الكتاب والسُنَّة.

المبحث الثالث: الإخلاص.

المبحث الرابع: لزوم جماعة المسلمين.

المبحث الخامس: عدم موالاة الشيطان.

الفصل الثاني: العلاج المباشر، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاج من السِّحْر.

المبحث الثاني: العلاج من المسّ.

الفصل الثالث: الإسراع بالتَّوبة.

إن عداوة الشيطان للإنسان عداوة دائمة ما دام الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهي عداوة لا يُرجى زوالها ولا يُنتظر انقطاعها، فالإنسان يعيش بعمره القصير في صراع مستمر مع عدوه الشيطان، الذي يمارس ضده كل أنواع المكر والشر والفساد، ومسخِّراً كل إمكاناته ووسائله وخبراته لكيد هذا الإنسان وخُذلانه.

وإذا كان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد حذَّرنا من هذا العدو اللدود وتربصه الشر بنا في جميع نواحي الحياة، وكشف لنا عن خطط الشيطان ووسائله الماكرة التي يكيد بها ضدَّنا، فإن عناية الله ـ جل وعلا ـ لم تقتصر على البيان والتحذير من هذا العدو، وإنما دلَّ ﷻ عباده المؤمنين على الوسائل والأسلحة الربانية التي يقاومون بها شرّ هذا العدو ويدرؤون بها كيده، فينهزم صاغراً ذليلاً.

فلم يترك ـ جل وعلا ـ عباده سُدَى يواجهون هذا العدو الخفي بجهودهم الضعيفة واجتهاداتهم القاصرة، لا سيما أنهم يحاربون عدواً يراهم من حيث لا يرونه، ولكن من رحمة رب العالمين أن أرشدهم إلى العلاج المناسب والسلاح الفتَّاك الذي يحاربون به عدوهم القديم فيحبطون خططه ويخيّبون مقصده، فيولي هارباً منهزماً، قد تفرق شمله، وانهزم جنده، دون بلوغ مراده.

وحين نريد أن تحقق تلك الأسلحة والوسائل الربانية هذه النتائج المؤثرة في هذا العدو الخفي، فلا بد أن يكون تعاملنا مع تلك الوسائل مرتكزاً على قاعدة متينة من الإيمان بالله ـ تعالى ـ وما جاء عنه ـ جل وعلا ـ في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فيوقن به القلب وتطمئن إليه النفس، ومن ذلك الإيمان بوجود الشيطان الخفي، وملازمته للإنسان في حياته الدنيا وتربّصه

الشرَّ به في سائر أموره، حيث إن من لم يوقن بوجود الشيطان في هذا الكون فإنه لم يشعر بعد بالخطر الذي يحدق به والكيد الذي يدبّر ضده، وهو عن طريق النجاة بعيد، إذ من الأمر الطبعي أن المريض الذي لم يؤمن بنزول الدَّاء به فإنه لا يتعاطى الدَّواء، وربما كان هذا الدَّاء خطيراً ينخر في بدنه ويودي به إلى الهلاك، في حين أنه إذا شعر بالدَّاء وأيقن بوجوده سارع إلى أخذ العلاج الذي يقاوم هذا الداء ويزيل أثره.

فكذلك الإنسان عليه أولاً أن يؤمن إيماناً جازماً بوجود هذا العدو وملازمته له في كل شؤون حياته، وأن يجعل منطلقه في ذلك ودليله قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦] وحين تنطلق تلك الأسلحة من هذه العقيدة الراسخة تكون لها نتائجها الفعَّالة وآثارها العجيبة، فهي أسلحة ربانية لا يعتريها أدنى شكّ في الفوز والظفر على عدو الإنسانية الأول.

وسأتناول بمشيئة الله ـ تعالى ـ تفصيل هذه الوسائل والأسلحة في الوقاية والعلاج من الوقوع في حبائل الشيطان في الفصليين الآتيين ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق.

الفصل الأول

الوقاية من مكائد الشيطان

المبحث الأول

مداومة ذكر الله والتعوّذ من الشيطان

إن أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه ـ تعالى ـ، هو ذكره ـ جل ثناؤه ـ، فذِكر الله ﷻ هو الكلام المحمود للإنسان دون غيره من حصاد اللسان، وهو الرصيد الباقي للإنسان يجده بعد موته زاداً ونوراً يضيء له ظلمته، ويؤنس له وحشته في دار البرزخ، وقائداً ودليلاً إلى جنة النعيم في دار القرار، فـ(الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه)[1]، وما عدا ذكر الله ـ تعالى ـ من أرصدة الكلام وقيل اللسان ربما كانت وبالاً وخيبة على صاحبها يوم الفزع الأكبر.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ فقال: (ثكلتك[2] أمك يا معاذ، وهل يكبّ الناس على وجوههم في النار، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم)[3]، يقول شيخ الإسلام

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي في الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حديث [٢٣٢٢] باب (١٤) وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه في الزهد، حديث [٤١١٢] باب مثل الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٦٥، والبغوي في شرح السنة ٤/ ٢٣٠.

(٢) ثكلتك أمك: أي فقدتك، والثّكلُ: فقد الولد، وامرأة ثاكل وثكلى، ورجل ثاكل وثكلان، كأنه دعا عليه بالموت لسوء فعله أو قوله، والموت يعم كل أحد، فإذن الدعاء عليه كلا دعاء، أو أراد: إذا كنت هكذا فالموت خير لك لئلا تزداد سُوءاً، ويجوز أن يكون من الألفاظ التي تجري على ألسنة العرب ولا يراد بها الدعاء، كقولهم: تربت يداك، وقاتلك الله. النهاية في غريب الحديث ١/ ٢١٧.

(٣) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٣١، والترمذي في الإيمان، حديث [٢٦١٦] وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٤٢٨، =

ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: «لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة. . . قال: والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة»[1]، ويقول ابن جُزي: «اعلم أن الذِّكر أفضل الأعمال على الجملة، وإن ورد في بعض الأحاديث تفضيل غيره من الأعمال، كالصلاة وغيرها، فإن ذلك لما فيها من معنى الذكر والحضور مع الله ـ تعالى ـ»[2]، وقال ابن القيّم رحمه الله: «والذِّكر منشور الولاية الذي من أُعطيه اتَّصل، ومن منعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأسجاد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بُوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطَّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلامة التي كانت بينهم وبين علّام الغيوب»[3].

فيعتبر ذكر الله ـ تعالى ـ أعظم الأسلحة على الإطلاق في مواجهة عدو الله الشيطان وردّ كيده، فما حارب الإنسان عدوَّه الشيطان بمثل ذكر الله ـ تعالى ـ، حيث يتصاغر عدو الله ويخنس ويندحر ذليلاً أمام قذائف الذكر على اختلاف أنواعه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٤]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما من مولود إلا على قلبه الوسواس، فإن ذكر الله خنس، وإن غفل وسوس، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[4]»، وقال مجاهد: «الشيطان يكون على

= وابن ماجه في الفتن، حديث [٣٩٧٣] باب كف اللسان في الفتنة، والطبراني في الكبير ٢٠/ ٦٤، ٧٣، ١٠٣، ١٢٨، ١٣١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٤٨ وصحَّحه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٦٠.

(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي الكلبي ١/ ٦٣.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٢٣.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، وابن جرير في تفسيره نحوه ٣٠/ ٣٥٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٠ وصحَّحه.

قلب الإنسان فإذا ذكر الله خنس»[١]، ويقول قتادة: «الخَنَّاس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس»[٢].

والخُنُوس: هو الانقباض والاستخفاء، وخَنَس: انقبض وتأخر، وأخْنَسَهُ غيره إذا خلَّفه ومضى عنه[٣]، قال الأصمعي[٤]: «سمعت أعرابياً من بني عُقيل يقول لخادم له كان معه في السفر فغاب عنهم: لم خَنَسْتَ عنَّا؟ أراد: لم تأخرت عنا وغبت؟ ولِمَ تواريت؟»[٥]، ويقول الأزهري[٦]: «خَنَسَ في كلام العرب يكون لازماً ويكون متعدّياً، يُقال: خَنَسْتُ فلاناً فخَنَس، أي أخرته فتأخر، وقبضته فانقبض، وخنسته أكثر»[٧].

ولقد أخبر النبي ﷺ عن أثر ذكر الله ـ تعالى ـ في صراع الإنسان مع عدوه الشيطان، حيث يندحر الشيطان، ويتصاغر وينقبض، وبيّن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن الإنسان حين يواجه عدوه الشيطان بسلاح الذِّكر، فإن هذا الإنسان قد دخل في حصن الله واحتمى به ـ جل وعلا ـ، فعن الحارث

---

(١) تفسير الطبري ٣٠/ ٣٥٥.

(٢) تفسير القرآن لعبد الرزاق بن همَّام ٢/ ٤١٠، وتفسير البغوي ٨/ ٥٩٩.

(٣) لسان العرب مادة «خنس».

(٤) هو: عبد الملك بن قُرَيب بن عبد الملك بن علي الأصمعي البصري، أبو سعيد، كان صاحب لغة ونحو، وإماماً في الأخبار والنوادر والغرائب، وكان من أحفظ أهل عصره، وقال عنه السمعاني: «كان من أئمة أهل اللغة، سلك البراري والبوادي وصحب الأعراب وأخذ الأدب من معدنه»، توفي سنة ٢١٦هـ.
انظر: تاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠، البلغة ص١٣٦، الأنساب ١/ ١٧٧.

(٥) لسان العرب منادة «خنس».

(٦) هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي، أبو منصور، كان رأساً في اللغة والفقه، غلبت عليه اللغة فاشتهر بها، وكان ثقة، ثبتاً ديّناً، عارفاً بالحديث، وكان قد رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة، فجمع أشتاتها، واطّلع على أسرارها ودقائقها، وله مصنفات في اللغة، وغريب الألفاظ الفقهية، والتفسير، وتوفي بهراة سنة ٣٧٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٤/ ٣٣٤، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١٥، بغية الوعاة ١/ ١٩.

(٧) لسان العرب مادة «خنس».

الأشعري[١] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بها بني إسرائيل أن يعملوا بها)، ثم ذكر رسول الله ﷺ أنَّ يحيى بن زكريا أمر بني إسرائيل بذكر الله بقوله: (وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)[٢]، يقول ابن القيّم بعد أن ذكر هذا الحديث: «فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلَّت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]، فإنه وُصِف الشيطان فيها بأنه الخنَّاس، والخنَّاس الذي إذا ذَكَرَ العبدُ الله انخنس وتجمَّع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشرِّ كلّه، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل»[٣]، وقال أيضاً في موضع آخر: «فلو لم يكن في الذِّكر إلا هذه الخصلة الواحدة ـ يعني الاحتراز من الشيطان ـ لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفْتُر لسانه من ذكر الله ـ تعالى ـ، وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإن غفل وثب عليه، وافترسه، وإذا ذكر الله ـ تعالى ـ انخنس عدو الله ـ تعالى ـ وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[٤] وكالذباب، ولهذا سُمِّي (الوسواس الخناس)، أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله ـ تعالى ـ خَنَس، أي كَفَّ وانقبض»[٥].

---

(١) هو: الحارث بن الحارث الأشعري، أسلم وصحب النبي ﷺ وروى عنه، وهو شامي، وروى عنه أبو سلام الأسود، وكنية الحارث أبو مالك، وهو غير أبو مالك الأشعري، فإن أبا مالك متقدّم الوفاة، والحارث متأخر ومشهور باسمه.
انظر: الطبقات الكبرى ٤/ ٢٦٥، الاستيعاب ١/ ٢٨٤، الإصابة ١/ ٢٨٨.

(٢) سبق تخريجه ص٣٥٣.

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ٢٧٠.

(٤) الوصع: الصغير من العصافير، وقيل: الصغير من أولاد العصافير، وقيل: طائر يشبه العصفور في صغر جسمه، وقيل: أصغر منه. انظر: لسان العرب مادة «وصع».

(٥) الوابل الصيّب من الكلم الطيب ص٤٤ ـ ٤٥.

ويقول ابن الجوزي: «لا يزال الإنسان صريعاً تحت الشيطان حتى يذكر الله ويتلو القرآن، فحينئذٍ يستوي الإنسان قائماً ويخرّ الشيطان صريعاً، فمن شاء أن يكون العدو عن لحاقه بطيئاً، فليكن إلى الذكر والتلاوة سريعاً»[1].

وقال بعض السلف: «إذا تَمكّن الذِّكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسّه الإنسي»[2].

وإذا كان ذكر الله ـ تعالى ـ هو الحصن الحصين من وساوس الشيطان ومكائده، فإن عدو الله الشيطان يجد بغيته ويظفر بمقصده عند أهل الغفلة والنسيان عن ذكر الرحمٰن ـ تبارك وتعالى ـ، يقول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَن يَعْشُ[3] عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. مكايده

يقول ابن جُزي: «ومعنى الآية: أن من غفل عن ذكر الله، يَسَّر الله له شيطاناً يكون له قريناً، فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان، كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان»[4]، وقال المراغي: «أي ومن يتعام عن ذكر الله، وينهمك في لذَّات الدنيا وشهواتها، تُسلَّط عليه شياطين الإنس والجن، يزينون له أن يرتع في الشهوات، ويَلَغ في اللذَّات، فلا يألو جهداً في ارتكاب الآثام والمحرمات على ما جرت به سُنَّتنا الكونية»[5].

فأهل الغفلة عن ذكر الله ـ تعالى ـ هم مَرْتَع الشيطان ومَحَطُّ رَحْلِهِ، فيبيت عدو الله عندهم ويعيش بينهم ويجرُّهم إلى مواطن الخيبة والردى،

---

(١) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي ص١٥٢.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ٤٢٤.
(٣) أصل العشو: النظر بغير ثبت لِعِلّة في العين، يقال منه: عشا فلان يعشو عشواً وعشوّاً إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه، كأن عليه غشاوة، تفسير الطبري ٢٥/ ٧٢.
(٤) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩.
(٥) تفسير المراغي ٢٥/ ٨٩.

حيث فتحوا له باب الغفلة الذي يلج إليهم منه، ومدّوا أيديهم إليه بإعراضهم عن ذكر الله ـ جل وعلا ـ، يقول ابن الجوزي: «العذاب مصبوب على أهل سخط الله، والسخط حالٌّ على أهل معصية الله، لازمة لمن الشيطان له مُلازم، وإنما يلازم الشيطان من غشي عن ذكر الله، فاحذر الغفلة عن ذكر الله، فإنها أصل كل بلية، وجالبة كل رزيّة»[(١)]، ويقول ابن القيّم: «الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه»[(٢)].

ولأهمية الذِّكر البالغة في حياة المسلم، إذ هو من أعظم الأعمال الصالحة المقربة إلى الله ـ تعالى ـ، وأقوى الأسلحة في التَّصدِّي للشيطان ودرء شره، مع ما يحصل للذاكر من عظيم الأجر والثواب، وانشراح الصدر واطمئنان القلب، فقد حثَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ عباده على مداومة ذكره ـ جل وعلا ـ، وقرن ذلك الحثّ بالإكثار من ذكره ـ تعالى ـ في آيات كثيرة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يفرض الله ـ تعالى ـ على عباده فريضة إلا جعل لها حدّاً معلوماً، ثم عَذَر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حَدّاً يُنتهى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم به في كل الأحوال، فقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، أي بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحّة والسقم، في السِّر والعلانية»[(٣)].

---

(١) التذكرة في الوعظ ص٦٦.
(٢) الفوائد، لابن القيم ص٢٤٦.
(٣) تفسير البغوي ٦/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

ويقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: «يأمر تعالى المؤمنين بذكره كثيراً من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قُربة إلى الله، وأقل ذلك أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبَّة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكفّ اللسان عن الكلام القبيح»[1].

ولقد حثَّ الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين على الإكثار من ذكره ـ جل وعلا ـ بعد قضاء الفرائض وأداء الطاعات، فأمرهم ـ تعالى ـ بذكره بعد أداء مناسك الحج، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ...﴾ الآية [البقرة: ٢٠٠]، يقول ابن القيّم بعد أن ذكر هذه الآية: «فيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدّة لشدّة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله ـ عز وجل ـ كانت عليه، لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن ذكر الله»[2].

كما حثَّ ﷻ عباده المؤمنين على الإكثار من ذكره ـ تعالى ـ عند لقاء العدو والتحام الصّفّين، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: «افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيوف»[3]، وقال أبو حيّان عند تفسير هذه الآية: «وأمرهم بذكره ـ تعالى ـ كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدو والتَّلاحم بالرماح وبالسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء فأمروا بذكر الله إذ

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ٤/١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) الوابل الصيّب من الكلم الطيب ص٤٧.
(٣) تفسير ابن عطية ٦/٣٢٨.

هو ـ تعالى ـ الذي يُفزع إليه عند الشدائد، ويُستأنس بذكره ويُستنصر بدعائه، ومن كان كثير التعلق بالله ذَكَره في كل موطن، حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء ويغيب فيها الحس، ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[1]، وقال محمد الأمين الشنقيطي: «وفي الأمر بالإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ في أضيق الأوقات، وهو وقت التحام القتال، دليلٌ واضح على أن المسلم ينبغي له الإكثار من ذكر الله على كل حال، ولا سيما في وقت الضيق، والمحب الصادق في حبه لا ينسى محبوبه عند نزول الشدائد»[2].

ولقد عَدَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ الإكثار من ذكره ـ سبحانه ـ في جملة صفات المؤمنين المتقين، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

والذَّاكرون الله كثيراً والذَّاكرات هم المفرِّدون الذين وصفهم النبي ﷺ بذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبل يقال له: جُمْدَانُ، فقال: (سيروا هذا جُمْدَانُ، سبق المفَرِّدون)، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: (الذَّاكرون الله كثيراً والذَّاكرات)[3].

ولقد حثَّ نبينا محمد ﷺ على ذكر الله والإكثار منه ورغَّب فيه بفعله وقوله، أما فعله ﷺ فقد كان كلُّه ذكراً لله ـ تعالى ـ، حيث كان يذكر الله ـ تعالى ـ في كل أحيانه وعلى جميع أحواله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[4].

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣.
(٢) أضواء البيان ٢/ ٤١٣.
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٦٧٦] باب الحث على ذكر الله ـ تعالى ـ.
(٤) أخرجه مسلم في الحيض، حديث [٣٧٣] باب ذكر الله ـ تعالى ـ في حال الجنابة وغيرها.

قال ابن القيّم: «كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله ﷻ، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكراً منه له، وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامته»(١).

وأما قوله، فقد ورد عنه ﷺ أحاديث كثيرة جداً تحثّ على الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ وترغّب في المداومة عليه، فقد أخبر ﷺ أن ذكر الله ـ تعالى ـ هو أفضل الأعمال الصالحة التي يتقرَّب بها العبد إلى ربه ـ جل وعلا ـ، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟)، قالوا: بلى: قال: (ذِكْرُ الله ـ تعالى ـ)(٢).

ولا يتعارض هذا الحديث مع ما ورد عن أفضلية الجهاد في سبيل الله على غيره من الأعمال الصالحة، فالمراد بالذِّكر هنا هو ما تواطأ عليه القلب واللسان، وأما أفضلية الجهاد فهي بالنسبة إلى الذكر باللسان، فما الجهاد وقتال الأعداء إلا لتوحيد الله ـ تعالى ـ وذكره في جميع الأحوال، يقول ابن

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٣٦٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٩٥، ٦/ ٤٤٧، والترمذي في الدعاء، حديث [٣٣٧٧] باب ما جاء في فضل الذكر، وابن ماجه في الأدب، حديث [٣٧٩٠] باب فضل الذكر، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٩٤ بلفظ: (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأرقاها وأرفعها في درجاتكم)، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٣ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ: (ألا أخبركم) ١٠/ ٧٣ وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن».

حجر في الجمع بين أفضلية الجهاد والذكر: «وطريق الجمع ـ والله أعلم ـ أن المراد بذكر الله في حديث أبي الدرداء، الذكر الكامل، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكر في المعنى واستحضار عظمة الله ـ تعالى ـ، وأن الذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممن يقاتل الكفار مثلاً من غير استحضار لذلك، وأن أفضلية الجهاد إنما هي بالنسبة إلى ذكر اللسان المجرَّد، فمن اتفق له أن جمع ذلك كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره، وكل ذلك حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه، أو قتاله الكفار مثلاً، فهو الذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله ـ تعالى ـ، وأجاب القاضي أبو بكر بن العربي بأنه ما من عمل صالح إلا والذكر مشترط في تصحيحه، فمن لم يذكر الله بقلبه عند صدقته أو صيامه مثلاً، فليس عمله كاملاً، فصار الذكر أفضل الأعمال من هذه الحيثية»(1).

ويقول ابن القيم: «إن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله ـ تعالى ـ، فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون»(2).

ويُعلّل الزرقاني(3) أفضلية الذكر على الجهاد بقوله: «لأن سائر العبادات من الأنفال، وقتال العدو وسائل ووسائط يتقرَّب بها إلى الله ـ تعالى ـ، والذكر هو المقصود الأسنى، ورأسه لا إله إلا الله، وهي الكلمة العليا والقطب الذي تدور عليه رحى الإسلام، والقاعدة التي بني عليها أركانه، والشُّعبة التي هي أعلى شعب الإيمان، بل هي الكل، وليس غيره»(4).

---

(1) فتح الباري ١١/ ٢١٣.

(2) الوابل الصيّب ص٤٧.

(3) هو: محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي، أبو عبد الله، محدّث، فقيه، أصولي، مولده ووفاته بالقاهرة، والزرقاني نسبة إلى «زرقان» من قرى منوف بمصر، توفي سنة ١١٢٢هـ.
انظر: هدية العارفين ٢/ ٣١١، الأعلام ٦/ ١٨٤، معجم المؤلفين ١٠/ ١٢٤.

(4) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٢/ ٤٠.

وبيّن ﷺ أن خير الأعمال التي ينبغي على العبد أن يتشبث بها هي ملازمة ذكر الله ـ تعالى ـ فعن عبد الله بن بسر[1] ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله)[2].

والذّاكر لله ـ تعالى ـ يُعجّل له عطاؤه العظيم وثوابه الكريم في الدنيا قبل أن يجده في الآخرة مدّخراً عند الله ﷻ، فحين يذكر العبد ربه ـ تعالى ـ في نفسه فإن الله ـ تقدست أسماؤه ـ يذكره في نفسه المقدسة، وحين يذكره في ملأ من الناس، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ يذكره في ملأ خير منهم من ملائكته الكرام، هذا ما حدّث به النبي ﷺ عن ربه ـ تعالى ـ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (يقول الله ـ تعالى ـ: أنا عند ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[3]، فالعبد إذا توطَّن بيتاً من بيوت الله ـ تعالى ـ يُقبل فيه على ربه ﷻ بذكره ـ جل وعلا ـ، فإنه ـ تعالى ـ يُقْبِل على عبده بأحسن الإقبال وأجمل اللقاء، فعن أبي

---

(١) هو: عبد الله بن بسر بن أبي بسر المازني، أبو صفوان، له صحبة، روى عن النبي ﷺ أحاديث قليلة، وروى عنه جماعة من التابعين، ولأبيه وأخويه عطية والصمّاء صُحْبة، وسكن عبد الله حمص، وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، توفي سنة ٨٨هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ٨٧٤، المعرفة والتاريخ ١/ ٢٥٨، الإصابة ٤/ ٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٨٨، ١٩٠، والترمذي في الدعاء، حديث [٣٣٧٥] باب ما جاء في فضل الذكر وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وابن ماجه في الأدب بلفظ: (فأنبئني منها بشيء أتشبث به) حديث [٣٧٨٣] باب فضل الذكر، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٣٧١، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٢، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٧٢، ٨/ ٢٣٦، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٧٣ وصحّحه، وحسّنه ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، حديث [٧٤٠٥] باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، ومسلم في الذكر والدعاء، بلفظ: (حين يذكرني) حديث [٢٦٧٥] باب الحثّ على ذكر الله ـ تعالى ـ.

هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما توطَّن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش[١] الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قَدِمَ عليهم)[٢].

ومع حثِّ النبي ﷺ على الذّكر، فقد رغَّب ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حضور مجالس الذِّكر وبيّن فضلها وعظيم ثوابها عند الله ـ تعالى ـ، فعن الأغر أبي مسلم[٣] أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة يطوفون في الطُّرُق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجِّدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال:

---

(١) البشّ: هو اللطف في المسألة وحسن الإقبال واللقاء الجميل، والبشاشة: طلاقة الوجه، والتبشبش في الأصل: التبشُّش، فاستثقل الجمع بين ثلاث شينات فقلبت إحداهن باء. انظر: لسان العرب مادة «بشش».

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، حديث [٨٠٠] باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، وقال في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات»، وأخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٢٨، ٤٥٣، وابن خزيمة في صحيحه ٢/ ٣٧٩ بلفظ: (لا يوطن)، والطيالسي في مسنده حديث [٢٣٣٤]، وابن حبان في صحيحه نحوه ٣/ ٦٧، ٤/ ٢١، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٣٢ بلفظ: (لا يوطئن أحدكم المساجد للصلاة) وصحَّحه.

(٣) هو: الأغر بن عبد الله أبو مسلم المدني، تابعي، ثقة، نزل الكوفة، روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما وكانا قد اشتركا في عتقه، وثّقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات.
انظر: التاريخ الكبير ٢/ ٤٤، الثقات ٤/ ٥٣، الكاشف ١/ ١٣٧.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٠٠] باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجَنَّة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: كيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً وأشدَّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة. قال: فممَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً وأشدَّ لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم»[(١)].

وأهل الذِّكر في مجالسهم، يباهي الله ـ تعالى ـ بهم ملائكته، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: «خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم استحلفكم تُهْمَةً لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: (ما أجلسكم؟)، قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال: (آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟)، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: (أما إني لم أستحلفكم تُهْمَةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يُباهي بكم ملائكته»[(٢)]، وعن أنس بن مالك ﵁ قال: «كان عبد الله بن رواحة[(٣)] إذا لقي الرجل من

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٤٠٨] باب فضل ذكر الله ﷻ، وأخرج مسلم نحوه في الذكر والدعاء، بلفظ في أوله: (إن لله ـ تبارك وتعالى ـ ملائكة سيارة فُضُلا يبتغون مجالس الذكر) حديث [٢٦٨٩].

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٠١] باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن الخزرج، كان من السابقين الأولين =

أصحابه يقول: تعال نؤمن بربنا ساعة، فقال ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة. فقال النبي ﷺ: (يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تباهي بها الملائكة عليهم السلام)»[1].

وإذا كانت حِلَق الذكر ومجالسه ليست كغيرها من مجالس الدنيا، وإنما هي مجالس الصالحين ومرتع المتقين، ومنزل السكينة ومهبط الملائكة واتِّصال أهل الأرض بالملأ الأعلى، فهي رياض من رياض الجنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: (حِلَق الذِّكر)[2]، فمجالس الذكر أفضل موطن يمكث فيه العبد، وخير مكان يأوي إليه فيؤيه ربه ـ تبارك وتعالى ـ، فعن أبي واقد الليثي[3] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدْبَرَ ذاهباً،

= من الأنصار، وأحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً وما بعدها، إلا الفتح وما بعده، لأنه قتل يوم مؤتة شهيداً، وكان أحد الأمراء فيها، وكان ابن رواحة أحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردُّون عن رسول الله ﷺ، وكانت غزوة مؤتة التي استشهد فيها عبد الله سنة ثمان من الهجرة بأرض الشام.
انظر: الاستيعاب ٣/٨٩٨، سير أعلام النبلاء ١/٢٣٠، الإصابة ٤/٦٦.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٢٦٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٧٦ وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث [٣٥١٠] باب (٨٣) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/١٥٠، والبيهقي في الشعب ١/٣٩٨.

(٣) اختلف في اسمه، فقيل: الحارث بن عوف، وقيل عوف بن الحارث بن أسيد بن جابر بن عوثرة بن عبد مناة، أحد الصحابة، وكان قديم الإسلام، وشهد بدراً، وحدّث عن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وشهد الفتح، وسكن الكوفة، وتوفي سنة ٦٨هـ.
انظر: الاستيعاب ٤/١٧٧٤، سير أعلام النبلاء ٢/٥٧٤، الإصابة ٧/٢١٢.

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه)»[1].

وأما عاقبة الذكر والتوطّن في مجالسه في الآخرة، فما من عمل أنجى للعبد من النار يوم القيامة من ذكر الله ـ تعالى ـ، وما من غنيمة للعبد يوم القيامة خير من غنيمة مجالس الذكر، وهي الجنة، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من النار من ذكر الله)، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله، قال: (ولا الجهاد في سبيل الله، إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع، ثم تضرب حتى ينقطع، ثلاثاً)[2]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما غنيمة مجالس الذكر؟ قال: (غنيمة مجالس الذكر الجنة الجنة)[3]، فيا غنيمة أهل الذِّكر بذكرهم، ويا أُنسهم وسعادتهم في رياض ربهم، ويا فرحهم وسرورهم بلقاء مولاهم ـ تبارك وتعالى ـ، فالمحروم حقاً من حُرم من الاتصاف بهم واللحاق بركبهم، فذاك هو الشَّقي بل هو الميت الحقيقي، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحيِّ والميت)[4]، وما موت المعرض عن ذكر ربه

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، حديث [٦٦] باب من قعد حيث ينتهي به المجلس... إلخ، ونحوه في الصلاة، حديث [٤٧٣] باب الحِلَق والجلوس في المسجد، ومسلم في السلام، حديث [٢١٧٦] باب من أتى مجلساً فوجد فرجة فجلس فيها، وإلا وراءهم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٨/ ٢٣٥، وعبد بن حميد في المنتخب حديث [١٢٧]، والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٦٧، والإمام أحمد نحوه في المسند ٥/ ٢٣٩، وحسّن العراقي إسناده في تخريج أحاديث الإحياء ١/ ٢٦٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٧٣ وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٧٧، ١٩٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٧٨ وقال: «رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن».

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٤٠٧] باب فضل ذكر الله ﷻ، ومسلم =

إلا لغفلته وموت قلبه، إذ لا حياة للقلب إلا بنور الإيمان بالله وذكره ـ تعالى ـ، ولهذا أخبر ﷺ أن كثرة الكلام بغير ذكر الله ـ جل وعلا ـ قسوةٌ للقلب، وبعدٌ عن الرب ـ جَلَّ ذكره ـ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي)(١).

وإذا كان النبي ﷺ قد حثّ على مجالس الذكر ورغَّب في حضورها، فقد عاب ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المجالس التي لا يذكر فيها الله ـ تعالى ـ، وأخبر أن القيام عن هذه المجالس كالقيام عن جيفة حمار، وأنها تكون على أهلها يوم القيامة حسرة وندامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما جلس قوم مجلساً فتفرَّقوا عن غير ذكر الله إلا تفرَّقوا عن مثل جيفة حمار، وكان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة)(٢)، وعنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يُصَلُّوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَة(٣)، فإن شاء عذَّبهم، وإن شاء غفر لهم)(٤).

= في صلاة المسافرين وقصرها بلفظ: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت) حديث [٧٧٩].

(١) أخرجه الترمذي في الزهد من سننه، حديث [٢٤١١] باب (٦١) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٥٢٧، وأبو داود في الأدب من سننه نحوه، حديث [٤٨٥٥] باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله، والنسائي في عمل اليوم والليلة حديث [٤٠٨]، والبيهقي في الشعب ١/ ٤٠٣، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٠٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٦٨ وقال: «هذا حديث على شرط مسلم ولم يخرِّجاه»، وصحَّح النووي إسناده في رياض الصالحين ص٢٨٧.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ١/ ١٨٩: «التِّرة: النقص، وقيل: التَّبِعَةُ».

(٤) أخرجه الترمذي في الدعاء حديث [٣٣٨٠] باب في القوم يجلسون لا يذكرون الله، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرج أحمد نحوه في المسند ٢/ ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٨١، ٤٨٤، والنسائي نحوه في عمل اليوم والليلة، حديث [٤٠٥] و [٤٠٦]، وأخرجه الطيالسي في المسند حديث [٢٣١١]، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٢١٠، =

والذِّكر كما يكون باللسان يكون أيضاً بالقلب، بل إن الذكر القلبي هو غاية الذكر ومقصده، يقول القرطبي: «وسُمِّي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي، غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم»[1]، وأكمل الذكر وأفضله هو ما تواطأ عليه القلب واللسان واجتمعا عليه، واستحضر فيه الذاكر معنى الذكر ومقاصده، يقول النووي: «الذِّكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل»[2]، وقال ابن القيّم: «فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكره بالقلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً من هذه الآثار، وإن أثمر شيئاً منها فثمرة ضعيفة»[3]، ويقول ابن حجر: «وإن انضاف إلى النطق ـ أي بالذِّكر ـ الذِّكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله ـ تعالى ـ ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض؛ من صلاة أو جهاد أو غيرهما، ازداد كمالاً، فإن صحَّ التوجّه، وأخلص لله ـ تعالى ـ في ذلك فهو أبلغ وأكمل»[4].

وأفضل ما تقرَّب به العبد إلى ربه من الأذكار هو تلاوة كتابه الكريم بتدبّر معانيه ومقاصده، ولهذا أمر ـ سبحانه ـ عباده بقراءة كتابه وأَثْنى على المؤمنين الذين يتلون كتاب الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ . .﴾ الآية [المزمل: ٢٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

= وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٨٠ وقال: «رواه الطبراني ورجاله وثِّقوا».

(١) تفسير القرطبي ٢/ ١٧١.

(٢) الأذكار، للنووي ص٨.

(٣) الوابل الصيّب ص١١٠.

(٤) فتح الباري ١١/ ٢١٢.

يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ ...﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ولمزيَّة القرآن الكريم وسُموِّه على غيره من الكلام فقد خُصَّت تلاوته بالأجر العظيم والثواب الجزيل، فأُعطي القارئ لكتاب الله بكل حرف يقرأه حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حَسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[1].

يقول ابن رجب: «ومن أعظم ما يُتقرَّب به إلى الله ـ تعالى ـ من النوافل: كثرة تلاوة القرآن، وسماعه، بتفكر وتدبّر وتفهّم، قال خبّاب بن الأرتّ[2] لرجل: تقرّبْ إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرَّب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه»[3].

ولفضل القرآن الكريم على غيره من الأذكار فقد فَضُلَ العبد الصالح الذي يقرأه، على غيره من الناس، وامتاز عليهم بمداومة الاتِّصال بكتاب

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، حديث [٢٩١٠] باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الحُجّة في بيان المحَجَّة ٢/ ١٨٨ بلفظ: (من قرأ حرفاً من القرآن).

(٢) هو خباب بن الأرتّ بن جندلة بن سعد التميمي، أبو يحيى، صحابي جليل من السابقين الأولين، وكان قد سُبي في الجاهلية فَبِيعَ بمكة، فكان مولى أم أنمار الخزاعية، وهو أول من أظهر إسلامه، وعُذّب عذاباً شديداً لأجل ذلك، ثم شهد المشاهد كلها، وتوفي ﷺ سنة ٣٧هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/ ٤٣٧، سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٣، الإصابة ٢/ ١٠١.

(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٤٢، وقول خبّاب رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٧٩ وصحّحه.

ربه ومواظبته عليه، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مثل الذي يقرأ القرآن كالأُتْرُجَّة[1] طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح فيها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مُرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها).

ولئن كان العبد مأموراً بذكر الله ـ تعالى ـ بجميع أنواع ذكره ـ جل وعلا ـ وعلى جميع الأحوال، فإن نصوص الكتاب والسنة قد جاءت بأذكار مخصوصة وأدعية مأثورة ليتحصَّن بها الإنسان ضد كيد الشيطان ويتسلح بها في صراعه الدائم معه، وهي علاج فعّال في دحر عدو الله ودرء شرّه، وتفصيل هذه العلاجات والتحصينات في الأمور الآتية:

أولاً: الاستعاذة:

قال الفيروزآبادي: «العوذ: الالتجاء، كالعياذ والمعاذ والمعاذة والتعوذ والاستعاذة، والعَوَذُ بالتحريك: الملجأ كالمعاذ والعياذ، ومعاذ الله: أي أعوذ بالله، معاذاً، وكذا: معاذة الله»[2].

فالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ هي: الالتجاء والاعتصام والاستجارة بالله ـ تعالى ـ من شرِّ الشيطان الرجيم، يقول ابن جرير: «الاستعاذة: الاستجارة، وتأويل قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان، أن يضرَّني في ديني أو يصدَّني عن حق يلزمني لربي»[3].

---

(١) الأترُجُّ: ثمر زكي الرائحة، ذهبي اللون، وهو كالليمون الكبار، حامض الماء، والعامة تقول الأترنج، والأول كلام الفصحاء. انظر: لسان العرب مادة «ترج»، والمعجم الوسيط ١/ ٤.

(٢) القاموس المحيط ص٤٢٨.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٤٩.

وقال القرطبي: «معنى الاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، يقال: عُذت بفلان واستعذت به، أي لجأت إليه، وهو عياذي، أي ملجئي، وأعذت غيري به وعوّذته»[1].

ولفظ الاستعاذة أن يقول المستعيذ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وهذا ما دلَّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ودلَّ عليه أيضاً ما ورد في حديث سليمان بن صُرد حين أخبر عن النبي ﷺ أن سكون الغضب وإخماد شعلته تتحقق بقول من اعتراه: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[2].

ومن ألفاظ الاستعاذة أيضاً قول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، وهو ما دلّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، قال النووي: «وأما صفته ـ أي التعوّذ ـ فمذهبنا أنه يستحب أن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وبه قال الأكثرون، قال القاضي أبو الطيب وقال الثوري: يستحب أن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)، وقال الحسن بن صالح: يقول: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، ونقل الشاشي عن الحسن بن صالح: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)»[3].

ويقول ابن قُدَامة: «وصفة الاستعاذة أن يقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهذا قول أبي حنيفة والشافعي، لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وعن أحمد أنه يقول: (أعوذ بالله السميع العليم

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٨٩.

(٢) سبق تخريجه ص٢٨١.

(٣) المجموع شرح المهذب ٣/ ٣٢٥.

من الشيطان الرجيم) لخبر أبي سعيد[1]، ولقول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وهذا متضمّن لزيادة، ونقل حنبل عنه أنه يزيد بعد ذلك: إن الله هو السميع العليم. وهذا كله واسع، وكيفما استعاذ فهو حسن، ويُسرّ بالاستعاذة، ولا يجهر بها، لا أعلم فيه خلافاً»[2].

فالشيطان الرجيم لا يَقْدِرُ على دفعه وكفّه عن الإنسان إلا الله ـ تعالى ـ الذي خلقه، وهو المطّلع عليه في جميع أحواله، والعبد حين يستعيذ بالله ـ تعالى ـ، فقد التجأ إلى حماه ـ جل وعلا ـ، واعتصم بحفظه ورعايته، واستجار بمن يرى الشيطان الذي لا يراه الإنسان، ولا يعجزه شيء من أمر هذا العدو الخفي، ومن كان في حصن الله وعنايته وكنفه فليس للشيطان إليه سبيل أبداً، فالاستعاذة في الحقيقة استجارة بالخالق من المخلوق، وبالخير كله من الشر كله، يقول ابن كثير: «ومن لطائف الاستعاذة أنها استعانة بالله واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان»[3].

ولعناية الله ـ تعالى ـ بعباده ورحمته بهم، فقد أرشدهم إلى علاج الاستعاذة من وساوس الشيطان وكيده، ودلّهم عليه وحثّهم على استعماله في صراعهم مع عدوهم اللدود، فقال ـ تعالى ـ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾

---

(١) لفظ خبر أبي سعيد ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبّر ثم يقول: (سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك)، ثم يقول: (لا إله إلا الله) ثلاثاً، ثم يقول: (الله أكبر كبيراً ثلاثاً، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) ثم يقرأ. سبق تخريجه ص٢٨٥.

(٢) المغني ٢/١٤٦.

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٦.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨]، وقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]، قال ابن كثير: «فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله ـ تعالى ـ يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليردّه عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مُصانَعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه من قبل»(١).

واختُلف في محل الاستعاذة التي أمر الله ـ تعالى ـ بها عند تلاوة القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل: ٩٨]، هل هي قبل القراءة أم بعدها؟

- فذهب أبو هريرة رضي الله عنه وابن سيرين والنخعي إلى أن الاستعاذة بعد قراءة القرآن لظاهر الآية(٢).

- وذهب جمهور الأمة من السلف والخلف إلى أن محل الاستعاذة قبل القراءة، وهو قول الزجّاج وابن عطية والبغوي والبيضاوي وابن العربي والقرطبي والزمخشري وابن كثير وغيرهم من المفسرين(٣).

- وذكر الفخر الرازي قولاً ثالثاً: وهو أن يقرأ الاستعاذة قبل القراءة بمقتضى الخبر، وبعدها بمقتضى القرآن، جمعاً بين الدليلين بقدر الإمكان(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٤، ٢/ ٥٨٧، وتفسير البغوي ٥/ ٤٢، والمجموع للنووي ٣/ ٣٢٥، والتفسر الكبير للرازي ١/ ٥٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٢١٨، وتفسير ابن عطية ٨/ ٥٠٧، وتفسير البغوي ٥/ ٤٢، وتفسير البيضاوي ١/ ٥٥٦، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٧، وتفسير القرطبي ١٠/ ١٧٤، والكشّاف للزمخشري ٢/ ٤٢٨، وتفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٤) التفسير الكبير ١/ ٦٠.

والاستعاذة قبل الشروع في قراءة القرآن هو الذي دلَّت عليه السنة وآثار الصحابة وعليه جمهور السلف، والأمر بالاستعاذة في آية النحل هو قبل القراءة وليس بعدها، والمعنى: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وهذا مستعمل في الكلام عموماً وفي القرآن الكريم كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، قال ابن القيّم: «السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السَّلف والخلف»[(١)]، وقال الزجّاج: «وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ معناه: إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ليس معناه استعذ بالله بعد أن تقرأ، لأن الاستعاذة أُمر بها قبل الابتداء، وهو مستعمل في الكلام، مثله: إذا أكلت فقل: بسم الله، ومثله في القرآن: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾، فالهيئة قبل الصلاة، والمعنى: إذا أردتم ذلك فافعلوا»[(٢)].

وإذا كان الله ﷻ قد أمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم قبل القراءة، فلا ريب أن لذلك حكماً وفوائد تتحقق بهذه الاستعاذة، ومن جملة تلك الحِكَم والفوائد ما يأتي[(٣)]:

١ ـ أن الاستعاذة قبل القراءة إعلام بأن المأتي به بعدها القرآن الكريم، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعدَّ لاستماع كلام الله ـ تعالى ـ، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غير القرآن الكريم.

٢ ـ أن القرآن الكريم شفاء ودواء لما يلقيه الشيطان في صدور بني آدم من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فأمر القارئ بالاستعاذة ليطرد

(١) إغاثة اللهفان ١/١٠٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/٢١٨.
(٣) ذكر العلَّامةُ ابن القيم هذه الحِكَم والفوائد في كتابه إغاثة اللهفان ١/١٠٩ ـ ١١٢، وقد استقيتها منه بتصرف وتنسيق.

مادة الداء ومصدرها، ويخلي منه القلب، ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكَّن منه وينجع فيه.

٣ ـ أن عدو الله الشيطان يسعى بكل جهده لإحراق مادة الهدى والخير كلما أحسَّ بنباتها في قلب الإنسان، والقرآن الكريم هو مادة الهدى والخير في القلب، فأُمر القارئ بأن يستعيذ بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن من الهدى والخير.

٤ ـ أن قارئ القرآن تدنو منه الملائكة وتسمع قراءته، كما دلَّ على ذلك حديث أُسَيْد بن حُضير[(١)] رضي الله عنه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أُسَيْد بن حُضير رضي الله عنه بينما هو ليلة يقرأ في مِرْبَدِه[(٢)] إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً، قال أُسَيْد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظُلَّة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُج، عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدي إذ جالت فرسي، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حُضَير) قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حُضير) قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً، فقال رسول الله ﷺ: (اقرأ ابن حُضير)، قال: فانصرفت، وكان يحيى قريباً منها خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظُّلَّة فيها أمثال السُّرُج عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله ﷺ: (تلك الملائكة كانت تسمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس، ما تستتر منهم)[(٣)]، فلحضور

---

(١) هو: أُسَيْد بن حُضَير بن سمّاك بن عتيك الأنصاري الخزرجي، أبو يحيى، صحابي أسلم قديماً، وهو أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة، وشهد أُحداً، وكان من الذين ثبتوا ذلك اليوم مع رسول الله ﷺ حين انكشف الناس، توفي سنة ٢٠هـ.
انظر: الاستيعاب ١/ ٩٢، سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٠، الإصابة ١/ ٤٨.

(٢) المِرْبَد: هو الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم، النهاية ٢/ ١٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حديث [٥٠١٨] باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، ومسلم في صحيحه واللفظ له، في صلاة المسافرين وقصرها، حديث [٧٩٦] باب نزول السكينة لقراءة القرآن.

الملائكة قراءة القرآن أُمِرَ قارئ القرآن أن يطلب من الله ـ تعالى ـ مباعدة عدوه الشيطان عنه بالاستعاذة به ـ جل وعلا ـ من ذلك العدو حتى تحضر الملائكة، فهي منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

٥ ـ أن مقصود القارئ بالقرآن تدبُّره وتفهُّم معانيه، بالإضافة إلى طلب الأجر في قراءته، والشيطان الرجيم يحرص بكل جهده على أن يحول بين قلب القارئ وبين مقصود القرآن، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ من الشيطان ليكمل انتفاع القارئ بالقرآن.

٦ ـ أن القارئ في قراءته القرآن يناجي ربه ـ تعالى ـ، وهو ـ جل وعلا ـ أشدُّ أُذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن، من صاحب القيِّنة من قيِّنته، والشيطان قراءته الشِّعر والغناء، فأُمِرَ القارئ أن يطرده بالاستعاذة بالله ـ تعالى ـ منه عند سماع الرب ﷻ قراءة القارئ.

٧ ـ أن عدو الله الشيطان يجتهد في خلط القراءة وتشويشها على القارئ، وقد كان هذا دأبه مع الأنبياء كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ...﴾ الآية [الحج: ٥٢]، والسلف كلهم متفقون على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف مع غيرهم؟ فلذا كان من أهم أمور قارئ القرآن: أن يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من الشيطان الرجيم.

٨ ـ أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان حينما يهمّ بفعل الخير، أو يدخل فيه، فهو له بالرصد حينئذ ليقطعه عنه، لا سيما عند قراءة القرآن، فأَمَر ـ سبحانه ـ القارئ لكتابه أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق، بالاستعاذة به ـ تعالى ـ من شرِّه ليستمر في فعله الخير.

ولمَّا كان الشيطان مصدر الشرور والداعي إليها، فقد أَمَرَ الله المؤمنين بالاستعاذة من كل شر، ومنه السِّحر والحسد وهما من تزيين الشيطان للإنسان وغوايته بهما، فقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ

مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

ولئن كان المسلم مأموراً بأن يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من شر الشيطان وكيده، فإنه مأمور كذلك بأن يستعيذ بربه من وسوسة الشيطان التي هي وسيلة عدو الله في الدعوة إلى كل شرٍّ وبلاء، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

فسورتا المعوذتين من أعظم ما يستدفع به الإنسان شر الشيطان ووساوسه، ولذا بيّن النبي ﷺ فضل المعوذتين وحثَّ على قراءتهما، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط؟ قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس)[١]، وعن أبي العلاء بن الشِّخِّير[٢] عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ أقرأه المعوذتين، ثم قال له: (إذا أنت صليت فاقرأ بهما)[٣]، كما حثَّ ﷺ على قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين، وأخبر أن قراءة هذه السور ثلاث مرات في الصباح والمساء تكفي الإنسان من الشرور، فعن عبد الله بن خبيب[٤] رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، حديث [٨١٤] باب فضل قراءة المعوذتين.

(٢) هو: يزيد بن عبد الله بن الشّخّير بن عوف بن كعب العامري، يكنى أبا العلاء، أحد كبار التابعين، حدّث عن أبيه وأخيه مطرّف، وعمران بن حصين، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وكان أبو العلاء ثقة فاضلاً كبير القدر، توفي بالبصرة ١٠٨هـ.
انظر: الثقات ٥/ ٥٣٢، الكاشف ٣/ ٢٨١، الإصابة ٦/ ٣٦٧.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٤، وقال ابن حجر في الفتح ٨/ ٦١٥: «إسناده صحيح».

(٤) هو: عبد الله بن خبيب الجهني الأنصاري المدني، أسلم وصحب النبي ﷺ، وروى عنه، وهو والد معاذ بن عبد الله، وروى عنه ابنه معاذ.
انظر: الطبقات الكبرى ٤/ ٢٦١، الاستيعاب ٣/ ٨٩٤، الإصابة ٤/ ٦٢، تهذيب التهذيب ٥/ ١٧٣.

خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: (أصليتم؟) فلم أقل شيئاً، فقال: (قل)، فلم أقل شيئاً، ثم قال: (قل) فلم أقل شيئاً، ثم قال: (قل)، فقلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: (قل هو الله أحد، والمعوذتين، حين تُمسي وحين تُصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء)[1]، ولكون هذه السور حرزاً للإنسان وكافية له من عدوه الشيطان، فقد كان النبي ﷺ يلازم قراءتها حين يأخذ مضجعه من كل ليلة، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[2].

ولأهمية الاستعاذة في حياة المسلم في حربه مع الشيطان وفي الوقاية من جميع الشرور الظاهرة والباطنة، فقد حثَّ النبي ﷺ على ذكرها والمحافظة عليها في مواطن مختلفة وهي فيما يأتي:

١ ـ الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من شرِّ جميع شياطين الجن والإنس:

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال: (يا أبا ذر هل صليت؟)، قلت: لا، قال: (قم فصلّ)، قال: فقمت فصليت ثم جلست، فقال: (يا أبا ذر تعوَّذ بالله من شر شياطين الإنس والجن)، قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: (نعم)[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، حديث [٥٠٨٢] باب ما يقول إذا أصبح، والترمذي في الدعوات، حديث [٣٥٧٥] باب (١١٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، وأخرجه النسائي في الاستعاذة، حديث [٥٤٢٨] باب (١)، وعبد بن حميد في المنتخب حديث [٤٩٤]، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/ ٢٦١، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٥١٥، وابن السني في عمل اليوم والليلة حديث [٨١]، وحسّنه ابن حجر في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار ٢/ ٣٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حديث [٥٠١٧] باب فضل المعوّذات.

(٣) سبق تخريجه ص٢٧٧.

٢ ـ الاستعاذة بالله من وسوسة الشيطان في الصلاة:

فعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبّسها عليّ، فقال رسول الله ﷺ: (ذاك شيطان يقال له: خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوَّذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثاً)، قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني»(١).

٣ ـ عند رؤية الحلم المزعج، يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان:

فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوَّذ من الشيطان فإنها لا تضرّه)(٢).

٤ ـ الاستعاذة بالله من الشياطين عند دخول الخلاء:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: (اللّهم إني أعوذ بك من الخُبث والخَبَائث(٣))(٤).

٥ ـ الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند ثورة الغضب:

فعن سليمان بن صُرد رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبَّان فأحدهما احمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب عنه ما يجد)(٥).

---

(١) سبق تخريجه ص٢٧١.

(٢) سبق تخريجه ص١٥٠.

(٣) قال الخطَّابي: «الخبْث: بضم الباء جماعة الخبيث، والخبائث: جمع الخبيثة، يريد ذكران الشياطين وإناثهم» معالم السنن بهامش سنن أبي داود ١٦/١.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء، حديث [١٤٢] باب ما يقول عند الخلاء، وفي الدعوات، حديث [٦٣٢٢] باب الدعاء عند الخلاء، ومسلم في الحيض، حديث [٣٧٥] باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء.

(٥) سبق تخريجه ص٢٨١.

٦ ـ أن يستعيذ المسلم من الشيطان عند دخول المسجد، فيحفظ منه سائر يومه:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: (أعوذ، بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، قال: فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم)(١).

٧ ـ الاستعاذة بالله تعالى من تخبّط الشيطان عند الموت:

فعن أبي اليسر(٢) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: (اللّهم إني أعوذ بك من الهَدْم، وأعوذ بك من التردِّي، وأعوذ بك من الغَرَق والحرق والهرم، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً)(٣).

قال الخطَّابي: «استعاذته من تخبّط الشيطان عند الموت، هو أن يستولي عليه الشيطان عند مفارقته الدنيا، فيصله ويحول بينه وبين التوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قِبَله، أو يؤيّسه من رحمة الله، أو يتكرَّه الموت، ويتأسَّف على حياة الدنيا، فلا يرضى بما

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة من سننه، حديث [٤٦٦] باب ما يقوله الرجل عند دخوله المسجد، وقال النووي: «حديث حسن رواه أبو داود بإسناد جيد» الأذكار ص٣٣.

(٢) أبو اليسر: هو كعب بن عمرو بن عبّاد بن عمرو بن سواد الأنصاري السلمي، شهد العقبة ثم بدراً، وهو ابن عشرين سنة، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، وأَسَرَ العباس، وله مناقب كثيرة، توفي سنة ٥٥هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ١٣٢٢، ٤/ ١٧٧٦، سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٣٧، الإصابة ٧/ ٢١٨.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة من سننه، حديث [١٥٥٢] بابٌ في الاستعاذة، وأحمد نحوه ٣/ ٤٢٧، والنسائي في الاستعاذة، حديث [٥٥٣١] باب الاستعاذة من التردّي والهدم، وفي سننه الكبرى ٤/ ٤٦٧، والطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ١٧٠، والحاكم في المستدرك ١/ ٧١٣ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

قضاه الله من الفناء والنقلة إلى الدار الآخرة، فيُختم له بالسوء، ويلقى الله وهو ساخط عليه»(١).

٨ ـ يُستعاذ بالله ـ تعالى ـ من الشيطان عند سماع نهيق الحمير:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت مَلَكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوَّذوا بالله من الشيطان، فإنه رأى شيطاناً)(٢).

٩ ـ عند تشكيك الشيطان للإنسان بربه، وتدرّجه في دعوته إلى الكفر، فليستعذ الإنسان بالله ـ تعالى ـ من الشيطان الرجيم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينْتَه)(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن للشيطان لمَّة بابن آدم، وللمَلَكِ لمَّة، فأما لمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمَّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨])(٤).

١٠ ـ الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من الشيطان الرجيم عند الاستفتاح في قيام الليل:

---

(١) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٢/ ١٩٤.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣٣٠٣] باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال، ومسلم في الذكر والدعاء بلفظ (فإنها رأت شيطاناً) حديث [٢٧٢٩] باب استحباب الدعاء عند صياح الديك.

(٣) سبق تخريجه ص٢٢٠.

(٤) سبق تخريجه ص٣٦١.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبَّر ثم يقول: (سبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك)، ثم يقول: (لا إله إلا الله) ثلاثاً، ثم يقول: (الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) ثم يقرأ[1].

١١ ـ من نزل منزلاً في إقامته وسفره فليستعذ بالله ـ تعالى ـ من سائر الشرور، وأولها شر الشيطان الرجيم:

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعتُ خولة بنت حكيم السلمية[2] تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التَّامات من شرِّ ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)[3].

١٢ ـ الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من شر الشيطان، في الصباح وفي المساء: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله مُرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت، قال: (قل: اللّهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه. قال: قلها إذا أصبحت وإذا إمسيت وإذا أخذت مضجعك)[4].

---

(١) سبق تخريجه ص٢٨٥.

(٢) هي: خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمية، امرأة عثمان بن مظعون رضي الله عنه، وتكنَّى أم شريك، كانت امرأة صالحة فاضلة، قيل إنها كانت ممن وهبت نفسها للنبي ﷺ.
انظر: الطبقات الكبرى ٨/ ١٢٤، الاستيعاب ٤/ ١٨٣٢، الإصابة ٨/ ٦٩.

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٠٨] باب في التعوّذ من سوء القضاء ودَرَك الشقاء وغيره.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٩، ٢٩٧، ونحوه ١/ ١٠ ـ ١١، وأخرجه أبو داود في الأدب، حديث [٥٠٦٧] باب ما يقول إذا أصبح، والترمذي في الدعوات، =

ثانياً: البسملة:

وهي قول القائل: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والباء في «بسم الله» متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت بسم الله، وعند نحاة الكوفة متعلق بفعل تقديره: ابتدأت بسم الله(1).

والمعنيان متقاربان، وكل منهما ورد به القرآن، فما جاء في تقديره بالاسم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ..﴾ الآية [هود: ٤١]، وفي تقديره بالفعل فقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العلق: ١]، قال ابن كثير عن التقديرين: «وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا بد له من مصدر، فلك أن تقدّر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله؛ إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوء أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبرُّكاً وتيمُّناً واستعانة على الإتمام والتقبّل، والله أعلم»(2).

وتعتبر البسملة من أقوى الأسلحة في الوقاية من شرور الشيطان وغوايته للإنسان ومشاركته له في سائر الأمور، ولذا حثّ النبي ﷺ على ذكرها والمحافظة عليها في جميع الأحوال، لا سيما في الأحوال الآتية:

١ ـ ذكر البسملة في صباح كل يوم ومسائه:

= حديث [٣٣٩٢] باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، وقال: هذا «حديث حسن صحيح»، والبخاري في الأدب المفرد حديث [١٢٠٨]، والنسائي في السنن الكبرى ٤/ ٤٠١، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٥٦٧]، والدارمي في الاستئذان، حديث [٢٦٨٩] باب ما يقول إذا أصبح، وابن حبان في صحيحه ٢/ ١٥٥، حديث [٩] و[٢٥٨٢]، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٠، وأبو يعلى في المسند ١/ ٧٠، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٩٤ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وقال ابن حجر في نتائج الأفكار ٢/ ٣٤٣: «هذا حديث صحيح».

(1) تفسير ابن عطية ١/ ٨٣.

(2) تفسير ابن كثير ١/ ١٩.

فعن أبّان بن عثمان[1] قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يقول صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. ثلاث مرات، لم يضرُّه شيء)[2].

٢ ـ البسملة عند الخروج من البيت وقاية من الشيطان:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ: بسم الله توكَّلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يُقال له: كُفيت ووُقيت وتنحَّى عنه الشيطان)[3].

٣ ـ إذا عثرت الدابّة فليذكر المسلم اسم الله ـ تعالى ـ فإنه يتصاغر الشيطان ويخنس:

---

(١) هو: أبان بن عثمان بن عفان بن أبي العاص الأموي المدني، أبو سعيد، ابن عثمان بن عفان الخليفة الراشد، تابعي، ثقة، روى عن أبيه وغيره، ولّاه عبد الملك بن مروان على المدينة، قال عمرو بن شعيب: ما رأيت أحداً أعلم بحديث ولا فقه من أبّان بن عثمان، توفي سنة ١٠٥هـ.
انظر: الطبقات الكبرى ٥/ ١١٥، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١، العبر ١/ ٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث [٣٣٨٨] باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه أحمد في المسند ١/ ٦٢ ـ ٦٣، ٦٦ بدون قوله: (ثلاث مرات)، وأبو داود في الأدب، بلفظ: (لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي)، حديث [٥٠٨٨] باب ما يقول إذا أصبح، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٩٤، وفي عمل اليوم والليلة، حديث [٣٤٦]، وابن ماجه في الدعاء، حديث [٣٨٦٩]، وأخرجه البغوي وحسّنه في شرح السنة ٥/ ١١٣، وصحَّحه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥٢، وصحَّحه الحاكم في المستدرك ١/ ٦٩٥، وقال ابن حجر في نتائج الأفكار ٢/ ٣٤٨: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث [٣٤٢٦] باب ما يقول إذا خرج من بيته، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وأخرج أبو داود نحوه في الأدب، حديث [٥٠٩٥] باب ما يقول إذا خرج من بيته، والنسائي في عمل اليوم والليلة، حديث [٨٩]، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٥١ بلفظ: (وقيت وكفيت)، وحسّنه ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ١٦٣.

فعن أبي مليح[1] عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابته فقلت: تعِسَ الشيطان. فقال: (لا تقل تعِسَ الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوَّتي صرعته، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك، تصاغر حتى يكون مثل الذباب)[2].

٤ ـ البسملة عند الأكل تمنع مشاركة الشيطان فيه:

فعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنَّا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنَّا حضرنا معه مرة طعاماً، فجاءت جارية كأنها تُدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدفع فأخذ بيده، فقال رسول الله ﷺ: (إن الشيطان يستحلّ الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ بها، فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به فأخذتُ بيده، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدها)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أكل أحدكم فليذكر

---

(١) أبو مليح: هو عامر، وقيل: زيد بن أسامة بن عمير بن حنيف الهذلي الكوفي ثم البصري، ثقة، من التابعين، حدّث عن أبيه، وعن عائشة، وابن عباس، وجماعة، توفي سنة ٩٨هـ.

انظر: التاريخ الكبير ٦/ ٤٤٩، الكنى والأسماء للإمام مسلم ٢/ ٨١١، الطبقات الكبرى ٧/ ١٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٥٩، ٧١، ٣٦٥، وأبو داود في الأدب، حديث [٤٩٨٢] باب (٨٥)، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ١٤٢، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٥٥٥]، والطبراني في الكبير ١/ ١٩٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة حديث [٥٠٩]، وعبد الرزاق في المصنف ١١/ ٤٢٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٥ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وجوّد المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ٤/ ٨١، وجوّده ابن كثير في التفسير ٤/ ٥٧٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢ وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمران، وهو ثقة».

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة، حديث [٢٠١٧] باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما.

اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره)[1].

فحيث لم يُذكر اسم الله ـ تعالى ـ على الطعام فإن عدو الله الشيطان يستحلّه بالأكل منه، وهذا الأكل من الشيطان هو على حقيقته، ويدل عليه ما رواه أمية بن مَخْشِي[2] رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً ورجل يأكل، فلم يسمّ حتى لم يبق من طعامه إلا لُقْمَة، فلما رفعها إلى فيه قال: بسم الله أوله وآخره. فضحك النبي ﷺ ثم قال: (ما زال الشيطان يأكل معه، فلما ذكر اسم الله عز وجل استقاء ما في بطنه)[3]، قال النووي: «معنى (يستحل) يتمكَّن من أكله، ومعناه أنه يتمكَّن من أكل الطعام إذا شَرَع فيه إنسان بغير ذكر الله ـ تعالى ـ، وأما إذا لم يَشْرَع فيه أحد فلا يتمكَّن، وإن كان جماعة فذكر اسم الله بعضهم دون بعض لم يتمكَّن منه، ثم الصواب الذي عليه جماهير العلماء من السلف والخلف من المحدِّثين والفقهاء والمتكلمين، أن هذا الحديث وشبهه من الأحاديث الواردة في أكل الشيطان

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ١٤٣، ٢٠٨، ٢٤٦، ٢٦٥، وأبو داود في الأطعمة، حديث [٣٧٦٧] باب التسمية على الطعام، والترمذي في الأطعمة حديث [٢٠٢٠] باب في التسمية على الطعام، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٧٦، وإسحاق بن راهويه في المسند ٣/ ٦٨٩، ٦٩٠، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٣٢٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٢١ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٢ وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله ثقات».

(٢) هو: أمية بن مخْشِي الخزاعي المدني، صحابي، يكنى أبا عبد الله، ويُعدّ في البصريين، وله حديث واحد.
انظر: الاستيعاب ١/ ١٠٧، الإصابة ١/ ٦٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة، حديث [٣٧٦٨] باب التسمية على الطعام، وأحمد نحوه في المسند ٤/ ٣٣٦، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٧٨، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٢٨٢]، والطبراني في الكبير ١/ ٢٩١، وابن السني في عمل اليوم والليلة نحوه حديث [٤٦١]، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٧٥، وابن سعد في الطبقات الكبرى ٧/ ٩، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٢/ ٣٣٥، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٢١ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

محمولة على ظواهرها، وأن الشيطان يأكل حقيقة، إذ العقل لا يحيله، والشرع لم ينكره، بل أثبته، فوجب قبوله واعتقاده، والله أعلم»(١).

٥ ـ البسملة والدعاء عند جماع الرجل أهله:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللّهم جنِّبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فَقُضِيَ بينهما ولد لم يَضُرَّه)(٢)، قال الحكيم الترمذي(٣): «المؤمن إذا سَمَّى الله ـ تعالى ـ على كل أمر مُنع الشيطان من مشاركته في طعامه وشرابه ولباسه وجميع أموره، وإذا ترك التسمية وجد فرصة فشاركه في ذلك حتى إتيانه أهله»(٤).

٦ ـ ذكر اسم الله عند غلق الأبواب، وإيكاء القِرَب، وتخمير الآنية، وقاية لها من الشيطان:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان جُنْحُ الليل ـ أو أمسيتم ـ فكفُّوا صبيانكم فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل فحلُّوهم، فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قِرَبكم واذكروا اسم الله، وخمّروا آنيتكم واذكروا اسم الله، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابيحكم)(٥).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣/ ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء، حديث [١٤١] باب التسمية على كل حال، وعند الوقاع، وأخرجه مسلم في النكاح بلفظ: (لم يضرّه شيطان أبداً) حديث [١٤٣٤] باب ما يستحب أن يقول عند الجماع.

(٣) هو: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي، كان إماماً، حافظاً، عارفاً، زاهداً، ذا رحلة، ومصنفات وفضائل، وله عِدَّة مصنفات، توفي نحو سنة ٣٢٠هـ.
انظر: الأنساب ١/ ٤٥٩، حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٣، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٣٩.

(٤) نوادر الأصول ١/ ٤٩٥.

(٥) أخرجه البخاري في الأشربة حديث [٥٦٢٣] باب تغطية الإناء.

وكما أرشدنا النبي ﷺ إلى أذكار وأدعية خاصة في الاستعاذة والبسملة بمفردهما أو مع غيرهما من الأدعية، للوقاية من الشيطان الرجيم وكيده، فقد دلَّنا نبينا ﷺ إلى أذكار وتحصينات مختلفة، يجدر بالمسلم أن يواظب عليها في مواطنها، فيجعلها نوراً لعمله، وقُرْبةً إلى ربه، وحِرْزاً ووقاية من عدوه، وهي فيما يأتي:

١ ـ قراءة آية الكرسي عند النوم، فإن من قرأها عند نومه لن يزال معه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح:

ودليله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليَّ عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟)، قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته، فخلَّيت سبيله، قال: (أما إنه كذبك وسيعود)، فأخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن الذي يحثو من الطعام جاءه مرة ثانية، وثالثة، فقال في المرة الثالثة: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هنَّ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة؟)، قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلِّمني كلمات ينفعني الله بها فخلَّيت سبيله، قال: (ما هي؟)، فأخبرته بما قال. فقال النبي ﷺ: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب مُذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟)، قال: لا، قال: (ذلك شيطان)[1].

٢ ـ قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة، تحفظ الإنسان، وتُبْعِدُ الشيطان:

---

(١) سبق تخريجه ص٣١٤.

فعن النعمان بن بشير[1] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فأنزل منه آيتين فختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[2].

وعن أبي مسعود الأنصاري[3] رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه[4])[5].

٣ ـ قراءة سورة البقرة كاملة تُنَفِّرُ الشيطان من البيت:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم

---

(١) هو: النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الله، له ولأبيه صحبة، وهو أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة للأنصار، في السنة الثانية من الهجرة، فأتت به أمه تحمله إلى النبي ﷺ فحنّكه وبشرها بأنه يعيش حميداً، ويقتل شهيداً، وروى عن النبي ﷺ وعمر وعائشة رضي الله عنهما، وقتله أهل حمص لما دعا لابن الزبير بعد موت يزيد بن معاوية، وكان قتله سنة ٦٤هـ.
انظر: الاستيعاب ٤/١٤٨٦، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤١١، الإصابة ٦/ ٢٤٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢٧٤، والترمذي في فضائل القرآن، حديث [٢٨٨٢] باب ما جاء في آخر سورة البقرة، وقال: «حديث حسن غريب»، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة، حديث [٩٦٧]، والدارمي في فضائل القرآن، حديث [٣٢٨٧] باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي، والطبراني في الأوسط ٢/ ٢١٢، ٣/ ١١، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٨٦ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه»، وله شاهد عند الطبراني في الكبير ٧/ ٢٨٥ عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣١٢ وقال: «رواه الطبراني ورجاله ثقات».

(٣) هو: عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة بن عطية الأنصاري، أبو مسعود البدري، كان من أحدث من شهد العقبة سِنّاً، وشهد أُحُداً وما بعدها من المشاهد، واختلف في شهوده بدراً، فقيل لم يشهدها، وجزم البخاري بشهوده لها، وهو معدود في علماء الصحابة، واستخلفه عليٌّ رضي الله عنه في خروجه إلى صفِّين على الكوفة. توفي سنة ٤١هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ١٠٧٤، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٩٣، الإصابة ٤/ ٢٥٢.

(٤) قال النووي: «قيل معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل من الشيطان، وقيل من الآفات، ويحتمل من الجميع»، صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٩١.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حديث [٥٠٤٠] باب من لم يَر بأساً أن يقول سورة البقرة... إلخ، ومسلم في صلاة المسافرين، حديث [٨٠٧] باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة... إلخ.

مقابر، إن الشيطان يَنْفِرُ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[1].

٤ ـ ذكر الله بعد الاستيقاظ من النوم يُحلّ عُقدَة الشيطان:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يَعْقِدُ الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب على مكان كل عُقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عُقْدَة، فإن توضأ انحلَّت عُقْدَة، فإن صلى انحلَّت عُقْدَة، فأصبح نشيطاً، طيِّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[2].

٥ ـ من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، كانت له حرزاً من الشيطان:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عَدْل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك)[3].

٦ ـ ذكر الله عند دخول البيت وعند الطعام يمنع الشيطان من المشاركة فيهما:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، حديث [٧٨٠] باب استحباب صلاة النافلة... إلخ.

(٢) سبق تخريجه ص٣٠٣.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣٢٩٣] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في الذكر والدعاء حديث [٢٦٩١] باب فضل التهليل... إلخ.

المبيت. وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء)[1].

٧ ـ الاستعانة بالله ـ تعالى ـ على دحر الشيطان ودرئه عند النوم:

فعن أبي الأزهر الأنماري[2] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال: (بسم الله وضعت جنبي، اللّهم اغفر لي ذنبي، وأَخْسئ شيطاني، وفُكَّ رِهَاني، واجعلني في النَّدِي الأعلى)[3].

فهذه الأذكار والتعوُّذات والأدعية الثابتة، في الوقاية من عدو الإنسانية الأول، الشيطان الرجيم، من وفقه الله إلى المحافظة عليها، والمواظبة على ذكرها في مواطنها، مع حضور قلب، وثقة بالله واعتماد عليه ـ تبارك وتعالى ـ، فقد دخل في حصن الله، واعتصم بمولاه ـ جل وعلا ـ، وهو بهذا قد ضرب بينه وبين عدوه بسياج الوقاية والأمان، وتحصَّن بأعظم الأسلحة الربانية، التي تعجز عنها الأسلحة البشرية، فهي وسائل المؤمن في صراعه مع عدوه القديم، وهي مدده للغلبة والنصر من ربه الرحمٰن على عدوه الشيطان: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) سبق تخريجه ص١٥٠.

(٢) هو: أبو الأزهر الأنماري، ويقال: أبو زهير، شامي، قال أبو زرعة: هو صحابي، روى ثلاثة أحاديث.
انظر: الكنى والأسماء ١/ ٣٣٩، الإصابة ٧/ ٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، حديث [٥٠٥٤] باب ما يقول عند النوم، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٩٨ وقال في آخره: (وثَقِّل ميزاني)، ولم يذكر النَّدِي الأعلى، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٢٤ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وقال ابن حجر في ترجمة أبي زهير: «أخرج حديثه أبو داود في السنن بسند جيد» الإصابة ٧/ ٦.

المبحث الثاني

اتباع الكتاب والسنة

لقد دأب عدو الله إبليس وما زال في دأبه وحرصه على تنفيذ ما التزم به في تنفيذ مُخطَّطه لاحتناك ذرية آدم وإضلالهم وزيغهم عن منهج الله، الذي شرعه لعباده وأمرهم باتّباعه، وجعل في سلوك سبيله سعادتهم وحُسْنَ عاقبتهم في الدنيا والآخرة، وبيان هذا السبيل القويم والمنهج الإلهي الكريم، فيما بعث الله ـ تعالى ـ به رسله من البينات والهدى، وأمرهم بتبليغ دعوته ونشرها بين الناس، فيخرجوا بهذه الدعوة الربانية من ظلمات الجهل والهوى والعصبية المقيتة، إلى نور الهدى، وسمو النفس ونقائها، والاستقامة على صراط الله القويم، ويتخلَّصون من عبادة الأسياد والأصنام والأوثان إلى عبادة رب الأرباب، فيتبيَّن لهم المنهج الصحيح، ويتَّضح الحق من الصواب، والضلال من الهدى، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

غير أن عدو الله الشيطان لا يرتضي أن تصل الإنسانية إلى معرفة الحق واتِّباعه في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو يبذل كل جهده ليحول بين الناس وبين دعوة الأنبياء لهم باتِّباع شرع الله ـ تعالى ـ، فزيّن عدو الله إلى أقوام الأنبياء ـ على مرّ العصور ـ نبذ دعوة أنبيائهم والإعراض عنها، بل ومقاومتها بالقول والفعل، حتى صرفهم إلى مواطن الهلكة والردى.

فحين بعث الله ـ تعالى ـ نبيه نوحاً عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ـ أوحى الشيطان إلى قوم نوح بالعناد والاستكبار والإعراض عن دعوة الله التي جاء بها عليه السلام وآمن بما جاء به عن ربه ـ جل وعلا ـ،

وكان من هؤلاء المؤمنين رجال صالحون، امتازوا بالاستقامة على منهج الله، فاستنارت قلوبهم بنور الإيمان والهدى، فلما مات هؤلاء الصالحون، أوحى الشيطان إلى قومهم بأن يصوِّروهم وينصبوهم في مجالسهم التي يجلسون فيها لتكون تلك الصور ذكرى لما كانوا عليه من الصلاح والاستقامة، فيتأسى بهم الأحياء ويقتدوا بحسن فعالهم، فاستجاب أولئك لهذه الوساوس والإيحاءات الشيطانية الخبيثة، فصوَّروا صالحي قومهم، ونصبوهم في مجالسهم، فلما هلك أولئك الذين صوَّروا تلك الصُّور، جاء الشيطان إلى من بعدهم فوسوس إليهم بأن الغرض من تصوير هذه الصور ونصبها في المجالس، إنما هو عبادتها، والتَّقَرُّب إليها، فاستجابوا لتلك الوساوس الماكرة، فعبدوا الصُّور من دون الله ـ تعالى ـ، وفي قوم نوح يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بَعْدُ؛ أما وَدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمرادٍ، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسرٌ فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا فيها أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلم عُبِدَت»[1].

لقد كان لعدو الله الشيطان، سبل مختلفة، وطرق ماكرة، وخطط خبيثة، للدخول على أقوام الأنبياء، وغوايتهم وإضلالهم عن دعوة أنبيائهم، وصرفهم عن منهج الله الذي ارتضاه لعباده، فقد تابع الله ـ تعالى ـ إرسال رسله بعد نوح عليه السلام، فبعث هوداً عليه السلام إلى عاد، وصالحاً عليه السلام إلى ثمود،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، حديث [٤٩٢٠] باب «وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق».

ولوطاً عليه السلام إلى قومه، وإبراهيم عليه السلام، ثم تتابع الأنبياء بعدُ من ذريته، وكان الحق في صراع مع الباطل، فقد كان الشيطان يُحرِّض أقوام الأنبياء على التعنُّت والتمرُّد على الحق ومقاومته وإعلان الكفر بالله ـ تعالى ـ، بل ودعوتهم إلى إيذاء رسلهم بالتنكيل والاستهزاء والسخرية بهم وإثارة العداوة والبغضاء عليهم، وفي هذا يقول الحق ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣]، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦٣].

ولئن كان الشيطان يهدف من غوايته لأقوام الأنبياء، وتحريضهم على أنبيائهم، صرفهم عن دين الله وشرعه والاستقامة على منهجه، فإن طريقه نحو تحقيق هذا الإضلال والانحراف هو الدخول من باب الغلو في دين الله وتحريف أصوله وقواعده التي يقوم عليها، فقد حرص عدو الله ولا زال في حرصه على الدخول من هذا الباب الذي غرَّر به كثيراً من الناس وانحرف بهم عن صراط الله المستقيم، فحين بعث الله نبيه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل وأنزل عليه التوراة، استشاط الشيطان غيظاً وحسداً وقهراً على هذا الدِّين وأهله، فلم يبرح حتى أخذ يضل قوم موسى ويمنِّيهم، فكان منهم أن آذوا موسى عليه السلام بالتَّصدِّي لدعوته والسخرية بها، ثم دخل عدو الله بعد ذلك إلى أحبار اليهود ورهبانهم يزين لهم تحريف كتاب الله وتبديله، وزين لهم إخفاء ما لا يوافق أهواءهم ورغباتهم ونزعاتهم، حتى أوقعهم في الشرك بالله ـ تعالى ـ والطعن في قدسيته وملكه وإلهيته فقالوا: عزير ابن الله، وفيهم وفي النصارى يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

فلما استجاب أحبار اليهود ورهبانهم إلى وساوس الشيطان وإيحاءاته،

تحوّلت الديانة اليهودية من ديانة مُوحِّدة نقية صافية إلى ديانة مشوّهة ممسوخة، وقائمة على استباحة الحرمات من أموال ونفوس وأعراض، والتعالي على الناس حتى قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ثم أرسل الله ـ تعالى ـ عيسى عليه السلام يدعو الناس إلى توحيد الله بالعبادة والخشية والمراقبة له ـ تعالى ـ، وأن التفاضل بين العباد بالتقوى والعمل الصالح، وقد أيّده الله بالمعجزات والآيات الدَّالة على صدق رسالته من ربه ـ تعالى ـ، فاستجابت لدعوته طوائف من الناس، وآمنوا بدعوته ورسالته، ولكن عدو الله الشيطان غاظته هذه الدعوة والاستجابة لها، فجمع كيده، ونسج خطته، للتَّصدِّي لهذا النبي والحيلولة دون استقامة الناس على منهج دعوته، فأوحى إلى أتباع عيسى عليه السلام بالغلو في نبيهم، وإخراجه من جنس البشرية، لأنه جاء من أم دون أب، ووسوس إليهم بأن هذا يعني أن الله أبوه ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ وأنه رب من الأرباب ينبغي أن يعبد مع الرب ـ تعالى ـ، فوجدت هذه الإيحاءات الشيطانية عند أولئك قبولاً، فأوقعهم في الشرك بالله بعد توحيده ـ تعالى ـ، ولقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن طعن النصارى في وحدانيته ـ جل ثناؤه ـ وقدسيته، وحكم على أولئك المفترين على الله، بالكفر والعذاب المهين، فقال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٤].

وفي الوقت الذي كان الشيطان يوحي فيه إلى أتباع عيسى عليه السلام بالغلو فيه والافتراء على الله ـ تعالى ـ، فقد كان عدو الله يزيِّن لليهود الذين كانوا في زمن عيسى عليه السلام بالكفر به وبرسالته والتَّمادي في العناد والضلال والتكبُّر على دعوة الله، والافتراء على أُمِّه، مريم العذراء، بالإفك والفجور، حيث

رموها بالزنا، فأعلنوا العداوة لهذا النبي وقومه وكل من آمن برسالته، حتى عزموا على قتله وهمّوا به، فظنوا أنهم قتلوه، وما قتلوه ولكن الله رفعه إليه، ثم صاروا يتباهون ويتفاخرون بقتل نبي الله، حيث قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧]، فردّ الله عليهم بحقيقة الأمر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

ثم لما استقامت الديانة المسيحية على منهج الله واستمدت شريعتها من كتابه ـ تعالى ـ «الإنجيل»، أراد الشيطان أن يَحُولَ بين أَتْبَاع المسيح وبين هدى الله الذي أنزله على نبيه، فأوحى عدو الله إلى أحبارهم ورهبانهم بالخواطر الرديئة والوساوس الخطيرة، فحرَّفوا كتاب الله وغيروا أحكامه وبدَّلوا شريعته بما يوافق أهواءهم ويحقق أغراضهم الشخصية، وعدو الله الشيطان حين يزين لهم الشرك بالله ـ تعالى ـ، وتحريف كتبه، والابتداع في دينه، فإنه يوحي إليهم بأن هذه الأفعال من القُرُبات، والزيادة في الطاعات، حتى قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ . . .﴾ الآية [المائدة: ١٨]، فانحرف أَتْبَاعُ عيسى عليه السلام عن منهج الله القويم وصراطه المستقيم، فصار المنتسبون لهذه الديانة لا يعرفون مقتضى شريعتها وأصول أحكامها إلا من أحبارها ورهبانها، الذين يُحلُّون ويحرِّمون ما شاؤوا باسم كتاب الله وشريعته، قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ . . .﴾ الآية [التوبة: ٣١]، فتحوَّلت الديانة المسيحية من ديانة ربانية مستقيمة على مراد الله، إلى ديانة ممسوخة نتيجة لوساوس الشيطان وغوايته للأحبار والرهبان.

وحين دخل التحريف والتبديل تلك الكتب السماوية والتشريعات الربانية على يد أهل الكتاب فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحله الله ـ تعالى ـ

وغيّروا منهج الله ـ جل وعلا ـ الذي أنزله في كتبه المقدَّسة، تبعاً للهوى وميل النفس وغواية الشيطان، فقد تداركت رحمة الله ـ تعالى ـ البشرية، فبعث نبينا محمداً ﷺ على فترة من الرسل لإنقاذ الناس كافة من الضلال الذي يتخبَّطون فيه، وليكشف بنور بعثته الظلام الذي خيّم على البشرية، وليرفع بوحي رسالته جهل الجاهلية، أرسله ـ تعالى ـ رحمةً للناس جميعاً، بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً، ورسولاً للثقلين؛ الإنس والجن، جاء ﷺ كما وصفه ربه في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وأنزل ـ تبارك وتعالى ـ عليه أفضل كتبه؛ القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وضمّنه ـ تعالى ـ شريعته الخاتمة، والضامنة لأفضل صلة بين العباد وبين ربهم ـ تعالى ـ، وبين العباد بعضهم بعضاً، وحفظت شريعته كامل الحقوق الأساسية في الدين والعقل والمال والعرض.

فبلّغ ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسالته التي بعثه الله بها، وأدّى الأمانة التي تحمَّلها، فما من خير إلا دلّ أمته عليه، وما من شر إلا حذرها منه، فختم الله به الرسل، وختم بكتابه جميع الكتب والشرائع، وجعل دينه هو الحق الذي في اتّباعه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولقد كان النبي ﷺ مُدْرِكاً لخطط الشيطان ومؤامراته لنقض عرى هذا الدين وإبرام وحدته وتفريق شمله، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ عارفاً بمداخل عدو الله على الملل الماضية، وخاصة اليهودية والنصرانية، لذا حرص ـ عليه الصلاة والسلام ـ على سَدِّ منافذ عدو الله الشيطان من خلال تأصيل أمرين أساسين:

الأمر الأول: نهيه وتحذيره ﷺ من الغلو في الدين والتنطع والإفراط

فيه، وتحذيره من إطلاق الثناء والمدح ومجاوزة الحدِّ فيهما، لغير الله ـ تعالى ـ، فنهى ـ عليه الصلاة والسلام ـ من إطرائه والإفراط في مدحه والثناء عليه، ومجاوزة الحدِّ في تعظيمه حيّاً، أو بعد موته بتعظيم قبره واتِّخاذه مسجداً.

وقد جاء بيان هذا الأمر والتحذير منه، من خلال نصوص كثيرة ومنها:

- عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تطروني[1] كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله)[2].
- وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم والغُلُو في الدِّين، فإنما أَهْلَكَ من كان قبلكم الغُلُو في الدِّين)[3].
- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (هلك المتَنَطِّعُون)[4] قالها ثلاثاً[5].

---

(١) قال البغوي: «قوله: (لا تطروني) الإطراء: مجاوزة الحدّ في المدح، والكذب فيه، وذلك أن النصارى أفرطوا في مدح عيسى وإطرائه بالباطل، وجعلوه ولداً، فمنعهم النبي ﷺ من أن يطروه بالباطل» شرح السنة ١٣/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، حديث [٣٤٤٥] باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٢١٥، ٣٤٧، والنسائي في المناسك، حديث [٣٠٥٧] باب التقاط الحصى، وابن ماجه في المناسك، حديث [٣٠٢٩] باب قدر حصى الرمي، والطبراني في الكبير ١٢/ ١٢١، وأبو يعلى في المسند ٣/ ٣٩، ٥٦، والبيهقي في الكبرى ٥/ ١٢٧، وابن حبان في صحيحه ٦/ ٦٨، والحاكم في المستدرك ١/ ٦٣٧ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه»، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٤٦ وصحَّحه الألباني في تخريجه له.

(٤) المتنطِّعون: هم المُتَعمِّقون المغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم، مأخوذ من النِّطع، وهو الغارُ الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل تعمق قولاً وفعلاً. النهاية في غريب الحديث ٥/ ٧٤.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب العلم من صحيحه، حديث [٢٦٧٠] باب هلك المتنطِّعون.

- وعن عائشة رضي الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّوَر، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[1].

- وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)، لولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خَشِي أو خُشي أن يُتَّخذَ مسجداً[2].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[3].

- وعن أبي الهيّاج الأسدي[4] قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيته»[5].

فبهذه النصوص الشريفة وغيرها سدَّ النبي ﷺ باباً خطيراً ومدخلاً

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، حديث [٤٢٧] باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية... إلخ، وأخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، حديث [٥٢٨] باب النهي عن بناء المساجد على القبور... إلخ.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، حديث [١٣٩٠] باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم في المساجد، حديث [٥٢٩] باب النهي عن بناء المساجد على القبور... إلخ.

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك، حديث [٢٠٤٢] باب زيارة القبور، وأحمد في المسند ٢/ ٣٦٧ بلفظ: (لا تتخذوا قبري عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً)، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٩١، وصحَّح النووي إسناده في الرياض ص٤١٣.

(٤) هو: حيّان بن حصين أبو الهيّاج الأسدي الكوفي، تابعي، ثقة، روى عن علي وعمّار رضي الله عنهما، وقال ابن عبد البر: «كان كاتب عمّار رضي الله عنه».
انظر: تاريخ الثقات ص١٣٨، التاريخ الكبير ٣/ ٥٣، الثقات ٤/ ١٧٠.

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز، حديث [٩٦٩] باب الأمر بتسوية القبر.

طالما أغرى عدو الله الشيطان الأمم الماضية من خلاله، بتعظيم القبور بالدعاء والتذلل والخضوع لها، وتقديس الأنبياء ورفعهم إلى مقام الألوهية، بل وعبادتهم مع الرب ـ جل وعلا ـ، فأوقعهم في الشرك الأكبر أو فيما دونه، فحذَّر ﷺ هذه الأمة المباركة أن يدخل عليها عدوها الأول من الباب الذي دخل منه على من قبلها من الملل السابقة، فحمى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مقام التوحيد أن يُدنَّس ومعالمه أن تطمس من الأقوال والأفعال.

الأمر الثاني: أمره ﷺ بالاتِّباع وتحذيره من الابتداع في دين الله، وذلك لعلمه ﷺ بخطر الابتداع وأنه مطيَّة الشيطان في الدخول على الأمم الماضية، وتحريف دينهم وشريعتهم وتحكيم العقل والهوى في التحليل والتحريم.

إن الابتداع في الدِّين هو الطريق القصير لطمس معالم شرع الله، وهو مدخل خطير من مداخل الشيطان التي قوَّض بها شرائع الملل السابقة، وهو يحرص كل الحرص أن يدخل على هذه الأمة المحمدية من ذلك المدخل الإبليسي، لعِلْم عدو الله أن سهم البدعة في الدين يصيب به ما لا يصيب بالدعوة إلى المعاصي والمحرمات، ولذا قال سفيان الثوري ـ رحمه الله تعالى ـ: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، والمعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»(١).

فإذا كانت البدعة هي أكبر مِعْوَل لهدم الأديان وتقويض الشرائع، وهي وسيلة عدو الله الشيطان في تحريف الكتب السماوية وتبديل أحكامها، والحيلولة بين الأمم وبين ما جاء فيها من الحق والهدى، فإن النجاة كل النجاة في الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ واللجوء والتحاكم إليهما، فبالاتباع وترك الابتداع يندحر الشيطان ويبطل كيده لهذه الأمة وتتحقق الاستقامة على منهج الله، وتحصل سعادة الدنيا والآخرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم اللالكائي ١/ ١٣٢.

ولمَّا كان اتِّباع الكتاب والسنة والتمسك بما جاء فيهما هو العلاج الوقائي والفعَّال في حرب المسلم مع عدوه الشيطان، فقد أمر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين بالاعتصام بكتابه وسنة نبيه ﷺ وردّ الأحكام إليهما، وأخبر ـ تعالى ـ أن في ذلك خير الدنيا وسعادة الآخرة، وقد جاء هذا الأمر والحث عليه في آيات كثيرة منها:

قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ١ ـ ٣]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ...﴾ الآية [الأنفال: ٢٤]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

يقول السعدي: «أمر بردّ كل ما تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما، أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنىً يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله، عليهما بناء الدِّين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالردُّ إليهما شرط في الإيمان»(١)، وكما أمر الله ـ تعالى ـ باتباع كتابه فقد أمر باتِّباع سنَّة نبيه ﷺ وهي الحكمة التي أخبر عنها في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ الآية

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ١/٣٦٢.

[البقرة: ١٥١]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ...﴾ الآية [البقرة: ٢٣١].

فالحكمة في هذه الآيات وغيرها هي سنة النبي ﷺ، وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والشافعي وغيرهم(١).

قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «فَذَكَرَ الله الكتاب وهو القرآن، وذَكَرَ الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سُنَّة رسول الله»(٢).

وقال ابن القيّم رحمه الله: «والحكمة هي السُنَّة باتفاق السلف»(٣).

فالله ـ جل وعلا ـ أخبر أن من أطاع رسوله ﷺ، فقد أطاعه ـ تعالى ـ، وبيَّن ـ تبارك وتعالى ـ أن اتّباع ما جاء به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ شرط في محبة الله ـ تعالى ـ، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الحسن: «فكان علامة حبهم إياه اتّباع سُنَّة رسول الله ﷺ»(٤)، ويقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذه الآية حاكمة على كل من ادّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمَّدية، فإنه كاذب

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير ١/١٤٦، وتفسير ابن كثير ١/١٨٥، وفتاوى ابن تيمية ١/٦.

(٢) الرسالة للشافعي ص٧٨، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ١/١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) الروح، لابن قيم الجوزية ص١٠٥.

(٤) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي ص٤٦ ضمن الرسائل المنيرية، الجزء الثاني.

في دعواه في نفس الأمر حتى يتّبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله... قال: فدلّ على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتَّصف بذلك، وإن ادّعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرَّب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أُولُوا العزم منهم في زمانه، ما وسعهم إلا اتّباعه والدخول في طاعته واتّباع شريعته»[١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال الشاطبي[٢]: «فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السُنَّة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، وليس المراد سبل المعاصي، لأن المعاصي من حيث هي معاصي، لم يضعها أحد طريقاً تُسلك دائماً على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات»[٣].

ولقد حذَّر الله ـ تعالى ـ من مخالفة سُنَّة نبيه ﷺ وتوعَّد من فعل ذلك بسوء العاقبة، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال ابن كثير: «أي عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِلَ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٥٩.

(٢) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق، المعروف بالشاطبي، محدّث، فقيه، أصولي، لغوي، مفسر، من فقهاء المالكية، له مصنفات نافعة، توفي سنة ٧٩٠هـ.

انظر: هدية العارفين ١/١٨، الأعلام ١/٧٥، معجم المؤلفين ١/١١٨.

(٣) الاعتصام ١/٤٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٣٠٨.

ولقد أكدَّ النبي ﷺ على هذا العلاج الوقائي لمواجهة خطط الشيطان وكيده لإضلال هذه الأمة وصرفها عن صراط ربها القويم، ولذا فقد استفاضت السنة المطهرة بالنصوص النبوية الشريفة التي تأمر باتِّباع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وتحذِّر من الابتداع في دين الله حتى لا تقع هذه الأمة في مصائد الشيطان وتحقيق مطامعه وتربُّصه الشرَّ بها، من خلال تزيينه الإعراض عن كتاب ربها وسنة رسوله، وتبديلهما بالمناهج العقلية، والأنظمة الوضعية حتى يخرجها عن الإيمان كما أخرج الأمم من قبلها، يقول ابن القيّم: «ومن كيده ـ أي الشيطان ـ بهم وتحيّله على إخراجهم من العلم والدِّين، أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية، والطرق الكلامية، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشكاة القرآن، وأحالهم على منطق يونان، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العَرِيّة عن البرهان، وقال لهم: تلك علوم قديمة صقلتها العقول والأذهان، ومرّت عليها القرون والأزمان، فانظر كيف تلطّف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان كإخراج الشعرة من العجين»[١].

ولهذا فقد حثَّ النبي ﷺ على الالتزام بكتاب الله والاحتكام إليه، وأوصى بالتمسّك به واللجوء إليه في جميع شؤون الحياة، وأخبر بأن الاعتصام بهدي القرآن الكريم والسنة الشريفة، هو صمَّام الأمان لهذه الأمة من جميع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ويكيدون لها المكائد وفي مقدِّمتهم قائدهم الشيطان الرجيم.

ومن هذه النصوص النبوية في الحثِّ على الاعتصام بكتاب الله والتمسك بما جاء فيه من البينات والهدى، ما رواه أبو شريح الخزاعي[٢] رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (أبشروا، أليس

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٣٩.

(٢) هو: خويلد بن عمرو، وقيل عمرو بن خويلد، أبو شريح الكعبي الخزاعي، مشهور =

تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟)، قالوا: بلى، قال: (إن هذا القرآن سبب[1] طرفه بيدي الله وطرفه بأيديكم فتمسَّكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً)[2].

وعن زيد بن أرقم[3] ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يُدعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر، ثم قال: (أما بعد ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به)، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: (وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)[4].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته في حجَّة

= بكنيته، صحابي أسلم قبل فتح مكة، وكان معه لواء بني كعب بن خزاعة يوم الفتح، توفي سنة ٦٨هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٣/ ٢٢٤، الاستيعاب ٢/ ٤٥٥، ٤/ ١٦٨٨، الإصابة ٧/ ٩٨.

(١) السبب: هو الحبل الذي يتوصَّل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يتوصَّل به إلى شيء، وقيل: لا يسمَّى الحبل سبباً حتى يكون أحد طرفيه معلَّقاً بالسقف أو نحوه. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٢٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ١٨٨، وعبد بن حميد في المنتخب حديث [٤٨٣]، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ١٦٤، وابن حبان في صحيحه ١/ ١٦٦، وجوّد المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ١/ ٧٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٦٩ وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٣) هو: زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان الأنصاري الخزرجي، من مشاهير الصحابة، استصغر يوم أُحُد، وأول مشاهده الخندق وقيل المريسيع، وغزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وروى عن النبي ﷺ عدَّة أحاديث، ويُعدّ في الكوفيين، وشهد زيد مع علي ﷺ صفين، وهو معدود في خاصة أصحابه، توفي بالكوفة سنة ٦٦هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/ ٥٣٥، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٥، الإصابة ٣/ ٢١.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، حديث [٢٤٠٨] باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.

الوداع: (تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله)[1].

وعنه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمَّرت عيناه وعلا صوته واشتدَّ غضبه حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم، ويقول: (بُعثت أنا والساعة كهاتين)، ويقرن بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى، ويقول: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة. . .) الحديث[2].

وعن عوف بن مالك[3] ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة وهو مرعوب فقال: (أطيعوني ما كنت بين أظهركم، وعليكم بآيات الله أحِلُّوا حلاله وحرِّموا حرامه)[4].

ولقد حذَّر ﷺ من ترك سنته والتعلق بظاهر القرآن، وبيّن أنَّ اتبّاع سنته وفعل ما أمر به هو عين طاعة الله ـ تعالى ـ، فعن المقدام بن معديكرب[5] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته[6]، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في الحج، حديث [١٢١٨] باب حجة النبي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة، حديث [٨٦٧] باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٣) هو: عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي الغطفاني، أبو عبد الرحمٰن، صحابي، أسلم عام خيبر، وكانت معه راية أشجع يوم الفتح، روى عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين، وشهد غزوة مؤتة، توفي سنة ٧٣هـ.
انظر: الاستيعاب ٣/ ١٢٢٦، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٨٧، الإصابة ٥/ ٤٣.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ٣٨، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٨٠: «رواته ثقات»، ومثله قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٧٠.

(٥) هو: المقدام بن معديكرب بن عمرو الكندي، كنيته أبو كريمة، صحب النبي ﷺ وروى عنه أحاديث، وهو أحد الوفد الذين وفدوا على رسول الله ﷺ من كندة، وروى عن خالد بن الوليد ومعاذ وأبي أيوب، وروى عنه غير واحد من التابعين، نزل حمص، وتوفي سنة ٨٧هـ.
انظر: الاستيعاب ٤/ ١٤٧٢، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢٧، الإصابة ٦/ ١٣٤.

(٦) الأريكة: هي السرير في الحَجَلة من دون ستر، ولا يُسمى منفرداً أريكة، وقيل: هي كل ما اتكئ عليه من سرير أو فراش أو منصّة. النهاية في غريب الحديث ١/ ٤٠.

وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه، وإن ما حرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله)(١).

قال الشافعي رحمه الله: «وفي هذا تثبيت الخبر عن رسول الله، وإعلامهم أنه لازم لهم، وإن لم يجدوا له نصَّ حكم في كتاب الله»(٢).

وقال الخطَّابي: «فإنه ـ أي النبي ﷺ ـ يحذّر بذلك مخالفة السنن التي سنَّها رسول الله ﷺ مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلَّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بياناً للكتاب، فتحيَّروا وضلوا»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (ستة لعنتهم، وكل نبي مُجاب: الزائد في كتاب الله عز وجل، والمكذِّب بقدر الله، والمستحلّ محارم الله، والمستحل من عترتي ما حرَّم الله، والتارك للسنة)(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، حديث [٤٦٠٤] باب في لزوم السنة، والإمام أحمد نحوه في المسند ٤/ ١٣٢، والترمذي في العلم، حديث [٢٦٦٤] باب ما نهي عنه أن يُقال عند حديث النبي ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة من سننه، حديث [١٢] باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ... إلخ، وصحَّحه الحاكم في المستدرك ١/ ١٩٢، وله شاهد من حديث عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عند الشافعي في الرسالة ص٤٠٣ ـ ٤٠٤ ولفظه: (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما نهيت عنه أو أمرت به، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه)، وأخرجه أبو داود في السنة، حديث [٤٦٠٥] باب في لزوم السنة، وأحمد في المسند نحوه ٦/ ٨، والترمذي في العلم، حديث [٢٦٦٣] باب ما نُهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) الرسالة ص٤٠٤.

(٣) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٥/ ١٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام، حديث [٧١٣٧] باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ومسلم في الإمارة، حديث [١٨٣٥] باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية... إلخ.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢٧، وفي الأوسط ٢/ ٣٩٨، وابن حبان =

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا؟ قال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)[1].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأَطَاعَهُ طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتّبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحق)[2].

ولقد كانت تلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مفهومةً لدى صحابة رسول الله ﷺ، ومن بعدهم من سلف هذه الأمة الصالح، ومقرَّرة في منهج حياتهم، وقد تلقوها بالقبول والتطبيق الواقعي في سائر الأمور، فرغّبوا في اتّباع الكتاب والسنة والتمسك بما جاء فيهما من البينات والهدى، وحذروا أشد التحذير من الاحتكام إلى غيرهما والإعراض عنهما أو الاقتصار على أحدهما دون الآخر، فلم يقدِّموا بين يدي الله ورسوله، بل

= في صحيحه ٧/ ٥٠١ بلفظ: (والتارك لسنتي)، وأخرجه الترمذي في القدر، حديث [٢١٥٤] باب (١٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٩٢ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولا أعرف له علة، ولم يخرِّجاه»، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٥ وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات، وقد صحَّحه ابن حبان».

(١) سبق تخريجه ص٣٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، حديث [٧٢٨٣] باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ... إلخ، ومسلم في الفضائل، حديث [٢٢٨٣] باب شفقته ﷺ على أمَّته... إلخ.

جعلوا رسول الله ﷺ هو قدوتهم في سائر أحوالهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فعلى كل مؤمن أن لا يتكلَّم في شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول، ولا يتقدَّم بين يديه، بل ينظر ما قال، فيكون قوله تبعاً لقوله، وعمله تبعاً لأمره، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الله والرسول، فمنه يتعلم، وبه يتكلَّم، وفيه ينظر ويتفكَّر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة»(١).

فلقد أدرك سلفنا الصالح ـ رحمهم الله تعالى ـ مكيدة الشيطان لهذا الدين من خلال تزيين البدعة وانتشارها على مدى تاريخ البشرية، فحذَّروا من هذه المكيدة الإبليسية، وبيَّنوا شدَّة ضررها على هذه الأمة، وتصدّوا لها بالقول والفعل، وهجروا الدَّاعي إليها، وبيَّنوا سوء عاقبتها وخطر الدعوة إليها.

فلا نجاة للإنسان من عدوه الشيطان إلا باتباع الكتاب والسنة، ولا قوَّة ولا عزَّة ولا مَنَعة للأمة من أعدائها ـ وعلى رأسهم عدو الله الشيطان الرجيم ـ إلا بالاعتصام بهما والاحتكام إليهما في جميع شؤون الحياة، ولا خلاص للأمة مما تعاني منه من الضعف والذل والهوان إلا باللجوء إليهما والتمسك بما فيهما من الحق والهدى، فاتباع الكتاب والسنة أصل عظيم تتحقق به سعادة الدنيا والآخرة، قال ابن تيمية عن هذا الأصل: «وشواهد هذا الأصل العظيم الجامع من الكتاب والسنة كثيرة، وترجم عليه أهل العلم في الكتب (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)، كما ترجم عليه البخاري والبغوي وغيرهما، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين»(٢).

---

(١) الفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية ص٨٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/٦٢٣.

المبحث الثالث

الإخلاص

تختلف البواعث التي تدعو الإنسان إلى العمل وتحثُّه عليه وترغّبه فيه، اختلافاً كبيراً ومتبايناً، فالعمل مرتبط ارتباطاً جذرياً بالنية في جميع الأحوال، ولذا فقد عني الإسلام عناية كبيرة بما يصاحب العمل من مقاصد ونيات، وما يقترن به من دوافع وانفعالات، فقيمة العمل في الإسلام مرتهن بحقيقة تلك النيات والدوافع وطبيعة توجهها.

إن الأعمال في المنهج الإسلامي تتفاضل ويعظم ثوابها عند الله ـ تعالى ـ، بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان بالله ـ تعالى ـ وإخلاص النية له ـ جل وعلا ـ، ولهذا فقد حرص الإسلام على تنقية النية وخلوصها مما يعلق بها من الشوائب والغايات التي تكون سبباً لنقصان الأجر أو إحباطه بالكُليَّة، فلا يمكن للعمل أن يستقيم ويؤتي ثماره اليانعة إلا بسلامة النيَّة وحُسن مقصدها، ولقد رتَّب الإسلام كثيراً من الأجور الأخروية والأحكام التشريعية على صدق النية وصلاحها.

ولقد بيَّن النبي ﷺ هذا المنهج الإسلامي في أمر النية وأهميتها ومدى ارتباط صلاح الأعمال بالنية في أصل صحتها، في الحديث العظيم الذي يرويه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، حديث [٦٦٨٩] باب النية في الإيمان، وأخرجه =

فهذا حديث عظيم في بيان أهمية النية وعظم شأنها في سائر الأعمال، ولذا قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين باباً من الفقه»(١)، وقال النووي رحمه الله عن هذا الحديث: «حديث صحيح متَّفق على صحته، مجمع على عظم موقعه وجلالته، وهو إحدى قواعد الإيمان وأول دعائمه، وآكد الأركان... وهو أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام»(٢).

وقال ابن رجب في قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى): «هاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليَّتان، لا يخرج عنهما شيء»(٣).

وحيث إن النية عليها مدار الأعمال، وباعتبار مقصدها يرتبط الثواب والعقاب، ومن خلالها يسمو العمل أو يهبط، فإن المسلم يبلغ بحسن نيته وصدق توجهها إلى الله ـ تعالى ـ، ما يبلغ في عمله بها من الأجر وحسن الثواب عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ الآية [النساء: ١٠٠].

وأخبر النبي ﷺ عن بلوغ صاحب النية الصادقة هذه المنزلة في عدَّة أحاديث، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: (إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم)، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة، قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)(٤)، قال النووي: «وفي هذا الحديث فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عُذر منعه،

= مسلم في الإمارة، حديث [١٩٠٧] باب قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنية)... إلخ.

(١) جامع العلوم والحكم ١/ ٦١.

(٢) المجموع شرح المهذب ١/ ١٦.

(٣) جامع العلوم والحكم ١/ ٧٢.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، حديث [٤٤٢٣] باب (٨١).

حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسّف على فوات ذلك وتمنّى كونه مع الغُزَاة ونحوهم، كثر ثوابه، والله أعلم»[1].

وعن سهل بن أبي أمامة بن حنيف عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: (من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[2]، وعن أبي كبشة الأنماري[3] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً وعلماً، فهو يعمل بعلمه في ماله، وينفقه في حقّه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فهو يقول: لو كان لي مثل هذا، عملت فيه مثل الذي يعمل، قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء. . .) الحديث[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله)[5].

قال الشيخ السعدي: «فانظر كيف جعل النية الصالحة سبباً قويّاً للرِّزق، وأداء الله عنه، وجعل النية السيئة سبباً للتَّلف والإتلاف»[6].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا مرض

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٣/٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في الأمارة، حديث [١٩١٠] باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله ـ تعالى ـ.

(٣) أبو كبشة الأنماري: اختلف في اسمه، وجزم أبو أحمد الحاكم والترمذي بأنه عمير بن سعد الأنماري المذحجي، له صحبة، شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد بعدها، وروي عن النبي ﷺ وأبي رضي الله عنه، سكن الشام، توفي سنة ١٣هـ. الاستيعاب ٤/١٧٣٩، البداية والنهاية ٥/٢٨٠، الإصابة ٧/١٦١.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٣٠، وابن ماجه في الزهد، حديث [٤٢٢٨] باب النية، والترمذي نحوه في الزهد، حديث [٢٣٢٥] باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/٣٤٦، وجوّد العراقي إسناده في تخريج الإحياء ٤/٣١٠.

(٥) أخرجه البخاري في الاستقراض، حديث [٢٣٨٧] باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أو إتلافها.

(٦) بهجة قلوب الأبرار وقُرَّة عيون الأخيار، للسعدي ص١٥.

العبد أو سافر كُتِبَ له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً)[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث.

وكذلك فإن العبد إذا عمل عملاً صالحاً وخالفت نيتُه ظاهرَ عمله، فإنه يُجازى عن نيته، ولو كان ذلك العمل من أزكى الأعمال وأحبها إلى الله ـ تعالى ـ، وقد دلّ على هذا نصوص كثيرة منها ما رواه أبو أمامة الباهلي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذِّكر[2] ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا شيء له) فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: (لا شيء له)، ثم قال: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه)[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد، فأُتي به فعرّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جَرِيء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأتى به، فعرّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جَواد، فقد

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، حديث [٢٩٩٦] باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة.

(٢) المراد «بالذكر» في الحديث هو المدح والثناء من الناس، وليس الذِّكر الشرعي.

(٣) أخرجه النسائي في الجهاد، حديث [٣١٤٠] باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وأخرجه في سننه الكبرى ٣/ ١٨، والطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٤٠، وجودّ المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ١/ ٥٥، وكذا الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٥.

قيل، ثم أمر به فَسُحِبَ على وجهه ثم ألقي في النار)[1].

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من تعلَّم عِلْماً مما يبتغى به وجه الله ﷻ، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة[2] يوم القيامة)[3].

فالعبرة في الأعمال بما يصدر عن القلب من مقاصد ونيات، وهو الأصل عند الله ﷻ في الحكم على الأعمال الظاهرة بالصحة أو البطلان، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)[4].

فالمسلم مأمور بتحقيق الإخلاص لله ـ تعالى ـ وتجريد العمل له ـ جل وعلا ـ، في كل قول وفعل، وفيما يأتي ويذر، فالإخلاص هو: «تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدّر لصفائه، وتحقيقه: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، يُسمَّى خالصاً»[5].

ويعتبر الإخلاص من أشد الأبواب الموصدة أمام كيد الشيطان وشره، والتي يعجز عدو الله عن اقتحامها في صراعه مع الإنسان، وهو الصخرة الصلبة التي تتحطم عليها مكائد عدو الله وتتكسر عليها سهامه، وهو الحاجز المنيع بين الشيطان وعباد الله المؤمنين، وهو أحد الأسلحة الربانية

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، حديث [١٩٠٥] باب من قاتل للرياء والسمعة واستحق النار.

(٢) عَرْفُ الجنّة: أي ريحها الطيبة، والعَرْف: الرِّيحُ، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢١٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٣٨، وأبو داود في العلم، حديث [٣٦٦٤] باب في طلب العلم لغير الله ـ تعالى ـ، وابن ماجه في المقدمة، حديث [٢٥٢] باب الانتفاع بالعلم والعمل به، والحاكم في المستدرك ١/ ١٦٠ وقال: «هذا حديث صحيح، سنده ثقات، رواته على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه»، وصحّح النووي إسناده في رياض الصالحين ١/ ٣١٤.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة، حديث [٢٥٦٤] باب تحريم ظلم المسلم. . . إلخ.

(٥) التعريفات، للجرجاني ص١٣.

والعلاجات الوقائية للمسلم في حربه الشرسة مع عدوه الشيطان الرجيم، وهذه الحقيقة الثابتة هي بإقرار عدو الله الشيطان واعترافه بها في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

قال ابن تيمية ـ رحمة الله تعالى: «فبيّن أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلِصين»(١).

وقال الفخر الرازي: «اعلم أن إبليس استثنى المخلِصين، لأنه علم أنَّ كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه»(٢).

قُرأت «المخلَصين» بفتح اللام، وهي قراءة الكوفيين ونافع والحسن والأعرج(٣)، فبإخلاصهم لله ـ تعالى ـ في عباداتهم، أخلصهم الله ـ تعالى ـ له فليس للشيطان إليهم سبيل، يقول ابن عطية في معنى هذه القراءة: «أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك»(٤)، وقال أبو حيّان: «ومعناه: إلا من أخلصته للطاعة أنت فلا يؤثر فيه تزييني»(٥)، وقرأت بكسر اللام «المخلِصين» وهي قراءة الجمهور(٦)، وهي الشاهد في الآية.

وهؤلاء المخلِصُون هم القليل الذين استثناهم في قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

وبهذا الإقرار من عدو الله الشيطان، يتبين المنهج الشيطاني في

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٥٠.
(٢) التفسير الكبير ١٩/ ١٨٨.
(٣) انظر: النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٩٥، والبدور الزاهرة ص١٧٥.
(٤) تفسير ابن عطية ٨/ ٣١٤.
(٥) البحر المحيط ٥/ ٤٥٤.
(٦) النشر في القراءات العشر ٢/ ٢٩٥، والبدور الزاهرة ص١٧٥.

الصراع مع الإنسان، وتنكشف إحدى الخطط الإبليسية لإيقاع الإنسان في مهاوي الخيبة والخسران، فقد أقسم عدو الله بعزَّة الله ـ تعالى ـ ليغوين جميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، بَيْد أنه يستثني من هذا الإغواء والإضلال عباد الله المخلِصين، وما ذاك لزهده فيهم، ولكن ليأسه منهم، وعجزه عن الدخول عليهم، فهم عباد الله الذين توجَّهوا إلى ربهم ـ تعالى ـ في سائر حركاتهم وسكناتهم لا يريدون إلا وجه الله ـ تعالى ـ ولا يتطلَّعون إلى الجزاء والثناء إلا منه، فهم كما أخبر عنهم ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩]، وقوله: ـ جل ثناؤه ـ: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٨ ـ ٢١]، فهؤلاء هم الذين أعلن عدو الله إبليس عجزه ويأسه عن الدخول إليهم بوسائله الماكرة وأساليبه الخبيثة، فبإخلاصهم لله في جميع أحوالهم سدّوا على عدو الله منافذ إغوائه والاستجابة لوساوسه الرديئة.

ولقد أكد الله ـ تبارك وتعالى ـ إعلان إبليس عن عجزه ويأسه عن بلوغ غايته في عباده المخلصين، بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤١، ٤٤].

قال الزجّاج في معنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]: «أي من أخلص فلا حُجَّة لك عليه ولا سلطان»(١).

وقال جمال الدين القاسمي: «أي حق نهجه ومُراعاته لا أعوجاج فيه، وهو أن لا سلطان لك على عبادي المخلِصين، إلا الذين يناسبونك في

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٣/ ٢٥١.

الغواية والبُعد عن صراطي، فيتَّبعونك»[١].

ولئن كان عدو الله إبليس له سبيل إلى عباد الله المخلصين، فإنه يجتهد بوسائله وأساليبه الماكرة والخفية ليحول بين الإنسان وبين تحقيق الإخلاص كلما أقبل عليه، فيزيّن له اعتبار نظر الناس إليه في كل قول أو فعل يصدر منه، وحُبّ الثناء عليه والإشارة إليه، حتى يجمع كل همّه وقصده، ويشحن فكره وقلبه بتلك الاعتبارات الهابطة والغايات القاصرة، فيقطع مراقبته لربه، وحسُن الظن به ـ تعالى ـ، والتطلع إلى ما عنده ـ جل وعلا ـ من الجزاء والثواب على الأعمال الصالحة.

وحين يحرص الشيطان على صرف الإنسان وصَدِّه عن الإخلاص لله ـ تعالى ـ فيما يصدر منه من الأقوال والأعمال، فإن هذا الحرص يقوى ويتأكد حين يهمّ الإنسان إلى أداء فرائض الله ـ تعالى ـ من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من الأعمال الصالحة والمقرِّبة إلى الله ـ تعالى ـ، فعندئذٍ ينشط عدو الله بوساوسه وغوايته لئلا يبتغي بتلك الأعمال وجه الله ـ تعالى ـ، فيحسّن لصاحبها الرياء والمدح وثناء الآخرين، فينقص أجرها أو يحبط بالكلية، ويحمل وزر الرياء وابتغاء رضا الناس، وتأتي الصلاة في مقدِّمة تلك الفرائض والطاعات التي يحرص الشيطان على إبعاد المصلي وتجرّده عن الإخلاص فيها، فإن عدو الله إذا لم يتمكّن من صرف العبد عن الصلاة وإعراضه عنها، فإنه يجتهد كل الاجتهاد في أن يبطل ثوابها أو ينقص كمال أجرها؛ بالإقبال عليها لأجل نظر الناس وثنائهم عليه بأنه من المصلين، أو يوسوس إليه الشيطان بتحسين صلاته فيُنظر إليه بعين الصلاح والتقوى ويُعدّ في أهل الخشوع والخشية، فإن لم تفلح تلك الوساوس الشيطانية ولم يستجب المصلي لتلك الخواطر الإبليسية الرديئة، قال له عدو الله: إنك ممن يقتدى به وينظر إليه ويتأسى بفعله، فلك مثل ثواب أعمال المتأسين إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأَحْسِنْ العمل في

---

(١) محاسن التأويل، للقاسمي ١٠/ ٥٧.

حضرة من ينظر إليك فلعله يقتدي بك في تحسين الصلاة والخشوع فيها، فإن يئس الشيطان من الدخول من هذا الباب ليحول بين الإنسان وبين قيام الإخلاص في قلبه وعجز عن صرف نيته إلى تلك المقاصد الرديئة، وسوس إليه بأن يُحسّن صلاته في الخلوة كي تحسن على الوجه الذي يرتضيه في الملأ، فيصلّي أمام الناس كذلك، ولا ريب أن هذه المكيدة الشيطانية الخفية، لا تنطلي إلا على من اشتغل همُّه بالناس في الخلا والملأ.

وهذا المنهج الشيطاني في الدخول على الإنسان في صلاته وتزيينه الرياء فيها، هو أحد الأمثلة الكثيرة التي يتَّبعها عدو الله في صدّ الإنسان عن الإخلاص لله ـ تعالى ـ، وتجريده من جميع الأعمال الصالحة التي يتقرَّب بها إلى الله ـ تعالى ـ.

ولما للإخلاص من أهمية بالغة في حياة المسلم، وكونه أحد الوسائل الوقائية والفعالة في التصدي لعدو الله الشيطان ودَرْءِ شرِّه وإبطال كيده، فقد أمر الله ـ تعالى ـ عباده المؤمنين أن يتَّصفوا بهذا الخُلُق الإسلامي الجليل، وأن يتسلَّحوا بهذا السلاح الرباني المنيع ضد عدوهم الشيطان الرجيم، قال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ الآية [البيِّنة: ٥] قال ابن العربي: «أمر الله عباده بعبادته، وهو أداء الطاعة له بصفة القُربة، وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه، وذلك هو الإخلاص»[(١)].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١٤]، ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي ٤/ ٤٣٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشِرْكَه)(١)، يقول ابن القيّم: «فإن العبد إذا خلصت نيته لله ـ تعالى ـ، وكان قصدُه وهمَّه وعمله لوجهه سبحانه، كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان: خلوص النية لله في إقامة الحق»(٢).

كما رغّب النبي ﷺ أُمَّته في إخلاص العمل لله ـ تعالى ـ، وحثّ عليه، وبيّن عظم ثواب المخلصين لله ـ تعالى ـ في أعمالهم، فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما قال عبد لا إلٰه إلا الله قط مُخلصاً، إلا فُتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش، ما اجتنب الكبائر)(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راضٍ)(٤).

وعن محمد بن جبير بن مطعم(٥) عن أبيه جبير رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف فقال: (نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أدَّاها

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، حديث [٢٩٨٥] باب من أشرك في عمله غير الله.
(٢) إعلام الموقعين ٢/ ١٦٥.
(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث [٣٥٩١] باب دعاء أم سلمة، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والنسائي في السنن الكبرى ٦/ ٢٠٨، وفي عمل اليوم والليلة حديث [٨٣٣].
(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، حديث [٧٠] باب في الإيمان، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٢. وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».
(٥) هو: محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل النوفلي، أبو سعيد المدني، تابعي، كان من علماء قريش وأشرافها، له روايات كثيرة، ويعدّ من أهل الحجاز، وكان صاحب كتب وعناية بالعلم، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ.
* وأما أبوه جبير فإن كنيته أبو محمد أو أبو عدي، أسلم عام خيبر، وهو من الطلقاء الذين حسن إسلامهم، وكان من سادات قريش وأعلمها بالإنساب، موصوفاً بالحلم، ونبل الرأي، وروى عن النبي ﷺ أحاديث، توفي سنة ٥٨هـ.
انظر: الاستيعاب ١/ ٢٣٢، سير أعلام النبلاء ٣/ ٩٥، ٤/ ٥٤٣، الإصابة ١/ ٢٣٥.

إلى من لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغلُّ[1] عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والطاعة لذوي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)[2].

إن الإخلاص أحد شرطي قبول العمل، فلا يقبل عمل دون تحقيقه، والشرط الآخر هو موافقة العمل لما شرعه الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وما ذاك إلا لعظم أمر الإخلاص وأهميته في صلاح الأعمال وثمرتها، قال شارح الطحاوية: «فيهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول»[3] وقال ابن كثير: «فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبَّل»[4]. ويقول ابن القيّم: «فلا يكون العبد متحققاً بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين، أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾»[5]، ولقد أكد الله ـ تبارك وتعالى ـ على وجوب تحقيق هذين الشرطين في كل عمل، وأثنى على المتَّصفين بهما فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ...﴾ الآية [النساء: ١٢٥].

---

(١) يُغلّ: بضم الياء من الإغلال وهو الخيانة في كل شيء، ويروى «يَغِلُّ» من الغل وهو الحقد والشحناء، أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق، وروي «يَغِلُ» بالتخفيف من الوغول: الدخول في الشر. والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدَّغل والشر. النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢/ ١٢٧، وابن ماجه في المناسك، حديث [٣٠٥٦] باب الخطبة يوم النحر، والحاكم في المستدرك ١/ ١٦٢ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، قاعدة من قواعد أصحاب الروايات، ولم يخرِّجاه»، وأخرجه أبو يعلى في المسند ٦/ ٤٥٦، وأورد الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٣٩ نحوه ووثّق رجاله.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٩ـ ١٨٠.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ١٥٥.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٨٣.

قال ابن عطية: «أي أخلص مقصده وتوجهه، وأحسن في أعماله، واتَّبع الحنيفية التي هي ملة إبراهيم، إمام العالم، وقدوة أهل الأديان»(١).

ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال السعدي في معنى الآية: «أي لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله ـ تعالى ـ، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، وهو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأُخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه»(٢).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل بن عياض في معنى قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: «أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة»(٣).

ولا يتحقَّق الإخلاص إلا بكراهية المدح والثناء، والزهد في الدنيا، والإعراض عن الطمع فيما عند الناس، قال ابن القيّم: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضَّب والحوت، فإذا حدَّثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زُهْدَ عُشَّاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص»(٤).

---

(١) تفسير ابن عطية ٤/ ٢٣٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ٣/ ١٩٠.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٩٥، وتفسير البغوي نحوه ٨/ ١٧٦، وجامع العلوم والحكم ١/ ٧٢.

(٤) الفوائد، لابن القيم ص١٩٥.

فإذا أخلص العبد لله ـ تعالى ـ في سائر أموره، فقد حُفظ بإذن الله من الوقوع في كيد عدوه الشيطان وجعل بينه وبين السقوط في شرك غوايته حاجزاً منيعاً وحصناً حصيناً، لا يمكن لعدو الله أن ينفذ إليه منه، وحين يتخلى الإنسان عن التسلح بسلاح الإخلاص والتحصن في حصنه، فإنه قد يفتح لعدو الله الشيطان منفذاً إليه منه ليتغلب عليه ويقوده إلى مواطن الخيبة ومهاوي الردى، روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «كانت شجرة تُعبد من دون الله، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله، قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يَضُرُّك من عبدها؟ قال: لأقطعنها، فقال الشيطان: هل لك فيمن هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك، قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك، فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها، فتمثَّل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع الشجرة التي تعبد من دون الله، قال: كذبت، ما لك إلى قطعها سبيل، فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضباً لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسُلِّطت عليك»(١).

فانظر كيف حَالَ الإخلاص بين الإنسان والشيطان، ولم يتمكَّن عدو الله من تحقيق كيده به حين كان الإخلاص قائماً في القلب، فأخذ الشيطان يتلطَّفه بمكره وخبثه، حتى خَلَّص قلبه منه وعلّقه بشيء من حُطام الدنيا، فجرّده من سلاح الإخلاص الذي يقف الشيطان أمامه عاجزاً صاغراً، فوجد قلباً خاوياً فنفذ إليه وتمكّن منه، وهكذا حال الشيطان مع الإنسان، حيث يتربص به في كل عبادة يقبل عليها، ليحمله على الرياء، ويحرمه أجر الإخلاص لله ـ تعالى ـ ويخرجه من حصن الإخلاص مجرداً

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٥.

من السلاح فيتمكَّن منه ويجرّه إلى كل بلاء ومصيبة.

يقول أبو حامد الغزالي: «ولا يسلم من الشيطان إلا من دَقَّ نظَرُه، وسعد بعصمة الله ـ تعالى ـ وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله ـ تعالى ـ لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات، حتى في كحل العين وقَصّ الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها، ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك، ويقول: هذه سنة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطناً لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بها شوباً يخرج عنه حدّ الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص»(١).

فيجب على المسلم أن يحرص على تحقيق الإخلاص في كل أمر من أموره، وليتسلح بهذا السلاح الفعَّال، ويتحصَّن بحصنه في مواجهة عدوه الشيطان، وليعلم أن قَدْر نصيب الشيطان منه بقدر خُلوِّه من الإخلاص وبُعده عنه، فالقلب إن لم يكن خالصاً لله ـ تعالى ـ متوجهاً إليه، تملَّكه الشيطان واستحوذ عليه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب من كل ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعاً، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه، فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه، وإلا كان مُشركاً»(٢).

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٢٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/٢١٦.

المبحث الرابع

لزوم جماعة المسلمين

إن الالتزام بالجماعة المسلمة أحد الحصون المنيعة التي تتحصن بها الأُمَّة ـ جماعة وأفراداً ـ ضد مكائد الشيطان، وهي علاج وقائي له أثره الفعّال في دحر الشيطان وصدّه وإحباط مؤامراته وإفشال خططه التي ينسجها للإيقاع ببني آدم في فخِّ طاعته.

ولقد حث النبي ﷺ أمَّته على الالتزام بالجماعة والإئتلاف، وحذَّرها من الفُرقة والاختلاف، وعلَّل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حدوث الفرقة والاختلاف بأنه من خُذلان الشيطان وملازمته للإنسان، وأن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عليكم بالجماعة، وإياكم والفُرْقَة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوبة الجنّة فليلزم الجماعة، ومن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)(١).

ومن حرصه ﷺ على قيام الجماعة المسلمة واتِّصالها وتماسكها، أن أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإقامة صلاة الجماعة وأكد على أدائها وحذَّر من تركها، وبيّن أن من لا تقام فيهم صلاة الجماعة فقد استحوذ عليهم الشيطان، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية)(٢).

---

(١) سبق تخريجه ص٣٥٤.

(٢) سبق تخريجه ص٣٥٤.

كما حثَّ النبي ﷺ على الاجتماع في المجلس الواحد، وحثَّ على انضمام الجماعة والتفاف بعضها على بعض لئلا يفتحوا للشيطان سبيلاً بتفريقهم واختلافهم. فعن أبي ثعلبه الخشني[1] رضي الله عنه قال: كان الناس إذا نزلوا منزلاً، قال عمرو[2]: كان الناس إذا نزل رسول الله ﷺ منزلاً، تفرَّقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله ﷺ: (إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان)، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بُسط عليهم ثوب لعَمَّهُم[3].

ورغَّب النبي ﷺ في الجماعة في السفر وهي ثلاثة نفر فما زاد، وحثَّ عليها، ونَفَّر من الوحدة، وعلَّل بأن الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة رَكْب، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة رَكْب)[4].

ولأن لزوم الجماعة المسلمة إحدى الركائز الهامة التي تقوم عليها الأمة الإسلامية، إذ بها يجتمع أفرادها، وتتوحَّد كلمتها، وتقوى شوكتها، وتحفظ بيضتها، وتنتصر على أعدائها، وتتحقق أهدافها وغاياتها، فقد وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تأمر بلزوم الجماعة المسلمة وتحث

---

(١) أبو ثعلبة الخشني: صحابي جليل، اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً، فقيل: جرهم، وقيل: جرثم، وقيل غير ذلك. وكان ممن بايع تحت الشجرة، وشهد خيبر مع النبي ﷺ، وروى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عنه جماعة من التابعين، وهو من عبّاد الصحابة، وله في جملة أهل الصفَّة ذكر ومدخل، توفي ٧٥هـ.
انظر: الاستيعاب ٤/١٦١٨، سير أعلام النبلاء ٢/٥٦٧، الإصابة ٧/٢٨.

(٢) هو: عمرو بن عثمان اليحصبي، وهو أحد رواة هذا الحديث.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، حديث [٢٦٢٨] باب ما يؤمر من انضمام العسكر وسعته، وأحمد نحوه في المسند ٤/١٩٣، والنسائي في الكبرى ٥/٢٦٩، والبيهقي في الكبرى ٩/١٥٢، وابن حبان في صحيحه ٤/١٦٤، وصحَّحه الحاكم في المستدرك ٢/١٢٦، وحسّنه النووي في رياض الصالحين ص٣١٨.

(٤) سبق تخريجه ص٤٢.

عليها وترغِّب فيها، وتنهى عن الفرقة والاختلاف وتحذِّر منها وتنعى على أهل الفرقة والاختلاف وتشنع بهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الأصل العظيم: وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً، وأن لا يتفرق، هو من أعظم أصول الإسلام، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة»(١)، ولما لهذا الأصل من أهمية كبرى في الوقاية من مكائد الشيطان ومحاربته، لذا فسأتناول هذه النصوص من الكتاب والسنة ملحقاً بعضها بزيادة بيان وشرح من أقوال أهل العلم وذلك فيما يأتي:

أ ـ النصوص من القرآن الكريم:

١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣].

للعلماء في المراد بحبل الله في الآية أقوال:

- فروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن المراد به الجماعة.
- وقال قتادة: حبل الله المتين الذي أمر أن يعتصم به هذا: القرآن. وبمثله قال السدي وهو مروي أيضاً عن ابن مسعود.
- وقال مجاهد وعطاء: هو عهد الله.
- وعن أبي العالية أنه: الإخلاص لله وحده.
- وقال ابن زيد: هو الإسلام(٢).
- وقال مقاتل بن حيّان: أي بأمر الله وطاعته(٣).

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٣٥٩.

(٢) انظر: هذا القول والذي قبله في تفسير الطبري ٤/ ٣١ ـ ٣٢، وتفسير ابن عطية ٣/ ٢٤٨، وتفسير البغوي ٢/ ٧٨.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٧٨.

ورجَّح ابن عبد البرّ أن المراد به الجماعة، حيث عقّب على قول ابن مسعود في معنى «حبل الله» بقوله: «وهو الظاهر في الحديث والأشبه بسياقه، وأما القرآن فمأمور بالاعتصام به في غير ما آية وغير ما حديث، غير أن المراد هنا: الجماعة على إمام يُسمع له ويُطاع»[(١)].

وهذه الأقوال في الحقيقة متقاربة وليس بينها بُعد، بل هي متَّفقة في معناها، فإن الإسلام يقتضي الإيمان بالقرآن والتمسُّك به، وهو يدعو إلى امتثال أوامر الله والقيام بعهده ـ تعالى ـ، وتحقيق الإخلاص له ـ جل وعلا ـ، وينتج عن هذا وجود الجماعة المسلمة، ولذا قال ابن عطية بعد أن ذكر الأقوال في هذا المعنى: «وقيل غير هذا مما هو كله قريب بعضه من بعض»[(٢)]، وقال القرطبي: «والمعنى كله متقارب متداخل»[(٣)].

٢ ـ وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال ابن جرير: «يقول ـ جل ثناؤه ـ: فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء ـ يعني أهل الكتاب ـ في دينهم، ولا تفعلوا، وتستنّوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم»[(٤)].

٣ ـ ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عطية: «أي فرَّقوا دين إبراهيم الحنيفية، وأُضيف الدين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه، إذ هو دين الله الذي ألزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه، ووصفهم بالشِّيَع، إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، ففي الآية حضٌّ لأمة محمد ﷺ على الائتلاف وقلَّة الاختلاف»[(٥)].

(١) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٤/ ٥٢٧.
(٢) تفسير ابن عطية ٣/ ٢٤٩.
(٣) تفسير القرطبي ٤/ ١٥٩.
(٤) تفسير الطبري ٤/ ٣٩.
(٥) تفسير ابن عطية ٥/ ٤١٠.

٤ ـ وقال ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٢].

يقول السعدي في تفسير هاتين الآيتين: «وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتُّتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصَّب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرّق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الاجتماع بين العلماء والأئمة، والأُخوَّة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتمَّ ربط، فما بال ذلك كله يُلغى ويُبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية، يضلل بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم على بعض؟ فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان، وأعظم مقاصده التي كاد بها المسلمين؟ وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل بالباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال المقرِّبة إلى الله؟»(١).

٥ ـ وقال ـ جل ثناؤه ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ . . .﴾ الآية [الشورى: ١٣].

قال قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾: «تعلّموا أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة»(٢). وقال ابن عطية في تفسير هذه الآية: «نهى عن المُهلك من تفرُّق الأنحاء والمذاهب، والخير كلّه في الأُلفة واجتماع الكلمة»(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ٤/ ٨٧.
(٢) تفسير الطبري ٢٥/ ١٥.
(٣) تفسير ابن عطية ١٣/ ١٥١.

٦ ـ وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ونحو هذا في القرآن، قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»(١).

وقال المراغي في تفسير هذه الآية: «ونهى عن التفرق في صراط الحق وسبيله، لأن التفرق في الدين الواحد وجعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة، وحزب ينصرونه ويتعصّبون له ويخطّئون من خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال، سبب لإضاعته، إذ كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها، ويظهرها على مخالفيها، ولا يهمها إثبات الحق وفهم النصوص، والحق لا يكون وقفاً على عالم معين ولا على أتباعه، بل كل باحث يخطئ ويصيب، وذلك ما دلّ عليه العقل، وأثبته الكتاب والسنة والإجماع، ولما كان اتّباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه يجمع الكلمة ويعزّ أهل الحق؛ كان التفرق فيه سبب ضعف المتفرقين وذلّهم وضياع حقهم»(٢).

٧ ـ وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة، ودينكم واحد، وربكم واحد، فلا تتفرقوا في الدين»(٣).

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ٨٨.

(٢) تفسير المراغي ٨/ ٧٣ ـ ٧٤.

(٣) أضواء البيان ٧/ ١٧٩.

ب ـ النصوص من السنة الشريفة:

١ ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)(١).

قال النووي: «وأما قوله: (ولا تفرقوا) فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام»(٢).

٢ ـ وعن الحارث الأشعري ـ ﷺ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها... فذكر الحديث، ثم قال: قال النبي ﷺ: (وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بها: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع...) الحديث(٣).

قال الخطّابي: «يقول: من خرج عن طاعة الجماعة، وفارقهم في الأمر المجمع عليه، فقد ضل وهلك، وكان كالدابة إذا خلعت الربقة التي هي محفوظة بها، فإنها لا يؤمن عليها عند ذلك الهلاك والضياع»(٤).

٣ ـ وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنّا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم)، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: (نعم وفيه

---

(١) أخرجه مسلم في الأقضية، حديث [١٧١٥] باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... إلخ.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ١١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/٢٠٢. وكذا الترمذي في سننه، كتاب الأمثال، حديث [٢٨٦٣] باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام...إلخ. وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٥/١١٨.

دخن)، قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر) قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دُعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها)، قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا، قال: (هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا)، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم) قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)(١).

قال ابن بطَّال(٢): «فيه حُجَّة لجماعة الفقهاء في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور»(٣). وقال النووي: «وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي في أخذ الأموال وغير ذلك، فيجب طاعته في غير معصية»(٤).

وقال ابن حجر في معنى قوله (وأنت على ذلك): «أي العضّ، وهو كناية عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة سلاطينهم ولو عصوا»(٥).

٤ ـ وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: (ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، حديث [٣٦٠٦] باب علامات النبوة في الإسلام.
(٢) هو: علي بن خلف بن بطَّال البكري القرطبي ثم البلنسي، أبو الحسن، ويعرف بابن اللجام، كان من أهل العلم والمعرفة، عُني بالحديث العناية التامة، وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار، واستقضي بحصن لُوْرَقَة، وتوفي سنة ٤٤٩هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧، العبر ٢/ ٢٩٤، هدية العارفين ١/ ٦٨٨.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٠.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٢٣٧.
(٥) فتح الباري ١٣/ ٤٠.
(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٢، وأبو داود في السنة، حديث [٤٥٩٧] باب شرح =

وقال الشاطبي: «إن قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (إلا واحدة) قد أعطى بنصِّه أن الحق واحد لا يختلف، إذ لو كان للحق فِرَقٌ أيضاً لم يقل: (إلا واحدة)، ولأن الاختلاف منفي عن الشريعة بإطلاق، لأنها الحاكمة بين المختلفين، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ . . .﴾ الآية [النساء: ٥٩]، إذ ردّ التنازع إلى الشريعة، فلو كانت الشريعة تقتضي الخلاف لم يكن في الردّ إليها فائدة»[١].

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية. . .) الحديث[٢].

٦ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية)[٣].

٧ ـ وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه جبير رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف فقال: (نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أدَّاها إلى من لم يسمعها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغلُّ عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل الله، والطاعة لذوي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)[٤].

= السنة، والدارمي في السير، حديث [٢٥١٨] باب في افتراق هذه الأمة، وصحَّحه الحاكم في المستدرك ١/٢١٨ بلفظ أطول منه، وجوّد العراقي إسناده في تخريج الإحياء ٣/١٩٩.

(١) الاعتصام ص٤٤١.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، حديث [١٨٤٨] باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين. . إلخ.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام، حديث [٧١٤٣] باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، ومسلم في الإمارة، حديث [١٨٤٩] باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. . . إلخ.

(٤) سبق تخريجه ص٤٥٨.

٨ ـ وعن فضالة بن عبيد[(١)] ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (ثلاث لا تسأل عنهم، رجل فارق الجماعة، وعصى إمامه ومات عاصياً، وأَمَةٌ أو عبد أَبَق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤونة الدنيا فتبرجت بعده، فلا تسأل عنهم)[(٢)].

٩ ـ وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا يجمع أمتي، أو قال أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ إلى النار)[(٣)].

ولقد بلغ حرص الإسلام على إقامة الجماعة للمحافظة على وحدة المسلمين وتماسكهم لئلا يتسلل إليهم عدوهم الشيطان فيوقع بينهم الخلاف والشقاق ويفرِّق شملهم ووحدتهم؛ أن شبَّه الرسول ﷺ المؤمنين بالبنيان

---

(١) هو: فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب الأنصاري الأوسي، أبو محمد، أسلم قديماً ولم يشهد بدراً، وشهد أُحُداً وما بعدها، ثم انتقل إلى الشام، وسكن دمشق، وكان فيها قاضياً لمعاوية بعد أبي الدرداء بوصية منه، وكان ممن بايع تحت الشجرة، توفي سنة ٥٣هـ.

انظر: الطبقات الكبرى ٧/ ٢٨١. الاستيعاب ٣/ ١٢٦٢، الإصابة ٥/ ٢١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦/ ١٩، وابن حبان في صحيحه ٧/ ٤٤، والبخاري في الأدب المفرد [٥٩٠]، والطبراني في الكبير ١٨/ ٣٠٦، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٠٦ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد احتجَّا بجميع رواته ولم يخرِّجاه، ولا أعرف له عِلَّة»، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٢١، وقال: «رواه الطبراني ورجاله ثقات»، وصحَّحه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لأبي عاصم ص٤٣، ٤٢٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن، حديث [٢١٦٧] باب ما جاء في لزوم الجماعة واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٠٦، وابن أبي عاصم في السنة نحوه ١/ ٣٩، والحاكم في المستدرك ١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ثم ساق ستة أحاديث يقوّي بها حديث ابن عمر، ومدارها على المعتمر بن سليمان، ثم قال الحاكم: «نقول إن المعتمر بن سليمان أحد أئمة الحديث، وقد رُوي عنه هذا الحديث بأسانيد يصح بمثلها الحديث، فلابد من أن يكون له أصل بأحد هذه الأسانيد»، وأورد الهيثمي نحو هذا الحديث في مجمع الزوائد ٥/ ٢١٨ وقال: «رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات، رجال الصحيح، خلا مرزوق مولى آل طلحة، وهو ثقة».

الواحد يشدّ بعضه بعضاً، وبالجسد الواحد الذي يربط أعضاءه جسدٌ مشترك في اللذة والألم، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً وشبَّك بين أصابعه)(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو، تداعى له سائر جسده بالسَّهر والحُمَّى)(٢). وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه، اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كله)(٣).

فبهذا التشبيه النبوي الكريم أعطى النبي ﷺ معاني القوّة لبناء الجماعة المسلمة وتماسكها واتِّحادها واستمرار عزّها وقيامها، فلا يجد الشيطان إليها سبيلاً ليفرّق جمعها، ويفتّ في عضدها، بل يجدها سدّاً قوياً متماسكاً، تتحطم عند أعتابه كل محاولات عدو الله وكيده لها.

ولأجل هذه النصوص من الكتاب والسنة فقد التزم سلفنا الصالح بالجماعة، ودعوا الناس إلى التزامها، وحذَّروا من مخالفتها والخروج عليها، وأكَّدوا على أنها عصمة للأمة من الفتن والشرور، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنهما السبيل في الأصل إلى حبل الله الذي أمر به، وأن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفُرقة»(٤)، وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، حديث [٤٨١] باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ومسلم في البر والصلة، حديث [٢٥٨٥] باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب من صحيحه، حديث [٦٠١١] باب رحمة الناس والبهائم. ومسلم في البر والصلة بلفظ: (مثل المؤمنين)، حديث [٢٥٨٦] باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، حديث [٢٥٨٦] باب تراحم المؤمنين. . إلخ، وأحمد في المسند ٤/ ٢٧١.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي١/ ١٠٨، والشريعة للآجريّ ص١٣.

﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] بقوله: «يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة»[١]، وقال بشير بن عمرو: قيل لأبي مسعود الأنصاري: أوصنا، قال: «عليكم بالجماعة، فإن الله لن يجمع الأمة على ضلالة، حتى يستريح بَرٌّ أو يُستراح من فاجر»[٢].

وقال سعيد جبير رحمه الله في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، قال: «لزوم السنة والجماعة»[٣].

وإذا كانت نصوص الكتاب والسنة تأمر بلزوم الجماعة، وتحثّ على التمسك بها، وتحذِّر من الفُرقة والاختلاف، فما المقصود بـ «جماعة المسلمين»؟ وعلى من يصح إطلاق هذا الاسم؟ لا سيما أننا في عصر قد كثرت فيه الفرق والأحزاب، وتعدَّدت الطوائف والجماعات، وكلها تشير إلى نفسها بالحق وصحة المنهج، وإلى غيرها بالبطلان والفساد، فيتحتم علينا أن نعرف الجماعة الحقَّة في خضم تلك الجماعات وتشتتها، ونميز أهل الحق عن غيرهم، كي تتضح الرؤية، ويتبيّن المنهج الصحيح من غيره.

لقد ذكر الشاطبي رحمه الله أن العلماء حدّدوا المقصود بالجماعة وحصروه في خمسة أقوال[٤]، فسأذكر هذه الأقوال مع زيادة بيان وتوضيح، ومع الاستدلال والترجيح فيما يأتي:

القول الأول: إن المراد بالجماعة، السواد الأعظم[٥] من أهل الإسلام، وهذا قول ابن مسعود وأبي مسعود الأنصاري رضي الله عنهما، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٩١، وانظر: تفسير البغوي ٢/ ٨٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٩٥.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ٧١، والحجة في بيان المحجة ٢/ ٣٧٩.
(٤) انظر: الاعتصام للشاطبي ٤٤٨ ـ ٤٥١.
(٥) السواد الأعظم: أي جملة الناس ومعظمهم، الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج القويم. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤١٩.

وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم»[١].

وقال الشاطبي بعد أن ذكر هذا القول: «فعلى هذا يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم، لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذّوا وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا في سوادهم بحال»[٢].

القول الثاني: إن المراد بالجماعة، أئمة العلماء المجتهدين، وهذا قول عبد الله بن المبارك، وابن المديني[٣] وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين، وبه قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ[٤]، وقال الترمذي: «وتفسير الجماعة عند أهل العلم هم أهل الفقة والعلم والحديث»[٥]، وقال الكرماني[٦]: «مقتضى الأمر بلزوم الجماعة أن يلزم المكلَّف متابعة ما أجمع عليه المجتهدون، وهم المراد بقوله: ـ يعني البخاري ـ: وهم أهل العلم»[٧].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٣٤٥.
(٢) الاعتصام ٢/ ٤٤٩.
(٣) هو: علي بن عبد الله بن جعفر السعدي مولاهم البصري، أبو الحسن، كان من أعلم أهل زمانه بعلل حديث رسول الله ﷺ، رحل وجمع وكتب وصنف وحفظ وذاكر، قال أبو حاتم: «كان ابن المديني عَلَماً في الناس في معرفة الحديث والعلل»، وقال البخاري: «ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني»، وله مصنفات جمة، توفي بسامرا سنة ٢٣٤هـ.
انظر: التاريخ الكبير ٦/ ٢٨٤، الثقات ٨/ ٤٦٩، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤١.
(٤) فتح الباري ١٣/ ٣٠٦، ٣٢٨.
(٥) سنن الترمذي ٤/ ٤٦٧.
(٦) هو: محمد بن يوسف بن علي بن سعيد الكرماني البغدادي، شمس الدين، كان إماماً علّامة في الفقه والحديث والتفسير والمعاني والعربية، وأخذ عن أبيه بهاء الدين، وشرح صحيح البخاري، توفي راجعاً من الحج سنة ٧٨٦هـ.
انظر: الدّرر الكامنة ٤/ ٣١٠، بغية الوعاة ١/ ٢٧٩، هدية العارفين ٢/ ١٧٣.
(٧) فتح الباري ١٣/ ٣٢٩.

القول الثالث: إن الجماعة هي الصحابة على الخصوص، وهذا القول قول عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ، قال شارح الطحاوي: «الجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاتِّباعهم هُدًى، وخلافهم ضلال»(١).

القول الرابع: إن الجماعة هي جماعة أهل الإسلام، إذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتِّباعهم.

القول الخامس: إن الجماعة هي جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، قال الطبري: «والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة»(٢). وقال ابن بطَّال: «المراد بالجماعة: أهل الحَلِّ والعقد من كل عصر»(٣)، وقال الشاطبي: «وحاصله أن الجماعة راجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة، وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة»(٤).

فهذه خمسة أقوال في المراد بالجماعة، وهي أقوال ليس بينها اختلاف تضادّ، وإنما هو اختلاف تنوع، حيث فسّر كل قول منها المراد بالجماعة ببعض معانيها، وهذه عادة السلف في تفسير الألفاظ، يقول ابن القيّم: «عادة السلف أن يذكر أحدهم في تفسير اللفظة بعض معانيها، وهذا كثير في كلامهم لمن تأمّله»(٥). فالجماعة الحقَّة الذين يقتفون أثر نبيهم ﷺ وصحابته الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ فيتَّبعون ولا يبتدعون، هذا المعنى هو المراد من تفسيرهم الجماعة بالسواد الأعظم أو أهل العلم والحديث، أو

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣١.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٤١.

(٣) المرجع نفسه ١٣/ ٣٢٩.

(٤) الاعتصام ٢/ ٤٥٢.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة ٢/ ١٩٩.

بالصحابة، فأهل العلم والحديث، هم الذين يسيرون على منهج الصحابة في اتّباع النبي ﷺ، والسواد الأعظم لا يعتدّ بهم إلا إذا كانوا على هذا المنهج الحق، وأهل الحق لا يتحقق اجتماعهم وتماسكهم إلا بالاجتماع على أمير موافق للشرع.

ولذا علّق الشاطبي بعد أن ذكر تلك الأقوال بقوله: «فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع، وأنهم المرادون بالأحاديث»[(١)].

فالجماعة التي يجب لزومها هي من كانت على ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، فهم ﷺ أقرب الأمة إلى مَعينها الصافي، وهم الذين عايشوا التنزيل، وعرفوا أحوال الشريعة وأحكامها، وأقاموا عماد الدين، واستقاموا على منهاج النبوة الذي تلقوه من بينهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ عِلْماً وعملاً، يقول البغدادي[(٢)]: «كان المسلمون ـ عند وفاة رسول الله ﷺ ـ على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه، غير من أظهر وِفَاقاً وأضمر نفاقاً»[(٣)]. ولقد أخبر النبي ﷺ أن السلامة من الزيغ والضلال، والنجاة من النار، في اتّباع ما كان عليه وأصحابه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النَّعل بالنَّعل، حتى إن كان فيهم من أتى أمه علانية لكان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملَّة، كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا

---

(١) الاعتصام ٢/ ٤٥٢.

(٢) هو: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، أبو منصور، كان علّامة بارعاً في فنون عديدة، وأحد أعلام الشافعية، وكان عارفاً بالفرائض والنحو، وله أشعار، وكان يُدَرِّس في سبعة عشر فناً، توفي سنة ٤٢٩هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٣، سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧٢، بغية الوعاة ٢/ ١٠٥.

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي ص١٤.

رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)[1]، فبهذا الحديث وضع النبي ﷺ الميزان الصحيح الذي تُعْرَض عليه الجماعات والأحزاب ليتميّز صحيحُها من فاسدها، فمن كان على ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم فهو الحق، وما عداه فهو رَدّ على صاحبه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من كان منكم متأسِّياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلُّها تكلُّفاً وأقومها هَدْياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتَّبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»[2].

وقال السفاريني[3]: «ولا يرتاب أحد من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حازوا قصبات السبق، واستولوا على معالي الأمور من الفضل والمعروف والصدق، فالسعيد من اتّبع صراطهم المستقيم واقتفى منهجهم القويم، والتَّعيس من عدل عن طريقهم ولم يتحقق بتحقيقهم»[4].

فالجماعة التي تقتفي آثار رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في الاعتقاد والاتِّباع، فتُثْبِت لله ـ تعالى ـ ما أثبته ـ جل وعلا ـ ورسوله ﷺ من الصفات التي تليق به ـ تعالى ـ دون تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، وتنفي ما نفاه الله ورسوله من الصفات، وتؤمن بكل ما جاء في كتاب الله وسنة

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، حديث [٢٦٤١] باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، والآجريّ في الشريعة ص١٥، ١٦، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٠٠، وأبو القاسم الأصبهاني في الحُجَّة في بيان المحَجَّة ١/١٠٧، والحاكم في المستدرك ١/٢١٨، وقال ابن تيمية عن هذا الحديث بأنه: «صحيح مشهور في السنن والمسانيد» مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٧.

(٣) هو: محمد بن أحمد بن سالم السفَّاريني، شمس الدين، أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقِّق، اشتهر بالفضل والذكاء، ودرَّس وأفتى، وألَّف تآليف عديدة، توفي بنابلس سنة ١١٨٨هـ.

انظر: هدية العارفين ٢/ ٣٤٠، الأعلام ٦/ ١٤، معجم المؤلفين ٨/ ٢٦٢.

(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٧٩.

رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إيماناً جازماً، فهذه الطائفة التي على الحق، وهي الطائفة المنصورة، وأصحابها هم أهل السنة والجماعة، المستقيمون على منهج الله، والذين يجب على المسلم أن يلتف حولهم وينضم إليهم، ويصدر من خلالهم. قال أبو القاسم الأصبهاني: «والدليل على أن الفرقة الناجية هم أهل السُّنة والجماعة، أن أحداً لا يشك أن الفرقة الناجية هي المتمسكة بدين الله الذي نزل به كتاب الله وبيَّنته سنة رسول الله ﷺ، وهم القائلون: إن الله واحد، ليس كمثله شيء وهو السميع العليم»[١].

وقال ابن الجوزي: «ولا ريب أن أهل النقل والأثر المتَّبعين آثار رسول الله ﷺ وآثار أصحابه هم أهل السنة، لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ﷺ وأصحابه»[٢].

فليس الاعتبار في الجماعة المسلمة بكثرة الأتباع والسواد الأعظم، وإنما العبرة تكون بالجماعة التي استقامت على منهج الله واتَّبعت شريعته وسلكت الطريق إلى مرضاته، فهذه هي الجماعة التي يجب اتباعها ولو كانت فرداً واحداً، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنما الجماعة ما وافق طاعة الله، وإن كنت وحدك»[٣]، وقال نعيم بن حمَّاد[٤]: «إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وإن كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذٍ»[٥].

---

(١) الحُجَّة في بيان المحَجَّة ٢/ ٣٨٣.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/ ١٠٩.

(٤) هو: نعيم بن حمَّاد بن معاوية بن الحارث الخزاعي، أبو عبد الله المروزي الفرضي، أحد الأئمة الأعلام، وثّقه أحمد وابن معين والعجلي، وكان أول من جمع المسند وصنَّفه، أقام في العراق والحجاز، ثم سكن مصر، وسُئل عن القرآن أمخلوق هو؟ فلم يجب، وذلك في خلافة المعتصم، فحبس في سامرا حتى مات سنة ٢٢٨هـ.
انظر: الكامل لابن عدي ٧/ ١٦، تاريخ بغداد ١٣/ ٣٠٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٩٥.

(٥) الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة ص٢٧.

وكان سفيان الثوري ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «المراد بالسواد الأعظم هم من كان من أهل السنة والجماعة ولو واحداً»(١).

وسُئل إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن السواد الأعظم، فقال: محمد بن أسلم(٢) وأصحابه ومن تبعه، ثم قال: سأل رجل ابن المبارك فقال: يا أبا عبد الرحمٰن السواد الأعظم؟ قال: أبو حمزة السُّكَّري(٣)، ثم قال إسحاق: في ذلك الزمان، يعني أبا حمزة، وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه، ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال: من السَّواد الأعظم؟ قالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم مُتمسِّك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسْمَع عالماً منذ خمسين سنة أعلم من محمد بن أسلم(٤). وعَلَّق ابن القيّم على كلام إسحاق بقوله: «وصدق والله، فإن العصر إذا كان فيه عارف بالسنة، داع إليها، فهو الحُجَّة، وهو الإجماع، وهو السَّواد الأعظم، وهو سبيل المؤمنين التي من فارقها واتَّبع سواها ولّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»(٥).

وللشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام نفيس في هذا المعنى حيث يقول: «فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسَّواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذ عنهم فمات فميتته جاهلية، وإن ضموا إليهم العوام فبحكم التَّبع، لأنهم غير

---

(١) صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ص٣٠٨.

(٢) هو: أبو الحسن محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد الكندي، مولاهم الخرساني الطوسي، اشتهر بالسنة والصلاح والزهد، وله مناقب كثيرة، قال محمد بن رافع: دخلت على محمد بن أسلم فما شبَّهته إلا بأصحاب رسول الله ﷺ. توفي سنة ٢٤٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٥، تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٣٢، العبر ١/ ٣٤٤.

(٣) هو: محمد بن ميمون المروزي، أبو حمز السكري، عالم خراسان في عصره، وأحد المحدثين الثقات، قال ابن المبارك: «صحيح الكتاب»، وقال الذهبي: «الحافظ الإمام الحجة»، توفي سنة ١٦٧هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٢٩، الأعلام ٧/ ١٢١.

(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ١٩٦.

(٥) إغاثة اللهفان ١/ ٨٤.

عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء، فإنهم لو تمالأوا على مخالفة العلماء فيما حدّوا لهم لكانوا هم الغالب والسواد الأعظم في ظاهر الأمر، لقلَّة العلماء وكثرة الجهَّال، فلا يقول أحد: إن اتّباع جماعة العوام هو المطلوب، وإن العلماء هم المفارقون للجماعة والمذمومون في الحديث، بل الأمر بالعكس، وأن العلماء هم السواد الأعظم وإن قَلُّوا، والعوام هم المفارقون للجماعة وإن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم»(١)، ثم ذكر الأثر السابق عن إسحاق وعلّق عليه بقوله: «فانظر في حكايته تتبيَّن غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس، وإن لم يكن فيهم عالم، وهو وَهْمُ العوام، لا فَهْم العلماء، فليثبت الموفَّق في هذه المزلَّة لئلا يضل عن سواء السبيل، ولا توفيق إلا بالله»(٢).

فأهل السنة والجماعة هم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصحابة والتابعون من سلف هذه الأمة المباركة، وهم الطائفة المنصورة الذين أخبر النبي ﷺ بثباتهم على الحق وظهورهم به حتى يأتي أمر الله، وذلك في جملة من الأحاديث، وهي فيما يأتي:

١ - عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يزال ناس من أُمَّتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون)(٣).

٢ - وعن معاوية بن قرَّة عن أبيه(٤) قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم، لا تزال طائفة من أُمتي منصورين لا يضرّهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)(٥).

---

(١) الاعتصام ٢/٤٥٢.

(٢) المرجع نفسه ٢/٤٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب حديث [٣٦٤٠] باب (٢٨)، ومسلم في الإمارة نحوه حديث [١٩٢١] باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي...) إلخ.

(٤) أبوه هو: قرَّة بن إياس بن هلال بن رياب المزني، جد إياس بن معاوية القاضي، له صحبة، قتل في حرب الأزارقة سنة ٦٤هـ. انظر: الطبقات الكبرى ٧/٢٣، الاستيعاب ٣/١٢٨٠، الإصابة ٥/٢٧.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن، حديث [٢١٩٢] باب ما جاء في الشام، وقال: «هذا =

٣ ـ وعن عمر بن الخطاب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة)(١).

٤ ـ وعن جابر بن عبد الله ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تزال طائفة من أُمَّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أُمَراء، تكْرِمَة الله هذه الأمة)(٢).

٥ ـ وعن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الدِّين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء(٣) حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله ﷺ وأين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس)(٤).

٦ ـ وعن معاوية ﵁ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا يزال من أمتي أُمَّة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)(٥).

= حديث حسن صحيح»، وأحمد في المسند ٣/ ٤٣٦، ٥/ ٣٤، ٣٥، وابن ماجه في المقدمة، حديث [٦] باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، والطيالسي في المسند حديث [١٠٧٦]، والطبراني في الكبير مختصراً ١٩/ ٢٧، وابن أبي شيبة في المصنف مختصراً ٧/ ٥٥٥.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٤٩٦ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، والدارمي نحوه في الجهاد حديث [٢٤٣٣] باب لا يزال طائفة من هذه الأمة يقاتلون على الحق، والطيالسي نحوه في المسند حديث [٣٨]، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٨ وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير، ورجال الكبير رجال الصحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث [١٥٦] باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ.

(٣) اللَّأواءُ: هي شدَّة المرض، وضيق العيش. انظر: لسان العرب مادة «لأي».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد عن خط أبيه في المسند ٥/ ٢٦٩، والطبري في تهذيب الآثار حديث [٢٩٤١]، والطبراني نحوه في الكبير ٨/ ١٤٥، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٨ وقال: «رجاله ثقات».

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، حديث [٣٦٤١] باب (٢٨)، ومسلم في الإمارة نحوه، =

٧ ـ وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)(١).

٨ ـ وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أُمَّتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدَّجّال)(٢).

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في شأن الطائفة المنصورة.

وبهذا يتضح مفهوم «الجماعة» التي جاء الحثُّ على التزامها، في الكتاب والسنة، عقيدة وعملاً، والنهيُ عن مجانبتها والخروج عن إطار منهجها المستمدّ من شرع الله القويم، فهي الأمة المتشابكة تشابكاً متداخلاً فريداً، والمتماسكة تماسكاً قوياً صُلباً، وبقيامها تتضاعف جهود الأمة وقوتها أمام القوى الأخرى المعادية، وأولها العداوة القديمة للبشرية، عداوة الشيطان الرجيم، الذي يسعى بشتَّى وسائله لتفكيك ترابطها، وتفريق شملها، وتمزيق وحدتها، فهي سلاحٌ وقائي فعّال للتصدي للهجمات الشيطانية الحاقدة والموجَّهة للأمة، وسدٌّ لباب خطير من أبواب الشيطان التي يكيد بها هذه الأمة المباركة جماعة وأفراداً.

= حديث [١٩٣٢] باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم)،

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث [١٩٢٠] باب قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين... الخ).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٢٩، ٤٣٧، وأبو داود في الجهاد، حديث [٢٤٨٤] باب في دوام الجهاد، والطبري في تهذيب الآثار حديث [٢٩٤٢]، والطبراني في المعجم الكبير ١٨/١١٦، واللالكائي نحوه في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١١١، والحاكم في المستدرك ٤/٤٩٧ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه».

المبحث الخامس

عدم موالاة الشيطان

إن قضية الموالاة والمعاداة من أهم القضايا التي أكدَّ عليها الإسلام، واهتمّ بها غاية الاهتمام، إذ لا بد للمسلم في تعامله مع الآخرين من الموالاة والمعاداة، فيوالي في الله ويعادي في الله، وذلك هو منهج الإسلام في التعامل مع الناس، وهو حقيقة «لا إله إلا الله» ومقتضياتها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس للقلوب سرور ولا لذَّة تامة إلا في محبة الله والتقرُّب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذه حقيقة لا إله إلا الله، وهي ملَّة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»[(١)]، وقال أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاتِّباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطناً وظاهراً، هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها»[(٢)].

والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقُرب، وأصل العداوة: البغض والبُعد[(٣)]. قال ابن الأعرابي[(٤)]: «الموالاة أن يتشاجر اثنان

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٣٢.

(٢) المرجع نفسه ١٠/ ٨٢.

(٣) انظر: الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ص١٨.

(٤) هو: محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي مولاهم، كان أحد العالمين باللغة المشهورين بمعرفتها، ولم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين منه، قال الأصمعي: «لزمت ابن الأعرابي تسع عشرة سنة وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان، وما رأيت بيده كتاباً قط»، توفي بسامرا سنة ٢٣١هـ.
انظر: معجم الأدباء ٥/ ٣٣٦، تاريخ بغداد ٥/ ٢٨٢، وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٦.

فيدخل ثالث بينهما للصُّلح، ويكون له في أحدهما هوًى فيواليه أو يُحابيه، ووالى فلان فلاناً إذا أحبَّه»[1].

والوَليّ: الصديقُ والنصير والتابع المحب، والوليُّ: ضد العدو، قال ثعلب: كل من عَبَدَ شيئاً من دون الله فقد اتَّخذه وليّا[2].

ولأهمية الموالاة والمعاداة في الإسلام، فقد أكدَّ القرآن الكريم على اعتبار هذه القضية في التعامل، وأمر المؤمنين بموالاة الله ورسوله، ومعاداة الكافرين ولو كانوا أولي قربى، وحذّر الله ـ تعالى ـ من موالاة غير المسلمين، وحكم على من والاهم بأنه منهم وأنه ليس من الله في شيء، وأخبر ـ جل ثناؤه ـ أنه لا يتم الإيمان مع موالاة أعداء الله ورسوله، وذلك في عدة آيات من القرآن الكريم منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قال ابن عطية: «نفت هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ويلتزم شُعبه على الكمال، يُوادُّ كافراً أو منافقاً، ومعنى (يُوادّ) يكون بينهما من اللطف بحيث يودّ كل واحد منهما صاحبه»[3].

ويقول ـ تبارك تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤]، يقول القرطبي: «ظاهر هذه الآية أنها

---

(١) لسان العرب مادة «ولي».

(٢) لسان العرب ١٥/ ٤١١.

(٣) تفسير ابن عطية ١٤/ ٣٦٠.

خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين»[1].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

يقول ابن جرير رحمه الله: «ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً، توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلّونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك فقد برئ من الله، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر»[2].

ويرى ابن عطية أن النهي في الآية إنما هو عن الاتخاذ فيما يظهره المرء لا فيما يُتَّخذ بالقلب والنية، لأن المؤمن لا يفعل ذلك، حيث إن المنهيين قد حكم لهم بالإيمان، فالنهي هنا عبارة عن إظهار اللطف للكفار والميل إليهم، وأن لفظ الآية عام في جميع الأعصار[3].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ . . .﴾ الآية [الممتحنة: ١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ومن عاداه فقد حاربه»[4].

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٩٣.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٢٨.

(٣) انظر: تفسير ابن عطية ٣/ ٧١.

(٤) الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان ص١٩.

وقال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

قال الطاهر بن عاشور: «وهذه آية جامعة للتحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النفاق، لأن المنافقين تظاهروا بالإيمان ووالوا الكافرين، فالتحذير من موالاة الكافرين تحذير من الاستشعار بشعار النفاق، وتحذير من موالاة المنافقين الذين هم أولياء الكافرين»[1].

ولقد قرر النبي ﷺ شأن الموالاة والمعاداة في الإسلام، وأكد على وجوب اعتبارها في التعامل مع الناس، وأخبر عن أهميتها في الدين واستكمال الإيمان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (الشرك أخفى من دبيب الذرِّ على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل، وهل الدِّين إلا الحبُّ والبغض، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١])[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: (يا عبد الله بن مسعود)، فقلت: لبيك يا رسول الله، ثلاث مرات، قال: (هل تدري أي عُرَى الإيمان أوثق؟)، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (أوثق الإيمان، الولاية في الله بالحب فيه والبغض فيه...) الحديث[3]، وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: (من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانه)[4].

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٤٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣١٩ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/٣٦٨، ٩/٢٥٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف ٧/٢٢٩، والحاكم في المستدرك ٢/٥٢٢ وصحَّحه، والبيهقي في الشعب ٧/٦٨، ٦٩، والطبراني في الكبير ١٠/١٧١، ٢٢٠، والطيالسي في مسنده حديث [٣٧٨].

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٤٠، والترمذي في صفة القيامة، حديث [٢٥٢١] =

فولاية الله ـ تعالى ـ في اتِّباع شرعه ومحبته وسلوك صراطه، والرضا بما يرضى، والسخط بما يسخط، والمنع لما يحب أن يُمنع، والعطاء لما يحب أن يُعطى، فأولياؤه ـ تعالى ـ هم المؤمنون المتَّقون الآمنون في الدنيا والآخرة، قال: ـ جل وعلا ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]. وقال ـ سبحانه ـ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ جهاراً غير سرّ ـ يقول: (ألا إن آل أبي «يعني فلاناً» ليسوا لي بأولياء، إنما وليِّي الله وصالح المؤمنين)(١).

وإذا كان المسلم مأموراً، في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بموالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين، وعدم موالاتهم وإظهار المودّة والنصرة لهم، فكيف إذا كان العدو هو رأس الكفر وزعيم الكافرين وقائد أعداء الدين على مدى التاريخ البشري، الشيطان الرجيم؟ فإنه بلا شك تتأكد عداوته وعدم موالاته والتَّصدي له بكل ما شرعه الله ـ تعالى ـ من الوسائل التي يقاوم بها شره وكيده.

إننا نرى ـ مع الأسف ـ بعض المسلمين الذين ينطقون الشهادتين، قد تولّوا عدوهم الشيطان في أحوالهم وأمورهم، قلة وكثرة، فنجد منهم من يلجأ إلى الشياطين لإخباره عن بعض المغيبات، والبحث عن المفقودات، والاستعانة بهم في علاج الأمراض، وحلّ السحر، والانتقام من الأعداء... إلى غير ذلك من الولاء الشيطاني، حتى مكّنوا عدوهم الشيطان

= باب (٦٠) وقال: «هذا حديث حسن»، وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/١٨٨، والبيهقي في الشعب ١/٤٧، وأبو يعلى في المسند ٢/١٧٧، والحاكم في المستدرك ٢/١٧٨ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه».

(١) أخرجه البخاري في الأدب من صحيحه، حديث [٥٩٩٠] باب تُبَل الرحم ببلالها، ومسلم في الإيمان واللفظ له، حديث [٢١٥] باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم.

منهم، فأوقعهم في فخِّ طاعته وشِرَاك مصائده، ولا ريب أن هذا مسلك خطير، وباب شره عظيم، فربما أخرج المسلم من دينه وصار من أهل الكفر والشرك بالله ـ تعالى ـ.

إن الموالاة لله ورسوله لا تتم إلا بالبراءة من الشيطان الرجيم، وإن الانتصار على هذا العدو الخفي لا يتحقق إلا بالمعاداة والبراءة، من كل ما يتَّصل به من قريب أو بعيد، في الباطن والظاهر، فكل من حادّ الله ورسوله، وأعرض عن شريعته، وتوجّه إلى الشيطان فهو من أوليائه، يقول ابن القيّم: «فمن تولى عن توحيد ربه وطاعته، ولم يرفع رأساً بأمره ودعوته، وكذّب رسوله وأعرض عن متابعته، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملته، واتَّبع غير سنته، ولم يستمسك بعهده، ومكّن الجهل من نفسه، والهوى والعناد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه، فقد قابل خبر الله بالتكذيب، وأمره بالعصيان، ونهيه بالارتكاب. . . فهو وليُّ الشيطان وعدو الرحمٰن»(١).

ومن رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بالناس ولطفه بهم، أن حذَّرهم أشدّ التحذير من موالاة عدوهم الشيطان، وبيّن ـ جل وعلا ـ أن من تولّى الشيطان فإن عاقبته الخسران المبين في الدنيا والآخرة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

يقول الفخر الرازي: «اعلم أن أحداً لا يختار أن يتَّخذ الشيطان ولياً من دون الله، ولكن المعنى أنه إذا فعل ما أمره الشيطان به، وترك ما أمره الرحمٰن به، صار كأنه اتَّخذ الشيطان ولياً لنفسه وترك ولاية الله ـ تعالى ـ، وإنما قال: ﴿خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾، لأن طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدائمة الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع المنقطعة

(١) هداية الحيارى، لابن القيم ص٧.

المشوبة بالغموم والأحزان والآلام الغالبة، وهذا هو الخسار المطلق»[1].

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول السعدي: «فتبيَّن بهذا عداوته لله ولأبيكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين، أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً: أي بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر؛ عن ولاية الرحمٰن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته، وفي هذه الآية الحثّ على اتّخاذ الشيطان عدواً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأيُّ ظلم أعظم من ظلم من اتَّخذ عدوه الحقيقي ولياً، وترك الولي الحميد؟»[2].

ويقول ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣، ٤].

قال القاسمي في تفسير الآية: «أي قُضي على الشيطان أنه يُضلّ من تولاه بأن اتخذه ولياً وتبعه، ولا يهديه إلى الحق، بل يسوقه إلى عذاب جهنم الموقدة، وسوقه إياه إليه بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمٰن»[3].

والله ـ تبارك وتعالى ـ نفى سلطان الشيطان على أولياء الله المؤمنين، وقرَّر سلطان عدو الله وتمكّنه على من اتَّخذه ولياً من دون الله، وأخبر ـ تعالى ـ أنه لا يتخذ الشيطان ولياً إلا من ليس له نصيب من الهداية والإيمان يقول ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ

(١) التفسير الكبير ١١/ ٥٠ بتصرف يسير.
(٢) تيسير الكريم الرحمٰن ٣/ ١٦٤.
(٣) محاسن التأويل ١٢/ ٧.

ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠]، «فالذين يتوجَّهون إلى الله وحده، ويُخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادون إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم ويتوبون إلى ربهم من قريب، ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم، ومنهم من يشرك به»[1]، يقول المراغي في تفسير هذه الآية: «أي أنه لا تسلُّط للشيطان على الذين يُصدِّقون بلقاء الله ويفوِّضون أمورهم إليه، وبه يعوذون، وإليه يلجئون، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتّباع خطواته.... قال: إنما تسلُّطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيراً لهم فيحبونه ويطيعونه، ويجيبون دعوته، والذين هم بسبب إغوائه مشركون بربهم»[2].

فشتان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان، فأولياء الرحمٰن هم الذين يحبون ما يحبه الله ورسوله، المحكّمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في سائر أمورهم.

وأولياء الشيطان هم الذين يحبون ما يحبه الشيطان، ويستجيبون لدعوته، ويميلون إليه، ويوافقونه في أقوالهم وأفعالهم، وأما علامات أولياء الشيطان فيقول ابن القيم في بيانها: «وأولياء الشيطان: المتلبّسون بما يحبه وليهم قولاً وعملاً، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يُحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين، ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور، علمت أنه من أوليائه، فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن: في صلاته، ومحبته للسُنة وأهلها ونفرته

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٤.

(٢) تفسير المراغي ١٤/ ١٤٠.

عنهم، ودعوته إلى الله ورسوله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السُنَّة، فَزِنْهُ بذلك، لا تَزِنْهُ بحالٍ ولا كشف ولا خارق، ولو مشى على الماء وطار في الهواء»[1].

فإذا عرف المسلم عدوّه الشيطان الذي تمثَّل فيه الشرّ بجميع أنواعه وصُوَره، وقد ناصب بني آدم العداوة منذ نشأتهم الأولى، وأعلن حربه وصراعه معهم في كل ميدان من ميادين الحياة، وحاك ضدهم الدسائس والمكائد والخطط الماكرة فعليه أن يناصب هذا العدو اللدود العداوة والمحاربة لكل دعواته الباطلة امتثالاً لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

فلا يَسْلَم للمؤمن دينه إلا بالمحاربة والتَّصدِّي لهذا العدو الماكر بكل الوسائل الشرعية التي تقمع شره وتبطل كيده، وذلك بتحقيق العداوة المطلقة لكل منهج شيطاني، بكل ما تحمله هذه العداوة من معاني البغض والمقت والكراهية.

ثم إن هذه العداوة والمحاربة لا تختصّ بذات الشيطان، بل كل من كان ولياً للشيطان من الجن والإنس فهو عدو للمؤمن، يجب على المؤمن معاداته ومحاربته والتّصدِّي لضلالاته ودعواته الباطلة، فأولياء الشيطان هم حزبه، ومن دعاته، وهم من حبائله التي يصطاد بها الناس، فالله ـ تبارك وتعالى ـ كما أمر بعداوة الشيطان ومحاربته، فقد أمر كذلك بقتال أولياء الشيطان ومعاداتهم، والتّصدّي لهم،وأخبر ـ جل وعلا ـ أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

يقول ابن جرير في تفسير هذه الآية: «يقول الله مقوّياً عزم المؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ ومحرضهم على أعدائه وأعداء دينه من أهل

(١) الروح ص٣٥٩.

الشرك به: فقاتلوا أيها المؤمنون أولياءَ الشيطان، يعني بذلك: الذين يتولَّونه، ويطيعون أمره في خلاف طاعة الله، والتكذيب به، وينصرونه»[1].

فهذا حال من اتخذ الأسياد والأصنام والأوثان أولياء من دون الله، وأما من اتخذ الشيطان له وليّاً فإن الكُلم أنكى، والعاقبة أشدُّ وأخزى، حيث سيقود من والاه في الدنيا إلى كل خيبة وخسران وندامة، فهو غرَّار خدَّاع كما قال حَسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

دلّاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن ولّاه غَرَّارُ[2]

وفي الآخرة سيعلن عدو الله الشيطان زيف ولايته لمن تولّاه، وحقيقة عداوته وخذلاته لمن والاه، وفي ذلك اليوم المشهود سيندم من اتَّخذ الشيطان ولياً من دون الله أشد ندم، ويتمنى أن يكون بينه وبين وليه الذي خدعه وغرّر به من البُعد كما بين المشرقين، فيصيح مخاطباً وليه الشيطان، والحسرة والحُرقة والندامة تملء قلبه، بقوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، فالسعادة الحقَّة في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بموالاة الرحمٰن باطناً وظاهراً، ومعاداة الشيطان وأولياءه في جميع الأحوال، وحين يكون هذا المنهج في الموالاة والمعاداة هو القاعدة الراسخة في جميع ما يأتي الإنسان وما يذر، فإنه بلا شك قد اتّخذ لنفسه سلاحاً وقائياً ضدّ دعوات الشيطان وغواياته، وشيّد لردع عدوه اللدود حصناً منيعاً ضد هجماته وتسلُّلاته إلى النفس البشرية، وبهذه العداوة الصارمة، والمواجهة المتيقظة، فإن عدو الله الشيطان يتصاغر ويضعف ويندحر وينهزم جنده ويولي هارباً خاسئاً ذليلاً، وحينئذٍ يحذر من المواجهة ويَفْرَق من الاقتراب إلى مواطن خيبته وخذلانه، كما كان حاله معه الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين اتخذ هذا المنهج الرباني في موالاة الله ورسوله والمؤمنين، ومعاداة الكفر والكافرين وقائدهم الشيطان الرجيم، حتى قال

(١) تفسير الطبري ٥/ ١٦٩.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٤١٦.

النبي ﷺ مخاطباً الفاروق: (والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قطّ سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير فجِّك)(١). وإذا كان المسلم مأموراً بمعاداة الشيطان ومخالفته في كل ما يدعو إليه، فإن من لوازم هذه المعاداة عدم مشابهة عدو الله ومشاكلته في كل أمر من الأمور، قولاً أو فعلاً، صغيراً كان أو كبيراً، ولقد قرَّر النبي ﷺ قاعدة الموالاة والمشاكلة بالتشبّه، في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (من تشبَّه بقوم فهو منهم)(٢).

فالتشبّه بالآخرين في الظاهر يورث تناسباً وتشاكلاً، ويمدُّ بينهم حبل الألفة والمودَّة في الباطن، بَيْد أن التشبه بالآخرين في الجانب البشري ينشأ ويستمر اتصاله وتأثره من جانب المتشَبِّه، وربما لم يعلم المتشبَّه به بتلك المحاكاة لما يصدر منه، في حين أن تَشَبُّه الإنسان بأفعال الشيطان، يكون أكثر الاندفاع والإقبال والحرص على المماثلة والمشابهة من جانب الشيطان، فما إن يرى عدو الله في الإنسان شيئاً من التشبّه به في الأقوال والأفعال حتى يقبل بكل أساليبه وحيَلِه إلى هذا الإنسان، ليتربص به الشر والفساد، ويتدرَّج معه من مبدأ تلك المشابهة والمشاكلة حتى ينتهي به إلى المشابهة والمماثلة له في سوء العاقبة والمصير، ومن هنا نهى النبي ﷺ عن التشبُّه بعدو الله الشيطان في أيِّ أمر من الأمور الظاهرة والباطنة، وبيّن أن الخير كل الخير في مخالفة الشيطان في سائر الأقوال والأفعال، وهذه الأمور التي نهى النبي ﷺ المسلم أن يَشبَّه فيها بعدوه الشيطان ورغبه في مخالفتها هي في الأمور الآتية:

---

(١) جزء من حديث رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣٢٩٤] باب صفة إبليس وجنوده. ومسلم في فضائل الصحابة، حديث [٢٣٩٦] باب من فضائل عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، حديث [٤٠٣١] باب في لبس الشهرة، والإمام أحمد بلفظ أطول منه ٢/ ٥٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٧٥، وعبد بن حميد في المنتخب حديث [٨٤٨]، وصحَّح العراقي إسناده في الإحياء ١/ ٢٤٢، وقال ابن تيمية عن هذا الحديث: «وهذا إسناد جيد». اقتضاء الصراط المستقيم ص ٨٢ ـ ٨٣.

١ ـ الأكل والشرب والأخذ والعطاء بالشمال:

من الآداب الإسلامية في المطعم والمشرب والتي أرشد إليها الإسلام وحثَّ عليها وأكدّ على التزامها والتحلِّي بها، الأكل والشرب باليمين، حيث يتجلَّى في هذا الأدب الإسلامي النبيل، إظهارُ تكريم نِعَم الله وتعظيمها، وشكر المنعم ـ تعالى ـ على إسدائها وبقائها، وفي الحث على الالتزام بهذه الصفة الحميدة، يتَّضح جانب من جوانب معاداة عدو الله الشيطان، ويبرز سلوك عملي في مخالفة عدو الله في جانب الأكل والشرب، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يأكل المسلم أو يشرب بشماله، وعلَّل ـ عليه الصلاة والسلام ـ هذا النهي بأن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها، فإذا فعل المسلم ذلك فقد شابه عدوه في صفة من صفات الشيطان الذميمة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله)[1].

ونهى النبي ﷺ عن الأخذ والعطاء بالشمال وبيّن ﷺ أن ذلك الفعل من صفات الشيطان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ليأكل أحدكم بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله، ويعطي بشماله، ويأخذ بشماله)[2].

وهذا الأمر من النبي ﷺ بالأكل باليمين أمر إيجاب لا يُصرف عنه إلا بدليل صحيح صريح، وبناء عليه فالأكل بالشمال حرام، ويدل على ذلك ما رواه إياس بن سلمة بن الأكوع أن أباه حدّثه أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله فقال: (كل بيمينك) قال: لا أستطيع، قال: (لا استطعت) ما منعه

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة، حديث [٢٠٢٠] باب آداب الطعام والشراب وأحكامها.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة من سننه، حديث [٣٢٦٦] باب الأكل باليمين، وقال في الزوائد: «إسناد حديث أبي هريرة صحيح ورجاله ثقات». وصحَّح المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ١٢٨/٣.

إلا الكبر، فما رفعها إلى فِيْه[1]، ولهذا صرّح ابن العربي بإثم من أكل بشماله، واحتجَّ بأن كل فعل ينسب إلى الشيطان فهو حرام[2].

فمن أكل أو شرب بشماله من غير عذر شرعي فقد خالف أمر النبي ﷺ وتشبّه بعدوه الشيطان، وهذا ـ مع الأسف ـ حال بعض المسلمين في هذا العصر، حيث غفلوا عن هذا الأدب الإسلامي في الأكل والشرب، حيث صار الواحد من أولئك لا يبالي أي إحدى يديه وقعت على الأكل أو الشرب فيباشر بها طعامه، بل زين الشيطان لبعضهم أن الأكل والشرب بالشمال هو النمط الحضاري للأكل الذي ينبغي معرفته واتِّباع طريقته، ولا ريب أن هذا أسلوب شيطاني ماكر ليجد عدو الله عند أولئك سبيلاً لينفذ منه إليهم فيشاركهم في المطعم والمشرب، فإن من أكل أو شرب بشماله فإن الشيطان يشاركه في أكله وشربه، فعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أكل بشماله أكل معه الشيطان، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان)[3].

وظاهر هذه الأحاديث أن الشيطان يأكل بشماله على الحقيقة، فلا يحتاج إلى تأويل الخبر وصرفه عن ظاهره، يقول ابن حجر: «والأولى حمل الخبر على ظاهره وأن الشيطان يأكل حقيقة لأن العقل لا يحيل ذلك، وقد ثبت الخبر به فلا يحتاج إلى تأويله»[4].

ويقول ابن العربي: «من نفى عن الجن الأكل والشرب فقد وقع في حبالة إلحاد وعدم رشاد، بل الشيطان وجميع الجان يأكلون ويشربون وينكحون ويولد لهم ويموتون، وذلك جائز عقلاً وورد به الشرع وتضافرت به الأخبار»[5].

---

(١) سبق تخريجه ص١٧٦.
(٢) انظر: فتح الباري ٩/ ٤٣٣.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٧٧، والطبراني في الأوسط ١/ ٢٠٤، وحسّن ابن حجر إسناده في الفتح ٩/ ٤٣٣.
(٤) فتح الباري ٩/ ٤٣٣.
(٥) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ٤/ ٣٦٤.

٢ ـ العجلة:

لقد حثَّ النبي ﷺ على التأني في الأمور ونهى عن العجلة وحذَّر منها، وأخبر أنها صفة شيطانية مذمومة، فعن عبد المهيمن بن عباس بن سعد الساعدي عن أبيه عن جده ﷺ قال رسول الله ﷺ: (الأناة من الله، والعجلة من الشيطان)[١]. يقول أبو حامد الغزالي: «وهذا لأن الأعمال تكون بعد التبصرة والمعرفة، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك، وعند الاستعجال يروِّج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري»[٢].

فالرؤية المتأنية والخطوة المتَّئدة تحفظ الإنسان من الوقوع في شباك الشيطان وتبعده عن الأخطاء والزلل، ولذا قال ﷺ: (التؤدة في كل شيء، إلا في عمل الآخرة)[٣].

٣ ـ الجلوس بين الظِّل والشمس:

من المجالس التي نهى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يُجلس فيها، الجلوس بين الظِّل والشمس، فهو مجلس من مجالس الشيطان التي يتربص فيها ببني آدم ويحيك ضدهم المكيدة والشرور ليجرهم إلى فخِّ مصيدته، فيجدر بالمسلم أن يتحاشى الجلوس في ذلك المكان الشيطاني كي لا يتشبَّه

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة وحسّنه، حديث [٢٠١٢] باب ما جاء في التأني والعجلة، وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق ومعاليها ٢/٦٨٦ عن أنس بن مالك بلفظ: (التأني من الله والعجلة من الشيطان)، وكذا البيهقي مثله في السنن الكبرى ١٠/١٠٤، وفي شعب الإيمان ٤/٨٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٩ بلفظ أطول منه وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح».

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب من حديث مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقاص ﷺ، حديث [٤٨١٠]، باب في الرفق، والبيهقي في الشعب ٦/٣٣٦، والحاكم في المستدرك ١/١٣٢ بلفظ: (في كل شيء خير)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه».

بعدوه اللدود الذي يبتهج أشدَّ الابتهاج حين يرى الإنسان متشبِّهاً بشيء من أفعاله وصفاته علّه أن يتسلَّل إليه فيوقعه في شر حبائله الماكرة، ولذا فقد نهى النبي ﷺ أن يجلس المسلم بين الظل والشمس، فعن أبي عياض(١) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ نهى أن يُجلس بين الضحِّ(٢) والظل، وقال: (مجلس الشيطان)(٣).

٤ ـ التبذير:

إن الإنسان حين ينفق ماله في غير حق، ويهدره في غير مصارفه الشرعية، فإنه لم يقدِّر النعمة قدرها، وهو بهذا يكون ممن بدّلوا نعمة الله جحوداً وكفراً، واستحقُّوا أُخوَّة الشيطان ومشابهته فيقول ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾، فإنه يعني: إن المفرقين أموالهم في معاصي الله، لمنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين، وكذلك تقول العرب لكل ملازم سنة قوم وتابع أثرهم: هو أخوهم»(٤).

---

(١) هو: عمر، ويقال: عمير الأسود العنسي، ويقال الهمداني، أبو عياض، كان من سادات التابعين ديناً وورعاً، حدّث عن عمر وابن مسعود وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت والعرباض بن سارية وغيرهم ﷺ، وتوفي في خلافة عبد الملك بن مروان.
انظر: تاريخ الثقات ص٣٦٢، سير أعلام النبلاء ٤/ ٧٩، المعرفة والتاريخ ٢/ ٣١٤، ٣٤٨.

(٢) الضِّحُّ: بالكسر، ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض، وهو كالقمراء للقمر، النهاية في غريب الحديث ٣/ ٧٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤١٤، وجوّد المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ٤/ ٥٨، وأخرجه ابن ماجه في الأدب من سننه عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ نهى أن يُقعد بين الظل والشمس، حديث [٣٧٢٢] باب الجلوس بين الظل والشمس، وقال في الزوائد: «إسناد حديث ابن بريدة حَسَن»، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٠٢ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: (نهى أن يجلس الرجل بين الشمس والظل)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٧٤.

وقال الفخر الرازي: «والمقصود: أن المبذّرين إخوان الشياطين، بمعنى كونهم موافقين للشيطان في الصفة والفعل، ثم الشيطان كفور لربه، فيلزم كون المبذّر أيضاً كفوراً لربه»[1].

٥ ـ الكِبْرُ:

لقد كان الكبر السبب الرئيس في شقاء إبليس وصغاره أبد الآباد، وهو يجتهد كل الاجتهاد بوسائله الماكرة أن يُضل الناس ويشقيهم في الدنيا والآخرة، فعدو الله يحرص أشدّ الحرص أن يُضل بني آدم بالسبب الذي به ضل وصار من أهل الشقوة والخسران، وأن يحول بينهم وبين أسباب التواضع والأخلاق الفاضلة، فيجدر بالمسلم أن يحذر كل الحذر من هذا الدَّاء الخطير والمدخل الشيطاني الماكر، كي لا يتشبّه بعدوه الشيطان فيتسلّط عليه ويدخله في حزبه وأوليائه.

وقد تقدَّم تفصيل الكبر وأسبابه وأنواعه وعلاجه في مبحث «الاستكبار وعدم السجود» من الباب الثاني[2].

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٩٤.

(٢) انظر ص١٦٤.

الفصل الثاني

العلاج المباشر

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: العلاج من السِّحر.

المبحث الثاني: العلاج من المسّ.

المبحث الأول

العلاج من السحر

تعريف السِّحر في اللغة:

قال الجوهري: «السِّحْرُ: الأُخْذَةُ، وكل ما لَطُفَ مأخذُهُ ودقّ، فهو سِحْرٌ»[(١)]، وأصل السِّحر: التمويه بالحِيَل والتخاييل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني، فيخيّل للمسحور أنها بخلاف ما هي به.

وقيل: أصله الصرف، يقال: ما سحرك عن كذا، أي ما صرفك عنه[(٢)]. قال الأزهري: «وأصل السِّحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر لما رأى الباطل في صورة الحق، وخيّل الشيء على غير حقيقته، قد سحر الشيء عن وجهه، أي صرفه»[(٣)].

وقال ابن عائشة[(٤)]: «العرب إنما سمّت السِّحر سحراً لأنه يزيل الصحة إلى المرض، وإنما يقال سَحَرَه، أي أزاله عن البغض إلى الحب»[(٥)].

---

(١) الصحاح ٢/ ٦٧٩.
(٢) المرجع نفسه ٢/ ٤٤.
(٣) لسان العرب مادة «سحر».
(٤) هو: عبيد الله بن محمد بن حفص البصري، أبو عبد الرحمٰن، المعروف بالعيشي وبابن عائشة لأنه من ولد عائشة بنت طلحة، كان من سادات أهل البصرة، عالماً بالحديث والعربية وأيام الناس، ذو دقائق وفصاحة وحسن خلق وسخاء وكرم وأدب، توفي سنة ٢٢٨هـ.
انظر: تاريخ بغداد ١٠/ ٣١٤، الأنساب ٤/ ٢٦٩، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٦٤.
(٥) لسان العرب مادة «سحر».

ويُطلق الطبُ على السِّحر.

قال أبو القاسم الأصبهاني: «قال أهل اللغة: المطبوب: المسحور، والطُبُّ: السِّحر»[(١)]، ويقول القرطبي: «إنما قيل للسحر طُب، لأن أصل الطب: الحذق بالشيء والتفطّن له، فلما كان كل من علاج المرض والسحر إنما يتأتّى من فطنة وحذق، أطلق على كل منهما هذا الاسم»[(٢)].

وسمّى النبي ﷺ البيان سحراً، لما بينهما من استمالة القلوب، والتأثير في الآخرين للوصول إلى المطلوب، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (إن من البيان لسحراً)[(٣)].

يقول الجصّاص[(٤)] في وجه تسمية البيان سحراً: «سمَّى ذلك سحراً من حيث كان الأغلب في ظن السامع أنه لو ورد عليه المعنى بلفظ مستنكر غير مبين لما صادف منه قبولاً ولا أصغى إليه، ومتى سمع المعنى بعبارة مقبولة عذبة لا فساد فيها ولا استنكار، وقد تأتّى لها بلفظه حُسن بيانه بما لا يتأتَّى له الغبي الذي لا بيان له، أصغى إليه وسمعه وقبله، فسمى استمالته للقلوب بهذا الضرب من البيان سحراً، كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إلى ما موَّه به ولبَّسه، فمن هذا الوجه سمّى البيان سحراً»[(٥)].

وأما تعريف السحر في الشرع فيقول الخطابي: «السِّحر من عمل الشيطان يفعله في الإنسان بنفثه ونفخه وهمزه ووسوسته، ويتلقّاه الساحر

---

(١) الحُجَّة في بيان المحَجَّة ١/ ٤٨٣.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، حديث [٥١٤٦] باب الخطبة.

(٤) هو: أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص، شيخ الحنفية ببغداد، كان عابداً زاهداً ورعاً، ورحل إليه الطلبة من الآفاق، وخوطب في أن يلي القضاء فلم يفعل، وله تصانيف كثيرة، توفي في ذي الحجة سنة ٣٧٠هـ.
انظر: تاريخ بغداد ٤/ ٣١٤، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٤٠، العبر ٢/ ١٣٣.

(٥) أحكام القرآن، للجصَّاص ١/ ٥٢.

بتعليمه إياه، ومعونته عليه، فإذا تلقّاه عنه، استعمله في غيره بالقول والنفث في العُقَد»[1].

وقال أبو محمد بن قدامة المقدسي: «وهو ـ أي السِّحر ـ عُقد ورُقى وكلام يتكلَّم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يُفَرِّقُ بين المرء وزوجه، وما يبغِّض أحدهما إلى الآخر، أو يحبّب بين الاثنين»[2].

وقال القسطلاني[3] في تعريف السحر: «وهو أمر خارق للعادة صادر عن نفس شريرة، لا تتعذر معارضته»[4].

وقال موفَّق الدِّين البغدادي: «هو رُقى وعُقَد وكلام يتكلم به الساحر أو يكتبه فيؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله، من غير مباشرة له»[5].

إلى غير ذلك من التعريفات الكثيرة للسِّحر والتي لا تخرج عما ذُكر من التعريفات، ويلاحظ من هذه التعريفات أن السِّحر من عمل الشيطان ومعاونته، وأنه يقوم على الأسباب الخفية، ويعتمد على التمويه والخداع، وأنه يؤثر في بدن الإنسان وقلبه وعقله، وأن تأثيره يتفاوت شِدَّة وخفة، وأن جُلّ مقصده الإضرار بالآخرين.

إن السِّحر يتم بمعاونة الشيطان للساحر على أذى المسحور، فيقع السِّحر بإذن الله الكوني القدري، وتلك المعاونة لا يقدمها الشيطان للساحر

---

(١) شرح السنة للبغوي ١٢/ ١٨٨.

(٢) المغني، لابن قدامة ١٢/ ٢٩٩.

(٣) هو: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد القسطلاني، محدِّث، مؤرِّخ، فقيه، مقرئ، ولد بمصر ونشأ بها، وقدِمَ مكة، وله عدّة مؤلفات، توفي بالقاهرة سنة ٩٢٣هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ١٣٩، الأعلام ١/ ٢٣٢، معجم المؤلفين ٢/ ٨٥.

(٤) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٨/ ٤٠١.

(٥) الطب من الكتاب والسنة ص٢٣٠.

إلا إذا تقرَّب إليه الساحر بما يحبه من الكفر والإشراك بالله ـ تعالى ـ؛ كأن يكتب الساحر كلام الله بالنجاسة بدم أو غيره، أو يطأ القرآن ويلوثه بالنجاسات، أو غير ذلك مما يُرضي به الشيطان، فيُعينه على بعض ما أراد منه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان إذا فسدت نفسُه أو مزاجه يشتهي ما يضرُّه ويلتذ به، بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله، والشيطان هو نفسه خبيث، فإذا تقرَّب صاحب العزائم والأقسام وكتب الروحانيات السحرية وأمثال ذلك إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك، صار ذلك كالرشوة والبرطيل لهم، فيقضون بعض أغراضه. . . . قال: ولهذا كثير من هذه الأمور يكتبون فيها كلام الله بالنجاسة، وقد يقلبون حروف كلام الله ﷻ، إما حروف الفاتحة، وإما حروف قل هو الله أحد، وإما غيرها، إما دمّ، وإما غيره، وإما بغير نجاسة، أو يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان، أو يتكلَّمون بذلك، فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم»[1].

ويقول ابن القيّم: «وقلَّما يتأتَّى السِّحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه، إما بذبح باسمه ـ يعني الشيطان ـ أو بذبح يُقصد به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق»[2].

وقال الألوسي: «ويُستعان في تحصيل السِّحر بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح، قولاً كالرُّقى التي فيها ألفاظ الشرك ومدح الشيطان وتسخيره، وعملاً كعبادة الكواكب، والتزام الجناية وسائر الفسوق، واعتقاداً كاستحسان ما يوجب التقرُّب إليه ومحبته إياه، وذلك لا يستتب إلا بمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس، فإن التناسب شرط التضامّ والتعاون، فكما أن الملائكة لا تعاون إلا أخيار الناس المشبهين بهم في المواظبة على العبادة والتقرّب إلى الله ـ تعالى ـ بالقول والفعل، كذلك الشياطين لا تعاون

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٥.

إلا الأشرار المشبهين بهم في الخباثة والنجاسة قولاً وعملاً واعتقاداً»[1].

فالهدف الأكبر للشيطان والمقصد الأساس من إعانته الساحر في سحره هو صرفه عن توحيد الله وعبادته والإشراك به ـ تعالى ـ، والقصص والأحداث الدالة على هذا أكثر من أن يسعها هذا المبحث، فمنها ما ذكر عن ساحر في أوائل هذا القرن، وكان يطلب من أعيان الناس أن يُلقوا خواتمهم في البحر، فإذا فعلوا أعادها إليهم، وكان يأتي بعجائب أكثر من ذلك، فلما مات أراد ابنه أن يزاول صنعة أبيه، فنهته أمه عن ذلك، فلما سألها عن السبب، فتحت له دولاباً وأخرجت منه صنماً، وقالت له: إن أباك كان يسجد لهذا الصنم لكي تساعده الشياطين على إظهار العجائب، فلا تكفر كما كفر أبوك[2].

إلى غير ذلك من الأمور الدالَّة على أن عدو الله الشيطان لا يقدِّم معونته للساحر إلا بعد أن يتحقق من ولائه له وخضوعه لفعل ما يرضيه، وإظهار ما يدل على شركه بالله ـ تعالى ـ، يقول الذهبي: «وما للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السِّحر إلا ليشرك به»[3].

ويقول موريس چارسون ـ وهو أحد أقطاب المحاماة ومن المراجع الموثوق بها في علم السحر في فرنسا ـ: «إن أول عمل يقوم به الساحر عند تحالفه مع الشيطان وظهور الأخير لمقابلته له أول مرة؛ هو تحرير ميثاق أو عقد يُنَص فيه أن يبيع الطرف الأول للطرف الثاني روحه ونفسه ومتاعه وكل ما يملك، نظير أن يمنح الطرف الثاني (الشيطان) للطرف الأول (الساحر) القوة والمقدرة لإتيان الأعمال السحرية»[4].

وإذا كان السِّحر من عمل الشيطان ومعونته للساحر، ويحقق الساحر

---

(١) روح المعاني ١/٣٣٨.
(٢) العلاج الرباني للسِّحر والمسّ الشيطاني ص٢٢.
(٣) الكبائر للذهبي ص١٤.
(٤) عالم السحر والشعوذة ص١٧٤.

من خلال السِّحر غرضه ومقصده الخبيث، فهل للسِّحر حقيقة في الخارج أم إنه تخييل لا حقيقة له؟.

على قولين لأهل العلم في المسألة هما فيما يأتي:

القول الأول: إن السِّحر تخييل لا حقيقة له، وهذا اختيار أبي بكر الرازي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وطائفة[(١)].

قال أبو بكر الجصاص: «ومخاريق السَّحَرة وتخييلاتهم، إنما هي ضرب من الحيلة والتلطف لإظهار أمور لا حقيقة لها»[(٢)].

ويقول جمال الدين القاسمي: «وبالجملة فالسحر المطلق، إنما هو تخييل بشعوذة صارفة للأبصار، أو تمتمة مزخرفة عائقة للأسماع، فلا يغير حقائق الأشياء، ولا ينقل الصور»[(٣)].

القول الثاني: وذهب الجمهور إلى أن للسِّحر حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء، قال الإمام المازري رحمه الله: «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السِّحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة، خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها»[(٤)].

وقال النووي: «والصحيح أن له ـ أي السِّحر ـ حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة»[(٥)].

وقال القرافي: «السِّحر له حقيقة، وقد يموت المسحور أو يتغيَّر طبعه

---

(١) انظر: فتح الباري ١٠/٢٣٣، والفِصَل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٥/٢.
(٢) أحكام القرآن للجصَّاص ١/ ٦٠.
(٣) محاسن التأويل ٢/ ٢١٤.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٧٤.
(٥) روضة الطالبين للنووي ٩/٣٤٦.

وعادته، وإن لم يباشره، وقال به الشافعي وابن حنبل»[1].

وقال ابن حجر الهيتمي[2]: «اختلف العلماء في أن للسِّحر حقيقة أم لا؟ فقال بعض العلماء: إنه تخييل لا حقيقة له، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. وقال الأكثرون ـ وهو الأصح الذي دلت عليه السنة ـ: له حقيقة»[3].

وقال الشوكاني: «وقد أجمع أهل العلم أن له ـ أي السِّحر ـ تأثيراً في نفسه وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة»[4].

ويرى ابن خلدون في مقدمته أن الاختلاف في حقيقة السِّحر ناشئ بسبب أن النفوس الساحرة على ثلاث مراتب:

الأولى: المؤثرة بالهمَّة فقط من غير آلة ولا مُعين، وهذا هو الذي تُسمِّيه الفلاسفة السِّحر.

الثانية: المؤثرة بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواصّ الأعداد، ويسمُّونه الطلسمات.

الثالثة: تأثير في القوى المتخيلة، يعمد صاحب هذا التأثير إلى القِوَى المتخيلة فيتصرَّف فيها بنوع من التصرف، ويلقي فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة وصوراً مما يقصده من ذلك، ثم ينزلها إلى الحسّ من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه، فينظر الراؤون كأنها في الخارج وليس هناك شيء من ذلك، ويُسمَّى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والشعبذة، فيرى ابن خلدون أنه

---

(١) الفروق للقرافي ٤/١٤٩.

(٢) هو: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين، أبو العباس، فقيه باحث مصري، مولده في محلة أبي الهيتم «من إقليم الغربية بمصر» تلقى العلم بالأزهر، ومات بمكة سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وله مصنفات كثيرة.
انظر: هدية العارفين ١/١٤٦، الأعلام ١/٢٣٤.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي ٢/١٠٠.

(٤) فتح القدير ١/١٢١.

لما كانت المرتبتان الأُوليان من السِّحر لها حقيقة في الخارج، والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها، اختُلف في السِّحر هل هو حقيقة أو هو تخييل فقط؟ فمن قال: بأن له حقيقة، نظر إلى المرتبتين الأوليين، ومن قال: لا حقيقة له، نظر إلى المرتبة الثالثة الأخيرة(١).

ولا ريب أن الصواب الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنة وأقوال أهل العلم والواقع المشاهد أن للسِّحر حقيقة ثابتة، وتأثيراً ظاهراً في الأجسام المسحورة، كالمرض، والموت، والتفريق بين الزوجين، وفي الحب والبغض... وغير ذلك مما تظهر فيه حقيقة السحر وأثره، والأدلة من الكتاب والسُّنة على ذلك هي فيما يأتي:

١ - قال - تعالى -: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ ...﴾ الآية [البقرة: ١٠٢].

فقد دلت هذه الآية على حقيقة السِّحر، وأن الشياطين يعلمونه الناس ويتلقاه السَّحَرة منهم، قال القرطبي: «ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر - تعالى - أنهم يعلمونه الناس، فدلّ على أن له حقيقة»(٢).

ومما يدل على أن للسِّحر حقيقة ثابتة، التصريح في الآية بأن السَّحَرة يفرّقون بسحرهم بين المرء وزوجه، قال المازري: «وقد ذكره الله - تعالى - في كتابه وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق به بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له»(٣).

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص٣١٢.
(٢) تفسير القرطبي ٢/٤٦.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٤.

٢ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١].

فإخبار الله ـ جل وعلا ـ بإبطال السِّحر دليل على أن للسِّحر حقيقة يقوم عليها ويبطل تأثيرها بإبطاله.

٣ ـ قال ـ تعالى ـ في سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤].

فقد دلّت هذه الآية على حقيقة السِّحر، ولو لم يكن له حقيقة لما أمر الله ـ تعالى ـ بالاستعاذة من السِّحر، وقد استدل أبو إسحاق الشيرازي بهذه الآية على حقيقة السِّحر ثم قال: «والنفاثات السواحر، ولو لم يكن له ـ أي السِّحر ـ حقيقة لما أمر بالاستعاذة من شره»(١). وقال أبو محمد بن قتيبة بعد أن ذكر مذهب من قال بأن السِّحر تخييل لا حقيقة له، قال: «ونحن نقول بأن الذي يذهب إلى هذا مخالف للمسلمين واليهود والنصارى وجميع أهل الكتاب، ومخالف للأمم كلها؛ الهند وهي أشدها إيماناً بالرُّقى، والروم والعرب في الجاهلية وفي الإسلام، ومخالف للقرآن، معاند له بغير تأويل، لأن الله ﷻ قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ١ ـ ٤]، فأعلمنا أن السواحر ينفثن في عُقد يعقدنها كما يتفل الراقي والمعوِّذ»(٢).

٤ ـ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات(٣)، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم،

---

(١) المجموع شرح المهذب ١٩/ ٣٤٠.

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١٦٧.

(٣) الموبقات: أي المهلكات، والموبَق: المهلَك. النهاية في غريب الحديث ٥/ ١٤٦.
ويقول المهلب: سُمِّيت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها. فتح الباري ١٢/ ١٨٩.

والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[1].

فعدّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ السِّحر من السبع الموبقات، ولولا أن له حقيقة ثابتة في الخارج لما جاء النهي عنه في الحديث ضمن الكبائر المنهي عنها، والتي لها حقائق لا يمكن حصول تلك الكبائر دون ثبوتها.

٥ ـ ما رواه عامر بن سعد بن أبي وقاص[2] عن أبيه ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (من تصبَّح كل يوم سبع تمرات عَجْوَة لم يضرّه في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سحر)[3]. فقد دلّ هذا الحديث على أن للسِّحر حقيقة، وأن له تأثيراً في الخارج، ولو لم يكن له حقيقة لم يحصل منه مضرَّة مؤثرة، ولما أُمرنا باتِّقاء شره.

٦ ـ ما روته عائشة ﵂ في إصابة النبي ﷺ بالسحر وتأثيره فيه، حيث قالت: سَحَر رسول الله ﷺ رجلٌ من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيَّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: (يا عائشة، أشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا، حديث [٢٧٦٦] باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ..﴾ الآية، ومسلم في الإيمان، حديث [٨٩] باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) هو: عامر بن سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي المدني، تابعي جليل، وإمام ثقة، كثير الحديث، روى عن أبيه وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وعائشة وأم سلمة وغيرهم من الصحابة ﵃، توفي سنة ١٠٤هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٢٤٣، الثقات ٥/١٨٦، المعرفة والتاريخ ١/٣٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة، حديث [٥٤٤٥] باب العجوة، ومسلم في الأشربة بدون قوله (كل يوم) حديث [٢٠٤٧] باب فضل تمر المدينة.

أي شيء؟ قال: في مِشْط ومُشاطة، وجُفِّ طلْع نخلةٍ ذكر[١]، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان)، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: (يا عائشة، كأن ماءَها نُقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين)، قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: (قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرّاً)، فأمر بها فدفنت[٢].

فهٰذا الحديث فيه دلالة صريحة على أن السِّحر حقيقة لا تخييل، قال المازري: «وهذا الحديث أيضاً مُصَرِّح بإثباته - أي السِّحر -، وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قالوه، فإحالة كونه من الحقائق محال»[٣].

وقد دلّ شفاء النبي ﷺ وعافيته من السِّحر على حقيقة السِّحر وثبوتها، يقول القرطبي: «والشفاء إنما يكون برفع العِلَّة وزوال المرض، فدلّ على أن له حَقّاً وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحلّ والعقد الذي ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحُثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق»[٤].

ولقد أنكر طائفة من الناس إصابة النبي ﷺ بالسحر، وطعنوا في حديث عائشة رضي الله عنها وردوه، واستندوا في ذلك على الأمور الآتية:

١ - أن هشام بن عروة[٥] الذي روى الحديث عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها

---

(١) جُفّ طلع النخل: هو الغشاء الذي يكون على الطَّلْع، ويطلق على الذكر والأنثى، ولهذا قُيِّد في الحديث بالذكر. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، حديث [٣٢٦٨] باب صفة إبليس وجنوده، ومسلم في السلام، حديث [٢١٨٩] باب السِّحر.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ١٧٤.

(٤) تفسير القرطبي ٢/ ٤٦.

(٥) هو: هشام بن عروة بن الزبير بن العوَّام القرشي الأسدي، أبو المنذر، من مشاهير تابعي المدينة، وأحد المكثرين من رواية الحديث، ومن أكابر العلماء وجُلَّة التابعين، وله نحو أربعمائة حديث، توفي في بغداد، سنة ١٤٦هـ.
انظر: تاريخ بغداد ١٤/ ٣٧، الطبقات الكبرى ٥/ ٣٧٥، وفيات الأعيان ٦/ ٨٠.

قد غلط في روايته، واشتبه عليه الأمر، ونسب إلى النبي ﷺ من إصابته بالسحر وتأثره به بما لم يكن له شيء[1].

قال أبو بكر الجصاص: «ولم يقل كل الرواة أنه اختلط عليه أمره، وإنما هذا اللفظ زِيدَ في الحديث ولا أصل له»[2].

ويقول القاسمي: «ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما بُرهن عليه، وإن كان مُخرّجاً في الصحاح، وذلك ليس كل مخرّج فيها سالماً من النقد، سنداً أو معنى، كما يعرفه الراسخون»[3].

٢ ـ أنه لو جوَّزنا إصابة النبي ﷺ بالسحر وتأثيره فيه، لأدّى هذا إلى إبطال معجزات الأنبياء، ولما فُرّق بينها وبين فعل السَّحَرة وأنها جميعها من نوع واحد.

٣ ـ إن التصديق بإصابته ﷺ بالسحر وتأثيره فيه، هو تصديق لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وقول قوم صالح عليه السلام له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وقول قوم شعيب عليه السلام له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

قال أبو بكر الأصم[4]: «إن حديث سحره ﷺ المروي هنا متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة: إنه مسحور، وهو مخالف لنص القرآن، حيث أكذبهم الله فيه»[5]. وقال أبو بكر الجصاص: «والعجب ممن يجمع بين

(١) انظر: بدائع الفوائد ٢/ ٢٢٣.
(٢) أحكام القرآن، للجصاص ١/ ٦٠.
(٣) محاسن التأويل ١٧/ ٣٠٥.
(٤) هو: عبد الرحمٰن بن كيسان الأصم، أبو بكر، شيخ المعتزلة، قال عنه الذهبي: «كان ديّناً وقوراً، صبوراً على الفقر، منقبضاً عن الدولة، إلا أنه كان فيه ميل عن الإمام علي»، مات سنة ٢٠١هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٠٢، الأعلام ٣/ ٣٢٣.
(٥) المجموع شرح المهذب ١٩/ ٢٤٣.

تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم، وبين التصديق بمثل هذا من فعل السَّحَرة مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، فصدَّق هؤلاء من كذَّبه الله وأخبر ببطلان دعواه وانتحاله»[١].

٤ ـ إن الأنبياء لا يجوز عليهم أن يُسْحَروا، لأن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين، فكيف يصل السِّحر إلى النبي ﷺ مع حياطة الله ـ تعالى ـ له وتسديده إياه بملائكته، وصونه الوحي عن الشيطان؟ والله ـ تعالى ـ يقول في القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، ويقول ـ تعالى ـ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]»[٢].

والحقيقة أن هذه الطعون لا تقوم في ردّ حديث عائشة رضي الله عنها، ونفي إصابة النبي ﷺ بالسحر، ولذا فإنه يجاب على استدلالات أولئك وطعونهم بما يأتي:

١ ـ أن هشام بن عروة رحمه الله الذي طعنوا فيه، هو من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد بما يوجب ردّ حديثه، بل قال عنه ابن سعد[٣]: «كان ثقة ثبتاً كثير الحديث، حُجَّة»[٤]. وقال وهيب[٥]: «قَدِم علينا

---

(١) أحكام القرآن ١/ ٦٠.

(٢) انظر: تأويل مختلف الحديث ص١٦٦.

(٣) هو: محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري، أبو عبد الله، مولى بني هاشم، كان أحد العلماء الفضلاء النبلاء الأجلاء، وهو كاتب الواقدي، وصنف كتاباً كبيراً في طبقات الصحابة والتابعين والخالفين إلى وقته، قال الذهبي: «وكان من أوعية العلم ومن نظر في (الطبقات) خضع لعلمه» توفي سنة ٢٣٠هـ.
انظر: تاريخ بغداد ٥/ ٣٢١، وفيات الأعيان ٤/ ٣٥١، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٦٤.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٣٧٥.

(٥) هو: وهيب بن خالد بن عَجْلان الكرابيسي، الباهلي مولاهم، أبو بكر البصري، كان إماماً حافظاً ثبتاً، ومن أبصر أصحابه بالحديث والرجال، قال ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث، حُجَّة، وكان أحفظ من أبي عوانة، وكان يملي حفظاً» توفي سنة ١٦٥هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٤٦٧، الطبقات الكبرى ٧/ ٢١١، سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٢٣.

هشام بن عروة، فكان مثل الحسن، وابن سيرين»[1]، وقال أبو حاتم الرازي: «ثقة، وإمام في الحديث»[2]، وقال يحيى بن معين[3] وجماعة: ثقة. وقال الذهبي: «هشام لم يختلط قط، هذا أمر مقطوع به، وحديثه مُحْتَجّ به في الموطأ والصحاح والسنن»[4]. وذكره ابن حبان في الثقات وقال: «كان متقناً ورعاً فاضلاً حافظاً»[5].

٢ ـ إن حديث عائشة ﵂ اتفق عليه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهما أصحُّ كتب السنة، فالحديث صحيح بإجماع المحدِّثين، ولم يُطعن فيه بكلمة واحدة، يقول ابن القيم عن حديث عائشة: «وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهم أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلِّمين»[6].

وقال محمد الجكني اليوسفي[7] بعد أن ذكر مضمون كلام الجصَّاص المتقدِّم: «هو كلام من لم يحقق في هذه المسألة، ولم يشمّ رائحة علم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) هو: يحيى بن معين بن عوف بن زياد بن بسطام الغطفاني ثم المري مولاهم، البغدادي، أبو زكريا، شيخ المحدثين، كان إماماً عالماً حافظاً متقناً، وأستاذ صناعة الجرح والتعديل في زمانه، وكثرت عنايته بالسنن وجمعه لها وحفظه إياها، توفي سنة ٢٣٣هـ.
انظر: الثقات ٩/ ٢٦٢، الطبقات الكبرى ٧/ ٢٥٣، سير أعلام النبلاء ١١/ ٧١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦.

(٥) الثقات، لابن حبّان ٥/ ٥٠٢.

(٦) بدائع الفوائد ٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٧) هو: محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد مايابي الجكني اليوسفي الشنقيطي، عالم الحديث، ولد وتعلم بشنقيط، وانتقل إلى مراكش، فالمدينة المنورة، واستوطن مكة، ثم استقر بالقاهرة، واختير مدرساً في كلية أصول الدين بالأزهر، وله عِدَّة مؤلفات، توفي بالقاهرة سنة ١٣٦٣هـ.
انظر: الأعلام ٦/ ٧٩، معجم المؤلفين ٩/ ١٧٦.

الحديث، لأن الحديث إذا اتفق عليه الشيخان صار له حكم المتواتر، كما صرَّح به الحافظ ابن الصلاح(١) وغيره من الحُفَّاظ كالحافظ العراقي(٢)، وابن دقيق العيد(٣)، والحافظ ابن حجر، والمحقق العلامة العيني(٤)، والجلال السيوطي والقسطلاني وغيرهم... قال: فالمسألة ليست كما زعم، الحديث صحيح بإجماع المحدِّثين»(٥).

ثم إنه جاء ما يدل على إصابة النبي ﷺ بالسحر وتأثيره فيه من غير هذا الحديث، وذلك فيما رواه زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سَحَر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن رجلاً من اليهود سَحَرك، عَقَد لك عُقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله ﷺ فاستخرجوها فجيء بها، فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشِطَ من عقال(٦).

---

(١) هو: عثمان بن عبد الرحمٰن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الموصلي، من كبار الأئمة، مفتي الشام ومحدِّثها، كان إماماً علامة في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وغيرها، وصنَّف كتباً كثيرة مفيدة، توفي سنة ٦٤٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان ٣/ ٢٤٣، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٠، البداية والنهاية ١٣/ ١٧٩.

(٢) هو: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، حافظ العصر، اشتغل بالعلوم، وأحب الحديث، فأكثر من السماع، وتقدَّم في فن الحديث، وكان شيوخ عصره يثنون عليه، وجاد قلمه بالمؤلفات المفيدة، توفي سنة ٦٠٦هـ.
انظر: ذيل تذكرة الحفاظ ص٣٧٠، هدية العارفين ١/ ٥٦٢، الأعلام ٣/ ٣٤٤.

(٣) هو: محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد القشيري المنفلوطي الشافعي، أبو الفتح، كان إماماً متفنناً محرراً فقيهاً أصولياً أديباً نحوياً ذكياً غواصاً على المعاني، سمع الكثير ورحل في طلب الحديث، وانتهت إليه رئاسة العلم في زمانه، وله مصنفات فريدة مفيدة، توفي سنة ٧٠٢هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٨١، العبر ٤/ ٦، الدّرر الكامنة ٤/ ٩١.

(٤) هو: محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين العنتابي الحنفي، أبو محمد، بدر الدين العيني، كان إماماً عالماً علّامة، من كبار المحدِّثين، ولي قضاء الحنفية بالقاهرة، وعكف على التدريس، والتصنيف إلى أن توفي سنة ٨٥٥هـ.
انظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٧٥، هدية العارفين ٢/ ٤٢٠، الأعلام ٧/ ١٦٣.

(٥) زاد المسلم ٤/ ٢٢٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٦٧، والنسائي في تحريم الدم، حديث [٤٠٨٠]=

فليس بمستنكر أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من الأذى، فقد ابتلاه الله ـ تعالى ـ بالذي رماه فشجّه، وابتلاه باليهودية التي سمّته في ذراع شاة، وابتلاه بمن ألقى على ظهره السّلا وهو ساجد، وغير ذلك من البلاء، فالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أشدُّ الناس بلاء، فهذا لا نقص فيه عليه ﷺ، بل هو لكماله ورفع درجاته عند ربه ـ تعالى ـ، فحَمَلَةُ حديثِ سحره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس فيهم متّهم ولا كذاب فيزيد في الحديث ما ليس منه مما لا يعود عليه بالنفع ولا بالضر، يقول أبو محمد ابن قتيبة بعد أن ذكر حديث عائشة رضي الله عنها: «وليس هذا مما يجترُّ الناس به إلى أنفسهم نفعاً، ولا يصرفون عنها ضراً، ولا يكسبون به رسول الله ﷺ ثناءً ومدحاً، ولا حَمَلة هذا الحديث كذّابين ولا متّهمين ولا مُعادين لرسول الله ﷺ، وما يُنكر أن يكون لبيد بن الأعصم هذا اليهودي سحر رسول الله ﷺ، وقد قتلت اليهود قبله زكريا بن آذن، في جوف شجرة، قطّعته قطعاً بالمناشير»[1].

وبعد هذا فإن المعوّل في قبول الحديث وردِّه، ليس بما تستسيغه العقول وتقبله النفوس، وإنما المعوّل في ذلك ثبوت الحديث وصحته، وهذا هو منهج المحدِّثين من أهل السُّنَّة والجماعة من سلف الأمة وخلفها في قبول الحديث وردّه.

٣ ـ وأما قولكم: بأنه لو جوّزنا إصابة النبي ﷺ بالسحر وتأثيره فيه لأدَّى هذا إلى إبطال المعجزات، ولما فُرِّق بينها وبين فعل السَّحَرة. فنقول: إن هذا القول صحيح إذا لم تُعرف الضوابط التي يُفَّرق بها بين المعجزة والسِّحر، أَمَا وقد فرّق أهل العلم بينهما بضوابط تُبيِّن حقيقة كل منهما وتحدِّد مفهومه بما يمنع دخول الآخر في معناه، فإنه لا يستقيم قولكم هذا.

= باب سحرة أهل الكتاب، وفي سننه الكبرى ٢/ ٣٠٧، وابن سعد في الطبقات الكبرى نحوه ٢/ ١٥٣، والطبراني في الكبير ٥/ ١٨٠، وعبد بن حميد في المنتخب، حديث [٢٧١]، وأخرجه الحاكم بلفظ آخر في المستدرك ٤/ ٤٠١ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه».

(١) تأويل مختلف الحديث ص١٦٨.

قال المازري: «والفرق بين السِّحر والمعجزة والكرامة: أن السِّحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك بل إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدِّي»(١).

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: السِّحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد، وأما المعجزة لا يُمكِّن الله أحداً أن يأتي بمثلها وبمعارضتها، ثم الساحر لم يَدَّع النبوة، فالذي يصدر منه متميّز عن المعجزة، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوة النبوة والتحدّي بها»(٢).

وقد فرَّق بينهما شيخ الإسلام ابن تيمية بالأمور الآتية(٣):

ـ أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب، لا يكذب قط، ومن خالفه من السَّحَرة والكهان لا بد أن يكذب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ـ من جهة الأمر والفعل، فإن الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل وطلب الآخرة وعبادة الله وحده، وأعمالهم البرّ والتقوى، ومخالفوهم يأمرون بالشرك والظلم ويعظِّمون الدنيا، وفي أعمالهم الإثم والعدوان.

ـ أن السِّحر والكهانة أمور معتادة، معروفة لأصحابها، ليست خارقة لعادتهم، وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم ولمن اتَّبعهم.

ـ أن السِّحر والكهانة يناله الإنسان بتعلُّمه وسعيه واكتسابه، وهذا مجرَّب عند الناس، بخلاف النبوَّة، فإنه لا ينالها أحد باكتسابه، ولو قُدِّر أن النبوَّة تنال بالكسب، فإنما تنال بالأعمال الصالحة، والصدق والعدل،

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٣٣.

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ٤٧.

(٣) انظر: النبوَّات لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢١٤ ـ ٢١٦.

والتوحيد، لا تحصل مع الكذب على من دون الله، فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله، فالطريق الذي تحصل به لو حصلت بالكسب مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به.

ـ أن ما يأتي به الكُهَّان والسَّحَرَة لا يخرج عن كونه مقدوراً للجن والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل، وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كل من أُرسل النبي إليه.

ـ أن الكهانة والسِّحر ونحوهما يمكن أن تعارض بمثلها، كما أنها ليست خارقة لعادات بني آدم، فكل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء، وأما آيات الأنبياء فلا يمكن لأحد أن يعارضها بمثلها، وهي ليست معتادة لغير الصادقين مع الله ولمن صدقهم.

٤ ـ إن ما استدللتم به من أن تصديق إصابة النبي ﷺ بالسحر وتأثيره فيه، يلزم منه تصديق قول الكافرين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، فنقول: إن المراد من قولهم «مسحوراً» أي مجنوناً، حيث شبَّهوا أقواله وما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن ربه ـ تعالى ـ بمن أصيب بالسِّحر فخبَّل السِّحرُ عقلَه، يقول ابن عطية: «فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم، وأقواله الوخيمة برأيهم، بما يكون من المسحور الذي قد خبّل السِّحر عقله، وأفسد كلامه، وتكون الآية على هذا شبيهة بقول بعضهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون: ٢٥] ونحو هذا»[1].

ثم إن قول الكافرين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، كان قبل قصة سحر اليهود للنبي ﷺ الذي مرض بسببه، فلا منافاة حينئذٍ بين هذه الآية وبين سحر اليهود له ـ عليه الصلاة والسلام[2] ـ.

٥ ـ أما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله ـ تعالى ـ لهم، فنقول: إن حماية الله ـ تعالى ـ لأنبيائه لا تمنع ابتلاءهم بما يرفع درجاتهم

---

(١) تفسير ابن عطية ٩/ ١٠٢.

(٢) انظر: زاد المسلم ٤/ ٢٢٢.

ومنازلهم عند ربهم ـ جل وعلا ـ، فقد ابتلى الله ـ تعالى ـ نبيه أيوب عليه السلام حتى نادى ربه ـ تعالى ـ بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، وابتلى موسى عليه السلام بفرعون وسَحَرته حتى أوجس في نفسه خيفة، وابتلى نبيه عيسى عليه السلام باليهود حتى أرادوا قتله، بل إن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ . . .﴾ الآية [الحج: ٥٢]، بمعنى إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته.

فليس ببدع إذاً أن يبتلي الله نبينا ﷺ بسحر اليهود له وتربّصهم الشر به، يقول أبو محمد بن قتيبة: «فإن كانوا إنما أنكروا ذلك، لأن الله ـ تعالى ـ لا يجعل للشيطان على النبي ﷺ سبيلاً ولا على الأنبياء، فقد قرأوا في كتاب الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾. . . . ثم قال: غير أنه لا يقدر ـ أي الشيطان ـ أن يزيد فيه أو ينقص منه، أما تسمعه يقول: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] أي يبطل ما ألقاه الشيطان، ثم قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]، وكذلك قوله في القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، أي: لا يقدر الشيطان أن يزيد فيه أولاً ولا آخراً»(١).

ثم إن سِحْرَ اليهود للنبي ﷺ لا يبلغ إلى الإخلال بالوحي والشرع وتبليغ الرسالة، فالله ـ جل وعلا ـ قد حفظ دينه من الفساد والتبديل، قال القاضي عياض: «السِّحر مرض من الأمراض، وعارض من العلل يجوز عليه ـ أي النبي ﷺ ـ كأنواع الأمراض مما لا يُنكر ولا يَقْدح في نبوَّته، وأما ما ورد أنه كان يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يُدْخِلُ عليه دَاخِلَةً في شيء من تبليغه أو شريعته أو يَقْدح في صدقه، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا»(٢).

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٨١.

ويقول الخطّابي: «فأما ما زعموا من دخول الضرر في الشرع بإثباته ـ أي السِّحر ـ فليس كذلك، لأن السِّحر إنما يعمل في أبدانهم ـ يعني الأنبياء ـ وهم بشرٌ، يجوز عليهم من العِلَلِ والأمراض ما يجوز على غيرهم، وليس تأثير السِّحر في أبدانهم بأكثر من القتل، وتأثير السمِّ وعوارض الأسقام فيهم، وقد قُتل زكريا وابنه، وسُمَّ نبينا ﷺ بخيبر، فأما أمر الدين، فإنهم معصومون فيما بعثهم الله ـ جل ذكره ـ، وأرصدهم له، وهو ـ جل ذكره ـ حافظ لدينه، وحارس لوحيه أن يلحقه فساد أو تبديل. . . . قال: فلا ضرر إذاً يلحقه فيما لحقه من السِّحر على نبوته وشريعته، والحمد لله على ذلك»(١).

فقد حفظ الله ـ تبارك وتعالى ـ دينه وصان شرعه من الزيادة والنقص، فلم يؤثر سحر اليهود للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الشرع وتبليغ الرسالة، وإنما كان أثر السِّحر على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده، يقول القاضي عياض بعد أن ذكر الروايات في سحره ﷺ: «فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السِّحر إنما تسلَّط على ظاهره وجوارحه، لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثّر في بصره، وحبَسَه عن وطء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمرضه»(٢).

وبهذا يتَّضح الصَّواب في هذه المسألة، وهو قبول ما جاء في الروايات الصحيحة من كيد اليهود للنبي ﷺ وسحرهم له وتأثير السِّحر فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأن غاية تأثير هذا السِّحر لم تتجاوز ظاهر جسده وجوارحه، دون قلبه وعقله أو يُخلّ بتبليغه الرسالة والوحي.

ويحرم تعلُّم السِّحر وتعليمه لمضرّته المحضة، وعدم منفعته الدينية والدنيوية، يقول النووي: «ومذهب الجماهير أن السِّحر حرام من الكبائر

---

(١) شرح السنة للبغوي ١٢/١٨٨.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/١٨٢.

فعله وتعلّمه وتعليمه»[1]، وذكر أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من العلوم الخارجة عن العلم الشرعي، ما هو محرم أو مكروه ومباح، ثم قال: «فالمحرم كتعلم السِّحر، فإنه حرام على المذهب الصحيح، وبه قطع الجمهور»[2].

وقال ابن قُدامة: «تعلّم السِّحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم، قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلُّمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته»[3].

وقد أجاز بعض العلماء تَعلُّم السِّحر لأحد أمرين:

أ ـ إما لتمييز ما فيه كفر عن غيره.

ب ـ وإما لإزالته عمن وقع فيه.

ويرى ابن حجر العسقلاني أن الأول لا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سَلِم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا تستلزم منعاً. وأما الثاني: فإن كان لا يتم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً، وإلا جاز[4].

ويجدر بالمسلم أن يسدّ باب تعلم السِّحر لأي غرض كان، فلا يجلب المسلم بتعلُّمه السِّحر إلى نفسه منفعة دينية ولا دنيوية، بل لا يأتي من هذا العلم إلا الضرر المحض، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ففي هذه الآيات دلالة صريحة على ذمّ تعلُّم السِّحر وعدم منفعته، قال السعدي: «إن علم السِّحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٨٨.
(٢) المجموع شرح المهذب ١/ ٢٧.
(٣) المغني ١٢/ ٣٠٠.
(٤) انظر: فتح الباري ١٠/ ٢٣٥.

المعاصي. . . . قال: فهذا السِّحر مضرّة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرّة محضة، أو شرها أكبر من خيرها، كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها»[1]، وقال القاسمي: «وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ إرشاد إلى أنه ليس في تعلُّم السِّحر إلا المضرّة، لما فيه من التلبيس والتمويه وإيهام الباطل حقاً، والتوصل به إلى المفاسد والشرور»[2].

ولقد أجمعت الأمة على تحريم فعل السِّحر، وذهب الجمهور إلى وجوب قتل الساحر، كما هو مأثور عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب[3]، وقيس بن سعد[4]، وحفصة بنت عمر رضي الله عنهم، وعمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ[5].

فعن عمرو بن دينار[6] أنه سمع بجالة بن عبدة[7] يقول: كتب عمر بن

---

(١) تيسير الكريم الرحمٰن ١/ ٨٢.

(٢) محاسن التأويل ٢/ ٢١٤.

(٣) هو: جندب بن كعب بن عبد الله بن جزء بن عامر الأزدي الغامدي، أبو عبد الله، جندب الخير، صاحب رسول الله ﷺ، روى عن النبي ﷺ وعن عليّ وسلمان الفارسي رضي الله عنهما، وروى عنه الحسن البصري، وأبو عثمان النهدي وغيرهما، وهو الذي قتل الساحر الذي كان يلعب بين يدي الوليد بن عقبة، توفي لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية.
انظر: الاستيعاب ١/ ٢٥٨، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٥، الإصابة ١/ ٢٦١.

(٤) هو: قيس بن سعد بن عبادة الساعدي، أبو عبد الله، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، وسيد الخزرج وابن سيِّدهم، روى عن النبي ﷺ عدَّة أحاديث، وهو من أسخياء الصحابة ودُهاتهم، وأحد الفضلاء الجُلّة، توفي بالمدينة في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه.
انظر: الطبقات الكبرى ٦/ ١٢١، سير أعلام النبلاء ٣/ ١٠٢، الإصابة ٥/ ٢٥٤.

(٥) انظر: المغني، لابن قدامة ١٢/ ٣٠٢.

(٦) هو: عمرو بن دينار الجمحي مولاهم المكي الأثرم، أبو محمد، شيخ الحرم في زمانه، وكان ثقة ثبتاً كثير الحديث، وكان ابن عيينة من أروى الناس عنه، وقال عنه: «ما كان عندنا أحد أفقه ولا أعلم ولا أحفظ من عمرو بن دينار» توفي سنة ست ١٢٦هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٣٦٣، الطبقات الكبرى ٦/ ٢٩، سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٠٠.

(٧) هو: بجالة بن عبدة التميمي العنبري البصري، كاتب جزء بن معاوية، روى عن =

الخطاب رضي الله عنه، أن اقتلوا كل ساحر وساحرة[1].

وروى ابن أبي شيبة عن الحسن أنه قال: «يُقتل السُّحَّار ولا يُستتابوا»[2].

وروى ابن أبي شيبة أن عامل عمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز في ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البيّنة فاقتلها[3]، وروى عن سعيد بن المسيب في الساحر إذا اعترف يقتل[4].

وعن أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ أن الساحر يقتل مطلقاً إذا علم أنه ساحر بإقراره أو بيِّنة تشهد عليه بأنه ساحر، ويصفونه بصفة تعلم أنه ساحر، ولا يقبل قوله: أترك السِّحر وأتوب عنه. فإن أقرَّ: بأني كنت أسحر مُدَّة وقد تركت ذلك منذ زمان، قُبل منه، ولم يقتل، وسُئل أبو حنيفة: لِم لَمْ يكن الساحر بمنزلة المرتد حتى تقبل توبته؟ فقال: لأنه جمع مع كفره السعي في الأرض بالفساد، ومن هو كذلك يقتل مطلقاً[5].

وقال الإمام مالك رحمه الله: «الساحر الذي يعمل السِّحر، ولم يعمل ذلك له غيره، هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] فأرى أن يقتل ذلك، إذا عمل ذلك هو نفسه»[6].

= عبد الرحمٰن بن عوف وعمران بن حصين وابن عباس رضي الله عنهم، وروى عنه قتادة وعمرو بن دينار، قال أبو زرعة: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات.
انظر: الثقات ٤/ ٨٣، الطبقات الكبرى ٧/ ٩٣، الكاشف ١/ ١٤٩.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١٩٠ ـ ١٩١، وعبد الرزاق في المصنف ٦/ ٤٩، ١٠/ ١٧٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٣٦، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٥٨٣.

(٢) المصنَّف، لابن أبي شيبة ٦/ ٥٨٣.

(٣) المصنَّف، لابن أبي شيبة ٦/ ٥٨٣.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ١٠٤، وانظر: التفسير الكبير ٣/ ٢١٥.

(٦) الموطأ للإمام مالك ٢/ ٨٧١.

وقال أيضاً رحمه الله: «الساحر كافر، يقتل بالسحر ولا يستتاب، ولا تقبل توبته، بل يتحتَّم قتله»[1]. ولم يجز الإمام مالك قبول توبة الساحر إذا لم يتب قبل أن يُشهد عليه، فأما إن جاء الساحر تائباً قبل أن يشهد عليه قُبل، والحُجَّة في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، قال: فدلَّ على أنه كان ينفعهم إيمانهم قبل نزول العذاب[2].

وأما مذهب الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في الساحر فقد لخصه السبكي بقوله: «وأما مذهب الشافعي فحاصله أن الساحر له ثلاثة أحوال: حال يُقتل كفراً، وحال يُقتل قِصاصاً، وحال لا يُقتل أصلاً، بل يعزَّر، أما الحالة التي يُقتل فيها كفراً، فقال الشافعي رحمه الله: أن يعمل بسحره ما يبلغ الكفر، . . . قال: وأما الحالة التي يقتل فيها قصاصاً، فإذا اعترف أنه قتل بسحره إنساناً فكما قاله، وأنه مات وأن سحره يقتل غالباً فهاهنا يقتل قصاصاً، ولا يثبت هذه الحالة إلا الإقرار، ولا يسقط القصاص بالتوبة.

وأما الحالة التي لا يقتل فيها أصلاً، ولكن يعزّر، فهي ما عدا ذلك»[3].

والقول بقتل الساحر هو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ، قال ابن قدامة: «وحدّ الساحر القتل، روي ذلك عن عمر وعثمان بن عفان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، ولم يَرَ الشافعي عليه القتل بمجرد السِّحر، وهو قول ابن المنذر، ورواية عن أحمد»[4].

وأما الرواية الثانية عن الإمام أحمد فيُستتاب الساحر، فإن تاب خُلّي

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٧٦.
(٢) انظر: تفسير القرطبي ٢/٤٧ ـ ٤٨.
(٣) فتاوى السبكي ٢/٣٢٤.
(٤) المغني ١٢/٣٠٢.

سبيله، وإن لم يتب حبس حتى يرجع[1].

وقال النووي: «ويحرم فعل السِّحر بالإجماع، ومن اعتقد إباحته فهو كافر»[2].

ويرى ابن المنذر أن الساحر إذا سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله، إن لم يتب، وكذلك لو ثبت به عليه بينة ووصفت البينة كلاماً يكون كفراً، وإن كان الكلام الذي سحر به ليس بكفر فإنه لم يجز قتله، فإن أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقتُصّ منه إن كان عمد ذلك، وأما إن كان مما لا قصاص فيه، ففيه دية تلك الجناية[3].

فالسحر لا يكون إلا بالتوجه لغير الله ـ تعالى ـ بأنواع الخضوع والتعظيم، إما للشياطين أو إلى الكواكب والأفلاك والعوالم العلوية، فهو وِجْهَة لغير الله ـ تعالى ـ، والتوجه والخضوع والتذلل لغير الله كفر، ولذا كان الساحر كافراً، يجب قتله لشنيع فعله وشدَّة مضرته وضرره على الآخرين، ويدل على كفر الساحر ما يلي:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فدلَّت هذه الآية على كفر الساحر، قال الذهبي: «الكبيرة الثالثة: في السِّحر؛ لأن الساحر لا بد وأن يكفر، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾»[4].

وقال ابن الجوزي: «وفي قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ دليل على كفر الساحر، لأنهم نسبوا سليمان إلى السِّحر، لا إلى الكفر»[5].

---

(١) انظر المرجع نفسه ١٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) روضة الطالبين ٩/ ٣٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرطبي ٢/ ٤٨.

(٤) الكبائر ص١٤.

(٥) زاد المسير في علم التفسير ١/ ١٢٢.

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، حيث صرحت الآية بكفر الساحر ومتعلِّم السِّحر، قال ابن حجر: «وقد استدل بهذه الآية على أن السِّحر كفر ومتعلِّمه كافر»(١).

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ . . .﴾ الآية [البقرة: ١٠٣]، حيث دلت الآية على أنهم لم يكونوا مؤمنين حال فعلهم السِّحر، قال ابن كثير: «وقد استدل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف»(٢).

٤ ـ ما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى كاهناً أو عرّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)(٣).

فإذا كان قد حكم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكفر من أتى الساحر وصدّقه بما يقول، فكيف بالساحر نفسه؟.

٥ ـ ما رواه الطبري والحاكم، واللفظ للطبري، أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: قَدِمَتْ عليَّ امرأة من أهل دومة الجندل، جاءت تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السِّحر ولم تعمل به، قالت عائشة لعروة: يا ابن أختي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، كانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني لأخاف أن أكون قد هلكت؛ كان لي زوج فغاب عني، فَدَخلَتْ عليَّ

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٤٥.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٢٩ عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: (من أتى كاهناً أو عَرَّافاً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ)، وأخرجه إسحاق بن راهويه في المسند ١/ ٤٣٤، والنسائي في السنن الكبرى ٢/ ٣٠٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٣٥، وصحّحه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٠، وقال الشيخ أحمد شاكر: «هذا إسناد صحيح»، الجامع الصحيح للترمذي ١/ ٢٤٤، وأخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ٧٦ عن ابن مسعود ﷺ وفي الأوسط ٢/ ٢٧٠، وأبو نعيم في الحلية نحوه ٥/ ١٠٤.

عجوز فشكوتُ ذلك إليها، فقالت: إن فعلتِ ما آمرك به، فأجعله يأتيك. فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبتُ أحدهما ورَكِبتْ الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، فإذا رجلين معلَّقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلَّم السِّحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي، فأبيت، وقلت: لا، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت، ففزعت، فلم أفعل، فرجعتُ إليهما، فقالا: فعلت؟ قلت: نعم، فقالا: فهل رأيت شيئاً؟ قلت: لم أرَ شيئاً، فقالا لي: لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت، فاقشعررت وخفت، ثم رجعت إليهما، فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ فقلت: لم أَرَ شيئاً، فقالا: كذبت لم تفعلي، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري، فإنك على رأس أمرك، فأبيت، فقالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت إليه، فبلت فيه، فرأيت فارساً مقنّعاً بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب عني حتى ما أراه، فجئتهما، فقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ فقلت: فارساً متقنعاً خرج مني فذهب في السماء حتى ما أراه، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي، فقالت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً، وما قالا لي شيئاً، فقالت: بلى، لن تريدي شيئاً إلا كان، خذي هذا القمح فابذري، فبذرت، فقلت: اطلعي، فأطلعت، وقلت: احقلي، فأحقلت، ثم قلت: افركي، فأفركت، ثم قلت: ايبسي، فأيبست، ثم قلت: اطحني فأطحنت، ثم قلت: اخبزي، فأخبزت، فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان، سقط في يدي وندمت والله يا أم المؤمنين، والله ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً[1].

فهذه الحادثة ـ على أنها من حكاية امرأة لا نعلم حالها، لكن نقول في سندها ما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: «فهذا إسناد جيد إلى

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١٣٧، والحاكم في المستدرك ٤/ ١٧١ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه».

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا»[1] ـ قد دلَّت على أن السِّحر لا يتحقق للساحر إلا بعد أن يكفر ويفارقه إيمانه، فالرجلان يقولان للمرأة التي أرادت السِّحر: «لا تكفري» فلما أبت إلا تعلُّم السِّحر خرج منها إيمانها وحلَّ محله الكفر.

وأما ساحر أهل الكتاب فيرى الإمام مالك وابن شهاب الزهري والشافعي أنه لا يقتل بسحره إلا أن يقتل به فيُقتل قصاصاً، وعند الإمام أحمد لا يقتل ساحر أهل الكتاب إلا أن يضرّ بالمسلمين، فيقتل لنقض العهد، وأما الإمام أبو حنيفة فيرى أن حكم ساحر أهل الكتاب حكم ساحر المسلمين في إيجاب القتل.

فقد أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً عن ابن شهاب سُئل: أعَلى من سحر من أهل العهد قتل؟ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قد صُنع له ذلك فلم يقتل من صنعه، وكان من أهل الكتاب[2].

وقال ابن الجوزي: «فأما ساحر أهل الكتاب، فإنه لا يقتل عند أحمد إلا أن يضرّ بالمسلمين، فيقتل لنقض العهد، وسواء في ذلك الرجل والمرأة، وقال أبو حنيفة: حكم ساحر أهل الكتاب حكم ساحر المسلمين في إيجاب القتل، فأما المرأة الساحرة، فقال: تحبس ولا تقتل»[3].

ويقول ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما ساحر أهل الكتاب، فلا يقتل لسحره، إلا أن يَقْتُلَ به، وهو مما يقتل به غالباً، فيقتل قصاصاً، وقال أبو حنيفة: يقتل»[4].

وقال أيضاً: «ولنا أن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ فلم يقتله، ولأن الشرك أعظم من سحره، ولا يقتل به، والأخبار وردت في ساحر

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٤٣.
(٢) فتح الباري ٦/ ٣١٩.
(٣) زاد المسير في علم التفسير ١/ ١٢٦.
(٤) المغني ١٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

المسلمين، لأنه يكفر بسحره، وهذا كافر أصلي، وقياسهم ينتقض باعتقاد الكفر، والتكلُّم به، وينتقض بالزنا من المحصن، فإنه لا يقتل به الذّمي عندهم، ويقتل به المسلم، والله أعلم»[١].

والظاهر أنه ليس هناك فرق بين ساحر أهل الكتاب وساحر المسلمين في كفر كل منهما ووجوب قتله، واتِّفاقهما في الضرر وإيذاء الناس، وأما ترك النبي ﷺ قتل لبيد بن الأعصم لسحره إياه، فلأن النبي ﷺ لا ينتقم لنفسه، ولخشيته من إثارة الشر بين الناس كما أخبر بذلك ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حديث عائشة المتقدم، قال ابن بطال: «وإنما لم يقتل النبي ﷺ لبيد بن الأعصم، لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ولأنه خشي إذا قتله أن تثور بذلك فتنة بين المسلمين وبين حلفائه من الأنصار»[٢]، ولذا قال محمد الأمين الشنقيطي: «وأظهر الأقوال عندنا أنه ـ ساحر أهل الكتاب ـ لا يكون أشدّ حرمة من ساحر المسلمين، بل يقتل كما يقتل ساحر المسلمين»[٣].

وحين شاء الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون السِّحرُ من الأمراض والأدواء التي تصيب الإنسان فتؤثر في بدنه وقلبه وعقله، وربما تودي به إلى الهلاك، فإن من رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ أن أرشدنا إلى الوسائل والأسباب التي نتَّقي بها خطر السِّحر وشره قبل وقوعه، وعلاجه وإزالته بعد وقوعه وتأثيره في المسحور، فأما ما يتقي به خطر السِّحر قبل وقوعه فيكون بالأمور الآتية:

١ ـ المحافظة على الأدعية والأذكار والتعوُّذات في الصباح والمساء، والمذكور في المبحث الأول من هذا الباب.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «النوع الأول الذي يتَّقى به خطر

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٢٤٧.
(٣) أضواء البيان ٤/ ٤٧١.

السِّحر قبل وقوعه فأهم ذلك وأنفعه هو التحصّن بالأذكار الشرعية والدعوات والتعوذات المأثورة. . . . قال: وهذه الأذكار والتعوذات من أعظم الأسباب في إتِّقاء شر السِّحر وغيره من الشرور لمن حافظ عليها بصدق وإيمان بالله واعتماد عليه وانشراح صدر لما دلَّت عليه، وهي أيضاً من أعظم العلاج لإزالة السِّحر بعد وقوعه»[١].

٢ ـ التصبّح كل يوم بأكل سبع تمرات عجوة[٢]، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من تصبَّح كل يوم سبع تمرات عَجْوَة، لم يضرّه في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْر)[٣].

وأما علاج السِّحْر بعد وقوعه وإصابة المسحور به فيكون بالأمور الآتية:

أولاً: العلاج بالنُّشْرَة[٤] والرُّقية:

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)[٥].

ولقد أجاز أهل العلم التداوي بالنشرة التي تحلّ الداء وتزيل المرض، إذا كانت من ألفاظ القرآن والسنة والأدوية المباحة. فقد سُئل الإمام

---

(١) فتوى رقم (٨٠١٦) بتاريخ ٢٢/١/١٤٠٥هـ.

(٢) العجوة: قال ابن القيم في زاد المعاد ٤/٣٤١: «هي أحد أصناف التمر بها ـ أي المدينة ـ ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق، وهو صنف كريم، ملذذ، متين للجسم والقوة، من ألين التمر وأطيبه وألذّه».

(٣) سبق تخريجه ص٥٠٩.

(٤) النُّشرة: ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن به مسّ الجن، وقيل: سميت «نشرة» لأنه يُنَشَّر بها عنه ما خامره من الداء، أي يُكشف ويُزال. انظر: لسان العرب مادة «نشر».

(٥) أخرجه مسلم في السلام، حديث [٢١٩٩] باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة.

أحمد رحمه الله عمن يطلق السِّحر عن المسحور، فقال: لا بأس به[1]. قال ابن حجر: وهذا هو المعتمد[2].

وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طبٌّ ـ أو يؤخذ عن امرأته ـ أيُحلّ عنه أو يُنشّر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنه عنه[3].

وروى ابن أبي شيبة عن إسماعيل بن عياش[4]، قال: سألت عطاء الخراساني[5] عن المؤخذ من أهله والمسحور، نأتي نطلق عنه؟ قال: لا بأس بذلك إذا اضطر إليه[6].

وأما كيفية العلاج بالنُّشْرَة من السِّحر فيقول عبد الرزاق بن همَّام: «والنُّشْرَة العربية أن يخرج الإنسان في موضع عِضَاه[7]، فيأخذ عن يمينه وشماله من كل ثمر، يدقّه ويقرأ فيه ثم يغتسل. وفي كتب وهب: أن تؤخذ

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٢٤٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أخرجه البخاري في الطب تعليقاً، باب (٤٩) هل يستخرج السحر؟ وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٤٤: «وصله أبو بكر الأثرم في كتاب (السنن) من طريق أبان العطار عن قتادة، ومثله من طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ: (يلتمس من يداويه: فقال: إنما نهى الله عما يضرّ ولم ينه عما ينفع)».

(٤) هو: إسماعيل بن عياش بن سليم الحمصي العنسي مولاهم، أبو عتبة، محدث الشام، كان إماماً حافظاً، من بحور العلم، صاحب سنة واتّباع، وهو متقن في روايته عن أهل بلده، مخلِّط في غيرهم، توفي سنة ١٨١هـ.
انظر: التاريخ الكبير ١/ ٣٦٩، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣١٢، الضعفاء الكبير ١/ ٨٨.

(٥) هو: عطاء بن أبي مسلم الخراساني، أبو عثمان، من كبار العلماء، رحل، وطوّف، وسكن الشام، وهو كثير الإرسال عن الصحابة، وثّقه ابن معين والعجلي وابن سعد، توفي سنة ١٣٥هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٣٣٤، الطبقات الكبرى ٧/ ٣٦١، ميزان الاعتدال ٣/ ٧٣.

(٦) المصنَّف، لابن أبي شيبة ٥/ ٤٣٦.

(٧) العِضَاهُ: اسم يقع على ما عَظُم من شجر الشوك وطال واشتدّ شوكه. انظر: لسان العرب مادة «عضه».

سبع ورقات من سدر أخضر فيدقُّه بين حجرين، ثم يضربه في الماء ويقرأ فيه آية الكرسي وذوات «قل» ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ويغتسل به، فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله، وهو جيد للرجل إذا حُبس من أهله»[1].

وقد فصَّل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله كيفية النُّشْرَة واستعمالها، حيث قال: «ومن علاج السِّحر بعد وقوعه أيضاً، وهو علاج نافع للرجل إذا حُبس عن جماع أهله، أن يأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر فيدقَّها بحجر أو نحوه، ويجعلها في إناء ويصب عليه من الماء ما يكفيه للغسل، ويقرأ فيها آية الكرسي، وقل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وآيات السِّحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله: ـ سبحانه ـ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩]، والآيات التي في سورة يونس وهي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٧٩ ـ ٨٢]، والآيات التي في سورة طه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٩]، وبعد قراءة ما ذكر في الماء، يشرب بعض الشيء ويغتسل بالباقي، بذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دعت الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء»[2].

---

(١) المصنَّف، لعبد الرزاق بن همَّام ١١/ ١٣.

(٢) فتوى رقم (٨٠١٦) بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٤٠٥هـ.

وذكر نصوح بن واصل طريقة أخرى للنشرة وهي أن يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من وَرْدِ المفازة وورد البساتين، ثم يلقيها في إناء نظيف ويجعل فيهما ماء عذباً، ثم يغلي ذلك الورد في الماء غلياً يسيراً ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه، فإنه يبرأ بإذن الله ـ تعالى ـ[1].

وينبغي عند علاج المسحور الإكثار من الأذكار والتعوذات والأوراد الثابتة فإن لها أثراً عظيماً في ضعف السِّحر وإبطاله، يقول ابن القيّم: «ومن أنفع علاجات السِّحر، الأدوية الإلهية، بل هي أدويته النافعة بالذات، فإنه ـ أي السِّحر ـ من تأثيرات الأرواح الخبيثة السفلية، ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار والآيات والدعوات التي تبطل فعلها وتأثيرها، وكلما كانت أقوى وأشد، كانت أبلغ في النُّشْرَة، وذلك بمنزلة التقاء الجيشين مع كل واحد منهما عُدَّتُه وسلاحه، فأيهما غلب الآخر قهره، وكان الحكم له، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجيهات والدعوات والأذكار والتعوذات وِرْدٌ لا يُخِلُّ به، يُطابق فيه قلبُه لسانَه، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السِّحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه»[2].

فالسور والآيات التي تؤثر في السِّحر وتبطله بإذن الله ـ تعالى ـ هي:

١ ـ سورة البقرة، فعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[3].

٢ ـ آية الكرسي خصوصاً لعظم فضلها، فهي تقي بإذن الله من كيد الشيطان وتدفع شرّه، وقد تقدم حديث أبي هريرة في فضلها وقول الشيطان

(١) فتح الباري ١٠/٢٤٥.
(٢) زاد المعاد ٤/١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) سبق تخريجه ص٤٢٧.

له: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح. وتصديق النبي ﷺ لقوله وتقريره له[١].

٣ ـ قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام فأنزل منه آيتين فختم بهما سورة البقرة، ولا يقرءان في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[٢].

٤ ـ الآيات (١١٧ ـ ١٢٢) من سورة الأعراف.

٥ ـ الآيات (٥٧، ٧٧ ـ ٨١) من سورة يونس.

٦ ـ الآيات (٦٥ ـ ٦٩) من سورة طه.

٧ ـ الآيات (٣٦ ـ ٤٧) من سورة الشعراء.

٨ ـ سورة الكافرون.

٩ ـ سورة الإخلاص.

١٠ ـ سورة الفلق.

١١ ـ سورة الناس.

ولسورتي المعوذتين خصوصاً تأثير عظيم في إبطال السِّحر وإزالته، يقول ابن كثير: «أنفع ما يستعمل لإذهاب السِّحر، ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك، وهما المعوِّذتان»[٣].

وقال صديق حسن خان[٤]: «وللمعوذتين أثر عظيم في إزالة السِّحر،

---

(١) انظر ص٣١٤.

(٢) سبق تخريجه ص٤٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ١٤٩.

(٤) هو محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب، =

فمن داوم على قراءتهما في الأيام والليالي لا يضرّه السِّحر بإذن الله ـ تعالى ـ، وإذا قرأهما المسحور زال أثره إن شاء الله ـ تعالى ـ»[1].

ثانياً: استخراج السِّحر وإبطاله:

وهو من أبلغ علاج السِّحر وأنفعه لإبطال أثره، يقول ابن القيّم في بيان هدي النبي ﷺ في علاج السِّحر: «وقد روي عنه فيه نوعان: أحدهما، وهو أبلغهما: استخراجه وإبطاله، كما صحّ عنه ﷺ أنه سأل ربه ـ سبحانه ـ في ذلك، فدُل عليه، فاستخرجه من بئر، فكان في مِشطٍ ومُشاطة وجُفِّ طَلْعَةِ ذكر، فلما استخرجه ذهب ما به، حتى كأنما أُنشط من عقال، فهذا أبلغ ما يُعالج به المطبوب، وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة، وقلعها من الجسد بالاستفراغ»[2].

ويقول الشيخ عبد العزيز بن باز: «ومن علاج السِّحر أيضاً، وهو من أنفع علاجه، بذل الجهود في معرفة موضع السِّحر في أرض أو جبل أو غير ذلك بالطرق المباحة، فإذا عرف واستخرج وأُتلف بطل سِحْرُه»[3].

ثالثاً: الاستفراغ بالحجامة:

وهو مما يضعف أثر السِّحر ويعين على إبطاله، قال ابن القيّم: «النوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السِّحر، فإن للسِّحر تأثيراً في الطبيعة وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً. . . . قال:

= من رجال النهضة الإسلامية المجددين، وعالم مشارك في أنواع العلوم، ولد ونشأ في قنوج بالهند، وتعلّم في دهلي، وله نيف وستون مصنفاً بالعربية والفارسية والهندية، وتوفي سنة ١٣٠٧هـ.

انظر: هدية العارفين ٢/ ٣٨٨، الأعلام ٦/ ١٦٧، معجم المؤلفين ١٠/ ٩٠.

(١) الدِّين الخالص ٢/ ٣٢٠.

(٢) زاد المعاد ٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) فتوى رقم (٨٠١٦) بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٤٠٥هـ.

واستعمال الحجامة على ذلك المكان الذي تضررت أفعاله بالسحر من أنفع المعالجة إذا استعملت على القانون الذي ينبغي»[1].

رابعاً: إخراج الجني المُوكَّل بالسحر من جسد المسحور:

حيث إن من المعلوم ـ كما تقدم ـ أن السِّحر لا يتم ـ في أكثر أحواله ـ إلا بمعاونة الشيطان وهو من عمله، فإذا خضع الساحر للشيطان وتذلل وتقرب إليه بألفاظ الكفر والشرك بالله ـ تعالى ـ، فحينئذٍ يقضي الشيطان بعض أغراض الساحر، فيأتي الشيطان، أو يرسل شيطاناً آخر، فيتلبَّس ـ في أغلب الأحوال ـ ببدن الشخص الذي أراد الساحر أن يسحره، فيبدأ هذا الشيطان الجني في تنفيذ ما أراده الساحر من أذية الشخص المسحور، إما بالتفريق بينه وبين زوجه، وإما بأذيته في بدنه بالأوجاع والآلام، أو بصرفه عن أمر من الأمور، أو غير ذلك من المقاصد الشيطانية الخبيثة، وقد شاهدتُ مثل هذه الحالات عدة مرات، حيث يتكلم الشيطان الجني الذي في بدن المسحور، ويذكر أنه تلبس في المسحور عن طريق السِّحر الذي عُمل له، فأحياناً يخبر باسم الساحر ومكان السِّحر، وقد يكون صادقاً، وفي أحيان كثيرة يكذب في ذلك. والجني الذي يتلبس في بدن المسحور عن طريق السِّحر، يكون أشد فتكاً وشراسة ـ في الغالب ـ ممن يتلبَّس في بدن المصروع من غير طريق السِّحر، وذلك أن الجني الذي توكل إليه مهمة تنفيذ السِّحر، يختار من عتاة الجن وأشدهم طغياناً وفتكاً، غير أن الآيات والتعوذات تدحره وتضعف كيده بإذن الله، فيخرج من البدن صاغراً ذليلاً[2]، فإذا خرج من البدن فإن السِّحر يبطل إن شاء الله ـ تعالى ـ.

خامساً: الاغتسال في نهر الفرات:

فقد روى ابن أبي شيبة عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من أصابه

---

(١) زاد المعاد ٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) سيأتي بيان كيفية إخراج الجني من بدن المصروع في مبحث (العلاج من المس).

بسرة، أو سمّ، أو سحر، فليأت الفرات، فليستقبل الجرية[1]، فيغتمس فيه سبع مرات»[2].

سادساً: التضرع إلى الله ـ تعالى ـ بالدعاء بشفاء المسحور:

فإن للدعاء أثراً كبيراً في كشف الضر وإزالة البأس، ولذا كان النبي ﷺ يدعو للمريض بالشفاء وكشف الضر، فمن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعوّذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: (اللّهم رب الناس، أذهب البأس، واشفه، أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً)[3].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد أشتكيت؟ فقال: (نعم)، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[4].

فهذا هو العلاج الشرعي الذي ينبغي أن يعالج به السِّحر، فيزول بإذن الله ضرره وشره، ولا يجوز أن يُعالج بغير القرآن وغيره من الرُّقى والأدوية المباحة، فلا يجوز حل السِّحر عن المسحور بسحر آخر، لما فيه من الاستعانة بالشياطين، ولأنه في الواقع إعانة للسحرة على باطلهم وفجورهم، حيث يتوصلون إلى أكل أموال الناس بالباطل عن طريق هذا الحل، فيسحرون من أرادوا من الناس لكي يضطروه إلى اللجوء إليهم لفك هذا السِّحر الذي سحروه به، فيتوصلون إلى ماله بهذه الحيلة الخبيثة.

فكل ما كان عن طريق السِّحر أو ما خفي أمره من العلاجات لم يجز أهل العلم استعماله، قال ابن قدامة: «وأما من يُحلُّ السِّحر، فإن كان بشيء

---

(١) الجِرْيَة: أي موضع جريان الماء. انظر: لسان العرب مادة «جرا».

(٢) المصنَّف، لابن أبي شيبة ٥/ ٤٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الطب، حديث [٥٧٤٣] باب رقية النبي ﷺ، ومسلم نحوه في السلام، حديث [٢١٩١] باب استحباب رقية المريض.

(٤) أخرجه مسلم في السلام، حديث [٢١٨٦] باب الطب والمرض والرقى.

من القرآن، أو شيء من الذكر والأقسام والكلام الذي لا بأس به، فلا بأس به، وإن كان بشيء من السِّحر، فقد توقف أحمد عنه، قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله سُئل عن رجل يزعم أنه يُحل السِّحر، فقال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل لأبي عبد الله: إنه يجعل في الطنجير ماءً ويغيب فيه، ويعمل كذا، فنفض يده كالمنكر، وقال: ما أدري ما هذا، قيل له: فترى أن يؤتى مثلُ هذا يحلُ السِّحر؟ فقال: ما أدري ما هذا. وروى عن محمد بن سيرين أنه سُئل عن امرأة يعذبها السَّحَرة، فقال رجل: أخط خطاً عليها، وأغرز السكين عند مجمع الخط، وأقرأ القرآن، فقال محمد: ما أعلم بقراءة القرآن بأساً على حال، ولا أدري ما الخط والسكين»(١).

فما نقل عن أهل العلم من جواز النُّشْرَة وحل السِّحر عن المسحور فالمراد به النُّشْرَة الشرعية المباحة، والتي تتضمن الرُّقى والتعوذات والأدعية والأدوية المباحة، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه كلام أهل العلم، يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل شيخ(٢): «قول العلامة ابن القيّم: (والثاني: النُّشْرَة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز) يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النُّشْرَة من العلماء»(٣).

كما أن الرُّقى يجب أن تكون بألفاظ القرآن الكريم والسنة الثابتة وبأسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته، وأن تكون باللسان العربي، أما إن كانت بألفاظ أعجمية أو بما لا يفهم معناه فإنه لا تجوز الرقية بها، لإمكان تضمنها ألفاظ شركية، يقول ابن حجر: «وقد أجمع العلماء على جواز

---

(١) المغني ١٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) هو: عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل شيخ، من علماء نجد، تفقه بها وبمصر وتولى قضاء الرياض، ولازم الإمام فيصل بن تركي في سفره وإقامته وفي الحرب والسلم، وله عدة مؤلفات، وتوفي بالرياض سنة ١٢٨٥هـ.
انظر: هدية العارفين ١/ ٥٥٨، الأعلام ٣/ ٣٠٤، معجم المؤلفين ٥/ ١٣٥.

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٣١٦.

الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله ـ تعالى ـ أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله ـ تعالى ـ»[1].

وقال شارح الطحاوية: «واتفق العلماء كلهم على أن كل رقية وتعزيم أو قسم فيه شرك بالله، فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر، لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يُعرف معناه لا يتكلم به، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يُعرف، ولهذا قال النبي ﷺ: (لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركاً)[2]»[3].

فلا يقاوم هذا الداء الشيطاني الذي يستخدمه عدو الله لإيذاء الناس ومحاربتهم وكيدهم وصرفهم عن منهج الله ـ تعالى ـ، إلا بالسلاح الشرعي في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ الذي يقطع كيده ويبطل أثره بإذن الله ـ تعالى ـ، ثم ما ثبت علاجه ومنفعته في إبطال السِّحر من الأدوية المباحة، مع ما يستوجبه هذا العلاج من صدق التوجّه إلى الله ـ تعالى ـ والثقة به والاعتماد عليه ـ جل وعلا ـ في كشف الضرّ وإزالة الداء، كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧].

---

(١) فتح الباري ١٠/٢٠٦.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في السلام عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: (اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك) حديث [٢٢٠٠] باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي ص٥٩٩.

المبحث الثاني

العلاج من المس

إنَّ المسَّ من الأمراض التي تُصيب الإنسان بسبب الأرواح الشيطانية الخبيثة، وهو نوع من الأنواع التي يتربَّص الشيطان بالإنسان من خلالها الأذيةَ والتخبُّطَ والآلام الجسمية والنفسية، بسبب من الممسوس أو بدون سبب.

يقول الفخر الرازي: «والمسُّ: الجنون، يقال: مسّ الرجل فهو ممسوس وبه مسّ، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان يمس الإنسان فيُجنّه، ثم سُمِّي الجنون مسّاً، كما أن الشيطان يتخبّطه ويطؤه برجله فيخبِّله، فسُمِّي الجنون خبطة، فالتخبّط بالرجل والمس باليد»[1].

والصرع الذي يصيب الإنسان إما أن يكون بسبب الأرواح الخبيثة من الشياطين، وهو الذي سنتناوله في هذا المبحث، وإما أن يكون عن صرع الأخلاط، وهو ما يُسمَّى في الغالب «الجنون» وعلاجه عند الأطباء، يقول ابن حجر في تعريف الصرع: «وهو عِلَّةٌ تمنع الأعضاء الرئيسية عن انفعالها منعاً غير تام، وسببه ريح غليظة تنحبس في منافذ الدماغ، أو بخار رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء، وقد يتبعه تشنّج في الأعضاء فلا يبقى الشخص معه منتصباً بل يسقط ويقذف بالزبد لغلظ الرطوبة، وقد يكون الصرع من الجن، ولا يقع إلا من النفوس الخبيثة منهم، إما لاستحسان بعض الصُّور الإنسية، وإما لإيقاع الأذية به»[2].

---

(١) التفسير الكبير ٧/ ٨٨.

(٢) فتح الباري ١٠/ ١١٩.

فعدو الله الشيطان يمسّ الإنسان ويصرعه ويؤذيه بتخبُّطه له، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، إلا أن عدو الله لا يحقق مقصده ذاك إلا في أهل الغفلة عن ذكر الله ـ تعالى ـ والبعد عن التحصينات والتعاويذ الشرعية، ولهذا يرى الشيطانُ أحدَهم مجرداً من سلاح المقاومة، فيجد فيه بُغيته ويحقِّق فيه هدفه، يقول ابن القيم: «وكثر تسلط الأرواح الخبيثة على أهله ـ أي أهل صرع الأرواح ـ تكون من جهة قلة دينهم، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكر، والتعاويذ، والتحصينات النبوية والإيمانية، فَتَلْقَى الروح الخبيثة الرجل أعزل، لا سلاح معه، وربما كان عُرياناً، فيؤثر فيه هذا»[(١)].

ومسّ الجني للإنسان يكون لعدَّة أسباب هي:

١ ـ ظلم الإنسي للجني بالتعدِّي عليه، كأن يصبّ ماءً ساخناً عليه، أو بالوقوع عليه من مكان عال، أو نحو ذلك.

٢ ـ عشق الجني للإنسية، أو عشق الجنية للإنسي.

٣ ـ قد يمسّ الجني الإنسان بدون سبب مباشر، ويتمكّن الجني من ذلك في إحدى هذه الحالات الأربع:

أ ـ الغضب الشديد.

ب ـ الخوف الشديد.

جـ ـ الغفلة الشديدة.

د ـ الانكباب على الشهوات[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وصرعهم ـ أي الجن ـ للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق، كما يتَّفق للإنس مع الإنس... قال: وقد يكون، وهو كثير أو الأكثر، عن بُغض ومجازاة، مثل أن يؤذيهم بعض

---

(١) زاد المعاد ٤/ ٦٩.

(٢) انظر: وقاية الإنسان من الجن والشيطان، لوحيد عبد السلام بالي ص٧٥ ـ ٧٦.

الإنس أو يظنوا أنهم يتعمَّدوا أذاهم، إما ببول على بعضهم، وإما بصب ماء حار، وإما بقتل بعضهم، وإن كان الإنسي لا يعرف ذلك، وفي الجن جهل وظلم، فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه، وقد يكون عن عبث منهم وشر، بمثل سفهاء الإنس»[(١)].

ولقد أثبت القرآن الكريم والسنة الشريفة مسّ الشيطان للإنسان وصرعه، وذلك في عدَّة نصوص كما سيأتي بيانه، ومع هذا فقد أنكر بعض الناس صرع الشيطان للإنسان، ونسبوا ذلك إلى زعمات العرب التي لا حقيقة لها، يقول الزمخشري: «وتخبُّط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط: الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمسُّ: الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجني يمسّه فيختلط عقله، وكذلك جنّ الرجل، معناه ضربَتهُ الجنُّ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات»[(٢)].

وتبعه البيضاوي حيث قال: «وهو ـ أي صرع الشيطان للإنسان ـ وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع... قال: (من المسّ) أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجنّي يمسّه فيختلط عقله، ولذلك قيل: جنَّ الرجل»[(٣)].

وبمثل قول الزمخشري والبيضاوي قال أبو السعود والمراغي[(٤)].

وأنكر أبو بكر الرازي، ومحمد بن زكريا الطبيب[(٥)] دخول الجني في

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٣٩ ـ ٤٠.
(٢) الكشّاف ١/ ٣٩٩.
(٣) تفسير البيضاوي ١/ ١٤٢.
(٤) انظر: تفسير أبي السعود ١/ ٣٠٨، وتفسير المراغي ١/ ٦٣.
(٥) هو: محمد بن زكريا الرازي الطبيب، أبو بكر، أستاذ فيلسوف، من أذكياء أهل زمانه، كان كثير الأسفار، وواسع المعرفة، مكبّاً على الاشتغال، له إقبال على دراسة كتب =

بدن المصروع وأحالوا وجود روحين في جسد واحد[1].

وأبطل الجبَّائي مسّ الشيطان للإنسان وصرعه له، وعلَّل قوله ذلك بأن الشيطان ضعيف لا يقدر على صرع الناس وقتلهم، وقد استدل على ذلك من وجوه:

الأول: قوله ـ تعالى ـ حكاية عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، قال: وهذا صريح في أنه ليس للشيطان قدرة على الصرع والقتل والإيذاء[2].

الثاني: الشيطان إما أن يقال: إنه كثيف الجسم، أو يقال: إنه من الأجسام اللطيفة، فإن كان الأول وجب أن يُرى ويُشاهد، إذ لو جاز فيه أن يكون كثيفاً ويحضر ثم لا يُرى لجاز أن يكون بحضرتنا شموس ورعود وبروق وجبال ونحن لا نراها، وذلك جهالة عظيمة، ولأنه لو كان جسماً كثيفاً، فكيف يمكنه أن يدخل في باطن بدن الإنسان، وأما إن كان جسماً لطيفاً كالهواء، فمثل هذا يمتنع أن يكون فيه صلابة وقوة، فيمتنع أن يكون قادراً على أن يصرع الإنسان ويقتله.

الثالث: لو كان الشيطان يقدر على أن يصرع ويقتل، لصحَّ أن يفعل مثل معجزات الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وذلك يجرّ إلى الطعن في النبوَّة.

الرابع: أن الشيطان لو قدر على ذلك، فلِمَ لا يصرع جميع المؤمنين، ولِمَ لا يخبطهم، مع شدَّة عداوته لأهل الإيمان؟ ولِمَ لا يغصب أموالهم ويفسد أحوالهم ويفشي أسرارهم، ويزيل عقولهم؟[3] .اهـ.

= الطب والفلسفة وصنف فيها كتباً كثيرة، توفي سنة ٣١١هـ.
انظر: معجم البلدان ٣/١٣٦، وفيان الأعيان ٥/١٥٧، نكت الهميان ص٢٤٩.

(١) انظر: آكام المرجان في أحكام الجان ص١٠٥.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٧/٨٨.

(٣) المرجع نفسه.

والصواب الذي لا شكَّ فيه أن الشيطان يمسّ الإنسان ويصرعه ويتخبّطه، ويدل على هذا الأدلة الآتية.

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال قتادة في معنى المس في الآية: «هو التخبيل الذي يتخبّطه الشيطان من الجنون»[١]، وقال ابن جرير: «يعني بذلك: «يتخبَّله الشيطان في الدنيا، وهو الذي يتخبَّطه فيصرعه، من المسِّ يعني: من الجنون»[٢].

ويقول أبو حيان: «وظاهر الآية أن الشيطان يتخبَّط الإنسان، فقيل في ذلك حقيقة هو من فعل الشيطان بتمكين الله ـ تعالى ـ من ذلك في بعض الناس، وليس في العقل ما يمنع ذلك»[٣]، وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مسّ»[٤].

٢ ـ عن أبي اليسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: (اللّهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردِّي، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً)[٥].

فاستعاذة النبي ﷺ من تخبُّط الشيطان دالة على حقيقة تخبّط الشيطان للإنسان وصرعه ومسّه له، قال ابن الأثير في معنى قوله: (يتخبّطني الشيطان): «أي يصرعني، ويلعب بي»[٦]، وقال ابن منظور: «وخَبَطَهُ

---

(١) تفسير القرآن لعبد الرزاق بن همّام ١/ ١١٠.
(٢) تفسير الطبري ٣/ ١٠١.
(٣) البحر المحيط ٢/ ٣٣٤.
(٤) تفسير القرطبي ٣/ ٣٥٥.
(٥) سبق تخريجه ص٤١٨.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٨.

الشيطان وتخبَّطه: مَسَّهُ بأذًى وأفسده»[١].

٣ ـ عن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف، جعل يعرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما أُصلِّي، فلما رأيت ذلك، رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقال: (ابن أبي العاص؟) قلت: نعم، يا رسول الله، قال: (ما جاء بك؟) قلت: يا رسول الله، عَرَض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أُصلِّي، قال: (ذاك شيطان، أُدْنُه) فدنوت منه، فجلستُ على صدور قدَمَيَّ، فضرب صدري، بيده، وتفل في فمي، وقال: (اخرج عدو الله) ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: (إلحق بعملك) قال[٢]: فقال عثمان: فلعمري، ما أحسبه خالطني بعدُ[٣].

٤ ـ عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشَّف، فادعُ الله لي، قال: (إن شئتِ صبرتِ، ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك)، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشَّف فادعُ الله لي أن لا أتكشَّف، فدعا لها[٤].

والذي يظهر من الحديث أن الذي كان يصيب المرأة شيطان من الجن، ويدل على هذا ما جاء عند البزار من وجه آخر عن ابن عباس ﷺ أنها قالت: إني أخاف الخبيث أن يجرِّدني[٥].

٥ ـ وعن ابن عباس ﷺ أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ بابن لها،

---

(١) لسان العرب مادة «خبط».

(٢) أي الراوي عن عثمان بن أبي العاص، وهو أبو عيينة بن عبد الرحمٰن.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطب، حديث [٣٥٤٨] باب الفزع والأرق وما يتعوّذ منه، قال في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

(٤) أخرجه البخاري في المرضى، حديث [٥٦٥٢] باب فضل من يُصرع من الريح، ومسلم في البر والصلة، حديث [٢٥٧٦] باب ثواب المؤمن فيما يصيبه . . . إلخ.

(٥) فتح الباري ١٠/ ١٢٠.

فقالت: إن ابني هذا به جنون يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيخبث علينا. فمسح النبي ﷺ صدره ودعا. فثع ثعة يعني سعل، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود(١).

٦ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرِّقاع حتى إذا كنا بحرَّة واقم عرضت امرأة بدويَّة بابن لها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هذا ابني قد غلبني عليه الشيطان، فقال: (أُدْنيه مني) فأدنته منه، قال: (افتحي فمه) ففتحته، فبصق فيه رسول الله ﷺ ثم قال: (اخسأ عدو الله وأنا رسول الله)، قالها ثلاث مرات، ثم قال: (شأنكِ بابنك ليس عليه، فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه...) الحديث(٢).

٧ ـ وعن يعلى بن مرَّة(٣) قال: لقد رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثاً ما رآها أحد قبلي ولا يراها أحد بعدي، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كان ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها، فقالت: يا رسول الله، هذا صبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء، يؤخذ في اليوم ما أدري كم مرة،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٢٦٨، ونحوه في ١/ ٢٥٤، والدارمي في المقدمة من سننه، حديث [١٩] باب ما أكرم الله به نبيه... الحديث، والطبراني في الكبير ١٢/ ٤٥، وأبو نعيم في الدلائل ١/ ٦٠٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢، وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفيه فرقد السبخي، وثَّقه ابن معين والعجلي، وضعَّفه غيرهما».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩/ ٥٢، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد مطوَّلاً ٩/ ٧ ـ ٨، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والبزار باختصار كثير، وفيه عبد الحكيم بن سفيان، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يجرِّحه أحد، وبقية رجاله ثقات».

(٣) هو: يعلى بن مرَّة بن وهب بن جابر بن عتّاب بن مالك الثقفي، أبو المرَازِم، كان من أفاضل الصحابة، وروي عن النبي ﷺ أحاديث، وشهد معه الحديبية وخيبر والفتح وحنيناً والطائف، وأمره النبي ﷺ يوم الطائف بقطع أعناب ثقيف، وروى عنه ابناه عبد الله وعثمان.
انظر: الطبقات الكبرى ٦/ ١١٣، الاستيعاب ٤/ ١٥٨٧، الإصابة ٦/ ٣٥٣.

قال: (ناولينيه) فرفعته إليه، فجعلته بينه وبين واسطة الرحل ثم فَغَرَ فَاه فنفث فيه ثلاثاً، وقال: (بسم الله، أنا عبد الله، اخسأ عدو الله) ثم ناولها إياه، فقال: (إلقينا في الرجعة في هذا المكان فأخبرينا ما فعل)، قال: فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها شياه ثلاث، فقال: (ما فعل صبيك؟)، فقالت: والذي بعثك بالحق ما أحسسنا منه شيئاً حتى الساعة، فاجتَرِزْ هذه الغنم، قال: (انزل، فخُذ منها واحدة وردّ البقية)[1].

٨ ـ وفي لفظ آخر عند الإمام أحمد عن يعلى بن مرَّة عن أبيه[2]: أن امرأة جاءت النبي ﷺ معها صبي لها به لمم، فقال النبي ﷺ: (أُخرج عدو الله، أنا رسول الله)، قال: فبرأ، فأهدت إليه كبشين وشيئاً من أقط وشيئاً من سمن، قال: فقال رسول الله ﷺ: (خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين، ورُدَّ عليها الآخر)[3].

وأما من قال بأن تَخَبُّط الشيطان للإنسان وصرعه له من زعمات العرب التي لا حقيقة لها، فقد أجاب ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنيِّر[4]

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٧٠، والطبراني في الكبير نحوه ٢٢/ ٢٦٤، وأبو نعيم في الدلائل ٢/ ٥٩٩، وابن السني نحوه مختصراً في عمل اليوم والليلة، حديث [٦٣٣]، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٥ وقال: «رواه أحمد بإسنادين، والطبراني بنحوه، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح»، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٤٧ عن يعلى بن مرة عن أبيه، وصحّحه.

(٢) هو: مرَّة بن وهب بن جابر بن عتاب بن مالك الثقفي، يقال: إن له صحبة، فقد روى البغوي من طريق أم يحيى بنت يعلى بن مرة عن أبيها قال: جئت بأبي يوم الفتح فقلت: يا رسول الله بايعه على الهجرة، فقال: (لا هجرة بعد الفتح... الحديث).
قال ابن حجر: «إسناده جيد».
انظر: تهذيب التهذيب ١٠/ ٨١، التقريب ص٥٢٥.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٧١، ١٧٢، والطبراني نحوه في الكبير ٢٢/ ٢٦٤، والبيهقي نحوه في دلائل النبوة ٦/ ٢١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٦: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٤) هو: أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الإسكندراني المالكي، ناصر الدين، أبو العباس ابن المنيِّر، كان إماماً في التفسير والأصول والنحو والأدب والبلاغة، ودرّس =

على هذا الرأي بقوله: «وهذا القول على الحقيقة من تخبّط الشيطان بالقدرية في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع..... قال: واعتقاد السلف من أهل السنة أن هذه الأمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها، وإنما القدرية خصماء العلانية، فلا جرم أنهم ينكرون كثيراً مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم، من ذاك السحر وخبطة الشيطان ومعظم أحوال الجن، وإن اعترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة، وينبئ عنه ظاهر الشرع في خبط طويل لهم، فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون»[1].

١ ـ إن استدلال الجبّائي بقوله ـ تعالى ـ حكاية عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] على عدم صرع الشيطان للإنسان، ليس في محله، فإن عدو الله الشيطان سيعلن يوم القيامة لأتباعه أن وسيلته التي كان يجرّهم بها إلى حزبه في الدنيا، لا تعدو الدعوة إلى الباطل وتزيينه لا غير، وليس له في دعوته هذه حُجَّة ولا برهان يظهر صواب ما يدعوهم إليه، وليس في هذا دلالة على عدم إمكان مسّ الشيطان للإنسان وتلبّسه به، بل إن من سلطانه الذي استثناه عن بني البشر؛ دعوته لهم إلى الباطل الذي ليس له فيه حُجَّة ولا برهان، وبهذا قال المفسرون؛ يقول ابن جرير في معنى الآية: «يقول: وما كان لي عليكم في ما وعدتكم من النصرة من حُجَّة تثبت لي عليكم بصدق قولي»[2]، ويقول ابن القيّم: «إن السلطان المنفي في هذا الموضع، هو الحُجَّة والبرهان، أي ما كان لي عليكم من حُجَّة ولا برهان احتجُّ به عليكم، كما قال ابن عباس: «ما كان لي من حُجَّة احتجُّ بها عليكم» أي: ما أظهرت لكم حُجَّة

= بالجامع الجيوشي، وولي قضاء الإسكندرية، وناب في الحكم بها، وصنَّف التصانيف المفيدة، وتوفي يوم الجمعة سنة ٦٨٣هـ.
انظر: العبر ٣/ ٣٥٢، بغية الوعاة ١/ ٣٨٤، معجم المؤلفين ٢/ ١٦١.

(١) الإنصاف فيما تضمَّنه الكشَّاف من الاعتزال لابن المنيِّر، بهامش الكشَّاف ١/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٢٠٠.

إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدَّقتم مقالتي، واتَّبعتموني بلا برهان ولا حُجَّة»[1].

ثم إنه لو سُلِّم أن المراد بالسلطان في الآية الولاية والقهر والغلبة، فإنه لا يدل على منع وقوع الصرع من الشيطان، فإن معنى الآية يكون حينئذٍ نفيٌ للقهر والإلزام على موافقته ومتابعته فيما يدعو إليه، ولا دلالة فيها على نفي وقوع الإيذاء من الشيطان على الإنسان، فالأول يحصل بإرادة الإنسان واختياره، بخلاف الآخر، يقول الألوسي: «والآية التي ذكروها في معرض الاستدلال على مدّعاهم لا تدل عليه، إذ السلطان المنفي فيها إنما هو القهر والإلجاء إلى متابعته، لا التعرض للإيذاء والتصدِّي لما يحصل بسببه الهلاك، ومن تتبع الأخبار النبوية وجد الكثير منها قاطعاً بجواز وقوع ذلك من الشيطان، بل وقوعه بالفعل»[2].

٢ ـ إن من المعلوم ـ كما تقدَّم ـ أن الشيطان خُلِقَ من مادَّة نارية فهو من الأجسام الرقيقة اللطيفة، ولكن رأي الجبَّائي أن الشيطان إذا كان جسماً لطيفاً امتنع أن يكون فيه صلابة وقوّة، وعليه فإنه لا يستطيع النفوذ إلى بدن الإنسان وصرعه، رأي لا يستند إلى دليل من النقل أو العقل، بل إن نصوص الكتاب والسُّنة تدل على إمكان صرع الشيطان للإنسان وتخبّطه به، والعقل لا يحيل مسّ الشيطان للإنسان وصرعه، فإن مادة الشيطان اللطيفة غير مانعة من ذلك، فالله ـ جل وعلا ـ الذي خلق الإنس والجن وهو أعلم بتركيب كل منهما ودقائق تكوينه وأسرار صُنعه، مكَّنَ الشيطان من النفوذ إلى بدن الإنسان وجريه منه مجرى الدّم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فكثير مما خلقه الله ـ تعالى ـ في هذا الكون لا تنحصر قدرته وقوة نفوذه على صلابته وقوة تركيبه، ولو كان الأمر كذلك لما استطاع الجن والشياطين حمل أدنى الأثقال، بَيْد أن من المعلوم أن لهم

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١١٨.

(٢) روح المعاني ٣/ ٤٩ ـ ٥٠.

قدرة فائقة على حمل ما يعجز عنه البشر، في أوقات يسيرة جداً، وقد أخبرنا الله ـ تبارك وتعالى ـ عن تسخيرهم لسليمان عليه السلام، وإمكان إحضار عفريت منهم عرش ملكة سبأ إليه عليه السلام، قبل أن يقوم نبي الله من مجلسه، وعملهم له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، وفي هذا يقول النابغة الذبياني وهو يعتذر إلى النعمان:

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحدِ
إلا سليمان، إذ قال الإله له: قم في البريّة فاحددها عن الفنَدِ
وخَيِّس الجنَّ، إني قد أذنت لهم يبنون تَدْمُرَ بالصفاح والعَمَدِ[1]

قال الفخر الرازي: «أطبق الكل على أنه ليس الجن والشياطين عبارة عن أشخاص جسمانية كثيفة تجيء وتذهب مثل الناس والبهائم، بل إنها أجسام هوائية قادرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، ولها عقول وأفهام، وقدرة على أعمال صعبة شاقّة»[2]، ويقول سعد الدين التفتازاني[3]: «الجنُّ أجسام لطيفة هوائية تتشكَّل بأشكال مختلفة ويظهر منها أحوال عجيبة، والشياطين أجسام نارية شأنها إلقاء الناس في الفساد والغواية، ولكون الهواء والنار في غاية اللطف والتشفيف، كانت الملائكة والجن والشياطين، يدخلون المنافذ الضيقة حتى أجواف الإنسان ولا يُرون بحسن البصر، إلا إذا اكتسبوا من الممتزجات»[4].

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٣٣، ومعنى خيّس: أي ذلِّل، وتَدْمُر: بلد بالشام، انظر: الصحاح ٢/ ٦٥٩، ٣/ ٩٢٦.

(٢) التفسير الكبير ١/ ٧٦.

(٣) هو: مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والمنطق وغيرهما، ولد بتفتازان «من بلاد خراسان» وأقام بسرخس، واشتهر ذكره وانتفع الناس بتصانيفه، وتنافس الأئمة في تحصيلها والاعتناء بها، توفي سنة ٧٩١هـ.
انظر: الدُّرر الكامنة ٤/ ٣٥٠، بغية الوعاة ٢/ ٢٨٥، هدية العارفين ٢/ ٤٢٩.

(٤) محاسن التأويل، للقاسمي ٣/ ٣٦٢.

٣ ـ إن ربط الجبَّائي صرع الجن للإنس بمعجزات الأنبياء عليهم السلام ليس له وجه، فإن الصرع نوع من أنواع العداوة والإيذاء الذي يقع بين المخلوقات، يكون ناتجاً عن سبب من الأسباب المؤدية إلى تلك العداوة، وأما معجزات الأنبياء فهي أمور خارقة للعادة تحصل على يد نبي من الأنبياء بإذن الله ـ تعالى ـ، فأي صلة بين الصرع والمعجزة؟ فالصرع ليس من الأمور الخارقة للعادة، بل هو من الأمور المعتادة والمشاهدة كثيراً بين الناس، يقول ابن القيّم: «ولو كُشفِ الغطاء لرأيت أكثر النفوس البشرية صرعى هذه الأرواح الخبيثة، وهي في أسرها وقبضتها، تسوقها حيث شاءت، ولا يمكنها الامتناع عنها ولا مخالفتها»(١).

وحين يريد الإنسان أن يتأكد من حقيقة هذا الأمر بنفسه ويراه بعينه فما عليه إلا أن يذهب إلى الذين يعالجون هذه الأمراض الروحية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإنه سيرى العشرات بل المئات ممن أصيبوا بمسِّ الجن والشياطين ويتفاوتون في هذه الأمراض شدّة وخفة، وربما سمع كلام الشيطان على لسان المصروع واعترافه بدخوله في بدن المصروع وإيذائه له، وهذا مما شهدته بنفسي ورأيته بعيني، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وجود الجنِّ ثابت بكتاب الله وسُنَّة رسوله واتفاق سلف الأمة وأئمتها، وكذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتِّفاق أئمة أهل السُّنة والجماعة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)(٢)، وقال عبد الله(٣) ابن الإمام أحمد بن حنبل: قلت

(١) زاد المعاد ٤/ ٦٩.

(٢) سبق تخريجه ص٨٤.

(٣) هو: عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي، أبو عبد الرحمٰن، كان إماماً ثقة ثبتاً مكثراً عن أبيه وغيره، خبيراً بالحديث وعلله مقدّماً فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وهو الذي رتّب مسند والده رحمه الله، وتوفي سنة تسعين ومائتين من الهجرة. =

لأبي: إن أقواماً يقولون: إن الجني لا يدخل في بدن المصروع، فقال: يا بُني، يكذبون، هذا يتكلم على لسانه، وهذا الذي قاله أمر مشهور، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضُرب به جمل لأثَّر به أثراً عظيماً، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب، ولا بالكلام الذي يقوله، وقد يجرّ المصروع وغير المصروع، ويجرّ البساط الذي يجلس عليه، ويحوِّل آلات، وينقل من مكان إلى مكان، ويجري غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً بأن الناطق على لسان الإنسي والمحرِّك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان، وليس في أئمة المسلمين من يُنكر دخول الجني في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك وادّعى أن الشرع يكذب ذلك فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك»[1].

يقول الألوسي: «والجنون الحاصل بالمسّ قد يقع أحياناً، وله عند أهله الحاذقين أمارات يعرفونه بها، وقد يدخل في بعض الأجساد على بعض الكيفيات ريح متعفِّن تعلَّقت به روح خبيثة تناسبه، فيحدث الجنون أيضاً على أتم وجه، وربما استولى ذلك البخار على الحواس وعطَّلها، واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرّف، فتتكلم وتبطش وتسعى بآلات ذلك الشخص الذي قامت به من غير شعور للشخص بشيء من ذلك أصلاً، وهذا كالمشاهد المحسوس الذي يكاد يُعدّ منكره مكابراً منكراً للمشاهدات»[2].

وأما قول الجبَّائي بأن القول بصرع الجن للإنس يجرّ إلى الطعن في النبوة، فإن الصواب عكس ذلك، فالقول بصرع الجن للإنس مما أخبر به الأنبياء وأثبتوه وأقروه، وهذا في أخبارهم كثير، وقد أرشدنا نبينا محمد ﷺ إلى كيفية علاج المصروع من الآيات والأدعية والتعوذات التي تؤثِّر في الشيطان الصارع وتزعجه وتؤذيه حتى يخرج بإذن الله ذليلاً صاغراً، فإذا

= انظر: تاريخ بغداد ٩/ ٣٧٥، معجم البلدان ١/ ٣٦٤، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥١٦.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) روح المعاني ٣/ ٤٩.

رأى المسلم نتيجة تلك العلاجات الربانية وقوة تأثيرها فإنه بلا شك، يزداد إيماناً بربه ـ تعالى ـ، واستقامة وثباتاً على اتِّباع سنة رسوله ﷺ.

٤ ـ إن استدلال الجبَّائي بأن الشيطان لو قدر على صرع الإنسان فلم لا يصرع جميع المؤمنين. . . إلخ كلامه، فأقول: إن من رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده أن دلَّهم على علاجات ربانية وتحصينات وقائية تحول بينهم وبين أذى الشيطان وتخبّطه للإنسان، فمتى أخذ بها العبد وحافظ عليها وصدَّق ما جاء فيها عن الله ـ تعالى ـ، واعتمد عليه ووثق به ـ جل وعلا ـ، واستقام على شرعه، فإنها بإذن الله تكون من أعظم العلاجات والأسلحة الوقائية من كيد الشيطان وتربصه الشر بالإنسان وأهله وماله، فهذه الأسلحة حالت بين عدو الله الشيطان وبين مسِّه لعباد الله المؤمنين وصرعه وأذيته لهم، ولو بذل الشيطان جهده في تحقيق ذلك ما استطاع إليه سبيلاً، وأما من غفل عن تلك التحصينات وابتعد عن التحرز بها، فقد خليّ بينه وبين عدوه الشيطان وفتح له باب تسلُّطه عليه، فلا يبعد أن يكون محل مسِّه وصرعه.

وبهذا يتَّضح أن دخول الجني في بدن الإنسي أمرٌ أثبته الشرع وأكدَّ عليه، وأقرَّه العقل ولم يحله، ودل عليه الواقع المشاهد، فإنكاره كإنكار الأمور المشاهدة، التي يُعدّ منكرها مكابراً.

وحين نأتي إلى علاج المصروع وشفائه من مسّ الشيطان له وتخبّطه به، فلا بد قبل ذلك من تحقيق أمرين أساسين:

الأمر الأول: من جهة المصروع، وذلك بصدق توجُّهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها تبارك وتعالى، والتعوُّذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان.

الأمر الثاني: من جهة المعالج، فكما أن علاج الصرع يتطلَّب من المريض صدق التوجُّه وحُسن الثقة بالله ـ تعالى ـ، فهو أيضاً يتطلَّب ذلك من الراقي المعالج، فإن السيف إذا كان حادّاً قاطعاً احتاج أن يكون الساعد الضارب به قوياً، فإذا تخلف أحدهما لم يغن السلاح كثير طائل، فلا بد

من اجتماع الأمرين معاً كي يتحقق العلاج، ولذا نجد كثيراً من المعالجين، ممن صدقوا في توجههم إلى الله ـ تعالى ـ وأخلصوا في علاجهم، من يكتفي ببعض الكلمات التي تطرد الشيطان وتخرجه من بدن المصروع، كما رُوي ذلك عن الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمهما الله تعالى رحمة واسعة ـ، وغيرهما من العلماء، فمما روي في ذلك عن الإمام أحمد ما ذكره القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي قال: سمعت أحمد بن عبيد الله، قال: سمعت أبا الحسن علي بن أحمد بن علي العكبري قدم علينا من عكبرا في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة قال: حدَّثني أبي عن جدي قال: كنت في مسجد أبي عبد الله أحمد بن حنبل فأنفذ إليه المتوكِّلُ صاحباً له يعلمه أن له جارية بها صرع وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي خشب بشراك من خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له وقال له: إمض إلى دار أمير المؤمنين وتجلس عند رأس هذه الجارية، وتقول له، يعني للجني: قال لك أحمد: أيما أحب إليك تخرج من هذه الجارية أو تصفع بهذه النعل سبعين، فمضى إليه وقال له: مثل ما قال الإمام أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد أن لا نقيم بالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخرج من الجارية وهدأت ورُزقت أولاداً، فلما مات أحمد عاودها المارد، فأنفذ المتوكِّل إلى صاحبه أبي بكر المروزي وعرّفه الحال، فأخذ المروزي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية ولا أطيعك، ولا أقبل منك، أحمد أطاع الله فأُمرنا بطاعته[1].

ومما نُقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية كَلَلهُ في ذلك ما ذكره ابن القيّم بقوله: «وشاهدت شيخنا ـ يعني ابن تيمية ـ يُرسل إلى المصروع، من يخاطب الروح التي فيه، ويقول: قال لك الشيخ: اخرجي، فإن هذا لا

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ص١١٢.

يحل لك. فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب، فيفيق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرنا منه ذلك مراراً»[(١)].

ويجب على الذي يعالج المصروع أن يتَّبع في علاجه السُّبل الشرعية التي دلّ عليها الكتاب والسّنة من الرُّقى والأدوية المباحة، وأن يحذر كل الحذر مما نهى عنه الشرع من الرُّقي الشركية من الكلمات والعزائم الخفية والمجهولة المعنى فإنها تحرم وإن أفادت في علاج المصروع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما معالجة المصروع بالرُّقى والتعوُّذات، فهذا على وجهين: فإن كانت الرُّقى والتعاويذ مما يُعرف معناها، ومما يجوز في دين الإسلام أن يتكلم بها الرجل، داعياً الله، ذاكراً له، ومخاطباً لخلقه ونحو ذلك، فإنه يجوز أن يُرقى بها المصروع، ويُعوَّذ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: (أنه أَذِنَ في الرُّقى ما لم تكن شركاً)[(٢)]. وقال: (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)[(٣)].

وإن كان في ذلك كلمات محرَّمة مثل أن يكون فيها شرك، أو كانت مجهولة المعنى، يحتمل أن يكون فيها كفر، فليس لأحد أن يُرقي بها ولا يعزم ولا يقسم، وإن كان الجني قد ينصرف عن المصروع بها، فإنما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه، كالسِّيما[(٤)] وغيرها من أنواع السِّحر، فإن الساحر السيماوي وإن كان ينال بذلك بعض أغراضه، كما ينال السارق بالسرقة بعض أغراضه، وكما ينال الكاذب بكذبه وبالخيانة بعض أغراضه،

---

(١) زاد المعاد ٤/ ٦٨.

(٢) سبق تخريجه ص٥٣٨.

(٣) سبق تخريجه ص٥٢٩.

(٤) السيما ويقال السيمياء: يطلق على ما هو غير حقيقي من السِّحر، وحاصله، إحداث مثالات خيالية في الجوّ لا وجود لها في الحسّ، وقد يطلق على إيجاد صورها في الحسّ، فحينئذٍ يظهر بعض الصور في جوهر الهواء، فتزول سريعة لسرعة تغير جوهر الهواء.
انظر: كشف الظنون ٢/ ١٠٢٠، والمعجم الوسيط ١/ ٤٨٧.

وكما ينال المشرك بشركه وكفره بعض أغراضه، وهؤلاء وإن نالوا بعض أغراضهم بهذه المحرمات، فإنها تعقبهم من الضرر عليهم في الدنيا والآخرة أعظم مما حَصَّلوه من أغراضهم، فإن الله بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فكل ما أمر الله به ورسوله فمصلحته راجحة على مفسدته، ومنفعته راجحة على المضرّة وإن كرهته النفوس»[1].

فعلى المسلم أن يدفع أذى الجن والشياطين بالطرق الشرعية، وأن يسلك في دفعهم مسلك العدل الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، وإن لم يندفع أذاهم إلا بقتلهم جاز ذلك، يقول ابن تيمية: «والصائل المعتدي يستحق دفعه سواء كان مسلماً أو كافراً، وقد قال النبي ﷺ: (من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد)[2]، فإذا كان المظلوم له أن يدفع عن مال المظلوم ولم يقتل الصائل المعتدي، فكيف لا يدفع عن عقله وبدنه وحرمته؟! فإن الشيطان يُفسدُ عقله ويعاقبه في بدنه، وقد يفعل معه فاحشة إنسي بإنسي، وإن لم يندفع إلا بالقتل جاز قتله»[3].

وينبغي على الرَّاقي المعالج للمصروع أن يتحصَّن بالرُّقى ويحترز بالتعوُّذات والأدعية ويتحلَّى بالورع والتُّقى، ويجتنب ما يسلط الشياطين عليه من الذنوب والآثام، إذ ربما قصده الجني الصارع أو غيره من الشياطين بالأذية، فهو في تصدٍّ وجهاد لهم، فإذا كان مجرداً من الأسلحة الواقية من تسلطهم عليه فقد عرَّض نفسه للشرور والفتن، يقول ابن تيمية: «وإن كان

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٩٠ عن سعيد بن زيد ﷺ، وأخرجه الترمذي في الديات حديث [١٤٢١] باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وأخرجه البخاري مختصراً من حديث عبد الله بن عمر ﷺ في كتاب المظالم من صحيحه، حديث [٢٤٨٠] باب من قاتل دون ماله، ومسلم في الإيمان، حديث [١٤١] باب (٦٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٥٦.

الجن من العفاريت، وهو ـ أي الراقي ـ ضعيف فقد تؤذيه، فينبغي لمثل هذا أن يحترز بقراءة العُوذ، مثل آية الكرسي والمعوذات والصلاة والدعاء ونحو ذلك مما يقوِّي الإيمان ويجنِّب الذنوب التي بها يُسلَّطون عليه، فإنه مجاهد في سبيل الله، وهذا من أعظم الجهاد، فليحذر أن ينصر العدو عليه بذنوبه، وإن كان الأمر فوق قدرته فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فلا يتعرض من البلاء لما لا يطيق»(١).

ومن أعظم ما يُعالج به المصروع ويُدفع به شر الجن والشياطين، آية الكرسي، فإنها من أقوى الأسلحة المؤثرة لدفع أذى الجن والشياطين وطردهم عن الأبدان، لا سيما إذا اقترن بها صدق الراقي وثقته بالله واعتماده عليه ـ تبارك وتعالى ـ، وهذه الحقيقة هي باعتراف الشيطان نفسه وتقرير النبي ﷺ لذلك الاعتراف وتصديقه له، وذلك في حديث مجيء الشيطان إلى أبي هريرة رضي الله عنه ثلاث مرات، وقوله له: إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك قال له: (صدقك وهو كذوب)(٢).

يقول ابن تيمية: «ومن أعظم ما ينتصر به عليهم ـ أي الشياطين ـ آية الكرسي» ثم ذكر حديث مجيء الشيطان إلى أبي هريرة رضي الله عنه ثم قال: «ومع هذا فقد جرب المجرِّبون الذين لا يحصون كثرة أن لها ـ أي آية الكرسي ـ من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لا ينضبط من كثرته وقوته، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشيطان عن نفس الإنسان وعن المصروع وعن من تعينه الشياطين، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب وأرباب السماع، المكاء والتصدية، إذا قُرأت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التي يخيلها الشيطان ويبطل ما عند إخوان

---

(١) المرجع نفسه ١٩/ ٥٣.

(٢) سبق تخريجه ص٣١٤.

الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني»[1].

وهناك آيات وسور أخرى لها تأثير على الجن والشياطين وطردهم وإبعادهم من الجسد إذا قُرئت على المصروع بصدق وإخلاص وثقة بالله ـ تعالى ـ وهذه الآيات والسور هي:

١ ـ سورة الفاتحة.

٢ ـ الآيات (١ ـ ٥) من سورة البقرة.

٣ ـ الآيتان (١٦٢، ١٦٣) من سورة البقرة.

٤ ـ الآيتان (٢٨٥، ٢٨٦) وهما الآيتان الأخيرتان من سورة البقرة.

٥ ـ الآيتان (١٨، ١٩) من سورة آل عمران.

٦ ـ الآيات (٥٤ ـ ٥٦) من سورة الأعراف.

٧ ـ الآيات (١١٥ ـ ١١٨) من سورة المؤمنون.

٨ ـ الآيات (١ ـ ١٠) من سورة الصافات.

٩ ـ الآيات (٢٩ ـ ٣٢) من سورة الأحقاف.

١٠ ـ الآيات (٣٣ ـ ٣٦) من سورة الرحمٰن.

١١ الآيات (٢١ ـ ٢٤) من سورة الحشر.

١٢ الآيات (١ ـ ٩) من سورة الجن.

١٣ ـ سورة الإخلاص.

١٤ ـ سورة الفلق.

١٥ ـ سورة الناس[2].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/٥٣ ـ ٥٥.

(٢) وقاية الإنسان من الجن والشيطان ص٨٠ ـ ٨٤.

وعموماً فإن كل آيات القرآن الكريم تؤثر في الجن وتزعجهم، لا سيما إذا كان فيها ذكر الجن والشياطين، أو ذكر العذاب والنار.

وإذا احتاج المصروع أن يُكتب له آيات من كتاب الله ـ تعالى ـ بمداد طاهر مباح ثم يُغسل ويُسقى به المصاب، فقد نصَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وغيره على جواز ذلك، يقول ابن تيمية: «ويجوز أن يُكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح ويُغسل ويُسقى، كما نصَّ على ذلك أحمد وغيره»[(1)].

وقد يحتاج المعالج أحياناً إلى ضرب الجني الصارع كي يخرج من بدن المصروع، وينبغي أن يعلم أن الضرب يقع على الجني وهو الذي يشعر بألم الضرب وشدته وليس المصروع، يقول ابن تيمية: «ولهذا قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب، فيضرب ضرباً كثيراً جداً، والضرب إنما يقع على الجني ولا يحسُّ به المصروع، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس بشيء من ذلك، ولا يؤثر في بدنه، ويكون قد ضُرب بعصاً قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة وأكثر وأقل، بحيث لو كان على الإنسي لقتله، وإنما هو على الجني، والجني يصيح ويصرخ، ويُحدِّث الحاضرين بأمور متعددة، كما قد فعلنا نحن هذا وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها، بحضرة خلق كثيرين»[(2)].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية ضربه للجني الصارع دون أن يتأذي المصروع بالضرب حيث قال: «وكان ـ يعني شيخ الإسلام ـ كثيراً ما يقرأ في أذن المصروع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وحدَّثني أنه قرأها مرة في أذن المصروع، فقالت: نعم، ومَدَّ بها صوته، قال: فأخذتُ له عصا، وضربته بها في عروق عنقه حتى كلَّت يداي من الضرب، ولم يشك الحاضرون أنه

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/ ٦٤.

(٢) المرجع نفسه ١٩/ ٦٠.

يموت لذلك الضرب، ففي أثناء الضرب، قالت: أنا أحبه، فقلت لها: هو لا يحبك، قالت: أنا أريد أن أحُجَّ به، فقلت لها: هو لا يريد أن يحج معك، فقالت: أنا أدعه كرامة لك، قال: قلت: لا، ولكن طاعة لله ولرسوله، قالت: فأنا أخرج منه، قال: فقعد المصروع يلتفت يميناً وشمالاً، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ، قالوا له: وهذا الضرب كُلُّه؟ فقال: وعلى أيِّ شيء يضربني الشيخ ولم أذنب، ولم يشعر بأنه وقع به ضرب البتَّة»[1].

فبهذه الرُّقى الشرعية والعلاجات المباحة النافعة، يجب علاج المصروع ومقاومة الشيطان الصارع وطرده من البدن، وينبغي أن يعلم أنه لا يؤثر في الجني الصارع علاج كتأثير هذه الرقي الربانية من القرآن والسُنَّة ودحر عدو الله وإبطال كيده بإذن الله ـ تعالى ـ.

فلا يجوز للمسلم أن يستعين في علاج المصروع بالكهان والعرافين وغيرهم ممن يستعينون بالجن والشياطين، أو بالوسائل المشبوهة والمجهولة، كأن يطلب المعالج اسم أُمِّ المصروع أو شيئاً من متاعه أو غير ذلك من الأمور الخفية والباطلة، علماً أن تأثير علاج هؤلاء ضعيف لا يقطع أصل الداء ولا يدوم طويلاً، ففي الوسائل المشروعة من الرقى الشرعية والأدوية النافعة ما يُغني عن اللجوء إلى هؤلاء والاستعانة بهم، وفي كتاب الله ـ تعالى ـ ما يكفي لعلاج المصروع وشفائه بإذن الله ـ سبحانه ـ القائل في كتابه العزيز: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) زاد المعاد ٤/٦٨ ـ ٦٩.

الفصل الثالث

الإسراع بالتوبة

بعد معرفة ما تقدم ذكره من العلاجات الوقائية والمباشرة لمحاربة الشيطان ودحره والانتصار عليه، فإنه ينبغي أن يُعلم ويتأكد علمه أن تلك العلاجات لا تعطي نتائجها المطلوبة، ويستمر تأثير مفعولها، إلا بتحقيق توبة صادقة مع الله ـ جل وعلا ـ من جميع الذنوب في الظاهر والباطن، فإنه وإن تحقق شيء من تلك العلاجات مجردة عن التوبة من الذنوب وامتثال الواجبات، فإن نتائجها حينئذٍ تكون سريعة الزوال، ومفعولها ضعيف التأثير، إذ الإنسان حين يواجه عدوه الشيطان بتلك الأسلحة الربانية وهو مباشر للذنوب والآثام، ومُعْرِضٌ عن امتثال الواجبات وفعل الطاعات، فقد حارب عدوه الشيطان من خلال بعض الأبواب، وترك أبواباً أخرى مشرعة أمام عدوه لينفذ إليه منها، ويترَّبص به الشر والفساد والكيد من خلالها، وهذا حال بعض من أصيب بشيء من أذى الجن والشياطين، فإذا ما تعالج بتلك العلاجات الربانية واستمر على استعمالها والتحصن بها فإنه ـ بفضل الله ـ يجد أن أثر المرض قد ضعف وخفّت شدَّته، وأوشك على الزوال، ثم بعد فترة من الزمن يعود ويشكو إلى الراقي رجوع الحال الأولى من معاناة المرض وشدة وطأته عليه، فإذا كشف عن أحواله بصدق وجد أنه مصرٌّ على معصية من المعاصي، أو معرض عن امتثال بعض الواجبات، فيكون قد مدّ يده إلى عدوه الشيطان وفَتحَ له منفذاً يلجُ منه إليه لبعده عن منهج الله وصراطه القويم.

فلا بد من الاهتمام بأمر التوبة في جميع الأحوال، والرجوع إلى الله ـ تعالى ـ بصدق وحسن ثقة به ـ جل وعلا ـ، فالتوبة الشرعية هي: أن يرجع العبد إلى ربه ـ جل ثناؤه ـ ويترك ما حرَّم من المعاصي صغيرها وكبيرها، رجوعاً وتركاً صادقين خالصين موثَّقيَن بالطاعات وامتثال الأوامر التي تحُوْل بين الإنسان وبين سبل الشيطان.

يقول الراغب الأصفهاني: «التوب: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة»(١).

ويقول ابن تيمية رحمه الله في معنى التوبة الشرعية: «والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه، فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى الله، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»(٢).

ويقول أبو حامد الغزالي: «معنى التوبة: الرجوع عن الطريق المُبْعِد عن الله المقرِّب إلى الشيطان، ولا يُتصوّر ذلك إلا من عاقل، ولا تكتمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان»(٣).

ولقد وردت التوبة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه هي:

١ ـ بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيَّد بعلى، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥].

٢ ـ بمعنى الرجوع والإنابة، وهذا مقيَّد بإلى، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم: ٨] ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

٣ ـ بمعنى الندامة على الزّلة، وهذا غير مقيَّد، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾(٤) [التوبة: ٣].

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ص٧٢.
(٢) جامع الرسائل ١/٢٢٨.
(٣) إحياء علوم الدين ٤/٨.
(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/٣٠٨.

ولأهمية التوبة في حياة الإنسان، عاجلاً وآجلاً، وشدة حاجة العباد إليها في سائر أحوالهم، فقد أمر الله ـ جل وعلا ـ عباده بالتوبة والإنابة إليه ـ تعالى ـ، وحثهم على ملازمتها، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤] ويقول الرؤوف بعباده: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . .﴾ الآية [التحريم: ٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

ولبيان مَزيّة التوبة وفضيلتها وحسن عاقبتها فقد رغَّبَ النبي ﷺ فيها وحثَّ على تجددها وملازمة تحقيقها، وأثنى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على التائبين وبيّن خيريتهم على غيرهم، فعن الأغر بن يسار المزني(١) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة)(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون)(٤).

---

(١) هو: الأغر بن يسار المزني، ويقال: الجهني، من مهاجري الصحابة، روى عنه أبو بردة وغيره.
انظر: معرفة الصحابة ٢/ ٣٩٩، الاستيعاب ١/ ١٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٠٢] باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٣٠٧] باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٩٨، والترمذي في صفة القيامة، حديث [٢٤٩٩] =

كما أخبر ﷺ أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يبسط يده بالليل والنهار إلى عباده ليتوبوا إليه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيءُ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيءُ الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)(١). وبيَّن ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن من رحمة الله بعباده أن جعل في الجنة باباً للتوبة مفتوحاً لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (للجنة ثمانية أبواب، سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه)(٢)، وعن صفوان بن عسَّال المرادي(٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً مسيرة عرضه سبعون عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قِبَله، وذلك قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨])(٤).

= باب (٤٩)، وابن ماجه في الزهد حديث [٤٢٥١] باب ذكر التوبة، والدارمي في الرقاق بلفظ ابن ماجه، حديث [٢٧٢٧] باب في التوبة، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٧٣ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، وقال الصنعاني في سبل السلام ٤/ ٣٥٧: «سنده قوي».

(١) أخرجه مسلم في التوبة، حديث [٢٧٥٩] باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠/ ٢٠٦، وأبو يعلى في مسنده ٥/ ٢٤، والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٩٠، وجوّد المنذري إسناده في الترغيب والترهيب ٤/ ٨٩، وكذا الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٩٨.

(٣) هو: صفوان بن عسَّال من بني الربض بن زاهر المرادي، له صحبة، روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروي عنه زرّ بن حبيش، وعبد الله بن سلمة، وأبو العريف، وذكر أنه غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وسكن الكوفة.
انظر: الثقات ٣/ ١٩١، الاستيعاب ٢/ ٧٢٤، الإصابة ٣/ ٢٤٨.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٤١، والترمذي في الدعوات، حديث [٣٥٣٥] باب في فضل التوبة والاستغفار.. إلخ، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الفتن نحوه، حديث [٤٠٧٠] باب طلوع الشمس من مغربها. وقال ابن كثير في التفسير ٢/ ١٩٥: «صحَّحه النسائي».

وبهذا يتَّضح حرص الإسلام واهتمامه بأمر التوبة والإنابة إلى الله ـ تعالى ـ، وضرورة سمو الإنسان وطهارته من الأدران والشوائب الموبقة باطناً وظاهراً، ولذا فقد انعقد إجماع الأمة على وجوب التوبة على كل مسلم، وهذا ما قرّره أهل العلم، يقول القرطبي: «واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين»(١)، وقال ابن قدامة المقدسي: «والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مُهلكات مُبعدات عن الله ـ تعالى ـ فيجب الهرب منها على الفور»(٢).

وإذا كان العبد مأموراً بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ من جميع الذنوب، فإنه مأمور أيضاً بالمبادرة بها على الفور، ولا يجوز له تأخيرها إلى حين، فإن التسويف بالتوبة من أخطر المكائد التي يدخل بها الشيطان على عدوه الإنسان، إذ يزين له تأجيل التوبة إلى الكِبَر، ويجرّه بوساوسه وإيحاءاته الماكرة من مرحلة من مراحل العمر إلى أخرى حتى يفاجئه الموت وهو على غير توبة من ذنوبه، فيُختم له بسوء الخاتمة، وحينئذٍ يتحسّر هذا المسوّف أشدّ الحسرة والندامة، ويتمنّى أن يرجع إلى الدنيا ساعة واحدة ليتوب فيها إلى الله ويُصلح أعماله، ويستزيد من الحسنات، ولكن هيهات هيهات، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ولذا فقد اتفق العلماء على أن التوبة واجبة على الفور، ولا يجوز للإنسان تأخيرها لأي سبب من الأسباب، يقول النووي ـ رحمه الله ـ: «واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور، لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة، والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع»(٣).

---

(١) تفسير القرطبي ٥/ ٩٠.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٥١.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٥٩.

وكما أن التوبة لا تتحقق إلا بترك الذنوب والمعاصي، فهي أيضاً غير متحققة إلا بالتوبة من ترك الطاعات وامتثال الأوامر والواجبات، فلا بد أن تكون التوبة توبةً عن كل ما يبعد عن الله ويقرِّب إلى الشيطان، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها»[1]، ويقول ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن الإقلاع والعزم والندم، تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتى يوجد منه العزم على فعل المأمور والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين»[2].

فيجدر بالعبد المسلم أن يتوب إلى ربه وينيب إليه من زلاته وخطيئاته وتقصيره عن امتثال الواجبات قبل أن تغرغر الروح في الحلق، وأن لا يدع لعدوه الشيطان مجالاً ولا يفتح له باباً بالقنوط من رحمة الله ـ جل وعلا ـ، حيث إن القنوط من رحمة الله واليأس من عفوه ومغفرته مكيدة شيطانية يدخل بها عدو الله على العبد المسيء ليزيد من إساءته وتفريطه، وليحول بينه وبين التوبة الصادقة، فيوحي إليه بأن ذنوبه عظيمة وزلّاته جسيمة لا تغفر بالتوبة والإنابة، وأن خطيئاته وسيئاته أكبر من أن تُمحى بالتوبة، حتى يُقنّطه من عفو ربه ومغفرته، بَيْد أن الله ـ تعالى ـ نهى عن القنوط من رحمته، ودعى عباده إلى رحاب عفوه ومغفرته، فقال: ـ جل ثناؤه ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤]، ففي هذه الآية الكريمة نهي عن

(١) جامع الرسائل ١/ ٢٢٨.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٣٠٥.

القنوط من رحمة الله ولو عظمت الذنوب، فلا يجوز للعبد أن ييأس من رحمة الله ـ تعالى ـ لكثرة الذنوب والخطايا، فإن صِدْق التوبة والإنابة إلى الله ـ تعالى ـ تمحو السيئات والآثام بفضل سعة رحمة الله بعباده ولطفه بهم، يقول ابن عطية عن هاتين الآيتين وما بعدهما: «هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، في كل كافر ومؤمن، أي أن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه»[1].

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر»[2].

فإذا كان الشيطان قد قطع على نفسه عهداً أن يغوي الإنسان ويَحُولَ بينه وبين التوبة، فإن الله قد أقسم بعزَّته وجلاله أن يغفر لعباده ما استغفروه وأنابوا إليه، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب ـ تبارك وتعالى ـ: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني)[3].

وحين تكون التوبة الشرعية مأموراً بها على الفور، فإن لهذه التوبة شروطاً لا تتحقق التوبة إلا بها وهذه الشروط هي:

١ ـ الاعتراف بالذنب:

فلا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به، والسعي إلى التخلص من تبعته، ولذا كان الاعتراف بالذنب هو أول ما صدر من آدم

---

(١) تفسير ابن عطية ١٢/٥٥١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٥٩.
(٣) سبق تخريجه ص٣٧١.

وزوجه ﷺ حين أرادا التوبة من خطيئتهما، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

٢ ـ الإقلاع عن فعل الذنب في الحال:

فإن من لم يقلع عن الذنب لا يُعدّ تائباً ولو ادّعى ذلك بلسانه وعزم بقلبه.

٣ ـ الندم على فعل المعصية:

فإن التوبة لا تتحقق بدون حدوث الندم الصادق والجازم على فعل السيئات وترك فعل الواجبات، فيعتبر الندم ركن التوبة الأعظم، يقول ابن القيّم: «فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه»[(١)].

٤ ـ العزم الأكيد على أن لا يعود إلى فعله في المستقبل:

ولذا حين أمر الله عباده بالتوبة قيَّد هذه التوبة بأن تكون توبة نصوحاً، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . .﴾ الآية [التحريم: ٨]، والتوبة النصوح هي: أن يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود إليه، وبهذا قال عمر بن الخطاب وابن عباس وابن مسعود وأُبَيّ ومعاذ رضي الله عنهم[(٢)].

وقال القرطي: «يجمعها ـ أي التوبة النصوح ـ أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجَنان، ومهاجرة سيء الإخوان»[(٣)]. وقد ذكر العلماء أن التوبة النصوح لا بد لها أن تتضمن ثلاثة أمور:

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٢٨/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٨/ ١٦٩، وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ١٠٧ بعد أن ذكر قول عمر رضي الله عنه: «أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن مسعود مثله».

(٣) تفسير البغوي ٨/ ١٦٩.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده[1].

فالعزم الأكيد على عدم الرجوع إلى الذنب، شرط أساس من شروط التوبة التي لا تتحقق إلا بها، يقول ابن قدامة المقدسي: «ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكَّداً»[2].

٥ ـ ومن شروط التوبة الشرعية، رَدَّ الحقوق إلى أصحابها والتحلُّل منهم:

سواء كانت الحقوق مالاً أو عِرْضاً أو غيرها، فإنه يُمكِّنُ صاحبَ الحقِّ منه، أو يتحلل من صاحب الحق، يقول الحليمي: «وإن كان الذنب من مظالم العباد، فلا تصح التوبة منه إلا بأداء الواجب عيناً كان أو ديناً ما دام مقدوراً عليه، فإن لم يكن مقدوراً عليه، فالعزم على أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقته وأسرعه»[3].

٦ ـ ومن شروط التوبة أيضاً حدوثها قبل وقوع أمرين هما:

أ ـ أن تكون التوبة قبل غرغرة الروح في الحلق، فإذا وقعت التوبة في هذه الحال فإنها لا تنفع شيئاً، فالله ـ تعالى ـ يقول في كتابه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣١٠.
(٢) مختصر منهاج القاصدين ص٢٦١.
(٣) شعب الإيمان ٥/ ٣٩٥.

عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[(١)].

ب ـ أن تقع التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها فلا تنفع التوبة حينئذٍ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه)[(٢)]، وتقدم حديث أبي موسى الأشعري وفيه: إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[(٣)].

فإذا عزم العبد على التوبة، وشدّ رحاله للإقبال على ربه التواب الرحيم والإنابة إليه، فليعلم أنه مقبل على فضائل عظيمة وخيرات عميمة، إذ التوبة إلى الله ـ تعالى ـ تشمل فضائل جمّة، من أهمها ما يأتي:

١ ـ فرح الله ـ تعالى ـ بتوبة عبده:

فمن رحمة الله بعبده ولطفه به، أنه يحب إنابته إليه ويفرح برجوعه ذليلاً منكسراً بين يديه، يقول الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالله ـ تبارك وتعالى ـ أشد فرحاً بتوبة عبده ممن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ١٣٢، ١٥٣، والترمذي في الدعوات، حديث [٣٥٣٧] باب في فضل الاستغفار... إلخ، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، حديث [٢٧٠٢] باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٣) سبق تخريجه ص٥٦٥.

فقد راحلته في مفازة ثم وجدها واقفة عند رأسه بعد طول غياب وشدة حاجة، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لله أشدّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[١].

ففي هذا الحديث الشريف يظهر فضل الإقبال على الله والتوبة إليه من فعل السيئات وترك الواجبات، ويتَّضح مدى محبة الله لعبده التائب وفرحه بتوبته إليه ـ تعالى ـ وهو فرح لم يجئ في شيء من الطاعات سوى التوبة إلى الله ﷻ.

٢ ـ التوبة تجبّ ما قبلها من السيئات:

فإذا رجع العبد إلى ربه وتاب إليه من معاصيه وأناب إليه من زلّاته وخطيئاته، وحقَّق الصدق والإخلاص إلى الله ـ تعالى ـ في توبته، فإن من فضل الله وكرمه ورحمته بعبده أن يغفر سيئاته ويمحو خطيئاته، ويتقبَّل طاعاته وحسناته، حتى يكون كمن لم يقترف ذنباً أصلاً، فعن أبي عبيدة بن عبد الله[٢] عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[٣]، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ

---

(١) سبق تخريجه ص١٦٠.

(٢) هو عامر بن عبد الله بن مسعود الهذلي الكوفي، أبو عبيدة، ولا يرد إلا بالكنية، تابعي، ثقة، روي عن أبيه، ولم يسمع منه شيئاً، وتوفي سنة ٨١هـ.
انظر: تاريخ الثقات ص٥٠٤، الثقات ٥/ ٥٦١، سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٦٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد حديث [٤٢٥٠] باب ذكر التوبة، والطبراني في الكبير ١٠/ ١٥٠، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢١٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠ وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه»، وقال في المقاصد الحسنة ص١٥٢: «رجاله ثقات، بل حسّنه شيخنا، يعني لشواهده».

خطيئة، نُكتت في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، صُقِل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرَّان الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤])[١].

٣ ـ تُبدّل السيئات بالحسنات:

إن فضيلة تبديل السيئات بالحسنات للتائب من أعظم البشارة للتائبين، وقد أخبر الله ﷻ عن هذه الفضيلة العظيمة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

وللمفسرين في معنى التبديل المذكور في الآية قولان هما:

القول الأول: إن المراد بالتبديل في الآية هو تبديل السيئات التي اكتسبها التائب في الدنيا، حسنات يوم القيامة، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول[٢].

القول الثاني: إن الله ـ تعالى ـ يبدّل بقبائح أعمال التائبين في الشرك، محاسنَ الأعمال في الإسلام، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن زيد والحسن ومجاهد والسدي والضحَّاك، ورجَّحه ابن جرير الطبري[٣].

والصواب ـ والله أعلم ـ أن معنى التبديل في الآية هو تبديل سيئات

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٩٧، والترمذي في تفسير القرآن، حديث [٣٣٣٤] باب (٧٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الزهد، حديث [٤٢٤٤] باب ذكر الذنوب، والنسائي في عمل اليوم والليلة، حديث [٤١٨]، وابن حبان في صحيحه ٢/١٤١، ٤/١٩٨، والحاكم في المستدرك ٢/٥٦٢، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه».

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٩/٤٧.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٩/٤٦ ـ ٤٧، وتفسير ابن عطية ١١/٧٧، وتفسير البغوي ٦/٩٧.

التائب حسنات، وهذا صريح الآية وظاهرها، ولا حاجة لصرف الآية عن ظاهرها، وليس معنى هذا أن الذنب نفسه ينقلب حسنة، وإنما المعنى أن السيئة المترتِّبة على الذنب تبدّل بعد التوبة حسنة، تفضلاً من الله على عباده ورحمة بهم وترغيباً لهم في التوبة والإنابة إليه ـ تعالى ـ.

ومما يدل على أن سيئات التائب تبدَّل بعد التوبة حسنات، ما رواه أبو طويل شطب الممدود[(1)]، أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجّة إلا أتاها، فهل له من توبة؟ قال: (فهل أسلمت؟)، قال: أما أنا فأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قال: (نعم، تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن)، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: (نعم)، قال: الله أكبر، فما زال يكبّر حتى توارى[(2)]. يقول ابن تيمية: «فالعبد المؤمن إذا تاب وبدّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يَضرّه من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مُضرّة له، بل كانت توبته منها أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»[(3)].

٤ ـ مراغمة الشيطان بالتوبة وغيظه بها:

إن الشيطان ـ كما تقدم ـ يجتهد بجميع وسائله وأساليبه لإضلال الإنسان ووقوعه في مهاوي الخيبة والرذيلة، فإذا تاب العبد إلى ربه وأعرض

(١) هو شطب الممدود الكندي، أبو طويل، يقال: له صحبة، وحديثه في الشاميين، نزل الشام وسكن بها، وروى عنه عبد الرحمٰن بن جبير.
انظر: المقتنى في سرد الكنى للذهبي ١/ ٣٣١، الإصابة ٣/ ٢٠٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ٣١٤، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١١٣: «إسناده جيِّد قوي»، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٣/ ٢٠٨: «هو على شرط الصحيح»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣٢: «رواه الطبراني والبزَّار بنحوه ورجال البزَّار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة».

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٥٥.

عن سُبل الشيطان واتَّبَعَ صراط الله المستقيم، فإنه بذلك يراغم عدوه الشيطان، ويظهر مقته وكراهيته لكل إغراءات الشيطان ودسائسه، ويعلن عداوته ومحاربته له، ويقبل على ربه الغفور الرحيم الذي يغفر الذنوب جميعاً، فتخيب بتلك التوبة والإنابة أهداف الشيطان، وتذهب جهوده ومكائده التي كاد بها هذا الإنسان أدراج الرياح، وتفشل خططه التي نسجها لإيقاع هذا التائب في شر أعماله، فتزداد بذلك حسرة عدو الله وغيظه ومراغمته، وييأس من جرّ هذا التائب إلى مصائده التي نصبها لبني آدم، فيجدر بالمسلم أن يقطع رجاء عدوه الشيطان فيه بكثرة الاستغفار والتوبة إلى الله في جميع الأحوال حتى تخيب آمال الشيطان فيه، روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «خياركم كل مفتّن تواب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: حتى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور(١)»(٢).

وقيل للحسن رحمه الله: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه، ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: «ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار»(٣).

٥ ـ حصول كمال العبودية بالتوبة إلى الله ـ تعالى ـ:

فالعبد حين يُبتلى بما يتوب منه من السيئات، فإنه يجتهد بعد التوبة في الابتعاد عن الوقوع فيما وقع فيه، ويحذر أشد الحذر من مقاربته، ويرجع إلى ربه ـ تعالى ـ بالخوف والخضوع والخشوع والانكسار بين يديه ـ جل وعلا ـ، فيحصل له بذلك تكميل العبودية بما لا يحصل بدون التوبة، يقول ابن تيمية: «والله ـ تعالى ـ يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل

---

(١) المحسور: الذي كَلَّ وتعب وأعيته الحيلة. انظر: لسان العرب مادة «حسر».

(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٤١٤.

(٣) المرجع نفسه ١/ ٤١٥.

والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة»[1]، وقال ابن القيّم: «إن عبودية التوبة فيها من الذلّ والانسكار والخضوع والتملّق لله، والتذلّل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التوبة، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومُخها ولبّها»[2].

٦ ـ التوبة النصوح سبب للفلاح ودخول الجنة:

فقد جعل الله ـ تبارك وتعالى ـ التوبة، طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٦٧]، وقال ﷻ حكاية عن نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال الفيروزآبادي عن هذه الآية: «خاطب الله ـ تعالى ـ بها أهل الإيمان، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم، وصبرهم، وهجرتهم، وجهادهم، ثم علّق الفلاح بالتوبة تعلق المسبب بسببه، وأتى بأداة (لعل) المشعر بالترجّي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم»[3].

ومما تُكفَّر به الخطايا، ويجدر بالتائب أن يستكثر منه، ذكر الله ـ عز وجل ـ على اختلاف أنواعه، ولقد وردت بعض الأحاديث في تخصيص بعض أنواع الذكر التي لها أثر كبير في محو السيئات، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٥٥.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٢٩٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ٣٠٤.

ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ﷺ: (إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، تنفض الخطايا كما تنفض الشجرةُ ورَقَها)(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة، حُطَّت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)(٢).
وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كان له عَدْل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حِرْزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ عَمِلَ أكثر من ذلك)(٣).

وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (من سبّح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحَمِد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على شيء قدير، غُفِرَت خطاياه وإن كانت مثل زَبَدَ البحر)(٤).

ومما يتأكَّد في حق التائب إلى الله ـ تعالى ـ كثرة الاستغفار، فإن من فضل الله ـ جل وعلا ـ ورحمته أن يغفر لمن استغفره، يقول: ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه، ثلاثاً، غُفرت ذنوبه، وإن كان فَارّاً من الزَّحف)(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٥٢، وصحّح ابن رجب إسناده في جامع العلوم والحكم ١/٤٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٤٠٥] باب فضل التسبيح، ومسلم في الذكر والدعاء، جزء من حديث [٢٦٩١] باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.
(٣) سبق تخريجه ص٤٢٨.
(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، حديث [٥٩٧] باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته.
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٢٨، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم =

وأما أفضلُ الاستغفار وسَيِّدُهُ فهو فيما رواه شدَّادُ بن أوس[(١)] رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (سيد الاستغفار أن يقول: اللَّهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوءُ[(٢)] لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: فمن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة)[(٣)].

وبهذا يتبيَّن أن التوبة الصادقة حصن منيع للإنسان ضد مكائد عدوه الشيطان في صراعه الدائم، وأنها علاج وقائي ومباشر لكل الأدواء التي يصيب بها الشيطان الإنسان، إذ التائب قد لجأ إلى ربه ـ تعالى ـ ومولاه واحتمى بحماه، وكفى بالله حافظاً وعاصماً، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

أسأل الله الكريم، رب العرش العظيم، أن يعصمنا من الشيطان الرجيم، وأن لا يجعل له إلينا سبيلاً، وأن يوفقنا للتوبة النصوح ويجعل خير أعمالنا خواتيمها، ويجعل آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، سبحانك اللَّهم وبحمدك، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

= ولم يخرِّجاه»، ووافقه الذهبي، وله شاهد عند الترمذي في الدعوات من حديث بلال بن يسار بن زيد عن أبيه عن جده، حديث [٣٥٧٧] باب في دعاء الضيف، وعند أبي داود في الصلاة، حديث [١٥١٧] باب في الاستغفار، وعند الطبراني في الكبير ٥/ ٨٩، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٤٧٠: «إسناده جيِّد مُتَّصل».

(١) هو: شدّاد بن أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الخزرجي، كنيته أبو يعلى، من فضلاء الصحابة وعلمائهم، وكانت له عبادة واجتهاد في العمل، وتحوّل إلى فلسطين فنزلها، وتوفي بها سنة ٥٨هـ.
انظر: الاستيعاب ٢/ ٦٩٤، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٠، الإصابة ٣/ ١٩٥.

(٢) أَبُوءُ: أي ألتزمُ وأرجعُ وأُقِرّ، وأصل البواء اللزوم، النهاية في غريب الحديث ١/ ١٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، حديث [٦٣٠٦] باب أفضل الاستغفار.

فهرس المراجع(1)

١ ـ آدم عليه السلام: البهي الخولي، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى.

٢ ـ آكام المرجان في أحكام الجان: بدر الدين محمد بن عبد الله الشبلي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣ ـ إبليس: عباس محمود العقاد، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، صيدا.

٤ ـ الإحسان: بترتيب صحيح ابن حبان (صحيح ابن حبان)، الإمام أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي، ترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٥ ـ الإحكام في أُصول الأحكام: أبو الحسن علي بن أبي علي الآمدي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦ ـ أحكام القرآن: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصَّاص، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ.

٧ ـ أحكام القرآن: أبو بكر محمد بن عبد الله العربي، تخريج وتعليق محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٨ ـ إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، طبعة عالم الكتب، بيروت.

٩ ـ الأخلاق الإسلامية وأُسسها: عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني، طبعة دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

١٠ ـ أدب الدنيا والدين: أبو الحسن علي بن محمد البصري الماوردي، تحقيق مصطفى السقا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١١ ـ الأدب المفرد: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١٢ ـ الأذكار: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٣ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(١) المرجع الذي لم يذكر له تاريخ أو مكان الطبع أو اسم المطبعة فإن ذلك غير مثبت في المرجع نفسه.

١٤ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
١٥ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة.
١٦ ـ أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير الجزري، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ.
١٧ ـ الأسماء والصفات: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة: الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٩ ـ أصول الدين: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ.
٢٠ ـ أصول علم النفس: دكتور أحمد عزت راجح، طبعة دار القلم، بيروت، لبنان.
٢١ ـ الأضداد: محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٢٢ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن المختار الشنقيطي، طبعة، عالم الكتب، بيروت.
٢٣ ـ الاعتصام: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٤ ـ إعراب القرآن: أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٢٥ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، طبعة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.
٢٦ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الرحمٰن الوكيل، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٢٧ ـ أعلام النساء: عمر رضا كحالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ١٤١٢هـ.
٢٨ ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٢٩ ـ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٠ ـ الأم: الإمام محمد بن محمد بن إدريس الشافعي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٣١ ـ الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق الدكتور ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني، طبعة مطابع الرشيد، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ.
٣٢ ـ الأنساب: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، طبعة دار الجنان، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٣٣ ـ الإنسان بين المادِّية والإسلام: محمد قطب، طبعة دار الشروق، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٤٠٨هـ.
٣٤ ـ الإنسان في القرآن الكريم: عبد الكريم الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
٣٥ ـ الإنصاف فيما تضمَّنه الكشَّاف من الاعتزال. أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الاسكندراني المالكي، طبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ، وهو بهامش تفسير «الكشاف» للزمخشري.
٣٦ ـ أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل: محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الدَّاية، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٣٧ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المشهور بـ (تفسير البيضاوي)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٣٨ ـ أهل السُّنَّة والجماعة معالم الإنطلاقة الكبرى: جمع وإعداد محمد عبد الهادي المصري، طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٣٩ ـ الأوسط في السُّنن والإجماع والاختلاف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، تحقيق الدكتور أبو حمَّاد صغير أحمد بن محمد حنيف، طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٤٠ ـ الإيمان: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبعة دار الأرْقَم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٤١ ـ الباعث على إنكار البدع والحوادث: أبو القاسم عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي، المشهور بأبي شامة، تحقيق بشير محمد عُيون، طبعة مكتبة دار بيان، دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤٢ ـ البحر المحيط: محمد بن يوسف، أبو حيّان الأندلسي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٤٣ ـ بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
٤٤ ـ البداية والنِّهاية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي، تحقيق الدكتور أبو ملحم، والدكتور علي نجيب عطوي، ورفقائهما، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٤٥ ـ البدور الزَّاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبد الفتَّاح القاضي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٤٦ ـ البُرهان في علوم القرآن: بدر الدِّين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
٤٧ ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق الأستاذ محمد علي النَّجار، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
٤٨ ـ بُغية الوُعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة: جلال الدِّين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٤٩ ـ البُلغة في تراجم أئمة النَّحو واللُّغة: مجد الدِّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد المصري، طبعة جمعية إحياء التراث الإسلامي، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
٥٠ ـ بَهْجَة قلوب الأبرار وقُرَّة عُيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: الشيخ عبد الرحمٰن الناصر السِّعدي، تخريج بدر البدر، طبعة مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.
٥١ ـ بَهْجَة المجَالس وأُنس المُجالس وشحذ الذَّاهن والهاجس: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
٥٢ ـ تاريخ الأمم والملوك: المشهور بـ (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.
٥٣ ـ تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، طبعة دار الكتاب، بيروت.
٥٤ ـ تاريخ الثقات: الحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥٥ ـ التَّاريخ الكبير: الحافظ أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبعة المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا.
٥٦ ـ تأويل مُختلف الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٥٧ ـ التبيان في أَقْسَام القرآن: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ.
٥٨ ـ تُحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: محمد بن يوسف أبو حيَّان الأندلسي، تحقيق سمير طه المجذوب، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.
٥٩ ـ تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، طبعة دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
٦٠ ـ التذكرة في الوعظ: عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن الجوزي، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
٦١ ـ الترغيب والترهيب: الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تعليق مصطفى محمد عمارة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.
٦٢ ـ التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
٦٣ ـ التعريفات: علي بن محمد الجرجاني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٦٤ ـ تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر.
٦٥ ـ تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي، طبعة المكتبة الشعبية.
٦٦ ـ تفسير الخازن: علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٦٧ ـ تفسير أبي السعود: محمد بن محمد بن مصطفى، أبو السعود، طبعة دار الفكر، بيروت.
٦٨ ـ تفسير غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق أحمد صقر، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ، نشر دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
٦٩ ـ تفسير القرآن: عبد الرزاق بن همّام الحُميري الصنعاني، تحقيق الدكتور مصطفى مسلم، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٧٠ ـ تفسير القرآن الحكيم: الشهير بـ (تفسير المنار)، محمد رشيد علي رضا، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٧١ ـ تفسير القرآن العظيم: الشهير بـ (تفسير ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، طبعة دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.

٧٢ ـ التفسير القيم: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، جمعه محمد أويس الندوي، وحققه محمد حامد الفقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧٣ ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

٧٤ ـ تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤هـ.

٧٥ ـ تفسير النسائي: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق سيد الحليمي، وصبري الشافعي، طبعة مكتبة السنّة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٧٦ ـ تفليس إبليس، عز الدين عبد السلام بن أحمد المقدسي، تحقيق سليم بن عيد الهلالي، طبعة مكتبة ابن الجوزي، الدمام، الأحساء، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٧٧ ـ تقريب التهذيب: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ.

٧٨ ـ تلبيس إبليس: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٧٩ ـ التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار المعرفة، بيروت.

٨٠ ـ تهذيب الآثار: محمد بن جرير الطبري، تحقيق الدكتور ناصر بن سعد الرشيد، طبعة مطابع الصفا، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ.

٨١ ـ تهذيب الأخلاق: أحمد بن محمد بن مسكويه، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٨٢ ـ تهذيب التهذيب: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٨٣ ـ التواضع والخمول: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق لطفي محمد الصغير، طبعة دار الاعتصام، القاهرة.

٨٤ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، دراسة وتحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

٨٥ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ.
٨٦ ـ تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، طبعة دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٨هـ.
٨٧ ـ الثِّقات: الحافظ محمد بن حبان البستي، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.
٨٨ ـ جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٩ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: المشهور بـ(تفسير الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار فكر، بيروت، ١٤٠٨هـ.
٩٠ ـ جامع الرسائل: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، طبعة دار المدني، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٩١ ـ الجامع الصحيح (سنن الترمذي): أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، طبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.
٩٢ ـ جامع العُلوم والحِكَم: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب بن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وإبراهيم باجس، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
٩٣ ـ الجامع لأحكام القرآن: المشهور بـ (تفسير القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٩٤ ـ الجن والشّياطين بين العلم والدين: رياض العبد الله، طبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٩٥ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشافي: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق سعيد محمداللحام، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.
٩٦ ـ حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩٧ ـ الحبائك في أخبار الملائك: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

٩٨ ـ الحُجَّة في بيان المحَجَّة وشرح عقيدة أهل السُنَّة: أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، نشر محمد بن ربيع المدخلي، ومحمد بن محمود أبو رحيم، طبعة دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٩٩ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

١٠٠ ـ حياة الحيوان الكبرى: أبو البقاء محمد بن موسى الدميري، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠١ ـ خلق الإنسان بين الطب والقرآن: الدكتور محمد علي البار، طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة السابعة، ١٤٠٩هـ.

١٠٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، طبعة دار الفكر، بيروت.

١٠٣ ـ دراسات في علم النفس الإسلامي: الدكتور محمود البستاني، طبعة دار البلاغة، بيروت، لبنان، الطبعة الثاني، ١٤١١هـ.

١٠٤ ـ الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٥ ـ الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، طبعة دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٠٦ ـ الدّر المنثور في التفسير المأثور: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٠٧ ـ دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٠٨ ـ دلائل النبوة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، نشر وتوزيع المكتبة العربية، سورية، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.

١٠٩ ـ الدّين الخالص: صديق حسن خان، طبعة مكتبة العروبة، القاهرة ١٣٧٩هـ.

١١٠ ـ ديوان الأعشي: ميمون بن قيس بن جندل الأعشى، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٦هـ.

١١١ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى المزني، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١١٢ ـ ديوان النابغة: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ، تحقيق كرم البستاني.

١١٣ ـ ذيل تذكرة الحفّاظ: الحافظ أبو المحاسن الحسيني الدمشقي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٤ ـ الرسائل المنيرية: مجموعة رسائل لبعض العلماء، عنيت بنشرها وتصحيحها والتعليق عليها: إدارة الطباعة المنيرية، طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

١١٥ ـ الرسالة: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، طبعة المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

١١٦ ـ الروح: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق محمد إسكندريلدا، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١١٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١١٨ ـ روضة الطالبين: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١١٩ ـ رياض الصالحين: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، طبعة دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٠٩هـ.

١٢٠ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: محمد حبيب الله بن أحمد الجكني اليوسفي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢١ ـ زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

١٢٢ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٠٦هـ.

١٢٣ ـ الزهد: الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٢٤ ـ الزواجر عن اقتراف الكبائر: أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٢٥ ـ سنن الدارقطني: الحافظ علي الدارقطني، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.

١٢٦ ـ سنن الدارمي: الحافظ عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي السمرقندي، تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٧ ـ سنن أبي داود: الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، إعداد وتعليق عزت عبيد الدّعاس، وعادل السيد، طبعة دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.

١٢٨ ـ السّنن الكُبري: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، طبعة دار المعرفة، بيروت، توزيع مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٢٩ ـ السّنن الكُبرى: الحافظ أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٣٠ ـ سنن ابن ماجه: الحافظ عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة المكتبة العلمية، بيروت.

١٣١ ـ سنن النّسائي: الحافظ أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي، وهو بشرح الإمام السيوطي، وحاشية السندي، طبعة دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٣٢ ـ السُّنّة: الإمام أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق الدكتور محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، طبعة دار ابن القيم، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٣٣ ـ السُّنّة: الحافظ أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضّحاك، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

١٣٤ ـ سير أعلام النُّبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد، ورفقائهم، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٠هـ.

١٣٥ ـ السِّيرة النبوية: أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٦ ـ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: «رحمه الله». أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٣٧ ـ شرح الأربعين حديثاً النووية: العلامة ابن دقيق العيد، طبعة المكتبة الثقافية، بيروت.

١٣٨ ـ شرح أُصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة الله الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٣٩ ـ شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك: محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
١٤٠ ـ شرح السنّة: الإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
١٤١ ـ شرح العقيدة الطحاوية: علي بن علي بن أبي العزّ الدمشقي، تحقيق بشير محمد عُيون، نشر مكتبة دار البيان، دمشق، توزيع، مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
١٤٢ ـ شرح معاني الآثار: أبو جعفر بن محمد بن سلامة الطحاوي الحنفي، تحقيق محمد زهري النجّار، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
١٤٣ ـ الشريعة: أبو بكر محمد الحسين الآجرّي، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر أنصار السنة المحمدية.
١٤٤ ـ شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
١٤٥ ـ الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعة دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ.
١٤٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
١٤٧ ـ شفاء العَليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتأويل: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١٤٨ ـ شياطين الإنس والجنّ: عكاشة عبد المنّان الطيبي، طبعة دار الاعتصام، القاهرة،
١٤٩ ـ الشيطان والإنسان بين أوليائه وأعدائه: عبد الكريم الخطيب، طبعة دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٧٩هـ.
١٥٠ ـ الصّحاح: «تاج اللغة وصحاح العربية»، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
١٥١ ـ صحيح البخاري: الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٥٢ ـ صحيح ابن خزيمة: الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

١٥٣ ـ صحيح سنن ابن ماجه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

١٥٤ ـ صحيح مسلم: الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١٥٥ ـ صحيح مسلم بشرح النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها، مصر.

١٥٦ ـ صفة الصفوة: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي، تحقيق محمد فاخوري، تخريج محمد رواس قلعة جي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦هـ.

١٥٧ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله، طبعة دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ..

١٥٨ ـ صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دَحْلَان: محمد بشير السهسواني الهندي، طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها، الطبعة الثالثة، ١٣٧٨هـ.

١٥٩ ـ الضعفاء الكبير: الحافظ أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي المكي، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، توزيع دار ألباز، مكة المكرمة.

١٦٠ ـ الطبقات الكبرى: محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، تحقيق محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٦١ ـ طبقات المفسرين: جلال الدين عبد الرحمٰن بن بكر السيوطي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٢ ـ طبقات المفسرين: محمد بن علي بن أحمد الداوودي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

١٦٣ ـ الطبّ من الكتاب والسنّة: موفق الدِّين عبد اللطيف البغدادي، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١٦٤ ـ عالم الجنّ في ضوء الكتاب والسنة: عبد الكريم نوفان فوّاز عبيدات، طبعة دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٦٥ ـ عالم السِّحْر والشعوذة: الدكتور عمر سليمان الأشقر، طبعة دار النفائس، ومكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٦٦ ـ العِبَر في خبر من غَبَر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
١٦٧ ـ العَظَمة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، أبو الشيخ الأصبهاني، تحقيق مصطفى عاشور، ومجدي السيد إبراهيم، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة.
١٦٨ ـ العقائد السلفية بأدلّتها النقلية والعقلية: أحمد بن حجر آل بوطامي آل بن علي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م.
١٦٩ ـ عِقْدُ المُرْجَان فيما يتعلق بالجانّ: علي بن برهان الحلبي الشافعي، تحقيق مصطفى عاشور، طبعة مكتبة ابن سينا، القاهرة.
١٧٠ ـ عقيدة المؤمن: أبو بكر جابر الجزائري، طبعة دار الكتب السلفية، القاهرة.
١٧١ ـ العلاج الربَّاني للسِّحْر والمسّ الشيطاني: مجدي محمد الشهاوي، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة.
١٧٢ ـ العُمدة في غريب القرآن: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمٰن المرعشلي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٧٣ ـ عمل اليوم والليلة: أبو بكر أحمد بن محمد بن السّنّي: خرّج أحاديثه وعلق عليه سالم بن أحمد السلفي، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٧٤ ـ عمل اليوم والليلة: الإمام أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق الدكتور فاروق حماده، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
١٧٥ ـ عندما ترعى الذئاب الغنم: رفاعي سرور، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
١٧٦ ـ فتاوى السبكي: تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، طبعة مكتبة الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٧٧ ـ فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: جمع وترتيب الشيخ أحمد عبد الرزاق الدّويش، طبعة مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٧٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محبّ الدّين الخطيب، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٧٩ ـ فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدّراية من علم التفسير: محمد بن علي الشوكاني، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

١٨٠ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: الشيخ عبد الرحمٰن بن حسن آل شيخ، طبعة دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٨١ ـ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدّقائق الخفيّة: سليمان بن عمر العجيلي «الجمل»، طبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.

١٨٢ ـ الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق مصطفى بن العدوي، طبعة دار ابن تيمية، القاهرة.

١٨٣ ـ الفَرق بين الفِرق: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٨٤ ـ الفُروق: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن الصنهاجي القرافي، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٨٥ ـ الفِصَل في الملل والأهواء والنحل: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٨٦ ـ الفوائد: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تخريج وحواشي، أحمد راتب عرموش، طبعة دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ.

١٨٧ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، طبعة دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٠٧هـ.

١٨٨ ـ القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٨٩ ـ القرآن وعلم النّفس: الدكتور محمد عثمان نجاتي، طبعة دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١٩٠ ـ القرآن وقضايا الإنسان: الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

١٩١ ـ الكاشف «في معرفة من له رواية في الكتب الستّة»: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق عزّت علي عيد عطية، موسى محمد علي الموشى، طبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ.

١٩٢ ـ الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الجزري، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

١٩٣ ـ الكامل في ضعفاء الرّجال، الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني، طبعة دار الفكر بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

١٩٤ ـ الكبائر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، طبعة دار التراث، الكويت، ١٩٨٤م.

١٩٥ ـ الكشّاف: أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري: طبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ.
١٩٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني «حاجي خليفة»، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١٣هـ.
١٩٧ ـ الكنى والأسماء: الإمام مسلم بن الحجّاج القشيري، تحقيق عبد الرحيم محمد أحمد القشيري، طبعة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
١٩٨ ـ لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، طبعة دار صادر، بيروت.
١٩٩ ـ لَقْطُ المُرجان في أحكام الجانّ: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي، علّق عليه خالد عبد الفتاح شبل، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر.
٢٠٠ ـ لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة: محمد السفّاريني الحنبلي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ.
٢٠١ ـ المجتمع الإنساني في ظلّ الإسلام: محمد أبو زهرة، طبعة الدار السعودية، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
٢٠٢ ـ مجمع الزوائد ومنْبَع الفوائد: الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.
٢٠٣ ـ المجموع شرح المهذَّب: أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة دار الفكر، بيروت.
٢٠٤ ـ مجموع فتاوي ابن تيمية: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، وابنه محمد، إشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
٢٠٥ ـ مجموعة التوحيد: لجماعة من العلماء، تحقيق بشير محمد عيون، نشر دار البيان، دمشق، توزيع مكتبة المؤيد، الطائف، ١٤٠٧هـ.
٢٠٦ ـ محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.
٢٠٧ ـ المحرر الوجير في تفسير الكتاب العزيز: المشهور بـ (تفسير ابن عطية)، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، والرحالي الفاروق، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ومحمد الشافعي صادق العناني، طبعة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ.
٢٠٨ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: محمد بن أبي بكر قيّم الجوزية، اختصره الشيخ محمد بن الموصلي، طبعة مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٢٠٩ ـ مختصر منهاج القاصدين: أحمد بن عبد الرحمٰن بن قدامة المقدسي، تعليق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، طبعة مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٣٩٨هـ، نشر مكتبة دار البيان، دمشق.
٢١٠ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، تحقيق محمدحامد الفقي، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.
٢١١ ـ المدخل إلى علم الأجنّة الوصفي والتجريبي: الدكتور صالح عبد العزيز كريم، طبعة دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢١٢ ـ مروج الذّهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٢١٣ ـ مساوئ الأخلاق ومذمومها: أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي، تحقيق مصطفى بن أبي النصر الشلبي، نشر مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
٢١٤ ـ المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، نشر مكتبة دار الباز، مكة المكرمة.
٢١٥ ـ المسكونون بالشيطان: رياض مصطفى العبد الله، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
٢١٦ ـ المسند: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.
٢١٧ ـ المسند: الحافظ عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، طبعة عالم الكتب، بيروت.
٢١٨ ـ مسند إسحاق بن راهوية: الإمام إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المروزي، تحقيق الدكتور عبد الغفور عبد الحقّ البلوشي، طبعة مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٢١٩ ـ مسند الطيالسي: الحافظ سليمان بن داود الطيالسي، طبعة دار المعرفة، بيروت.
٢٢٠ ـ مسند أبي يعلى: الإمام أبو يعلى أحمد بن علي بن المثني الموصلي، تحقيق إرشاد الحق الأثري، طبعة مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٢١ ـ مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
٢٢٢ ـ مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الحنفي، طبعة مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند، الطبعة الأولى، ١٣٣٣هـ.

٢٢٣ ـ مشكل إعراب القرآن: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.
٢٢٤ ـ مصائب الإنسان من مكائد الشيطان: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح المقدسي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.
٢٢٥ ـ المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م
٢٢٦ ـ المصنّف: الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همّام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٢٢٧ ـ المصنّف في الأحاديث والآثار: الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق سعيد محمد اللّحام، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٢٨ ـ معارج القبول بشرح سُلّم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد: الشيخ حافظ بن أحمد حكمي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢٩ ـ معالم التنزيل: المشهور بـ (تفسير البغوي) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، طبعة دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ.
٢٣٠ ـ معالم السنن: أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي، وهو بهامش سنن أبي داود، طبعة دار الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ.
٢٣١ ـ مع الأنبياء في القرآن الكريم: عفيف عبد الفتاح طبّارة، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ١٩٨٩م.
٢٣٢ ـ معاني القرآن: سعيد بن مسعدة البلخي الأخفش، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٣٣ ـ معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
٢٣٤ ـ معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السرّي الزجّاج، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣٥ ـ معجم الأدباء: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٣٦ ـ المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق الدكتور محمود الطحّان، طبعة مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٣٧ ـ مُعجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٣٨ ـ المعجم الصغير (الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني): أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق محمد شكور محمد الحاج، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٣٩ ـ مُعجم غريب القرآن «مستخرجاً من صحيح البخاري» محمد بن إسماعيل البخاري، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

٢٤٠ ـ المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٢٤١ ـ مُعجم مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، طبعة دار الفكر، بيروت.

٢٤٢ ـ مُعجم المؤلفين: «تراجم مصنّفي الكتب العربية»، عمر رضا كحّالة، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٤٣ ـ المعجم الوسيط: وضع مجمع اللغة العربية، طبعة دار عمران، الطبعة الثالثة.

٢٤٤ ـ معرفة السنن والآثار: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ. الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، ودار الوعي، حلب، القاهرة، ودار قتيبة، دمشق، بيروت.

٢٤٥ ـ معرفة الصحابة: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، تحقيق الدكتور محمد راضي بن حاجّ عثمان، طبعة مكتبة الدار، المدينة المنورة، ومكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٤٦ ـ المعرفة والتاريخ: أبو يوسف يعقوب بن سفيان البسوي، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، طبعة مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٢٤٧ ـ المغني: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدامة، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٢٤٨ ـ مفتاح دار السّعادة ومنشورة ولاية العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، طبعة مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٢٤٩ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المُصلّين: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١١هـ.

٢٥٠ ـ المقتنى في سرد الكُنَى: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق محمد صالح عبد العزيز المراد، طبعة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.

٢٥١ ـ مقدّمة ابن خلدون: عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون الحضرمي، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩١م.
٢٥٢ ـ مكائدة الشيطان: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدّنيا، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، طبعة مكتبة القرآن، القاهرة.
٢٥٣ ـ مكارم الأخلاق ومعاليها: أبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي، تحقيق الدكتورة سعاد سليمان الخندقاوي، طبعة مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٥٤ ـ الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، وهو بهامش كتاب «الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحل» لابن حزم الظاهري، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٥٥ ـ المنتخب من مسند عبد بن حُميد: الحافظ أبو محمد عبد بن حُميد، تحقيق السيد صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٥٦ ـ موارد الظمآن لدروس الزمان: الشيخ عبد العزيز المحمد السلمان، الطبعة الثامنة عشرة، ١٤٠٨هـ.
٢٥٧ ـ موسوعة علم النفس: الدكتور أسعد رزق، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.
٢٥٨ ـ الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: وضع الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، طبعة مطبعة سفير، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٥٩ ـ الموطّأ: الإمام مالك بن أنس الأصبحي، طبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر.
٢٦٠ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، طبعة دار المعرفة، بيروت.
٢٦١ ـ النّبوات: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد عبد الرحمٰن عوض، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٦٢ ـ نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٦٣ ـ نُزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، طبعة مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
٢٦٤ ـ النشر في القراءات العشر: أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٦٥ ـ نَصْبُ الرّاية لأحاديث الهداية، الحافظ جمال الدين عبد الله بن يوسف الزّيلعي، طبعة دار الحديث، القاهرة.
٢٦٦ ـ نَكْتُ الهُميان في نُكت العُمْيَان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، طبعة المطبعة الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ.
٢٦٧ ـ النِّهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السَّعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، طبعة المكتبة العلمية، بيروت.
٢٦٨ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ﷺ: أبو عبد الله محمد الحكيم الترمذي، تحقيق الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، والدكتور السيد الجميلي، طبعة دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٦٩ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٧٠ ـ هَدِيَّة العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون»: إسماعيل باشا البغدادي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ.
٢٧١ ـ الوابل الصيَّب من الكَلِم الطَّيِّب: محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٧٢ ـ وسائل إهلاك وإضلال الشيطان للإنسان: الشيخ عبد الخالق العطّار، طبعة سيدكو، القاهرة، مصر.
٢٧٣ ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد: علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق محمد حسن الزفيتي، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف، مصر، ١٤٠٦هـ.
٢٧٤ ـ وفيَّات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان: أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م
٢٧٥ ـ وقاية الإنسان من الجنّ والشيطان: وحيد عبد السلام بالي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١١هـ.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
* **المقدمة**	٥
- التمهيد	١٥
أ ـ التعريف بالإنسان	١٧
ب ـ الشيطان وإطلاقاته في كتاب الله	٣٤
أولاً: إبليس	٣٤
ثانياً: الشيطان	٣٨
ثالثاً: الطاغوت	٤٨
رابعاً: الغرور	٦٢
خامساً: الوسواس	٦٦
جـ ـ التعريف بالعداوة	٧١
الباب الأول: خلق الشيطان وخلق الإنسان	٧٩
الفصل الأول: أصل الشيطان وأصل الإنسان	٨١
المبحث الأول: أصل الشيطان	٨٢
المبحث الثاني: أصل الإنسان	١٠٢
المبحث الثالث: شبهة إبليس	١١٤
الفصل الثاني: الفرق بين معصية إبليس وآدم عليه السلام	١٢٣
الفصل الثالث: الحكمة من خلق الشيطان	١٤٥
الباب الثاني: عداوة الشيطان ومكائده	١٦١
الفصل الأول: أسباب عداوة الشيطان	١٦٣
المبحث الأول: الاستكبار وعدم السجود	١٦٤
المبحث الثاني: تكريم بني آدم	١٩٧
المبحث الثالث: كفره ومعصيته	٢١٩
المبحث الرابع: طرده من رحمة الله	٢٣٤

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني: أساليب مكائد الشيطان ٢٤٥
المبحث الأول: أمره بالفحشاء ٢٥٧
المبحث الثاني: تزيين الباطل ٣٠٧
المبحث الثالث: إنساؤه ذكر الله ٣٤٣
المبحث الرابع: وعده ووعيده ٣٥٥
الفصل الثالث: أهدافه الدنيوية والأخروية ٣٦٩
المبحث الأول: الأهداف الدنيوية ٣٧٠
المبحث الثاني: الهدف الأخروي ٣٧٨
الباب الثالث: الوقاية والعلاج من الوقوع في حبائل الشيطان ٣٨٥
الفصل الأول: الوقاية من مكائد الشيطان ٣٨٩
المبحث الأول: مداومة ذكر الله والتعوُّذ من الشيطان ٣٩٠
المبحث الثاني: اتباع الكتاب والسنّة ٤٣٠
المبحث الثالث: الإخلاص ٤٤٨
المبحث الرابع: لزوم جماعة المسلمين ٤٦٢
المبحث الخامس: عدم موالاة الشيطان ٤٨٣
الفصل الثاني: العلاج المباشر ٤٩٩
المبحث الأول: العلاج من السحر ٥٠٠
المبحث الثاني: العلاج من المس ٥٣٩
المبحث الثالث: الإسراع بالتوبة ٥٦١
- فهرس المراجع ٥٧٩
* **قائمة المحتويات** ٥٥٩